جائزة الكتاب للمؤلف السعودي ٢٠١٣

الطبعة الرابعة

عَبده خال

لوعة الغاوية

رواية



لوعة الغاوية

لوحة الغلاف: الفنان خالد الكينعي، اليمن
خطوط العناوين: علي عاصي

عَبده خال

لوعة الغاوية



الطبعة الأولى 2012
الطبعة الرابعة 2013

ISBN 978-1-85516-865-7

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342 بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+

email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى قلب عبده...

أجهدتك كثيراً، فهل تقبل اعتذاري؟

الفصل الأول

دلف للحي غريباً، ووقف أمام مخبز سليمان مروعي سائلاً عن سكن يضم غربته.

طقطقة صاجات الخبز المقذوفة بعضها فوق بعض، وصياح الخبازين بإبعاد المتجمهرين عن لهب الفرن واختلاطها بضوضاء المتهافتين لالتقاط أقراص خبز ساخنة، وصرخات آخرين بالمحاسب. كل هذا الضجيج وأد صوته، فذرف سؤاله مراراً وبمستويات صوتية مختلفة لعله يتلقى جواباً، وفي كل مرة يلقي سؤاله يأمل التفات شخص ما لإجابته. عيناه المشبعتان بكحلهما جذبت جبرانة، فخطفت خبزها من غير أن تقف للحساب، وأحكمت غطاء وجهها، واتجهت إليه مباشرة، جاذبة إياه لخارج الفرن:

– تبدو غريباً عن الحيّ.

هز رأسه متحاشياً النظر إليها مباشرة.

– ما هو اسمك؟

– مبخوت.

– من أيّ البلدان أتيت؟

- من الخوبة...
- أيّ خوبة خيّب الله إبليسك.

قالت جملتها وهي تتضاحك لاستدراجه في الحديث الذي عزف عن مواصلته، ومد خطواته صوب بقالة رجب ساعد، بحثاً عن إجابة لسؤاله، فلحقت به:

- ألا تريد سكناً؟
- بلى.
- اتبعني.

من ذلك اليوم وجبرانة تبحث فيه عن مفتاح لعنوستها المزمنة.

تمر بباب بيته المشرع ذهاباً وإياباً، فتراه متخففاً من ثيابه فتسرق نظرات تتناسب مع عبورها لفتحة الباب، ويتعلق حلمها بالأماني لأن تذرع قامته المديدة يوماً ما.

هي المرة الأولى التي أطالت فيها تغطية وجهها، فقد ألفت السير سافرة بين منحنيات وبرحات الحيّ تبادل الرجال التحايا والسؤال عن الحال.

تتبسط جبرانة مع الرجال ويتبسطون معها، فهي تبحث فيهم عمّن يغض الطرف عن عيبها الخلقي ويعمق النظر إلى شغفها برجل يأوي إلى حضنها كطائر ملت أجنحته من الخفقان طوال اليوم. رغبتها الجامحة في إيواء رجل بين أحضانها تأجّجت وتجاوزت مخيلتها إلى التفكير في كيفية تنفيذ تلك الرغبة. وكلما دنت من رجال الحارة عفوا عن اقتراف هذا الإثم حتى ولو في الخيال.

- سأقبل بأي رجل يتقدّم إليّ وإن كان الكناس مبارك معضل...

تودع هذه الجملة في مسامع صويحباتها وتوصيهن بأن ما تسر به سراً لا يباح ثم تندم على التأكيد سرية ما تبوح به حين لا يأتي أحد طالباً مالاقتران بها.

مُضيّ الوقت وانتظارها الطويل حرّضاها على الإفصاح عن مكنونات صدرها، فعرضت قبول أيّ رجل حتى وإن كان راحلاً إلى قبره أو نائماً بين ثلاث زوجات. ومع عروضها المبذورة في كل بيت لم تفسق أي بذرة منها فأعادت ترتيب خططها مستهدفة اقتناص الغرباء.

كل رجال الحيّ يشيحون بنظرهم عن وجهها متحاشين رؤية فكها السفلي المعوج والكاشف عن لهاتها المدلاة والمبللة برذاذ فمها المتجمع بين فرجات أسنانها المبعثرة على فكيها وعدم انطباقهما. ذلك الانحناء المشين تسبّب بانزواء وانكماش عينها اليمنى.

تصيبها حالة نشوة لمقدم أيّ رجل غريب لعله يقع فريسة قدّها المشوق قبل أن يكتشف عيبها. ومع مقدم الغرباء تحرص على تغطية وجهها جيداً، وتنشط في إظهار فتنة جسدها بلف عباءتها ولملمتها بين يديها لإظهار تقاسيم وانثناءات أعطافها وارتجاج ردفيها متساهلة في إظهار مجرى نهديها المتوترين الرخاميين. ومع مجيء كل قادم تخضرّ أمانيها لأيام قلائل...

– هناك من يكشف عيبي قبل أن أكمل صيدي.

تفصح بهذه الجملة في تجمعات صديقاتها فيتضاحكن ويربتن عليها مستحسنات ظرفها، واستدراجها لتقصّ حكايتها مع القادمين، فتفرط ساردة كل وقائعها وأنواع الفخاخ التي تستخدمها

لاقتناص القادم، وهنّ يتضاحكن ويطالبنها بالمزيد من حكاياتها، وغدون يعرفن مقدم الغرباء من تغطية جبرانة لوجهها.

لم تمسك جبرانة بوصية أمها:

- إذا كرهتِ فحافظي على كتمان سر كرهك.

كان مبخوت آخر قطار يمكنها أن تركب مقصورته، ومع عزوفه الصارم عن مقابلتها أو الحديث معها، فجّرت كرهها بقصقصة سيرته إلى نتف من الحكايات السوداء.

1

ألفت جدتي الوقوف على بابنا الخارجي تمد عنقها صوب الشارع الممتد بين بيوت الحيّ تترقب بزوغ أطياف أشخاص تراقصوا في مخيّلتها ولا تستبين نضوجاً لملامحهم، فهي لا تتذكر سوى ملامح ابنتها أما أحفادها فلا تتذكر لهم ملمحاً واضحاً، وكلما أبطأ مجيئهم تكرّرت وقفاتها على الباب.

جدتي في كل حالاتها باسمة إلا مع أبي حيث تضع كدرها بين جوانحه فلا ينفر منها، ويسارع لاحتضانها ممازحاً:

– أنت تستردّين ديناً قديماً.

لم أكن أعرف أيّ دين يقصده، فضحكته تغلب كلماته، وفعله يغلب قوله، فكلما جاءته عابسة، ضمّها إلى صدره، ولعب بخصلات شعرها البيضاء:

– من كان يصدق أن سنابل الليل تبيضّ هكذا؟

عندها، تضرب صدره مترفقة:

– هل تعيد مقولات أبيك؟

وترسل آهاتها:

– رحل مبكراً، كنت أتمنى أن أسبقه لكنه دائماً يرفض أن أتقدّمه.

في شيبتها كتبت عليها اللوعة، رحيل جدي، وابتعاد ابنتها وأحفادها عنها، وغياب أبي المستمر، فلا تعرف أي الجهات احتوته.

هي ملتاعة على الدوام...

– أبوك كالريح حيّ في المكان الذي هو فيه.

تقرّبني إليها، وتتشمّم أسفل رقبتي:

– تحملين رائحة جدك. رائحة تسكنكما ليست في أحد من عائلتي.

في ليالي الصيف تأنس الجلوس على سطح منزلنا، فبعد أن تهيّئ «شيشتها» ومتّكأها، تدندن بأغانٍ ضمرت في الذاكرة، وحين يستعصي عليها إكمالها أو يسقط رتمها، تتأفف وتشتكي أنها غدت تنسى كثيراً.

في تلك الليلة الماطرة مدت عنقها مترقبة كالعادة. وحين خالجها الارتياب قفزت إلى مخيلتها صور لم تحبّذها، فأرادت محوها بالدعاء:

– اللهم بلغ الأحبة مقصدهم سالمين.

توتر قلقها مع هبوب ريح ثقيلة، فعادت إلى داخل البيت ساخطة على أبي واصمة إياه بالطائر الذي ابتنى عشاً في غير موضعه، تلميحاتها هذه ألهبت مشاعر أمي المستفزة على الدوام:

– لو لم أكن بلهاء لما ارتضيت له أن يبني بي.

ضحكة جدتي المعلقة على فمها، أغرت أمي بمواصلة عدائيتها بحثاً عن أي شرر يؤذيها.

وعندما مضت تلك الليلة الفاجعة لزمت أمي سجادتها مستغفرة لذنبها و لم تعد تلتفت إلى شيء سوى الركوع الطويل وذرف الدموع.

وجاءت قصتي لتؤكد لها أن عليها تسديد فاتورة ذنوبها، فالتصقت أكثر بسجادتها قانتة مستغفرة.

تلك الليلة الماطرة لا يمكنها أن تذوب في مخيّلتي كما ذابت عشرات الحكايات في ما بعد.

ليلة غائرة في الذاكرة إلا أنها مقيمة، ووصفها يحتاج إلى بلاغة الإدهاش، وكل ما مررت به في حياتي يتواضع أمام تلك الدهشة إلا أن مقدرتي الحكائية تفقدني ميزة ترك الأثر في عمق السامع لها... تمنيت لو أن لي مقدرة جارتنا رباب القيسية، فما ترويه لا يخرج من البال حتى لو اضمحل الحدث بفعل توالي الأيام.

ليكن ذلك، فمع عجزي عن تجسيد هولها إلا أن بقاء أحداثها ساطعة مشرقة في مخيلتي يعني أن الزمن لم يغطش ليلها...

ليلة تشارك الريح، والليل، والمطر، والدخان والفقد في تثبيتها...

قالت أمي: ربما يأتون الليلة...

حملت جملتها أماني مضمرة أن لا يتحقق المجيء، ولم أكن أعرف مصدر قلقها هل هو نتاج الوضع الذي كنا فيه أم رغبة أصيلة تسكنها في رفض استقبال كل ما يمتّ لأبي بصلة.

كانت أسرة عمتي على موعد للوصول إلى جدة، وهو موعد ضرب من السنة الفائتة لم تثبته عمتي إلا بشرط مسايرة أبي لها لأداء العمرة (حدث هذا قبل أن يختفي أبي).

ولدت في هذا الحيّ المقابل لقصر الملك سعود. حيّ تراكمت بيوته كعلب المتاجر سيئة الترتيب، ولم تتكحّل عيناي بحقول الذرة والحنطة التي ترد على لسان جدتي أو أبي كلما جرفه الحنين إلى مرتع صباه، أو إذا نشبت بينه وبين أمي مفاخرة الاعتداد بمهنة أجداده مقارنة بجذر عائلتها المنحدرين من أسرة متسببة لا مهنة لهم سوى بيع السلع البسيطة والجلوس أمامها في الأسواق الخربة. وإذا أخذه الزهو عالياً وصف أسرته بأنها تنحدر من سلالة ملوك قبضوا على تراب الأرض في غابر الأزمان.

حين يصل إلى هنا تنفرط ضحكات أمي المستهجنة والمقبحة لسيلان شهوة حديثه في ما لا ينفع.

وفي أحيان كثيرة تترك أحاديثه معلقة بين سنابل الحقول، وتمضي لإكمال واجباتها اليومية بالتقاط ملابسنا من على حبل الغسيل وكيّها أو إعداد وجبة العشاء، هذا قبل أن يداهمنا النوم ونحن نتنقل

بمسامعنا بين أحاديث أبي وما يبثه التلفاز من برامج يصفها أبي بالمملة حين نبدأ بالعزوف من مواصلة سماع حديثه عن أسرته الممتدة في أضلاع الأرض.

وفي كل مرة يستحث همّة أمي من أجل زيارة قريته تماطل في تلبية طلبه وتدعوه لأن يكبح رغبته ريثما تطري صلابة مكابرتها وتقبل أن تذهب إلى قرية ليس بها دورة مياه.

احتقار امي الدائم لقرية أبي انتقل إلينا نحن أبناءه، فكلما حزم أمره لزيارة أخته وأعمامه تقاعسنا وأفشلنا ترتيباته بوعود مؤجلة، كما تفعل أمي تماماً.

أظن أن خاطره ينشرح لهذا التعكير المستمر، فإلحاحه على زيارة قريته هو حبل لجذب استرضاء أمه وإخماد جذوة لوم داخلي تحرّكه السنوات الطويلة التي انقطع فيها عن زيارة أهله هناك. والحالتان يمحوهما بحجة عدم القدرة على ترك أبنائه والسفر بمفرده... ويعالج غضب جدتي بوعود كلما حان موعدها تملص منها ولجأ إلى عذر رفض أبنائه مرافقته.

كنت أرى أهل قريته يتقاطرون علينا في فترات محددة ومنتظمة من العام وتحديداً في أشهر الحج والمحرم، وأبي يعلل توافدهم في شهر محرم تفسيراً يستبطن فيه السخرية:

- إن أهالي الجنوب يشدون رحالهم إلى مكة المكرمة ليقضوا أياماً من شهر المحرم يغسلون فيها ذنوبهم المستعصية، لعل الاستغفار يذيبها، ويعودون إلى ديارهم متخففين من المعاصي وكأنهم يلحقون بالمغفرة التي انسكبت على الحجاج.

في أوقات كنت أستشعر الضغط الذي يجده أبي من الحجاج والمعتمرين النازلين في ضيافته، فقبل أن يصلوا إلى قريتهم عائدين يكون هناك وفد قادم. دهكوه ذهاباً وإياباً، فأخرج غضبه ذات مرة مخاطباً جدتي:

- وهل يظن أهلك أن بيتي هو ميقات يلملم؟

فتظهر له حزماً غليظاً: استح... هم ضيوفك.

الكائن الوحيد السعيد بمقدم عمتي هو جدتي، فهي سترى ابنتها وأحفادها الذين انقطعت سبل تواصلها معهم منذ أن استقر مقامها في الحجاز، واقتصر تواصلها مع ذويها على الرسائل وإيصال السلام والهدايا مع المسافرين.

- ستكون ليلة ماطرة، أدعو الله أن لا يأتوا...

تركت أمي جملتها في مسامعنا و لم تجد تعقيباً، حيث انشغلت جدتي بقص أوراق التبغ التي جلبتها من سوق «اليمنة».

تبدّى تقلقل أمي جلياً من قرقعة الرعود ووميض البروق، فهي لا تستقر في مكان، تحوم في أرجاء البيت من أجل سد الثغرات التي تتوقع أن يداهمنا منها الماء. قصف الرعد المتلاحق حرّك توجسها فاستشعرت بالخطر الداهم، وسارعت إلى غرس خِرق بالية بين فرجات الأبواب والنوافذ، وهي وجلةً مما سال في مخيّلتها من صور محتملة:

- إن لم يرحمنا الله فسنغرق هذه الليلة.

تلقت هنهنة تهوين من جدتي التي لا تحمل سوى الاستسلام لما سوف يحدث، فالقادم لا تعيره اهتماماً. برودة ردود جدتي أحرقت

أعصاب أمي، فانقلب صوتها صائحاً بي وقاذفة باتجاهي لفاف من أقمشة بالية:

- يا فتون، خذي هذه واصعدي أنت وإخوتك للسطح تفقديه، فإن وجدتِ فرجاً فسدّيها بهذه الخروق، وضعي سطولاً وأواني فارغة لتقلل من تغلغل المياه بين دعائم السطح.

انشغلت جدتي بترطيب ورقات التبغ وتبليلها في إناء نحاسي، جلبه لها جارنا «خلوفة» من رحلاته المكوكية لإثيوبيا. كنت أشاركها قص أوراق التبغ ومن ثم تبليلها في إناء أوقفته لهذا العمل. توفر أوراق التبغ أهم شيء تحرص عليه جدتي كي تسعف مزاجها قبل أن يصل إلى حالة العطب. صوت أمي الصارخ جعلني أقذف ما في يدي كي انتقل للسطح قبل فورة غضبها المعتادة، ومع استجابتي المستعجلة لصياحها جذبتني جدتي من فستاني القصير:

- قبل صعودك، اجلبي غالون الكاز وكيس الفحم من «المنور» كي لا يبلله المطر.

قفزت أمي من أمام النافذة المطلة على الشارع بعد أن ملأت فجواتها بالاقمشة:

- ألا ترين ما نحن فيه، وأنت تبحثين عن الفحم والتنباك.

فأطلقت جدتي ضحكتها القصيرة: وهل تريدينني أن أصعد لتلقي زخات المطر بدلاً من أوانيك الفارغة؟

- أنت هكذا، خاطرك منشرح على طول.

غادرت وجهيهما وأمي تبحث عن شجار يقلل من انفعالها المتزايد.

أظلمت السماء فجأة ودخل الليل مبكراً باسطاً ظلمة غريبة، جابهها وميض برق في محاولة للفتك بزهوها وغطرسة سطوتها المنداحة بين جنبات الحيّ، ونهضت قرقعة هزيم رعد ارتجت منه قلوبنا مبقياً خوفاً من انهمار المطر على الرقعة اللينة من بيتنا. تناثرنا، أنا وإخوتي، في توزيع الصحون والسطول الفارغة على مساحات متقاربة من سطح بيتنا المتداعي كي تكون مصائد تقلل من انسكاب الماء بين الشقوق المتولدة من نفور دعائم الخشب نتيجة خلطة الأسمنت السيئة الإعداد.

كان عملاً هيّناً وأقل جهداً مما تفعله أمي التي انتقلت إلى صيانة المزاريب وتسليك فتحاتها بقضيب معدني وتجريب مجاريها بدلق الماء من فتحاتها.

تقاطع البروق الحادة دفع رجال الحيّ للتناصح والخروج لوضع سدود رملية أمام مداخل الحي من الجهات الشمالية الشرقية الحاملة لمياه سيل وادي الكراع، تحسباً لفيضان الوادي وجريانه إلى داخل الحي بدلاً من الوصول إلى البحر تفادياً لما حدث في العام الفائت.

هذا التواصي قابلة حثّ، من قبل أمي، وتأكيد على سد الشقوق الكبيرة في سطحنا المتهالك. جارنا ميمون سبق الجميع في تحرزه ووقف أمام بيت الحمام يجمع أنواعه النادرة وينزلها متخذاً من غرفة نومه مكاناً آمنا لحمامه...

نزلت أشتكي من آلام جرت في آخر فقرات ظهري بسبب انحناء جذعي وأنا أثبت عدّة أوانٍ في مواقع مختلفة من السطح. قابل توجعي استخفاف جدتي:

– أي أوانٍ تثبت وهذه الريح تقلب كل ما هو أمامها؟

استرخيت بجوارها، فأبدت امتعاضاً من تقاعسي واسترخائي المتألم جاذبة جديلتي ومعنفة رقدتي:

– ما بك غاضبة يا جدتي؟

– قلة حيلتك في تدبّر الأمور ونسيانك لأوامري دوماً...

– أي أوامر يا جدة؟

– ألم أقل لك اجلبي الفحم كي لا يبتل؟

– حسناً، سأنهض حالاً وأجلبه لك لكن هذا لا يغضب، فما الذي أغضبك؟ أخبريني.

وكأنها كانت تنتظر هذا السؤال بفارغ الصبر فلم تماطل في إجابتها كالعادة:

– أمك.

وصمتت للحظات فحفزتها على مواصلة حديثها:

– ما بها أمي؟

– أمك لا تحبّني، وهي دائماً......

هزيم الرعد المتعالي وانهمار المطر فجاجاً أسكتا حوارنا، وأبقيانا في حالة تسبيح وذكر ودعاء.

* * *

انهمر المطر لساعتين متواليتين، فكشف عورة المنازل، وجرت المياه من كل صوب متغلغلة في ثنايا الحيّ ومعطلة حركة الحياة به كاستجابة للأيام التي سكن فيها الدعاء في أفواه اهل الحيّ طلباً للغيث.

خلال انصباب المطر كانت أصوات الاستغاثة تصل من أماكن متفاوتة استجاب لها رجالات الحيّ بحمل الفؤوس والكريكات لإبعاد تدفق المياه عن البيوت المنخفضة وتصريفها باتجاه الصهاريج القابعة في جنوب المدينة.

وانتهت الإغاثة بمقتل اثنين، أحدهما جراء تماس كهربائي، والآخر بسبب سقوط شرفة عمارة الحداد على هامته مباشرة.

مبخوت كان الاسم الاكثر تداولاً على ألسنة الرجال والنساء، فقد أنقذ طفلتين وخبّأهما في منزله إلى أن جفت زخات المطر... وأعادهما إلى ذويهما في حالة يرثى لها.

الطفلتان هما: طاهرة عماري، وعبير مساوى.

بعد هذه الحادثة أصيبت طاهرة بالخرس و لم تنطق بكلمة واحدة. وفي نفس الشهر غادرت عبير مع ذويها إلى مدينة حفر الباطن استجابة لطلب أبيها الذي تقدم به لنقل عمله إلى هناك أو أي جهة في الكون. و لم يعرف أحد ما الذي أصاب طاهرة وتسبّب بقطع أو تراخي حبالها الصوتية.

كل ما يحدث لصبايا الحيّ يكون مبخوت خيطاً رفيعاً في حكاياتهن.

الفصل الثاني

– من فعلها؟ مبخوت نفسه.

فم أبكر سالم يدلق كل ما سمعه من زوجته في أذن صديقه عباس طربيه بعد أن ثقب بالخبر ذاته آذان أعيان الحي من ليلة البارحة وفرغ يومه من أجل استكمال توزيعه على بقية الرجال. أعاد عباس كوفيته المخروطية للخلف مستصيباً مما سمع ومستجيراً بالله:

– الكلب لم يبق على شرف أيّ بنت في الحيّ؟

– إيه والله، اعتدى على عشرات الصبايا الصغيرات وقطف شرفهن من غير أن يفطن أيّ منّا لأفعاله المشينة، ولولا حكاية الطفلتين اللتين ادعى أنه أنقذهما من المطر لما اكتشف أمره.

– قاتله الله، فعل كل هذا ونحن نيام عن خبثه.

جرفت صوتيهما حركةُ القادمين من الشوارع والأزقة الخلفية بدمدمتهم وفورة غضبهم وتواصيهم على تقطيعه إرباً إرباً.

ظهيرة حارقة، نصبت فيها الشمس نفسها جلاداً ترغب في الحصول على شهادة احترافها في عملها، فكسبت ذلك بتصريح الكبار من أهل الحيّ بأنه لم يمر بهم يوم حارق كهذا اليوم، وظهر

أثرها بنفير الشوارع بعضها من بعض كي تتخلص من فوح الهواء اللاهب، وتجردت البيوت من نوافذها المغلقة، وسكبت المياه على الرؤوس وبللت الثياب والغتر وألقيت على الأجساد الباحثة عما يطرّي جلودها من حرقة متعالية، ووقفت الأمنيات على عبور نسائم تكنس ضيق الأمكنة.

جو هالك لم يكن يسمح بكل هذا التجمع إلا أن الحدث جعل سكان الحيّ يتوافدون من زواياه وبراحاته وأزقته، ليشهدوا الواقعة...

لا يعرف المجتمعون تحديداً من هنّ الصبايا اللاتي فقدن بكارتهن على يدي مبخوت، وإن علقت على ألسنتهم طاهرة عماري وعبير مساوى.

في البداية كان الأمر سراً مقصوراً على النساء، يتناقلنه في جلساتهن بخفية والتحرّز على سمعة بناتهن من أن يلحقها أذى، وكل أم توصي الأخرى بمنع ابنتها من الاقتراب من بابه.

جاءت سيرة طاهرة وعبير كضحيتين متأخرتين لنهمه بالصبايا الصغيرات، ولم يكن الحديث يكشف صراحة عنهما إلا أن التورية تشير إليهما دون سواهما حين يقال فتاتي المطر.

جيرانة أقسمت إنها رأته أكثر من مرة يعبث بمفاتن الصبايا الصغيرات، ويقودهن إلى داخل داره قبل زواجه وداوم على ذلك بعد زواجه، حيث كان يستغل خروج زوجته للسمر أو المؤانسة بزيارة الجارات وحضور المناسبات، ليقوم بأفعاله الدنيئة، وحين يكون مجلس النساء ليس به امرأة لها طفلة لا تزال تلعب في الشارع تتجرّأ جيرانة في سرد أسماء الصبايا اللاتي قرضهن مبخوت وترك

مسماره مغروساً في شيئهن أو إليتهن.

لم تتجرّأ امرأة على إخبار زوجها أو عائلتها بما سمعت خشية من التفاف ظنونه حولها مثل شرنقة تقتلها خيوطها، واكتفت كل منهن بإجبار ابنتها قسراً على الاحتجاب حتى وإن كانت لا تزال في سنواتها الأولى.

فجأة جفت الشوارع من الصبايا و لم تُر أيّ طفلة تحوم بين الأزقة أو تخرج للتبضع أو تطل من باب أو شرفةَ أو نافذة. كل صبايا الحيّ اتشحت قاماتهن بالسواد في حبور يشعرهن بأنهن غدون فتيات...

هذا الغياب للصبايا تنبّه له الجميع وأولهم مبخوت.

– ما بال الصبايا احتجبن دفعة واحدة؟

ظل هذا السؤال يحوم بين الرجال من غير جواب شافٍ يفسّر الاتشاح الغامر الذي كسا أجساد الصغيرات من بنات الحيّ حتى تحوّل إلى هاجس في أذهان الفضوليين يبحث عن الطمأنينة.

انفرج السر مع تعنّت أبكر سالم من الاستجابة لطلب زوجته بإحضار ثلاث عباءات لبناتها الصغيرات، وكاد يمضي في تعنّته بعيداً لو لا صعق زوجته له بجملة قوّضت صلابة تعنّته:

– وهل يريحك أن يفقدن بكارتهن؟

– يفقدن بكارتهن... هل جننت يا مرة؟

وانفرطت تخبره بما يدور من أقاويل في مجالس النساء.

اشتعل غضبه وهو ينظر إلى صغيراته القابعات أمام شاشة التلفاز، مريقاً على رأسه زجاجة ماء بارد لشعوره بدوار مفاجئ داهمه، و لم يستطع البقاء في مكانه فخرج يوزع ما سمع على مسامع رجال الحيّ

واحداً واحداً، طالباً إغاثة صبايا الحيّ قبل عقرهن جميعاً فلا تصل فتاة إلى بيت زوجها ممسكة بأمانتها.

وما إن وصل الخبر إلى مسامع جابر الأعمى حتى نشط وجرت في أوردته خصومات الأمس، فحمل عصاه ليتقي بها من الاصطدام وخرج مؤلباً رجالات الحارة ناصحاً واعظاً بصوت متهدّج يقترب من البكاء ومنادياً على أعيان الحارة بأسمائهم، وكلما حدّث أحداً رمى عمامته باتجاه صوت محدثه:

– سألتك بالله أن تغيثنا من هذا الفاجر. لو كنت مبصراً لأكلته بأسناني.

ومع انتشار الخبر تداعت كل الحكايات التي كان يقوم مبخوت بفعلها من أجل تعزيز يقينهم بأنه كان يصنع شراكه لبناتهن أمام أبصارهم.

وصل النبأ إلى إمام الجامع الكبير أبكر عيسى، وفي يوم الجمعة نزلت كلمات خطبته كمطارق لا تبقي ولا تذر...

لعن من يؤوي ضالاً أو يستر منحرفاً أو يسكت عن فاحشة بيّنة.

تقبّل المصلون كلماته الحارة بالرضى وأُسكت خليل المسلكي حين ذكّرهم بماضي الإمام قبل أن ينساقوا لتهمة لم تثبت بعد.

لم يشأ أحد من رجالات الحارة تذكيره بماضي الإمام البعيد المثبت في صدورهم ببقائه داخل سجن الرويس ثلاث سنوات عقاباً له لاعتدائه على زوجة جاره. لم يشاؤوا هذا فقد أيقنوا أن توبته محت كل معاصيه السابقة.

لم يعد أمر تحرّش مبخوت بالصبايا خافياً على أحد إلا هو، فقد

احتجب عن مجالستهم أو الصلاة معهم منذ زمن...

مجيئه إلى الحيّ كان مريباً لهم، فبقي جاثماً على صدورهم كالهواء الثقيل. ومع التنقيب من أين جاء أمسكوا بطرف معلومة تهامسوا بها وقرروا إبعاده عن مسجدهم، منتدبين المؤذن مصلح ليفهمه أن وجوده داخل المسجد غير مرغوب فيه، ومع دخوله ورفع يديه مكبّراً بتكبيرة ركعتي تحية المسجد، داهمه مصلح بطلب الخروج، و لم يطل الحوار بينهما، فختم المؤذن طلبه:

- أنت زيدي وهذا يكفي أن لا تصلي معنا.

أيام لم تتجاوز الشهر من واقعة إخراجه من المسجد اكتسب فيها هيبة مفاجئة مكنته من مخالطة جميع أهالي الحيّ واستقباله بحفاوة مبالغ بها بقي عليها حتى بعد أن غاب عن أداء الصلاة معهم وعن مراكز تجمّعاتهم. تلك الهيبة المكتسبة تلقفها الجميع بالحذر من إغضابه.

ومع انتشار خبر عبثه بالصبايا الصغيرات ثارت كل النفوس عمّا استكانت عليه، وهبوا هبة رجل واحد. الشرارة التي جرت في أوردتهم جاءت من ميكروفون المسجد حين زأر خطيب المسجد أبكر عيسى في خطبة الجمعة بكلمات تحريضية موصياً بإزالة المنكر باليد، فما حدث لا ينفع معه قول أو قلب.

تلك الخطبة حوّلت الرؤوس إلى مراجل تغلي، وبعد انتهاء الصلاة انسل نفر من أعيان الحيّ من أجل عقد اجتماع سري انبلج عن قرارهم الذي استجاب الحيّ مجتمعاً إلى ضرورة تنفيذه.

في صباح السبت لم يذهب أحد من أبناء الحيّ إلى عمله، ما

حمل صابر حسن على تجريب ظرفه:

- نُسبِتُ من أجل هذا الفاجر وكأننا يهود.

فأسكته طلال الحربي بإشارة من يده وهو يهف على وجهه بقطعة كرتون اقتطعها واقفاً من كرتون كبير جمع فيه بيضاً فاسداً...

أبدى أحمد منصور قلقاً من إفشال إخراجه بالقوة:

- لو بلغ الشرطة عن تجمعنا حول بيته.

صمت المحمحمون وكأن غضبهم الفائر دلق عليه ماء بارد، لو لا رأي جاء من أحد شباب الحيّ أعادهم إلى فوران حميتهم:

نجتمع عليه ونقتله فلا يُعرف من فعلها.

هاجت الأصوات مؤيّدة، وتدافعوا بأجسادهم وهم يخلعون أقدامهم من الشوارع لإيصال خطواتهم المتسارعة إلى موقع بيت مبخوت مظللين بغبار تصاعد من جرجرة ممشاهم، فاحتبس الهواء.

تباشير الجوّ الخانق نزّت مع ذلك الصباح ليظهر كامل عمر دراية بتلوّن الطقس:

- هذه بداية السنبلة، ولا أظن أننا في هذا الجو قادرون على إخراجه بما يليق بفجوره.

تلقف جملته جميل عبده مستهجناً ومردّداً:

- السنبلة؟!

وأردف: وما أدراك أنت بالسنبلة أو الدقيق؟

وتضاحك مستهجناً ادعاء كامل بما لا يعرف، و لم يجد لاستهجانه حفاوة فتبادل النظر مع كامل عمر الذي كظم غيظه مؤجلاً الرد عليه في مناسبة تصفو فيها الأذهان وتُقبل على الطرفة.

احتدام اللغط في تأجيل إخراج مبخوت من بيته قابله رأي صارم من عمدة الحيّ:

– على العكس تماماً، فإخراجه في هذا الجو القائض هو التنكيل بعينه.

جاء جابر الأعمى من أقصى الحيّ يتلمّس طريقه بعصاه ذات القرن المعكوف، يسبقه حبوره الطاغي:

– أنا أول من اكتشف دناءة هذا الرجل وسفالته.

وكلما قرب من تجمع نقطة الانطلاق زاد سكب الأقاويل المثيرة، وتهيّج السائرون بما لا يقال.

وعلى رأس زقاق المستعجل كان موعد التجمّع، وهي النقطة التي اقترحها جابر معافى لإخراجه لكون تلك جهة ضيقة تمكن الباصق من إيصال بصاقه أو يده إن شاء.

جهزوا كل شيء، فقد أحضر محمد يونس سيارة لنقل العفش، وتحرك أحمد يوسف لإخباره بقرار أعيان الحارة إجلاءه مع التأكيد على إضرام النار به وحرقه داخل بيته إن لم يغادر الحيّ قبل أذان العصر.

كانت ظهيرة حارقة تخرج الناس من جلودهم، وتعامدت أشعة الشمس على الرؤوس، ما دفع البقال يوسف الكبش إلى توزيع مياه مبردة مجاناً. وزاد في تعاونه بتقديم المشروبات الغازية لأعيان الحارة تقديراً لمقاماتهم، ما جعل فعلته مجال منافسة من بقية البقالات المنتشرة داخل الحيّ، و لم يجد الخضرواتي عبده حسين ما يقدّمه فاقترح على الشباب تزويدهم بالخضروات المعطوبة من أجل قذف الفاجر الزنيم (أخرج مفردة الزنيم من فمه بشكل مضحك). هذا الاقتراح قاد

البقالين إلى توزيع أطباق البيض وعلب الملح وأكياس الدقيق لرجم الفاسق الزنيم.

عندما استكملوا إعدادهم لما نووا عليه، بدأ الزحف بجلبة وحمحمة لم يعهدوهما من قبل. اختناق الجو وتلبّد الهواء حملا خالد أحمد على اقتراح التأجيل مرة أخرى:

– لو أخرنا زحفنا إلى العصر حتى تخف حرارة الشمس.

فنهره جابر الأعمى بغلظة:

– أنت ليس لديك بنات فلا تثبط عزمنا وعد إلى بيتك ودعنا ننجز مهمتنا.

– وأنت هل لك بنت حتى تخرج بهذه الحمية، أم هي فرصة من أجل الانتقام.

هذا الرد تقطع بين الجموع المتحركة استجابة لنداء إزالة المنكر. ومع تعالي وطأة ذلك الجو الهالك تدافع الرجال واحتشدت بعض النسوة في مواجهة بيت مبخوت ينير الغضب أصواتهن:

– أخرجوا هذا الفاسق من حيّنا.

انفرج بابه قليلاً، فتصايحت الأصوات وتسابقت الأيدي لرمي البيض والخضروات المعطوبة.

أوصد الباب مرة أخرى، فارتفع الهياج والصفير، وتعالت صيحات التنديد مصحوبة برشق الباب بالبيض والحجارة، وبالغ إمام الجامع الكبير أبكر عيسى في التقدم إلى بيت مبخوت وقرعه بحجر حمله في يده:

– إن لم تخرج فسنحرقك في الداخل.

شعر خليل المسلكي بالغيظ مما يحدث و لم يستطع سوى مهادنة المجتمعين وأقبل على الأعيان مذكراً إياهم بنخوة أبناء الحارة وشهامتهم، وأن يسمحوا له بالتفاوض مع غريمهم على الأقل للسماح لزوجته بالخروج آمنة، فوافق الكثير منهم على اقتراحه وسمحوا له بالتقدم وزوّدوه بشابين لحمل متاع مبخوت، وطلبوا من جميع المتجمهرين التراجع للخلف، فتحرك خليل المسلكي إلى الأمام وقرع الباب رافعاً صوته:

– يا مبخوت جئت لإخراج متاعك وزوجتك ولك عهد الله أن لا تضار.

من عمق الدار خرج صوته الجهوري مخترقاً أسماع المجتمعين:

– يكفي أن تصونوا زوجتي.

– لك هذا.

انفرج الباب ودلف منه خليل المسلكي تبعه شابان غابا في صحن الدار للحظات وخرجا يحملان حقيبة وحيدة، وهرولا بها في اتجاه سيارة الشحن معلنين أن مبخوت لا ينوى حمل أغراض بيته ويفضّل الرحيل بسيارة أجرة بدلاً من سيارة النقل.

الأعمى جابر معافى كان صاحب الصوت المتعالي:

– دعوا زوجته ترى ذله وإن كنت أقترح أن تطليقها واجب علينا، فمن العار أن نبقيها مع منحط كهذا.

اعتلت الضوضاء المكان فلم يصل اقتراحه إلا لنفر جاوروه و لم ترقهم دعوته:

– عيب أن يحدث هذا ونحن مجتمعون.

بزغ وجه خليل المسلكي من فرجة الباب واضعاً يده على ذقنه متطلعاً صوب المتجمهرين وصائحاً بهم:

- هل ترضون أن تخرج زوجته وعيونكم مبحلقة هكذا... استروا عرضه على الأقل.

وكموج مرتد، تراجع الجميع للخلف قالبين وجوههم باتجاه الجدران، وانسحب البعض إلى خارج محيط البيت كلياً.

عاد خليل إلى الداخل متعهداً لمبخوت بأن زوجته ستخرج بسلام:

- زوجتك الآن آمنة، اخرج معها.

- وهل تقبل عليّ أن أتخفّى في جنح امرأة؟ والله لا يحدث هذا أبداً ولا أخرج إلا منفرداً وليحدث ما يحدث. فقط وصيتي أن تصون زوجتي يا خليل لو حدث لي مكروه.

- سأعود لاصطحابك.

خرجت زوجته تخطو خطوات مرتبكة عجلى خلف ممشى خليل المسلكي وقد تشاغلت أعين المجتمعين عن مسارها بتقليب أبصارهم بعيداً عن خطواتها، فكل الوجوه المجتمعة صدّت نظرها واشتغلت بالتحديق في اتجاهات بعيدة عن ممشاها.

وقبل أن تمرق إلى منتهى أمانها كان مبخوت قد خرج صائحاً بالمتجمهرين:

- لا أعرف سبب غضبتكم لكن هذا أنا.

وفي لمحة كان جسده «مرمى» للبيض والملح والدقيق والخضروات، ولم تفلح عجلة خليل المسلكي في إيابه من اللحاق به قبل خروجه لتغطيته مما لحق به، إلا أنه وصل إليه قبل ولوجه من فوهة الزقاق

الضيق فشاركه التهم والرشق محاولاً تغطية مبخوت بقطعة كرتون تناولها أثناء ركضه لنجدته وصوته يتعالى برجاء المتجمهرين الكف عما يفعلون.

في هذه المشهدية الصاخبة لم يتنبه أحد أن الطفلة فتون خرجت خلفه مباشرة ومن نفس بوابة بيته الخضراء دامعة، ملثوثة الشعر، وخيط دم يجري بين فخذيها، وهي تهرول بمحاذاته.

في ذلك الهرج والتسابق للنيل منه لم يكن وجود طفلة لافتاً لأحد، و لم يكن ليسمع صوتها الباكي، أو انشغال يديها بحثو التراب في اتجاههم ورفع خصلات شعرها المبعثر ومسح دموعها وهي تجاهد لأن تصل إليه، وفي التفاتة منه رأت عيناه تلتهمانها وغابت قامته بين السواعد والأذرع الممدودة لصفعه أو حثوه، تلك الأذرع التي استبسلت للنيل منه، فبقيت التفاتته عالقة في مخيّلة فتون بقية الأيام الطوال وهي تسترجع خروجه المخزي.

3

أنا فتون بنت قاسم بن عثمان بن عبد الله الناشر، الطفلة التي بزغت من فرجة باب مبخوت يوم أن طرد وتبعت خروجه، وما زلت أتبعه إلى الآن.

مبخوت أسقط سقف حياتي ومضى بعيداً، ولا أحد يتذكر أدمعي التي سفحتها خلف ممشاه. الكل يتذكر ما فعله أو ما شارك به في يوم طرد مبخوت، وقد تعدّدت المشاركة في ذلك اليوم من: إلقاء حجارة أو بيض أو ما أخرجته الأفواه من شتائم أو بصاق... لا أحد يتذكر ركضي خلفهم شعثاء الشعر حافية القدمين مكسورة الخاطر.

ولدت في مدينة جدة في أول ليلة من شهر المحرم من عام 1400 للهجرة، وهي الليلة التي اجترح فيها جهيمان قدسية الحرم المكي، ويبدو أني خرجت إلى الدنيا مع انبعاث الخطيئة، فكل جرم عظيم يولّد بذوراً تعمل على إبقاء جيناته حيّة لا تنقرض...

وجريمتي هي الحب، فأن تحب امرأة في هذا المجتمع وتعلن عن حبها، فصفتها الفاسقة وتكون قد فتحت على نفسها أبواب جهنّم ولن تستطيع إغلاقها مرة أخرى.

حين داهمتني فكرة اقتران نجم الخطيئة بالأحداث العظيمة التي تسطع في حياتنا أخذت أتعقب المواليد الذين شاركوني الخروج في ليلة احتجاب مكة واحتلالها. جدتي أكدت أني الوحيدة التي بزغ نجمي في تلك الليلة، وأن أرحام نساء الحيّ انقبضت إلى ما بعد السابع من شهر المحرم إجلالاً لمقدمي.

هي تحب المزاح كما تحب العفو. لم أسمع أنها أمعنت في خصومتها مع أحد، ويقينها من انقباض أرحام النساء كان مزحة لاسترضاء زهوي أحياناً، وأحياناً إشارة إلى جرأتي في إحداث ما لا يتوقع من صبية صغيرة، لكن خالتي تؤكد أن يونس إبراهيم ابن سلفة زوج أختها ولد في نفس الليلة إلا أنه مات قبل أن يكمل عامه الثالث حين غص بقطعة لحم ازدردها من غير هضم.

تنعتني الكبيرات من نساء الحي بالضآلة، وبجوار هذا النعت يعلقن على سيرتي أوصافاً معكرة كحال أمزجتهن...

حملت نعوتاً مشينة. في مسيرتي كنت أصلصل بالنعوت الصاخبة وكأني دابة علقت بها أجراس من مختلف الأنواع، تذكرني بضآلتي دائماً، وكلها أوصاف لم تردعني عن لهفة الوصول إلى مبخوت...

أبشع نعت حملته «الفاجرة» - سعيت إلى تخفيف ظلامية نعت نعتوني به - كان أكثر فجوراً وأقبح من النطق به -، وهو النعت الذي التصق بذهنية الرجال فلهث كل منهم للولوغ من إنائي.

ياسين غاير لهاثهم فبقي سنوات يبحث عن منفذ يدخله إلى قلبي. بكى كثيراً بحثاً عن كلمة أرطب بها لظاه، وقد أبعدني عنه أنه خؤون لعمّه.

ياسين جاء متأخراً كثيراً.

كنت ابنة الثانية عشرة آنذاك حين دخل الليل يجر معه سحباً ثقالاً تتفطر عن بروق حادّة لها وميض تغشى له الأبصار، سبقتها ريح جامحة خرج أزيزها كعواء كلابنا الضالة التي تعوي ليلاً بين منحنيات الحيّ من غير أن تهتدي...

هل قلت تهتدي؟ آه، الاهتداء هو المعضلة الأزلية التي تقلقنا، وتمضي حياتنا بحثاً عن مرتكز نتوهمه الصراط، فكل فعل نقوم به يتأرجح بين الضلال والاهتداء. أمقت من يقول إنه مهتدٍ أو يقال عنه. فلا أحد منا قطع الصراط في دنيّته لكون عبوره نتيجة، فمن ذا يتسلّم نتيجته وهو ما زال في قاعة الامتحان؟

– كل منا له ضلالته!

هذا ما وقر في نفسي ووطدتها عليه، فأمسكت على ما أنا عليه من ضلال. كنت أمنّي النفس بالوصول إلى مبخوت في زمن ما لأنهي ضلالتي باليقين، فضلال العشق كضلال الكفر. شيء ما يحجب الطريق وتظل تُعلل النفس بأنك على هدى، والضال عن الطريق لا تزيده سرعته إلا بعداً...

أهجس به في كل حين وأردّد اسمه في جنبات الأرض ولا أجده. أعتقد أني أزداد بعداً في العتم.

تهت في أيام عمري مبكراً، فمنذ الطفولة الأولى وقعت في شراكه، مثل فراشة باهية الألوان. وقعت في يد باحث تفرّغ لجمع المفارقات، فألصقها في كراسة بحثه، ونسي أن يدوّن أسفل منها نوعها، وفصيلتها، وبيئتها. وحين اجتاز مقرره الدراسي، قذف بكراسته في خزينة كتب مهملة، فغدت فراشة جافة، تيبست أعضاؤها وجف منها كل شيء إلا عمودها الفقري أبقى على فصيل ضلالتها...

منذ تلك الطفولة، وأنا تائهة لم أهتدِ إليه...

كالخطوط الصفراء المثبتة في دفتر قديم، أقلب أيام حياتي. لا شيء فيها يبقى سوى كلمات تحمل فنائي.

في كل زاوية تركت له كلمة شوق، ولوّنت حياتي بحبّه. سرت شوطاً بعيداً في صحراء بعده، ضامئة إليه وكلي جفاف ينتظر أن يبللني بكلمة أو نظرة. لم أرتو منه أبداً...

أذوب شوقاً من قصائد المحبيين وأغانيهم، تلك القصائد التي تؤجّج لوعة السامع فيمضي عمره مخبّاً في حلمه يحلم بلحظة التقاء تطفئ كمده.

احترق كبدي لهفة عليه، وكلما أوغلت في الزمن بحثاً عنه ابتعد. يبتعد كبعد تلك الليلة الغائرة في فجوات السنين.

أخمن الآن أن عمره ارتقى الخمسين عاماً ببضع سنوات لو أنه هادن الموت إلى هذا الوقت.

لن أسامحه إن هو مات، فقد مهر حياتي به، فكيف سأواصل حياة مع ميت؟

جاء إلى مدينة جدة بنية الإقامة الدائمة فاستوطن فؤادي، وغادر مبقياً كل شيء منه في داخلي: كلماته، حركاته، ابتساماته، أغانيه، رائحته، هيئته، صورته، فلا شيء في أعماقي إلا هو.

غادر جدة في ظهيرة قائظة لم تمنع الشامتين من الخروج لرؤيته بعد تسلل فضيحته ووصولها إلى الآذان المغلقة.

جاء من سهول تهامة يحمل تعبها وشبقها المضنيَين. تدور عيناه الشهلاوان المنتهيتان بأهداب متثنية مثل مرصاد أضاع الجهات، فلم يهدأ بحثهما كي لا توصما بالعطب.

استقر بين منحنيات الحيّ كعلامة بارزة.

لا يشبهه شيء إلا الحلم. سكنني مبكراً كحلم لا يفيق.

طوال هذه السنوات وأنا أحبه، فماذا يعني أحبه؟

هل هذا هو اشتعال الرغبة التي لم تتحقق؟

زينب عقيل هربت مع عشيقها الذي كان ينام أسفل نافذة بيتهم ولعاً بها. وبعد سنوات هربت منه إلى بيت أبيها سافحة دموع الندم والخذلان. هل لو كان مبخوت معي سيبقى اشتعالي به متقداً، أم أنطفئ لاعنة كل الأيام التي أبحرت فيها إليه؟

لا أنتظر النتائج الآن، بل أذوب شوقاً للقائه، فكل أماني هذه السنوات أن أراه مرة أخرى.

كل خبر طائر عنه ألاحقه وأسعى لأن أتحقق منه.

أي ذاكرة يحمل الآن؟ وهل يتذكر طفلة كان يمازحها ويغدق عليها الألعاب والحلوى؟

الفصل الثالث

- الماضي لا يمحوه إلا الموتى.

هكذا فكر مبخوت وهو يستقل سيارة الأجرة لتوصله هو وزوجته إلى موقف الجنوب.

قذف بجسده إلى جوار السائق الذي استراب من منظره الملثوث والجموع الغاضبة التي تبعته بالصرخات واللعن والشتائم البذيئة.

- سيكون الأجر مضاعفاً، فما قذف من بيض وخضروات بحاجة إلى عشرة مغسلين.

لم يتنبه لمقولة السائق، لأن ما يمور في داخله من خجل بحاجة إلى أرض تتشقق وتبتلعه.

البصاق ومخاط البيض عالقان بثوبه الممزق، وكدمة صغيرة أسفل عينه اليسرى، أخذ يفركها منكساً رأسه متمنياً لو أن زوجته تقول شيئاً يزيل وجعه الداخلي.

اختار مدينة جدة هرباً ورغبة في هضمه وتحويله إلى كائن آخر له تاريخ المدينة حيث الذوبان والبقاء كنقطة بعيدة من كل شيء، محورها ذاتها وعالمها يتسع ويضيق وفق انديباح الذات خالصة من كل شوائب

الآخرين، فأينما وجدت تبادل المنافع تكون الحياة باهضة التكاليف، هكذا فكر...

حياة سابقة هرب منها، وصرف سنوات من حياته مغترباً عن قريته التي أبقت اسمه وأحداث اقترفها على أرضها لم تمحُ كونه لا يزال يدب على الأرض...

– لو كنت نسياً منسيّاً.

هي أمنية أخذ يردّدها همساً، ويعلم أن ما يحدث يتحوّل إلى واقع مجسّد يصدر الناس أحكامهم وفق أركان ذلك الواقع، أما ما خلف الحدث فهو خارج الاهتمام ولا يعتد به.

قذف بهما سائق الأجرة في موقف الجنوب كما يتخلى سارق عن نيّته. وقفا تائهين داخل فوضى المسافرين. كان منظره مزرياً فبحث عن دورة مياه و لم يجد إلا دورة المسجد. انتزع ثوباً من حقيبتهما الوحيدة، وأوصى زوجته بالانتظار. لم يحتج إلى وقت طويل. أصلح هندامه بما يبعد نظرات المسافرين عن منظره المزري الذي دخل به إلى الموقف لكنه وجد عين زوجته ترميه شزراً:

– أيّ فضيحة حملتها لنفسك ولقبيلتك؟

– أي فضيحة تقصدين؟ ما قيل عني؟

صمتها جمّد بقية الكلمات، فأشاح بوجهه صوب الأجساد المتنافرة داخل الموقف، وأخذ يبحث عن سيارة تنطلق إلى خارج هذه المدينة بأي صورة كانت... اختار أول حافلة متجهة إلى جازان، ونقد السائق أجرتهما، ثم أخذ ينتظر اكتمال عدد المسافرين بشرود مشتت متقطع. جاء صوتها متناشجاً:

– هل شاهدوا الطفلة معك؟

– أي طفلة؟

– فتون!

– لا لا، أبقيتها بالداخل؟

ردّت مستهزئة:

– وهل ستنتظرك حتى تعود لها؟

صمت تماماً.

خليط من البشر يهيمون داخل الموقف بوجوه تبحث عن مواقع وكائنات غائبة تسكن مخيلاتهم. عشرات الحكايات سيذهبون إليها، وعشرات الحكايات سيحتفظون بها، وعشرات الحكايات سيتخلصون منها عند مغادرة سياراتهم لهذه المدينة.

الحكايات توصل بعضها بعضاً، وتبدو كسحب ممزقة، إلا أن فضاءً ما يجمعها يحوّلها إلى سائل واحد وينزلها حدثاً جديداً.

– «الرحيل» هي المفردة الحقيقية التي نطبقها في حياتنا.

أخذ يردّد جملته المجلوبة من بين ركام الأيام التي عبرها متذكراً وقفته أمام أبيه ومعترفاً له بما فعله، فوجد لسان أبيه يحرّضه على الهرب:

– وهل أمضي عمري مرتحلاً؟

– ليس هناك كائن إلا هو هارب. كلنا هارب من شيء ما يا ولدي.

أذان العصر يتمدّد على حنجرة المؤذن بتقطيع رتيب، ومساعد سائق الحافلة يصيح بالمسافرين من أجل إكمال العدد المرتحل. انشغل رجل المرور مسهلاً خروج السيارات المنتهية الإجراءات، وضجيج

المكان يخلق صوتاً جماعياً يبحث عن معنى.

قسمت الحافلة إلى موقعين، آخرها للعائلات. كان جسده ملتصقاً بزوجته مؤنسة وحين استشعر نفورها من ملامسة جسده لها، سحب نفسه إلى طرف المقعد.

وأخذ يتابع حركة المسافرين المنشغلين بنقل حقائبهم والتخفف ممّا يحملونه إلى داخل خزانة الحافلات أو على أسطحها، وقد تدرّج الباعة بين الجموع منادين ببضائعهم التي تنوّعت بين المياه والعصائر والمأكولات الخفيفة وبعض الحلويات الشعبية المشبعة بالسكريات.

وجد أنه يتطرّف كثيراً في مقعده، مستشعراً أنها لا ترغب في شم رائحته أيضاً، فألقى عليها سؤاله محاولاً إيصال همسه من بعد:

– هل تودين أن أجلب لك شيئاً؟

– ما تجلبه لنفسك يكفينا.

ترك مكانه، وترجّل لشراء لبن وقطع من الكيك المغلف محلياً، وقنينتين من الماء وكوزين من حبات الذرة. وقبل أن يصعد للحافلة أحس بحاجة ماسة إلى أقراص دواء تقلل من فوران حالة صداع مفاجئة. أعاد حالة الصداع التي اعترته إلى جملة زوجته الأخيرة التي بقيت تنخر قحف جمجمته بلا هوادة وفي كل حين يهذي:

– ما الذي جلبته لنفسي؟

* * *

بين جبلي الدخان والدود استكانت قريته مانحة ظهرها لليمن وحاضنة قرى تهامة بما رحبت. ولكي تعصم نفسها من الضياع

أمسكت بطرف جبل الدخان منتظرة الوصول لغايتها.

أهلها يسيحون في الأرض بلا حساسية تنفج في قلوبهم للكلمات التي يسمعونها من رجال الحدود القادمين من عمق الصحراء...

قرى تناثرت على الحدود اليمنية السعودية تحلم باهتزاز أعواد القصب، وجريان الأودية، ورؤية الزماميح، والترنّم بأغنيات الحصاد، والتمايل طرباً على رنة وتر في المقيل. قرى تصرف أيامها في المتاكئ وتطير أحلامها في سحب التبغ المنبعث من مجالسهم.

هناك على سفح جبل الدخان قطعت أمه حبله السري، وقبل أن يُلف ويوضع في حضنها، كانت صرخة توأمه تبحث عن موقع لها في نفس الحضن.

جاء التوأمان بعد جفاف الرحم التي حملتهما سنين طويلة، تعدّدت فيها النذور وطلب العون من الأولياء والوقوف في جبل الرحمة والاستشفاء بماء زمزم والاستعانة بالحروز والتنقيب عن سحر مدفون في بئر مهجور. مجيء التوأمين فتح نافذة من فرح في قلب أبيهما الذي أقسم أن بندقيته أسقطت السحر المحمول في جناح طائر كان يمكث على مقربة من منزله منذ عشر سنوات. ومع انفراج فخذي زوجته عن توأم نحر بقرتين صحيحتين (إضافة إلى العقيقة) وأولم لأبناء القرية وعابري السبيل، واستغل تجمع أهالي القرية ليروي لهم كيف عرف هيئة الطائر المستأمن على السحر المعقود له ولزوجته، ووصفه بأنه طائر ليس له شبيه سكن شجرة السدر القريبة يثب منها ويظل ساكناً فوق غرفة مطلة بصحن الدار، واصفاً جناحيه بالمعلقين على الدوام وأن له مكوثاً ثقيلاً ينهيه أي ذكر لاسم من أسماء

الله الحسنى، وكلما ارتفع صوت مؤذن القرية حلق الطائر بعيداً نافراً بصوت منكر.

ولأول مرة يتركب على ركبتيه منتظراً نتيجة الاقتراع على اسم التوأمين، ولثلاثة أيام تُلقى القرعة في الهواء وتهبط فلا يرضى بنتيجتها. تضاحكت زوجته وهي تذكره برفضه وعدم استجابته تلبية طلب وحمتها حين تاقت نفسها لـ«حفص» تخضب به يديها، فقفز عالياً:

– ما لم أجلبه لك جلبه الله، فليكن اسم الطفل حفص والطفلة حفصة.

حفص، خرج من رحم جفّت طويلاً، وبعد أن لفظته، جمح إلى الاستظلال بفضاء القرى الممتدة، ولم يكن يعلم أن هذه الرحم ستلفظه نحو الدروب البعيدة...

يعرف تفاصيل كل القرى الهاربة بين الجبال وسفوحها أو المطلة على الأودية أو الذاهبة إلى البحر. يعرف تربة كل وادٍ، ويستنشق هواء كل نقطة على حدة، ويحدد سحنات ولهجات كل أهالي تهامة، ويعرف رجالها ونساءها وأوديتها وجبالها وأشجارها وطيورها وزواحفها وحيواناتها. جرى ولعب في جل تلك القرى البعيدة والقريبة: مصفوقة، والشانق، والسباخية، وجلاح، والراحة، والمزبرات، والخوجرة. عشرات القرى وطئ تربتها واستنشق هواءها. وعلى الشريط الحدودي وجد نفسه مرة في اليمن ومرة داخل بلاده، يسير منتصباً وقدماه لا تعرفان التوقف إلا حين يصل قرية المعرسة. عندها يفقد البوصلة حيث يتحرك خط فاصل وهمي يمنح كل فرد

انتماءً مستقلاً. يدهش للحظات وسرعان ما يمزج الجغرافيا ويلغي الحدود ككل أبناء تلك القرى القادرين على إذابة الفواصل التي لا تلحقها جملة مفيدة، وحفص يرى في قرية المعرسة توحيداً وتوحداً لوجوده.

تعتب عليه أمه كلما غاب بين القرى وجاء متفقداً حفصة دون سواها. يقتعدان فناء البيت للتأكد مما أسرّا به لبعضهما عن بعد، ساردين كل الخواطر المتبادلة. وقلما تخطئ مطابقتهما لما جرى في مخيّلة كل منهما. بدآ يستشعران إحساسهما ببعضهما وتواصلهما ذهنياً عن بعد، يتبادلان الخواطر والأفكار. وبعد أن استوثقا من حالتهما، أفصحا لأمهما عما يجدان، فأوصتهما مستحلفة كليهما بكتمان سرهما، وغرسته بين ضلوعها:

– يكفيني ما ذقته من الشواني.

في وادي خلب وقف حفص مراراً لرؤية جريان السيل الذي يجيء دائماً لإحياء الحقول الميتة، ويترك لغماً من المياه الآسنة تقطع أفئدة أهالي القرى حين ينشط البعوض في تلقيح الأجساد وإماتتها، وقد تخصّص جوف وادي العير بتزويد كل القرى بالحمّى.

في سنة من سنوات طفولة حفص، بقي لأيام مغموراً في مياه السيول يقارع كل الصبية أيّهم يراهنه على السباحة في المنطقة اللزبة. كسب كل رهاناته إلا أنه خرج متلبساً حمّى سكنته لشهر كامل وسحبته إلى قاع غيبوبة يخرج منها هاذياً ولا يفيق إلا مطالباً أخته حفصة بتدفئته. غطي بكل ما في البيت من ألحفة، ولم تقف رجفته أو تخف حرارته.

يئس ذووه من شفائه وفتحوا له شجاً في الأرض. بقي قبره مفتوحاً خمسة أيام، في آخرها مد أبوه يده لتقبّل العزاء فيه، فنهرته زوجته عوش خالدية مستحلفة إياه ببقاء أملها موصولاً بنقله إلى قرية المعرسة اليمنية. في البدء لم يجبها إلى طلبها، فروت له حلمها وأكدته بما خطر بقلب حفصة، فأذعن لاسترحامها، وحمل حفصاً ميتاً إلى عرصة المعالج الحاج علي بن حسن الذي زهد من معالجة ذلك الطفل، و لم يمسسه، مكتفياً بترديد:

– هذا «الجاهل» ميت.

وانشغل بتطبيب المرضى القادمين من القرى المجاورة حين أمسكت به عوش خالدية مستجيرة:

– يا حاج حسن، رأيتك في القبة الخضراء تناولني قرطاً ذهبياً.

ارتج الحاج لما ذكرته من حلم، وردّ عليها:

– وأنا رأيت هذا الحلم، أمريضك من بين المرضى؟

– هذا «الجاهل» الذي قلت إنه ميت.

تخلى الحاج علي بن حسن عن بقية المرضى، ووقف على رأس حفص، فلمح جفال زبد يخرج من فمه، وارتعادة متواصلة تتركز في وسط البطن، فأشار لمرافقيه بحمله إلى داخل العريش، وخلص جسده الصغير من ثيابه، وبسطه على حصيرة من الخوص، وأمر أن تراق عليه قرب الماء البارد، فانتفض، واصطكت أسنانه، وتعطف في تكوّر أدخل رأسه بين فخذيه، مرتعشاً ككتلة واحدة. ظنت أمه أنه يزفر روحه، فاستجارت بالحاج:

– ابني يموت، افعل شيئاً.

كان مشغولاً عنها بتقليب شفرته بين جمرات مستعرة، وتبادل النظرات مع معاونيه، وعندما هبّ واقفاً، سبقوه إلى جسد الصبي وأمسك كل منهم بطرف من أطرافه، وثبّتوه جيداً. رفع الحاج علي بن حسن شفرته التي استوى توهجها، وكوى أربعة مواضع: أسفل السرة، وأعلى عظمتي الترقوة من الجهة اليسرى، وفي الخاصرتين...

مع الكيّة الأولى ارتفع صياح الصبي، وبعدها صمت تماماً، وتحوّل إلى جثة باردة. سارع مساعدو الحاج بتغطيته برماد ثمام محروق، وغطوه بأشجار الأراك الخضراء، وحملوه إلى سقف العريش.

أمر الحاج علي بن حسن والدي الصبي بالانصراف، وحين همّت أمه عوش بمجادلته، رفع يده في وجهها:

– غيبي يومين ثم أقبلي.

– وأترك ابني في هذا العراء؟

– ....

– ربما مات أو تخاطفته الحدآت والغربان...

– ....

– يا غارة الله يا حاج علي!

تركها الحاج تذرف كلماتها، وانقلب إلى بقية مرضاه يتفحصهم ويتفقد أحوالهم، فتحرّك زوجها عمر نحوها وجذبها مصبّراً ومحفزاً إياها على مغادرة الموقع.

لم تطق الابتعاد، فلزمت ساحة العريش معلقة بصرها في طفلها المسجّى بكفن من رماد والمغطى بأشجار الأراك تلمحه في موضعه

على سطح العريش فينهلع قلبها وجلاً. جذبتها ابنتها حفصة من طرف فستانها:

– يطمنك حفص ويسألك بالكريم أن لا تكدري خاطرك.

لم تبرح المكان، فتحرّك زوجها لإيداع حفصة في بيت الحاج علي بن حسن كي تبات مع ابنته أُنس وعاد إلى زوجته مواسياً ومصبّراً جزعها.

مضى الليل منصتاً لأنّات المرضى المقذوفين في ساحة العريش، وأضواء الفوانيس تتلألأ في معركة ضارية بينها وبين ظلمة غامقة بسطت أطرافها على المكان بجبروت طاغية، وظلت انعكاسات أجساد مرافقي المرضى تخلق خيالات من أشباح تتشكل متحيّنة الفرصة من أجل الانقضاض على المكان.

لم تنم عوش خالدية، فكلما غلبها النعاس رأت ابنها يسقط من عل ويهوي إلى داخل قبر فتح فمه من أيام منتظراً إطلالة فلذة كبدها، فتفز من نعاسها، وتغسل وجهها، مجهدة بصرها في التحديق لرؤية أي حركة تطمئنها على أن ابنها ما زال في عالم الأحياء وهي تتمنى أن لا يطلع الصباح قبل أن ينزل ابنها من مكانه. خذل الليل أمنيتها وانسحب قبل تحقيقها.

وقفت شمس الصباح على قمة جبل الدود، وانطلقت الحياة تدب في الكائنات. كانت أمنية عوش أن لا يأتي النهار لكي لا يرسل طيوره الباحثة عن غذائها.

تحوم الغربان والحدآت وتهوي لالتقاط ما تبصره من بقايا أطعمة وتعاود الخفق بأجنحتها على علو منخفض، وكلما دنت من سطح

العريش قذفتها عوش بالحجارة. سقوط حجارتها آذى المرضى ومرافقيهم، فنهرها أعوان الحاج علي بن حسن عن تصرفها ذاك، وأخرجوها من محيط العريش وهي تبكي وتستجير بالحاج.

توقفت أدمعها في اليوم الثاني حين أنزل ابنها، ورفعت أشجار الأراك عن جسده، ، فظهر مترمّداً، كأنه بعث من قبر رماد ولا أثر فيه لحياة. قبضت عوش على كتف زوجها:

– مات حفص.

وهمّت برفع نحيبها إلا أن حركة بدرت من طفلها جعلتها تتراجع، وتستحث الحاج:

– ها...

جلس الحاج علي يزيل الرماد عن وجه الصبي وعن بقية أعضائه بمنشفة بللت بماء فاتر، ويتحسّس وجنتيه بابتسامة متأرجحة، حتى إذا استأنس بانطفاء الكيّات في مواضعها، رفع رأس الصبي وجرعه سائلاً ثقيلاً يميل للصفار، وأتبعه بحليب فاح بخاره. تنهدات الصبي المتلاحقة جعلت الحاج ينهض مبشراً ذويه، وموجّهاً حديثه إلى عوش خالدية:

– ولدك هذا مبخوت فقد نجا من موت محقق.

عادت عوش خالدية من قرية المعرسة مصطحبة ابنها في زفة شارك في إحيائها أبناء القرى المجاورة وأطلقت الزغاريد والأعيرة النارية ابتهاجاً بسلامة حفص الذي عاد من الموت...

وخرجت قرية الغاوية مستقبلة العائد في مراسم بدأت بدفن القبر المفتوح والدوران بحفص حول بيتهم سبع مرات احتفاءً بتغيير اسمه من حفص إلى مبخوت.

ولم يرضَ بتغيير اسمه ما لم يتطابق مع توأمه، ومن الصباح الباكر انتقل أبوهما إلى إدارة الأحوال المدنية بصامطة، ناقلاً اسم توأميه من الحفص إلى البخت.

* * *

اختير شرق ملعب الصبان أن يكون موقفاً للسيارات المغادرة لليمن وكذلك للمسافرين إلى الجنوب. كان موقفاً متواضعاً لا يستطيع المسافر التزوّد منه بأي شيء ذي قيمة. كل ما به مقهى ومكتب تسفير وباعة جائلون بما يحتاج إليه المسافر من مياه ومشروبات تنوعت بنهكات لم تصل إلى الإتقان.

أنهى سائق الحافلة إجراءات السفر، ونادى بمن كان خارج الحافلة إلى الصعود استعداداً للمغادرة، واقتعد مقعده سائلاً معاونه أن يُحكم تثبيت العفش، وتحرك مطلقاً نفير بوق سيارته لإبعاد المتجمهرين عن مقدمة الحافلة؛ مخترقاً أحياء القريات وغليل والكرنتينة عابراً الخمرة وموجهاً حافلته على خط الساحل.

تسقط الشمس في لجج ماء البحر، وسائق الحافلة يجاهد في الوصول إلى منطقة الطفية قبل هبوط الظلام. بقي له قليل من أشعة شمس لم تلحق بقرصها، فضغط على مكبس الوقود مردّداً:

– من يلاحق الشمس يكن هارباً.

أراد نثر حكمه على مسامع راكب جاوره في المقعد الأمامي. تلك الحكمة ذهبت هباءً، فالراكب المجاور خذله بإغماض عينيه والتمايل مع الاهتزازات المتولدة من حركة الحافلة، التفت إلى

معاونه القابع في كرسيّه المحاذي لبوابة الخروج:

- ما عندك راكب يحب السواليف، أخونا سلم...

لم يتلق رداً، سحب قارورة ماء من درج أسفل عمود القيادة، وارتشف جرعات متتابعة، ماسحاً فمه بكم ثوبه، ورفع صوته مدندناً:

- قولوا للغالي قولوله. وش هُوُلَه يبطي.. وش هُوُلَه؟!

صوته الأجش غير المتناغم مع لحن الأغنية أوقف دندنته وانثنى برقبته إلى معاونه وهو لا يزال ممسكاً بابتسامته:

- لن نصل إلى بغيتنا في الوقت المحدّد.

ومع أنه لم يجد جواباً إلا أنه ظل منشرحاً متخيّراً دندنة يقارب فيها اللحن مع الكلمات، فيما كانت الحافلة تسلك طريق الساحل بهمّة جعلته يسترخي خلف مقوده تاركاً للمسافرين متابعة اللوحات الإرشادية المشيرة للمسافة الباقية من الطريق الطويل المؤدي إلى مدينة جازان.

أحس بيد تربّت كتفه:

- يا معلم أنا أحب السواليف.

* * *

وجهت الحافلة وجهها صوب مدينة جازان وماكينتها تبدي نشاطاً في نهب مسافات الطريق الشاق، وريح تخترق فرجات النوافذ فتعوي على مسامع مسافرين تغطوا بالليل فلا تسمع لهم إلا همساً.

توجع مبخوت من جلوسه على طرف المقعد، وزوجته تنأى

بجسدها عن ملامسته، أو الرد على كلماته. تأفف وزفر مراراً، وعندما سمع سائق الحافلة يطلب مسافراً لأن يكون بجواره، نهض من مكانه مخترقاً المسافة الفاصلة بين مقعده والسائق:

– أنا أحب السواليف...

* * *

مع انسكاب الشمس من على جبل الملح تهادت الحافلة مخترقة مدخل مدينة جازان حيث أنزل جميع الركاب في موقف المطلع.

موقف استرخى على شاطئ البحر، واستجاب للحياة ففتح صدره للعابرين والقادمين ومدّهم بالمطاعم والمقاهي والمتاجر الصغيرة والجائلين من الباعة المسكين ببضائعهم المتواضعة ودورانهم المحموم بين المسافرين والقادمين لبيع ما يمكن بيعه.

صاحب الحافلة أمسك بمبخوت معانقاً ومتمنياً له حياة سعيدة، مؤكداً له أنه لم ولن يجد راكباً شبيهاً له.

خليط من البشر تناثروا في موقف المطلع منتظرين سيارات تقلهم إلى المدينة أو إلى قراها المتناثرة، ومن كان متخففاً منهم رضي بركوب دراجة نارية وانطلق إلى بغيته يغطيه غبار السير في أرض مترية غير معبدة.

وجد مبخوت سائق أجرة وقف في مكانه رافضاً عروض نقل الكثير من الركاب ومشترطاً مبلغاً لا يوازي كراء أبعد النقاط في المنطقة، دس مبخوت رأسه من فتحة نافذة السيارة:

– الغاوية...

– كم تدفع؟

– ما يروقك.

كان رداً محفزاً كي يتخلى السائق عن تعنّته واشتراطاته مفضلاً أن يظل الاتفاق بهذه الصيغة، تحركت مؤنسة واقتعدت المقعد الخلفي وهي توجّه السائق:

– أولاً قرية المعرسة.

ذبل مبخوت في مكانه فتوجيهها للسائق بالذهاب إلى قريتها يعني عدم رغبتها في البقاء معه. لم يعلق على طلبها وبقي صامتاً مكتفياً بمراقبة سير المركبة.

تناثرت القرى على الأرض كحبات نجوم طفت على سطح السماء بتلألؤ متوهج؛ محاطة بالخط الإسفلتي الناحل وكأنها في مهمة لخنقه، وريح عابثة تسفّ الأتربة في اتجاهات مختلفة من غير إظهار غضبها المعتاد، وحقول الحنطة اتسعت رئتها وزهت بامتلاء عذوقها فتراقصت سنابلها، ووقف الحماة لحماية حبيباتها من نهم الطيور، وآخرون يتنقلون بين الحقول لجمع المحاصيل، ومحازم العجور ظلت تهتز على ظهور الدواب، وبين لحظة وأخرى يظهر أحد القرويين على الخط مشيراً للسيارات العابرة ومتمنياً أن تقف إحداها لنقله إلى الجهة التي يقصدها.

دس السائق يده في جيبه وأخرج علبة الدخان عارضاً على مبخوت مشاركته في النفث:

– قادم من الحجاز؟

هز مبخوت رأسه للسائق بتكاسل:

– من مكة؟

– لا، من جدة.

انفتحت شهية السائق للحديث إلا أن مبخوت لم يكن راغباً في فتح فكيه، وقد نازعته هذه الرغبة كتأديب لزوجته بأن لا تسمع صوته حين شعر بأنها تنبذه، وأضمر النيّة على تسريحها، مقرّراً أن يحرمها منه منذ أن نبذته.

ليلة زواجه بها قبض أبوه على يده:

– الرجل بحاجة إلى امرأة تعصمه من نوازعه وتكون جنته في هجيره.

جرحان يتسعان بالغياب: حفصة وأُنس.

منذ أن شاركته حفصة الخروج من تلك الرحم الجافة قلما افترقا. يرعيان، ويعلفان، ويجلبان الماء ويلعبان وينامان معاً.

يؤثر كل منهما توأمه في المأكل والمشرب، وفي الليالي الحارة يتناوب كل منهما الهفّ على الآخر تقليلاً للرطوبة المتغلغلة بين ثنايا جسديهما. يفعلان الفعل الواحد لبعضهما، وتصرفهما ينقبض له قلب أمهما التي تحاول جاهدة إخفاء تعلق كل منهما بالآخر وادعاء كرههما المبطن لبعضهما أمام الزائرات والأقارب، وإذا جابهتها إحداهن بما ترى فزت أمهما كالملدوغة:

– صلي على النبي. هما يتصانعان هذا الولف أمام الزوار ليس إلا، أما في الحقيقة فقد أتعباني بسبب مقت كل واحد منهما لتوأمه.

ومع مغادرة الزائرات تنوشهما معاً:

– ألم أقل لكما لا تبديا تعلقكما ببعض.

في غيبوبة الحمى التي غرق بها حفص، فتح قبر ظل ينتظر التهام جسده ممنّياً لحده بدنو لحظة تصلب وبرودة أوردة حفص، فالتصقت به توأمه باكية موجّهة حديثها لمن فكر في دفنه:

– احملوني معه.

نهرتها إحدى الزائرات عن الاقتراب من حفص بذلك الحد خشية من انتقال الحمى إليها، فردت:

– أخبرني أنه حملها عني وعنه.

فتضاحكت الزائرة من ردّها، وأردفت:

– وكيف أخبرك وهو مسجّى من ثلاثة أيام؟

أسرعت عوش خالدية تلهج بقراءة سورة الفلق، فاشتاطت زائرتها غضباً، وغادرت المنزل وهي تقسم أن لا تصلها مدى الحياة.

كانت عوش خالدية قد تلقت نصيحة بحجب ابنها عن الأعين لاحتمال أنه مسحور أو محسود، فقسمت عشتها إلى نصفين، واختارت النصف الأعمق داخلياً وأرقدت ابنها فيه، وأسدلت عليه الحجب، وظلت تقابل أي زائرة بقسم مغلظ الأيمان أن ما أصاب ابنها ليس إلا من عين لم تصلّ على أفضل الخلق سيدنا محمد.

احتجاب حفص قابله رفض تام من توأمه، و لم تفلح أمها في إقناعها بأن المحجوب لا يجالسه أحد. هذه الحجة لم تقبل بها حفصة فأذعنت أمها لطلبها بالبقاء معه حين سمعت صوت ابنها يخرج على لسان حفصة مطالباً ببقائها إلى جواره. ارتعدت أولاً، ومع سماعها لصوت حفص يخرج من حنجرة أخته، سارعت إلى احتضان حفصة وانهارت في نحيب متقطع تفيق منه بجملة ردّدتها على مسامع زوجها كثيراً:

– فالق النوى قادر على كل شيء.

لم يتعود أيّ من التوأمين على اسمه الجديد، فبقيا ينادي أحدهما الآخر باسمه الأول. هي مرة وحيدة نادت حفصة على أخيها باسم مبخوت و لم تكرّرها مرة أخرى.

مع ولادة حفص لم يشأ أبوه استكمال ختانه مؤجلاً ذلك إلى أن يشب كي يفاخر به أقاربه وأصهاره في حفل أقسم أن تطال بهجته القرى القريبة والبعيدة، وأن يخترق أزيز الرصاص مسامع الطير.

ومع بلوغ مبخوت (حفص) الثالثة عشرة استوى ونضج وعد أبيه، فجهر بموعد الختان، وبعث مراسيله لشيوخ القرى وعقلائها قبل أواسط الناس ورقيقي الحال، ونصبت «المخادر»، واتفق مع جبريل الفيفي أن لا «يصرب» قات مزرعته إلا لضيوف حفل الختان. وفي مقابل هذا الاتفاق نقده مبلغاً مالياً مجزياً، وتزوّد بعشرة آلاف بيت للرصاص حصل على الكمية الأكبر من سوق صعدة ومعها رشاشا كلاشنيكوف ذوا النجمة والمثلث (أبو سهم) هرّبه له صديقه هواش الصعدي وحمل مع تلك الذخيرة المهربة خنجراً رصّع قرنه بجنيهات ذهبية وانتهى برأس عاجي قدّمه كهدية خاصة من أجل أن يحتزم به مبخوت يوم ختانه.

وقبل أن يحين الموعد بيومين توافد المدعوّون كل يسوق رفده، فهناك من أرفد بالأنعام، وهناك من حمل رفداً من الثمار، ومن كان رفده مالاً صرّه في منديل وقدمه بيده.

استعدادات الختان تسير بوتيرة متسارعة، ومع مشاغل عمر بكيري العديدة كان يشغله هاجس لو أن مبخوت أخزاه و«تخبّب»

يوم ختانه وكلما طرأ هذا الخاطر كز على أسنانه وخرجت كلماته من غير علم:

– أنحره أو أنحر نفسي...

قدمت أُنس مع أبيها الحاج علي بن حسن لرؤية صديقتها حفصة وحضور الختان، وقد تجاورتا في مرقدهما، ونثرتا أحاديث كثيرة عن أيام مضت وتفرّع بهما الحديث قبل أن يداهمهما النعاس الثقيل ومعه داهمت عوش خالدية ابنتها تهزها هزاً:

– هيه مبخوتة «كيف تحسي بأخوك تريه يترجل»؟

– «يترجل ويطلب زيادة»!

تضاحكتِ أُنس وهي في نصف إغماضة:

– «هي اللي حتختتن ولا مبخوت؟»

أمسكتِ عوش عن إذاعة ارتباط حفصة الروحي بأخيها، وأمنت على مقولة أُنس:

– صدقتِ يا بنتي.

قبل ليلة الختان ألهبت الزغاريد المكان، وانتشرت النساء كل منهن تقوم بأداء دور من كنس وتنظيف وغسل أوانٍ، وتبخير شراب المياه، وطحن، وموارة التنانير، وخبز، وقصقصة أوراق التبغ. تشاركت حفصة وأُنس في خمر الحنا، ونظم عقود الفل، وانشغلت حسينة سالم وخضرا يوسف بنصب مواقع أزيار الماء.

تجمع بعض النسوة المقربات داخل العشة الكبيرة لحضور جلسة الحناء قارعات الدفوف وناثرات الزغاريد والفل، وتقافزت أُنس وحفصة لأداء رقصة متقابلتين. لم ترق نقلاتهما بعض الحاضرات

لطراوتهما فتقدّمت الخبيرات منهن لأداء رقصة الجحلة، تحمّس الراقصتين زغاريد ملتهبة انطلقت في فضاء المكان.

استسلم مبخوت ليد أمه وهي تمرخ جسده كاملاً بالحناء المخلوط بالزعفران في مثابرة لإجلاء بشرته قبل أن يمد رجليه ويديه ويغمسهما داخل إناء الحناء وقد أحاطت به مجموعة نساء تتقدّمهن: حفصة وأُنس وخضرا يوسف، وقد دار الحديث عن صباح الغد:

– شفرة الختان «حطبة» باترة وسريعة فلا تخف.

أحس بالإهانة مستنكفاً عن ذكر الخوف وأراد المفاخرة برفع صوته:

– والله لو قطعوا رأسي ما يهتز لي رمش.

أطلقت أمه ابتسامة رضى عريضة وهي تتناول يده وتقبّلها فسحب يده على الفور معلقاً بصره بأُنس، فهمست حفصة في أذنها:

– انتبهي لنظرات مبخوت فهو مشغول بك.

نام مبكراً كي يكون في كامل نشاطه صباحاً، ومع الغلس فاق المكان قبل طلوع الشمس بصياح الديوك وثغاء الأغنام ونبيب التيوس وخوار الأبقار ونهيق الحمير وشقشقة العصافير، فاستجابت لهذه الحياة الأجساد الراقدة بإخراج النوم من عيونها عنوة، والإسراع في تناول وجبة «الصفارة» والاستعداد لاصطحاب المختون إلى منصة الختان.

انشغلت عوش خالدية بـ«قطب» ابنها وتزيينه، فائتزر بمصنف حضرمي و«شميز» إنكليزي، وكوفية قصب محوطة بصفين من زهر العزاني، واحتزم بالجنبية المهداة من هواش الصعدي، وتخلى عن

حذائه كي لا يعوقه أثناء تأدية رقصة «الدرم»، وأحاط به «الزقارون» بضرب «الصحاف» بإيقاع متوتر يمكن مبخوت من تطرية أطرافه وتحريك قدميه وتجريب استخدام الجنبية علواً وهبوطاً ومن بين الخاصرة. واصطف الرجال المصاحبون له في ممشاه لبلوغ منصة الختان بجوار كدوة عبده هادي، ووقفت النسوة من الخلف يجاوبن طلقات الرصاص بالزغاريد.

وكأن تلك الطلقات النارية لم ترض عمر البكيري فتقدّم الصفوف صائحاً:

– لقد أقسمت بالله أن أسمع الطير أزيز طلقاتي النارية.

ورفع رشاشه عالياً مطلقاً رصاصاته متهيجاً في فرح غامر فبادله ضيوفه الطلقات بطلقات متأججة.

جاب الدخان ورائحة البارود المكان، وانطلقت عشرات الرشاشات في وقت واحد، ولم يعد يسمع إلا أزيزها، وتطايرت مخازن الرصاص الفارغة في اتجاهات مختلفة، وتراكض الصبية من أجل التقاطها، وبالغ هواش الصعدي بإحضار رشاشه الغرانوف الذي لا خزانة له فارداً شريط رشاشه وانطلقت رصاصاته في دفعات تتوالى، قدر كل دفعة مئة طلقة، وانبرى ينثرها متهيّجاً بفرح غامر، ويقابله تهيج المحتفلين، وغدا كل منهم يتفنن في إطلاق ذخيرته بحركات بهلوانية تظهر مقدرة كل منهم في التحكم بسلاحه. هواش الصعدي كان أكثرهم مهارة وأراد تأكيد مهارته فاقترب من رأس مبخوت مطلقاً عشرات الطلقات في اتجاهات مختلفة. ومع إطلاق رصاصاته يتبختر على دقات الدفوف بتراقص البطر، وفي كل حين

يبيّن مهارة تفوق سابقتها. كان حضوره طاغياً وهو يتنقل بشريط رشاشه وخادمان يتبعان خطواته ويبعدان الصبية عن ذلك الشريط الممتد. أطلق ثلاثة أشرطة في وقت وجيز، وحين حمي الدق وتحرّك مبخوت صوب منصة الختان مد هواش شريطه الرابع وأخذ يتراقص رافعاً رشاشه عالياً ومطلقاً أعيرته النارية. نشوته الغامرة تلك تسبّبت بارتخاء يده الممسكة بالرشاش، و لم يعد قادراً على السيطرة على يده برفعها عالياً، فلعلعت رصاصاته متتابعات كسرب طير باتجاه النساء القابعات في الخلف، وفي لحظة خاطفة انبعث صياح وهياج وارتماء على الأرض، وصمت كل شيء. بقيت العيون تحدّق في ذلك المشهد الممدّد، ولاذ الجميع إلى الأرض منبطحين نساء ورجالا وأطفالا، ومن كان فأله حسناً اختبأ خلف سارية أو لبنة بيت أو دابة. كانت الآذان تنتظر انتهاء طرشقة الرصاصات المجنونة، ومع توقفها عادت الأصوات إلى تشابكها. كل صوت يعلن عن نفسه نادباً أو محرّضاً أو مستفسراً أو محفزاً... خليط من الأصوات ولد ضجيجاً وحركة عشوائية. استعاد مبخوت لبّه بسماع اسمه ممتداً على لسان أخته حفصة:

– مبخوووووووووووووووووووووت...

لم يكن صوتها ليصل إليه في وسط هذا الضجيج بل وصله عبر خاصيتهما المتبادلة. في ركضه باتجاهها كان يرجوها أن تتماسك، وكلما اقترب منها شعر بأن روحه تتسلل إلى فضاء واسع وتنتشر هناك.

خمس نساء وصبي تمدّدوا غارقين في الدماء، وأسلموا أرواحهم

من غير عناء. حفصة بقي دمها يتفجر من قحف جمجمتها المقلوبة للخلف. انحنت عليها أمها تنتحب، وانكب الرجال يتفقدون المنبطحات على الأرض، وتصايحوا بالإسراع في نقل حفصة إلى أقرب مركز صحي. أعاد والدها قحف جمجمتها (المفتوحة كعلبة صلصة) إلى وضعه حازماً رأسها إلى ذقنها بشال انتقع بدمائها المتفجرة، و لم تكن بالقرية إلا سيارتان إحداهما غادر بها صاحبها إلى اليمن، والثانية محركها لا يقوى على المسافات الطويلة.

أدرك عمر بكيري أن لا فائدة من بذل أي محاولة فابنته تحتضر، لذا أبقاها في مكانها يسندها أخوها محاولاً إبعاد أمه عن صدرها الذي علا لمرة واحدة وبعدها أسلمت روحها بهدوء تام وهي بحجره.

الضجيج واختلاط الرجال بالنساء متفقدين بعضهم بعضاً أحدث فوضى عارمة، تقافزت فيها النساء إلى إبعاد أطفالهن. كانت أُنس تدور حول جثة حفصة صارخة وباحثة عن أبيها، ومع التراكض خطف يدها موسى هواش وأبعدها إلى جهة المخدرة مهدئاً إياها قبل أن يظهر أبوها ويحملها إلى أمها التي بلغت مرحلة الهذيان فرقاً على ابنتها.

قبل حلول أذان العصر، طوّقت أربع دوريات أمنية مداخل القرية، وترجّل النقيب المبعوث من مديرية الخوبة لمعرفة ما حدث تفصيلاً، وعاد قبل غروب اليوم حين لم يعثر على تهم متبادلة، أو ادعاء، فقد أجمع أهالي القرية على عدم تحديد الجاني مدّعين أن الكل شارك في الاحتفالية بإطلاق النار، وعجز النقيب المرسل عن العثور على قطعة سلاح واحدة مع أن مخازن الرصاص الفارغة كانت تملأ المكان.

شيّعت جثامين الموتى ودفنت تحت سفح جبل الدخان في جنازة تطايرت لها القرى المجاورة مشاركة وحزناً على من سقط قتيلاً في تلك الواقعة والدعاء أن يمنّ الله على الجرحى بالشفاء العاجل وأن يضمد قلوب أهالي المتوفين بالصبر والسلوان.

مع غياب رجال الشرطة بقي المتجمهرون يملأون ساحة القرية. قدّم هواش الصعدي رقبته ورقبة ابنه موسى المرافق له ليقتص منهما أهل الدم. كان موقفه مطيباً لخاطر أهل القتلى إلا أن ابنه موسى أعاد إليهم التحفز حين تقدّم من شيخ القبيلة معترضاً على مقولة أبيه:

– ما حدث قضاء وقدر وإن رغبتم في الدية فنحن لها أما رقبتي فلن يصل إليها أحد.

صلافة موسى (رغم صغر سنه) لم تمنع إعجاب الشيخ بجرأته وتفوّهه وقلل من غيظ هواش وزجره المتوالي لابنه:

– لم يقل الفتى إلا الحق.

والتفت إلى المجتمعين طالباً من أهالي القتلى إفراغ ما يجول في رؤوسهم، فمن يرغب في الحصول على الدية فهي حاضرة مسلمة، ومن يرد العفو فليعفُ ويصفح لوجه الله قبل مغادرته مكانه.

عرف ذوو القتلى أن النطق بالعفو لا يبقي حقاً قائماً فتريّث اثنان وصفح خمسة. وفي نفس المكان كتب الشيخ صفيحة الصلح والتراضي ومنح المتريّثين الحق في المطالبة بالدية من غير إثارة نعرات أو النكوص والمطالبة بالدم. وتصالحوا على هذا بشهادة عدد من شيوخ القرى والقبائل كشهود يطلب منهم درء أي فتنة تطل برأسها مستقبلاً. فعلوا هذا خشية من المطالبة بثأر يجدّد جريان الدم

المنسكب بين القبائل المتجاورة. وتحرزاً من ذلك أضيف بند ينص على هدر دم من طلب الثأر أو اقتص لقتيله بتسليمه إلى قبيلة المغدور تفعل به ما تشاء، وعلى هذا تم التراضي وتوقيع المعاهدات بين شيوخ القبائل الذين حضروا مراسم تشييع جثث القتلى.

* * *

قرية المعرسة تتراءى من بعد، وسائق سيارة الأجرة ملّ من صمت مبخوت، واستعجل إنهاء هذا الصمت المطبق بإطلاق سرعته بما يتناسب مع الطريق الضيق.

نزلت مؤنسة إلى دار أبيها، وعاد السائق مصطحباً مبخوت إلى قرية الغاوية يعتريه ملل فاض عن حدّه مقسماً بينه وبين نفسه إنه لم ولن يجد راكباً بهذا السوء أبداً.

4

قلت إن تلك الليلة الحارقة لم تغب أو تجف من مخيّلتي. بقيت كمستنقع يجدّد حضور الكائنات المؤذية...

في تلك الليلة لاذت أمي بالاستغفار والتضرّع إلى الله بأن لا يريها مكروهاً في عزيز، ويزداد إلحاح دعواتها كلما علقت بصرها في اتجاه سقف بيتنا الذي أظهر تقاعساً من خلال تقاطر خيوط الماء في مواقع مختلفة، فأسرعت لاستقبالها بأوانٍ نحاسية وزعتها في تلك المواقع.

كانت تنادي على إخوتي لجلب الأواني ووضعها أسفل كل نقطة يتسرّب منها الماء...

قلت لها: لم يعد لدينا أي آنية، كلها مشرعة.

كانت بحاجة إلى فعل أي شيء تنشغل به بعيداً عن خوفها، فتحرّكت صوب زاوية اتخذت منها مكاناً للتخزين، وأخرجت الألحفة وبسطت فرش إخوتي وصفتها على غير هيئتها اليومية حيث أبعدتها عن مواقع تقطر قطرات المطر، وهي تتحسّس خيوط المياه المتسللة من سقف صالة الجلوس بوجل تحاول تسكينه بالدعاء.

زفرت بحنق وهي تتطلع صوب جدتي الساكنة في هدوئها وحدثتني بضيق:

– قولي لإخوتك أن يعودوا للداخل.

حرصها على إبقائنا بجوارها لم تحسمه توصياتها المتلاحقة بالبقاء داخل المنزل، فتراكض إخوتي لجمع حبيبات البرد المتساقطة في الفناء والتهامها كقطع السكر.

اتسع الحبور في أعماقهم من غير أن يبقي مساحة من خوف يؤجّل الانتشاء بتلك اللحظة. أجزم الآن بأننا لو تأخرنا عن فعل الأشياء في أزمانها نخسر حدوثها للأبد، وأنا خسرت كل طفولتي.

كثيرة هي اللحظات التي فرّطت بها. كنت أهجر إخوتي وصويحباتي وألجأ إلى تسمير جسدي انتظاراً لمقدم مبخوت أو أتصلب أمام نافذتنا الخارجية لمراقبة جلسته أو أمكث جامدة أتخيّل ما يفعله داخل بيته.

أراحني من البحث عنه في الشوارع وأزقة الحيّ حينما هجر رجالات الحيّ واقتعد كرسياً أمام بيته مكتفياً بمداعبة قطط ربّاها وحرص على جودة نوعياتها غير ممانع من إهداء ما تسفحه بطونها لمن أحب ذلك.

وكلما تذكرت طفولتي استغربت تأخري عن مشاركة إخواني أو صويحباتي لحظات المرح. لهذا أؤمن بأن التأخر عن فعل الشيء في زمنه ضياع له، وقد صرفت أيام طفولتي بحثاً عنه، وها هو يجر بقية أيامي من مكان لا أصل إليه.

في تلك الليلة لم تكن تعنيني رؤية المطر وآثاره. كنت متلهفة لرؤية مبخوت وحسب، وهي لهفة أقرّرها الآن، فقد كانت نفسي تنازعني للخروج والوقوف على بيته. كانت تعتريني رجفة مباغتة حين أتصوّر لو أني خرجت و لم أجده.

لم تستقر أمي على حال، فمراقبتها لتقاطر الماء من سقف غرفتنا جعلتها تتنقل من غرفة لأخرى تتفقد أحوالها، وترمي الكلمات الجارحة على مسامع جدتي التي لم تكترث بما يحدث حيث استقرت

في الغرفة الداخلية ذات العتبة المنخفضة، وبقيت بها تجر أنفاس التبغ بمزاج رائق محاولة مسح تعكر مزاجها بسبب تنقلاتها بشيشتها بعيداً عن خيوط الماء المنسابة من سقف غرفنا الخارجية. كثرة تنقلاتها أوصلتها إلى فكرة تغطية رأس الشيشة بكيس نايلون جاهدت في إبقائه بعيداً عن متناول جمرات الفحم بوضع «القفشة» في ما بينها.

قبعت داخل غرفة نومنا الداخلية وقد تناثرت حولها فرش مرقدنا الاسفنجية وملابسنا التي نوت أمي كيّها وإعادة ترتيبها في خزانة الملابس.

غادرنا أبي منذ أسبوع لشراء مخلفات بضائع عرضت للبيع في ميناء ينبع، متوسّماً جلبها للحراج وبيعها لعله يكسب بها فائضاً يمكنه من ترميم الجزء الخلفي من بيتنا.

طرقات متعالية تصل من الباب الخارجي، جعلت جدتي تتخلى عن «ليّ» شيشتها وتستحثني للإسراع لفتح الباب:

– أسرعي، لا شك في أن عمتك وصلت.

زفرت أمي بحدة:

– في هذا البلل لا ينقصنا إلا التكوّم كالكلاب الضالة.

أثناء تحرّكي سمعت جدتي ترد على أمي بمخاطبتي:

– أمك كالبندقية المحشوّة ليس لها من فائدة إلا إطلاق النار.

أخذتا تتبادلان غز الكلمات في ما بينهما، فتركتهما لمعرفة الطارق. لم أكن أتوقع أن مياه الأمطار انسابت لداخل بيتنا، ففي سيري نحو الباب الخارجي، كان الماء يلامس ركبتي. هممت بالعودة للداخل، وكانت أصوات الرجال متعالية وهم يوصون بعضهم بعضاً

بتصريف المياه عاجلاً. أصوات يغلب عليها التشنّج وارتباك التوجيه. صوت مبخوت المدغوم بين تلك الأصوات حرّضني على الإسراع في فتح الباب، فوجدته يقف أمامي مبللاً مستتراً من زخات المطر بالطو تدلى إلى أسفل حقوه. كان صوته ينخر داخلي:

– هل أصابكم مكروه؟

تلعثمت الكلمات على لساني و لم أنطق بكلمة.

– أخبري أمك إن كانت في حاجة إلى مساعدة يمكننا تلبيتها.

وانتقل إلى بقية البيوت المجاورة لنا يجر قدميه في مياه زاد منسوبها وجرت متغلغلة داخل البيوت المنخفضة. رأيته يطرق باب بيت يوسف بن علي بنفس القوة.

رجال كثر توزعوا على امتداد زقاقنا الطويل الممتد إلى قلب برحة اليوسفي...

يهطل المطر بغزارة، ويغسل البيوت المتلاصقة ويجري ماؤه هادراً بين منحنيات الأزقة والشوارع المتفرعة:

– هيا ادخلي أخبري أمك.

تهللت حينما عاد باتجاهي. لم يحدثني هذه المرة بل امتدت يده إلى كبينة الكهرباء وانتزع فيوزها، فهبط ظلام دامس. تمنيت لو أنه يهدهد على خوفي الناهض. لم يكن بمفرده فقد تجمّع رجال الحيّ يضعون السدود الرملية في نهاية الشارع ويحفرون الأرض في توجيه المياه لاتجاهات أخرى.

ومع انقطاع التيار الكهربائي، وتوالي هطول زخات المطر، بدا زقاقنا موحشاً، تتحرك فيه القامات كأشباح خرجت من باطن

الأرض لتثير الرعب. أصابني التخشب والحذر من العودة إلى داخل المنزل الذي تحول إلى قطعة ظلام دامس وكأنه مغارة تتجمّع بها الخفافيش والعقارب السامة...

في تصلبي ذاك كانت أمي تجاهد للوصول إليّ، وهي تتحرك وسط مياه غمرت مدخل بيتنا المنخفض:

– انقطع النور، ما الذي حدث؟

– مبخوت نزع فيوز الكهرباء.

فاستشاطت غضباً ولعنت الساعة التي جلبت مبخوت وهي تصيح بي:

– الله ينزع أمعاءه.

وأسرعت للباب جاذبة ستارته لتستتر خلفها وهي عادة تمارسها نساء الحيّ ففي تلك الظلمة لو وقف المرء عارياً لما رآه أحد. كانت تجذب الستارة وتغطي شعرها المنسكب الذي أصابه البلل وتصيح صوب رجل قبض على كشاف فارتجف الضوء بين يديه:

– لماذا فصلت التيار الكهربائي يا مبخوت؟

دمدمة الرجال خالطت صوته وهو يحاول إيصاله لأمي:

– حدث تماس كهربائي في كثير من البيوت وكانت نصيحة أبو عيسى للمنقذين فصل التيار الكهربائي...

– وماذا نفعل في هذا الظلمة والماء المنهمر؟

يبدو أنه لم يسمع رد أمي، فوصلنا صوته مرة أخرى:

– هل أساعدكم في شيء؟

– تساعدنا في ماذا وأنت من قطع عنا الكهرباء؟

وصل إلينا صوت آخر أظنه لخليل المسلكي:

- هذا من أجل سلامتكم يا أم توفيق...

عادت أمي تجذبني لداخل البيت جزعة وظلام كثيف قبع بين بابنا الداخلي والخارجي، فعدنا نتحسّس الجدار الموصل إلى عمق بيتنا وأقدامنا تلاطم انسكاب مياه المطر التي أوقفت جريانَ اندفاعها إلى داخل البيت عتبتُنا المرتفعة.

- قبّحك الله يا مبخوت.

قالت أمي جملتها تلك فيما كنت أدعو له بطول العمر كي أصل إلى سنّ توصلني إليه، فقد سمعت أن من ساعات الاستجابة الدعاء عند هطل المطر.

* * *

كان حدثاً غريباً اختلطت فيه الأحداث بسرعة مذهلة، وتراتبيتها لم تكن سلسة ومتسلسلة كما أرويها. ربما استجلابي لها الآن من ذاكرة الطفولة يجعلها منتظمة، فأحداث الماضي لا تكون مرتبة كما نستحضرها. الحاضر هو من يعيد ترتيب الماضي.

بقع من الأحداث تشكل الصورة العامة لتلك الليلة.

مطر وظلمة وحريق...

أصيب إخوتي بحالة فزع مع انقطاع التيار الكهربائي، فتركوا فناء البيت الداخلي، وانفرطوا في حالة بكاء جماعي، وهم يتلمسون طريقهم صوب الصالة. أخذ صوت أمي يهوّن عليهم، متلمسة طريقها للوصول إليهم وتهدئة روعهم. أمسكت بهم واحداً واحداً وعادت

في سيرها مقتفية ضوء الجمرات التي ظهرت من شيشة جدتي.

- أيّ مزاج تحملين، نحن في ظلمة وغرق وأنت تشيشين؟!

لم أسمع رداً لجدتي. أحسست برغبة أمي في الشجار، ومع حيرتها في ما نحن فيه ارتفع صوتها معدّدة نقائص جدتي، منهية تلك النقائص بجملة باترة:

- يا عجوز الغابرين، أين وضعتِ الكبريت؟

يبدو أن جدتي صامت عن الكلام، فلم نسمع لها رداً أو تعقيباً. حتى عندما طالتها الشتائم الصريحة، بقيت على صمتها، فخرجت أمي عن طورها:

- نفسي أحرقك وأشاهدك وأنت تتفحّمين...

وانفجرت بنا صائحة:

- ابحثوا عن الكبريت حول الكانون.

الجمرات التي أشعلتها جدتي في الكانون طفا عليها رماد كثيف وربما انطفأت من تقاطر حبات المطر المتسللة من سقف بيتنا فلم يعد لنا من هادٍ لموقع الكانون إلا التلمس. كنا جميعاً نتخبط في تلمسنا للأرض ونسقط ما تصادفه أقدامنا وأيدينا، ومع كل صوت لسقوط شيء ما يأتي صوت أمي محذراً:

- أشم رائحة كاز.

جاء صوت توفيق من جوار الكانون:

- اندلق غالون الكاز.

صاحت أمي به: أبعد الكانون عنه لا تحرقنا...

في أحيان تتحول الأشياء الاعتيادية إلى عقد يصعب حلها، وقد

تحوّل الظلام وقرقعات المطر من الخارج إلى غيلان تعوي وتقترب من التهامنا.

جوف الظلام يبتلعنا واحداً واحداً. نبحث عن منفذ ولا نجده. عجزنا عن فعل أي شيء فأبقتنا الحيرة في مواقعنا، ننتظر القادم. غدا الوصول إلى حقائبنا المدرسية – في جهة من الصالة – هدفاً عزيزاً مع انبثاق فكرة استخدام ورقة من دفتر أيّ منا وإشعالها بجمر شيشة جدتي لإزاحة الظلمة التي شاركت المطر في هطلها الكثيف.

استطاعت سمية الوصول إلى حقيبتها المدرسية، وأخرجت كتاباً أو كراسة، واقتطعت ورقة، واتجهت متلمسة طريقها صوب اشتعال جمرات شيشة جدتي:

إذا تشابك الضوء مع الظلمة أحرقها.

نجحت سمية في الوصول إلى جمرات شيشة جدتي وبمجرد تماس الورقة مع تلك الجمرات طفا الضوء على سطح ظلمة تأرجحت كأمواج بحر عبرته سفينة. وكمن فتح باب سجن تسابقنا جميعاً للوصول إلى حقيبة سمية، الكل يشعل ورقة ويصيح فرحاً ملوّحاً بها في وجه ذلك الظلام فتراجع إلى زوايا داخلية من صالة جلوسنا، وكلما انطفأت ورقة أشعلت أخرى. كل واحد منا يحمل ورقة مشتعلة. كان الوضع أشبه بلعبة تدوير نجوم الليل في مواجهة ليلة حالكة. فجأة. ومن غير أدنى انتباه ارتفعت ألسنة النار في كل جوانب الغرفة، بدأت بخيط نار انطلق من جهة الكانون. وافترش بقعة كبيرة ساح بها كاز مدلوق لتمسك النار ببقية الفرش والألحفة المنبسطة في وسط الغرفة.

شبّت النار من كل الزوايا، واختلطت بصراخنا واستغاثتنا...

غمامة دخان أسود تلفنا وتبزغ من فجواتها ألسنة النار بفحيح ممتد تغلب على صوت تساقط زخات المطر. بقيت أصوات استغاثتنا عالية ونحن نتدافع إلى عمق الغرفة، وتشاركنا جميعاً في أمنية انشقاق سقف البيت ولبناته لتتخلى عما احتجزته من مياه الأمطار لعلها تنتصر أو تقطع ألسنة النار المتطاولة في تتبع أثرنا...

سارعت أمي بدفعنا لخارج الغرفة وهي تستغيث. ومع صراخنا واستغاثتنا تكوّمنا بعضنا على بعض فيما بقيت جدتي بعيدة عنا غير آبهة باندلاع الحريق وإن نازعتها رغبة النجاة فلم يعد بالإمكان تدبّر الفرار حيث تصاعدت سحب الدخان مالئة فضاء الغرفة ومظهرة سيوف النار الحادة القاطعة قلب من لا يخاف.

منظر غريب مرّ بنا في تلك الليلة. ظلمة تلتهمها ألسنة النار ويغرق لهبها في دوائر الدخان الكثيفة فيظلم المكان تارة ويتوهج تارة أخرى. يجلل هذا المنظر انصباب مطر زاد من عنفوانه فانبث له سقف غرفتنا مقللاً من مساحة ركض النار في اتجاهنا، وكأن ذلك الانبثاث جاء استجابة لدعوات أمي التي ضمّتنا حول جسدها وهي تلمسنا واحداً واحداً.

صراخنا استجلب المغيثين فدهموا موقعنا منادين علينا بوصية التفرق والتقدّم في آن واحد. أبان لهيب النار المندلع ضراوته، فتراجع المغيثون متدبّرين كيفية اقتحام فحيح النار الغاضبة من تساقط قطرات الماء على حضورها لتزيد من دخانها الكثيف، وتنهض منه بألسنة لهب أشد قسوة.

جاء الاقتراح من فم مبخوت فتنادوا إلى تنفيذه بفجر غرفتنا من خارجها كي تنصب مياه السيول بيننا وتقلل انبعاث النار من الأسفل. فؤوس عديدة حملها المغيثون فكانت تضرب أساس غرفتنا من الخلف وتشارك جنون المطر والنار عربدتهما. كنا نضم بعضنا فرقاً، ضربات المعاول أحدثت فجوة جرى منها الماء المحيط ببيتنا قاطعاً على ألسنة النار ما تلوكه أسفل منا، فتصاعد لهبها على رؤوسنا، وتسابق نفر من المغيثين لاجتياز عتبة غرفتنا، وتناولونا كما تتناول حبات الذرة من تنّور ملتهب.

* * *

هي المرة الأولى التي أتعلق فيها بصدر مبخوت فتتغلغل رائحة جسده المبللة بالمطر في داخلي... حينها تمنّيت بقاء الحريق مشتعلاً على أن أظل بين أحضانه يدور بي أفلاك الكون ولا يهتدي إلى موضع أمن ينزلني فيه. تمنيت ذلك لكنها أمنية لم تكتمل، فسرعان ما أسلمني إلى أيدي المنتظرين خارج بيتنا وعاد مسرعاً يستكمل مهمة الإنقاذ التي برع فيها مع نفر محدود من أبناء الحارة.

– هل بقي أحد داخل الغرفة المحترقة؟

– الحمد لله كلنا خارجها.

قالت أمي جملتها وهي تلتحف بطانية ألقيت عليها أثناء الإنقاذ كي تحميها من اللهب المستعر، وحمدت الله أن البطانية سترت جسدها أمام الرجال الذين تجمّعوا حول المنزل.

أقسم جارنا لافي الينبعاوي على استضافتنا فيما كان الجيران

يتخطفوننا أيّهم يظفر بضيافتنا. فيما كان المطر ينزل غزيراً فتحنا له صدورنا بنشوة فقبل إنقاذنا كنا نتمنى الغرق على الحرق.

فيما كانت أقدامنا تخوض في المياة المنسكبة، التفت توفيق صائحاً:

- جدتي لم تخرج.

* * *

لم نتنبه إلى فقد جدتي إلا بعد أن استوينا داخل بيت الفلالي مفضّلين دعوته على دعوة لافي الينبعاوي، وكان صوت توفيق المنبّه إلى فقدها. سحبته أمي مدّعية أن عمّتها لجأت إلى سطح المنزل قبل اندلاع النار. في الصباح كانت جدتي قطعة خشب متفحّم جمعت الماء والنار في جسدها، ومضت إلى آخرتها.

صعقت أمي، وأصيبت بجزع أفقدها السيطرة على أعصابها حين رأت جثمان جدتي، أغشي عليها مراراً، ولم تفلح الجارات في تهدئة انفعالاتها وانتهى المطاف بنقلها إلى مستشفى الملك سعود لإيقاف انهيار أعصابها.

ويبدو أنها حملت ندمها في داخلها وأمضت بقية عمرها مستغفرة لذنبها.

قدمت عمتي في اليوم التالي ولم يكن بيتنا في حالة جيدة لاستقبالها هي ومن حضر معها، وكان خبر الوفاة محزناً لها، فقطعت عمرتها وحضرت غسل وتشييع جثمان أمها، وعادت من حيث أتت مستعجلة على إقامة سرادق عزاء بين أقاربها وأصهارها.

و لم أر عمتي بعد ذلك الحادث بتاتاً.

* * *

دخل الأعمى جابر تاريخ الحارة عنوة.

فشذوذ تصرّفاته أبقى أياماً حيّة في سجل تاريخ الحارة، يقولون: يوم جابر والبسس، ويوم زواج جابر، وليلة هروب زوجة جابر، ويوم جابر وغنمته، ويوم الراقي جابر، ويوم عمى جابر، ويوم ضياع جابر.

هي أيام تكتب هنا وهناك، يستجلبها القائل وفق حاجته في الاستدلال على حدث عبر هذا الحيّ، وجابر بصمة تاريخ في حياة الحيّ وحياتي.

لأيام سكن الدعاء بأفواه المصلين طلباً للغيث.

يخرجون من الصباح الباكر إلى فضاء متسع يجاور قصر الملك سعود، ويقيمون صلاتهم متذرّعين إلى الله أن يغيثهم، وتظل عيونهم تحوم بحثاً عن غيمة تتكوّر في بطن السماء، فتتلقاهم أشعة شمس مكابرة...

أعادوا صلاة الاستسقاء خمسة أيام متتالية، ففي كل صلاة يكتشفون خطأ أحدثوه. مرة قدموا الخطبة على الصلاة، ومرة نقصت تكبيرات الركعة الثانية، ومرة كانت الخطبة عن عذاب القبر، ومرة سها الإمام وصلى بهم ثلاث ركعات، وفي المرة الخامسة أتقنوا الصلاة بأركانها وشروطها وعادوا إلى منازلهم انتظاراً لهطل المطر.

وفي ليلة المطر أحدث جابر أمراً مضحكاً...

تداعى الكثيرون لرؤية ذلك المنظر وتقليل نقمتهم على جابر بتلك الضحكات المستهجنة، ومن لم يجد في داخله ضحكاً تضاحك شماتة بما آل إليه ذلك الأعمى الدعيّ...

قفز الرجال والصبية بين الأوحال، والمياه المتجمّعة والمندفعة هنا وهناك. الكل يريد أن يصل إلى موقع الحدث، وعلى أضواء شحيحة انبعثت من كشافاتهم التي يحملونها، واصلوا ركضهم وقطرات المطر المتساقطة تشكل حجاباً مائياً في ما بينهم، فتخرج كلماتهم وصيحاتهم مبللة وبقي تحفيزهم جافاً بأن لا يتلاشى المشهد قبل وصولهم.

كان المطر قد استباح الحيّ، وجرى ماؤه في كل الاتجاهات، ووقف الكثيرون من أجل تسيير المياه إلى خارج الأزقة الضيقة قبل أن يفجر أساسات البيوت، وانبرى الرجال إلى إنقاذ الأسر المحاصرة في منازلها ونقلها إلى الأماكن الآمنة، وانشغل العارفون بالكهرباء بفصل التيار الكهربائي عن تلك البيوت المبللة.

نزل المطر فجاجاً، وحرّك أصوات المحاصرين بمائه على مد أصواتهم باستغاثات متكرّرة، ومن كان بعيداً لم يسمع استغاثة جابر المختلطة بثغاء غنمة له جرفها السيل.

مبخوت تنبّه له في آخر لحظة وهو يتخبّط قبل أن يمتلئ فمه بالماء، فصاح بمن ينصبون «عقوماً» ترابية بأن يتركوا مسحاتهم ويتنبهوا لمن جرفه السيل قبل أن يغرق.

– ليتهم لم ينقذوه، فقد حمل كل القاذورات في فمه.

هذه المقولة ظنّ من سمعها أنها تحمل تورية عن سفاهة جابر

ومضت كمقولة لم تكشف خباياها إلا لاحقاً.

لسانه متروك خارج فمه، فبمجرد أن تسخن أعصابه يطلقه في الهواء كلهب نار مزوّد بنفطه.

لم تتوقع عائشة أن يتسارع فتيل غضبه لمجرد أنها منعته من الخروج خشية عليه من الغرق. سفّه خشيتها فهزيم الرعد أيقظ فيه حرصه على أن لا يفقد شيئاً يمتلكه، ومع شراسة البروق التي شققت ظلمة الليل لم تستطع شق بصره حين خرج متفقداً غنماته، و لم تفلح تحذيرات أخته في إعادته إلى داخل الدار مطالبة إياه بتأجيل رغبة اطمئنانه على غنمه ريثما ينتهي المطر. استعد للخروج وتحذيرات أخته عائشة تثقب سمعه:

– ستهلك في هذا الجو؟

– خير من أن تهلك غنماتي.

أحكمت قبضتها على ثوبه، فتفلّت من بين يديها متّهماً إياها بالتسيّب وعدم المحافظة على مكتسباته. وفي محاولته الفكاك منها أصاب فكها، فانثنت متألمة وهي تصيح به:

– لا تكن أعمى بصر وبصيرة ...

– أنا أعمى يا فاجرة...

لم يكتشف برده الباتر، فدار حول نفسه باحثاً عن الباب الخارجي متوعّداً إياها:

– عندما أعود سأعلمك ماذا يصنع الأعمى مع أمثالك يا بايرة...

لحقت به صائحة:

– أنت كالجدي ترضع وتصيح.

خرج متلمّساً اتجاهاته، و لم تزل فورته في طور التشكل ينمّيها بنعوت تظهر سفالة أخته، واعتوار عقلها الذي أفضى بها إلى أن تبقى معلقة في حلقه، وضاعت نعوته الزائدة بين انزلاق قدمه وتعرّشه للإمساك بأي شيء يقيه الانقياد لجريان المياه...

في تلك الليلة أيقن نفر من أبناء الحارة أنه لم يعد يرى بتاتاً، حيث سار باتجاه تدفق السيول، و لم يتمالك نفسه فوقع في وسطها وجذبته لمجراها، فرفع صوته عالياً:

– أغيثوا غنماتي...

جملته تلك، أضحكت من حضر الواقعة، وعطلت إغاثته لبعض حين، فمع تضاحك الحاضرين وتنادي بعضهم بعضاً لرؤيته وهو يتقلب بين مياه السيل وطلب إغاثة غنماته التي لا يعرف أين موقعها من هذا الليل البهيم. تخبّطه بين مياه السيل جعل منظره كلوحة حرص الكل على رؤيتها قبل أن تمسح.

الوحيد الذي استجاب لاستغاثته كان مبخوت الذي قفز في تلك المياه المتدفقة لاحقاً بجسد جابر المتقلب كعلبة فارغة، واستطاع الإمساك بياقة الثوب ورفعه إلى الأعلى بعد أن عب من الماء الجاري ما يكفي لتوسعة أمعائه للسنة المقبلة.

هذا المعروف قابله جابر بالشتائم المقذعة والاتهامات بسوء نوايا مبخوت الرامية إلى الحد من تكاثر أغنامه. كان صياحه مستنكراً من قبل الحاضرين:

– ماذا فعلت يعني؟ أمسكت بي وتركت غنماتي ولو أنك تركتني لما غرقت...

– وما أدراك أن غنماتك غرقت؟
الحاجة زهرا هي الوحيدة التي ندمت على انتشاله من بين السيولَ.

* * *

جابر لا يكره في الحيّ إلا اثنين: مبخوت والحاجة زهرا بائعة الفول السوداني.
وكلاهما يعكران مزاجه فلا يعرف أيّ منهما يحمل له الضغينة الأكبر.
التقاؤه بأي منهما يزيد توتره ويقربه من حالة الهياج التي عرف بها، وعدم تحديده لأيهما أعلى نسبة في معاداته قاده إلى وضعهما في مرتبة واحدة من الكره، وفي كل مرة يؤجل إنزال عقوبته بهما لكونه يكتشف أن ما نوى عليه لا يضاهي عمق المقت الذي يحمله لهما... يصف مبخوت بالرجل البغيض (وهذا النعت ملأ قلبي حقداً عليه).
تسكن الحاجة زهرا مع تسعة من أفراد أسرتها في حوش مقابل لبيته، وفي كل يوم – بل في كل لحظة – ثمة شجار يشتعل بينهما على أدنى شيء.
ما زال يذكر لها هديتها التي أودعتها جسده في بداية حلولها بالحيّ حين نقلت إليه عدوى فطريات طفحت على هيئة بثور حول جفنيه وانسابت مع انحدار وجنتيه وأبقته لشهرين يهرش موقعها ويتطبّب بكل أنواع الأعشاب الموصوفة من قبل كل من رأى حالته.
عرف في ما بعد أنه كان ضحية لعدوى الرمد الحبيبي (ودائماً ما يرجّح أن سبب عماه يعود لهذا المرض)، إلا أن هذا لا يغيّر من طبيعته

شيئاً، فخصوماته من الخصومات التي تنشأ من غير سبب ظاهر. يتحرك بغلظته إزاء كل ما هو غريب وغير متجانس مع وجوده، فالغرباء هم من يسرقون الطمأنينة ممن حولهم كما يقول. هكذا أسّس إيمانه في علاقته مع الآخرين.

لم تعرف الحاجة زهرا طريقاً إلى إرضائه. تفانت في التودّد إليه، وتقرّبت إليه بالهدايا وإرسال ابنتها أمون لتنظيف بيته وتسخيرها لأن تغدو خادمة له ولأخته، ومع كل جميل تسديه إليه يتسع كرهه لها ولأسرتها.

اعتراضه ليس محصوراً على وجودهم بالقرب من منزله. هو يعترض على وجودهم داخل البلد بالكامل، ففي كل صباح يلعن أفريقيا والسفن التي تقذف هذا العرق على شواطئ جدة ولا تعيده إلى أدغالها.

ذات ليلة لم يكن لديه ما يشغله فقد جفف غضبه بملاسنة مع مطيع عبد الجواد حول أمر تواضع أمام خصامهما المتعالي، وفي طريق عودته للبيت سمع باحتضار والد الحاجة زهرا. هذا الخبر حرّك في داخله رغبة في أن يتصف بالرأفة وهو إحساس متعالٍ في داخله يحرص على تأكيده بين الفينة والفينة.

حين رأى تجمهر الجيران حول بيت المحتضر، فكر في شراء تلك الصفة بتبديد ساعة من وقته غير الممتلئ بأية مشاغل، وقد أقدم على تبديد هذه الساعة جازماً بأن جاره المحتضر سيرحل قبل رفع أذان صلاة العشاء. هكذا خاطَب نفسه وهو يحمل كفناً ألقاه بين يدي الحاجة زهرا، وسارع بإبعاد أفراد أسرتها المتجمهرين حول فراش المحتضر، ووقف على رأسه يلقنه الشهادتين بعزيمة من ينتظر الرد

الفوري. كان المحتضر غائباً عما يدور حوله وحاول جابر استرجاعه من تلك الغيبوبة بدس فمه في الأذن اليمنى وإعادة التلقين بخشوع مصطنع، وكلما تلفظ بالشهادتين و لم يسمع ترديداً لها، جزم بأن المحتضر أغلق البوابة الأخيرة على وجوده الدنيوي. وصل إلى هذا اليقين بعدما أمضى ثلث ساعة ما يعني أن الساعة التي منحها لاكتساب صفة حميدة يحب أن تلصق به لم تنته بعد، ولا ضير في استكمال صنيعه تحت أنظار المترّبصين بما يفعل، فأخرج مصحفاً صغيراً من جيبه وأخذ يقرأ السور القصار. تجاوز سورة عم و لم يسمع الشهقة الأخيرة حيث بقي المحتضر يتزوّد بقليل من الهواء بحشرجة تتزاحم عند ترقوته. أحس بالضيق فقد جاء وهو على يقين من توديع محتضر ليس أمامه سوى اجتياز نفسه الأخير فإذا به يتمنّى أن يقوم بدور عزرائيل الذي تأخر في المجيء.

وجد نفسه أنهى جزء تبارك، وأخذ يتنقل ويختار قراءة آيات من السور الطوال، فقرأ آية الكرسي من سورة البقرة، وعشرين آية من سورة آل عمران، وتذكر فضل سورة الكهف فانتقل إليها. اجتاز سوراً عديدة، كان يقرأ ويرمق المحتضر بنصف عين، وبيده الأخرى يسكت نشيج أفراد أسرته المتعالي بين الحين والآخر، و لم يكن يتصوّر أن نفساً عصيّة على الخروج كتلك النفس يمكن أن يجدها تلاوع سكرات الموت بهذا التسويف والمماطلة.

عندما نظر إلى ساعته كانت تقترب من الخامسة صباحاً. شعر بالأسف على ضياع وقته مع كائن متشبّث بالحياة مثل شوكة صغيرة غابت في أرتال لحم فاسد.

ظهر عليه الشرود، وهو يلوم نفسه في مكوثه الطويل بحثاً عن تثبيت صفة كان من السهولة الحصول عليها لمجرد زيارة المحتضر وتلقينه الشهادتين والمضي بعيداً عن هذا العرق الذي لا يطيق التماس معه. لام نفسه التي انساقت خلف إرضاء كومة من الجيران الرديئين الذين لا يهبون المرء إلا النعوت الساقطة.

مكوثه الطويل مكّن الفضوليين من استراق النظر إليه وهو يتمتم بآيات القرآن في وضع لم يعهدوا رؤيته عليه. كان يبحث عن مخرج يخلصه من هذا الموقف السمج الذي أوقع نفسه فيه. أغلق مصحفه، وقبل أن يبادر بأي كلمة، رأى المحتضر يعتدل في جلسته ويتفحص المحيطين به حتى وقف بصره على ابنته زهرا، فشكا لها من شعوره بجوع قارس يفتّت أمعاءه. طفر غيظ جابر، وفز من جلسته هاماً بتوزيع شتائمه المقذعة على الحاجة زهرا وأبيها وكل عرق زنجي.

إلا أن التهليل والتبرك وتطويق أولئك الأفارقة لقامته كبح لسانه وفار زهوه حين حوّطوه متمسحين به ومقبّلين يده تبرّكاً بمقامه البهيّ واستجلاباً لبركاته.

* * *

في كل مكان له نبزة تعلق على سيرته، فيسير وأجراس نبزه تقلقل من خلفه.

تسمّيه أخته: جابر الملتوت. استلت هذه الصفة من سيرته الجامعة، بدءاً من مقدمه الذي كان وبالاً على أسرتها الصغيرة، وكان مجيئه مقابل رحيل أمه، فقد اعترض بطنها، وأراد النزول منفرج القدمين،

وظلت الداية سليمة عبد الله تعدل وضعه إلى أن أزهق روح أمه.

ويطلق عليه صبية الحي أبو سكينة.

شرر غضبه يطال كل ما حوله. قامته الأقرب إلى الطول ومنكباه العريضان تبقيه في حالة انقضاض دائم كمكنة تعطل جهاز توقيت تشغيلها، فغدت تعمل طوال الوقت.

لم يكن محبوباً على أية حال...

صبية الحي ينفرون منه كلما مر بينهم. ويبدو أنه يسن سكينه وصرامة وجهه معاً، فحضور وميضهما يسبقانه دائماً.

مع لعبهم لكرة القدم يكون حاضراً بشفرته الحادة. لم يروا نصلها بل رأوا أثرها، فنتيجة ممارستهم للعبة الكرة بجوار بيته تكون تقطيع الكرة، فإذا وقعت داخل بيته مزقها إرباً وقذف بها إليهم، وإن لم تقع بادر بالخروج إليهم والتربّص بكرتهم حتى تقع بين يديه فيحضنها ويسل شفرته ويقطع كرتهم أمامهم ولسانه لا يتوقف عن شتمهم وشتم آبائهم.

دائماً كانت شفرته تنهي مباريات صبية الحي حتى وإن لم يمض على انطلاقها سوى دقائق، ويزيد على ذلك بالخروج إليهم من البوابة الرئيسة رافعاً نصل شفرته في وجوههم مهدّداً إياهم:

– والقادم رأس أحدكم...

فيتنافر الصبية بين منحنيات الحيّ خشية من تهديده.

تبذيره في صرف الشتائم مبكراً على الصبية، تقاضى أضعافه حينما لم يعد قادراً على اللحاق بهم أو رؤيتهم ودس حذائه في فم من يعترضه...

كانت أمامه فرصة تحسين سمعته مع الصبية على الأقل إلا أنه فرّط بها، فصفته الغالبة تضيع أيامه في انتقاد كل ما يمر تحت بصره، حتى إذا بدأ يتلمّس طريقه ليلاً، كان أكثر استعداداً لمخاصمة الجدران.

و لم أكن لأعلم أن يدي التي شاركت في حصبه سوف تجعلني الوحيدة ثمناً لذلك الحصب وأنه سيقودني لكره الحيّ ومن يقطن فيه.

أوصته أخته عائشة بأن لا يترك حفراً في طريقه، فلعنها علانية واتهمها بالعقل الناقص:

– كيف لامرئ عاقل أن يحفر في طريقه...

واستلقى ضاحكاً من عتهها، و لم تذكره بنصيحتها وشتمه إياها إلا عندما جاورها في جلستها داخل الدار فاقداً لبصره ومنتظراً من يقود خطاه.

ومع ظهور عجزه يقيناً أصبحت كل الشوارع تلد صبية يتلذذون بإيذائه...

خرج من بيت الحاجة زهرا وهو يحمل صفة الرجل المبارك.

وندم على حصول هذا الفخر بين أفارقة لن يوصلوه بعيداً، وتمنى لو أن ألسنة أهل الحاجة زهرا ذربة لا تعاني من اعوجاج في نطق الكلمات العربية. ربما وصل صيته لكل أرجاء الحارة بأنه رجل مبارك.

وجد أن عليه تثبيت هذه السمعة، فحرص على أداء الصلوات في أوقاتها وأحياناً يسبق مؤذن المسجد في حضوره.

كسب شيئاً مما يحب، إلا أن تلك الحادثة لم تصلح اعوجاج مزاجه من الحاجة زهرا بل زادت من غيظه، فقد غدت هي وبقية أفراد أسرتها يتقربون إليه ويعدونه وهو يزداد بعداً ونفوراً.

هرب إلى السمعة الحسنة التي كسبها من بيت الحاجة زهرا لأن سيرته شاهت بسبب مبخوت الذي فضحه أمام الملأ، فصبّ عليه كل لعناته المسعورة.

حينما كان الضوء لا يزال ينعكس على عينيه، وقبل أن يصاب بالعمى الكامل، علم بسخاء مبخوت في توزيع المجلات التي يتم إيقافها ومنعها من التداول أو تلك المرسلة إلى الشركات أو أشخاص بعينهم، فتقرب إليه، وأمطره بالنعوت الفخمة والتبجيل الفائض عن الحد، وأبدى رغبة في أن يشمله تقسيم تلك المجلات التي يأتي بها من مجال عمله في البريد، فلم يصدّه، ومنحه مجلتين سارع إلى غرفته يقلبهما منتظراً رؤية ما يبهجه، وحين لم يجد ما كان ينتظره، امتعض، واتجه مباشرة إلى مبخوت قارعاً الباب بكل عنف، ومع إطلالة مبخوت قذف في وجهه المجلتين صائحاً:

– أتسخر مني وتقدّم لي مجلات لم أجد بها شيئاً؟

– لم تجد شيئاً؟ عمّ كنت تبحث؟

ارتبك للحظات، وعدل وقفته مقللاً من احتداده وخافضاً صوته إلى أقل درجة:

– مجلات السكس.

– ....

– أعلم أنك تعطي خليل المسلكي وحسين فلاتة ومحمد العمري، وها أنت تمنعها عني، والله ثم والله لأفضحك أمام كل الرجال وأخبرهم بأنك توزع مجلات السكس في الحارة.

قبض مبخوت على عنق جابر، وأخذ يجرجر به بين الأزقة إلى أن

أوصله إلى مركاز الحيّ، ورمى به أمام المقتعدين:

– هذا الفاجر يقول إني أعطيكم مجلات سكس.

وطلب مجلة كانت بيد محمد العمري يقلبها في ذلك الحين:

– أعطني يا محمد المجلة.

تناولها وانحنى على جابر، يقلبها صائحاً به:

– انظر هل بها صورة عارية؟

– ....

– لأنك وضيع تظن أن الناس مثلك.

وبصق عليه أمام المتجمهرين وعاد من حيث أتى.

نهض جابر ينفض ثيابه ويلعن هذا القروي الذي يفجر في الخصومة، مؤكداً أن ما قاله مبخوت مجرد ادعاء وأنه ذهب إليه مستقبحاً وجوده كرجل أعزب بين بيوت كلها عورات.

هبطت سيرة جابر لأدنى مرتبة بين رجالات الحارة، وامتنع الكثيرون عن مجالسته أو الحديث معه. هرب إلى السمعة الحسنة من خلال الحاجة زهرا وقومها حيث توافدوا عليه لقراءة القرآن على مرضاهم، وتقبّل بصاقه من غير غضاضة.

ومن هناك سلك طريقاً جديداً واكتسب لقب الرجل المبارك إلا أن إصابته بالعمى أخرت انطلاقته الكاملة في اكتساب لقب الرجل صاحب الكرامات.

* * *

جابر الأعمى، هي نبزته الجديدة التي ضاق بها.

توقفت الحافلة في باب مكة بجوار عمارة اليوبي وتناسل منها ركابها، واستلمت كل خطى طريقها.

هبط منها جابر متعثراً بالباب الذي أغلق عليه قبل استكمال نزوله. قذف بشاله على كتفه اليسرى مبدياً تذمّراً من لجاجة مساعد قائد المركبة. كانت شرارته لوم السائق في الوصول إلى نقطة النزول متأخراً، و لم يستسغ المساعد عنجهية جابر الواضحة، فتعمّد إنزاله بعد محطتين من نقطة نزوله، وأضاف إلى ذلك إغلاق باب الحافلة قبل أن يستكمل جابر نزوله، فتعثر وكاد يقع على وجهه الذي رفعه لملاحقة السائق ومساعده بشتائم طويلة وممتدة.

كان منظره وهو يطلق شتائمه لافتاً للمارة فهو يشير إلى غائب، وحين انتهى من دلق ما في فمه من نتن، استوت قامته وسار بمحاذاة السوق متفحصاً وباحثاً في العمائر المتجاورة عن لافتة تدله على مبتغاه. تهجئته المتعسّرة أوصلته لبوابة السؤال مباشرة، فاستوقف بعض المارة سائلاً عن عيادة العيون. تلقى إشارات توضيحية انعطف معها، ودسّ جسده في بناية استعجل صعود سلالمها رغبة في الإمساك بدور متقدم.

خضع لفحوص طويلة انتهت على لسان الدكتور المغربي:

– أنت مصاب باعتلال الشبكية الصباغي.

وسلسل له الأسباب المؤدية إلى اعتلال الشبكية كاشفاً له عن جملة من الأمراض، رتّبها له على شكل قائمة تبتدئ من فقر الدم الشديد المزمن وتمرّ بنقص بعض أنواع الفيتامينات كفيتامين «أ» وذكر له أن من الاسباب أيضاً التسمّم، و لم يجد جابر لدى الطبيب أملاً في

انقشاع عشاه الليلي بل حمله كرباً عظيماً حين قال له:

– تدنّي الرؤية لديك سيقودك إلى الإعتام.

– ما هو الإعتام؟

– العمى.

في البدء لم يكشف ضعف بصره إلا تلك العصا التي احتاج إليها ليلاً كي يتلمّس بها طريقه في منحنيات الأزقة.

داهمه العشى الليلي مبكراً. في البدء اشتكى من دوار يعصف به كلما نهض من جلسته ومع تسارع نبضات قلبه، أحس بغلالة سوداء تهبط وسط عينيه ليلاً. كابر كثيراً قبل أن يمسك بالعصا، وداوم على ارتياد العيادات الطبية على أمل إزالة عشاه الليلي...

إلا أن قدره قد كتب قبل ذلك بكثير.

عندما عاد من عيادة الطبيب أيقن أن العدوى التي تلقاها من الحاجة زهرا وانتشار حبيبات على جفنيه هي سبب إصابته بالعشى ومن ثم العمى، فزاد كرهاً لها وأقسم أن يفقأ عينيها بمجرد رؤيتها.

كان بحاجة إلى كثير من الصبر كي يتخطى محنته. تتوقف مقدرته على تحمّل عناء حالته كلما تذكر أنه لن يرى الفتاة التي سيقترن بها، ولهذا تفرغ للتحديق في صبايا الحيّ قبل مداهمة الليل وقبل وصول العمى الكامل إليه.

حدّد ثلاث فتيات كي تكون إحداهن زوجته، وفي انشغاله بالبحث عن علاج لعينيه تسرّبت الواحدة تلو الأخرى إلى بيت الزوجية من غير أن تنتظره أيّ منهن.

وحين قرّر الزواج كان العمى يسكن عينيه صباحاً ومساءً.

5

مبخوت حوّل باب بيته إلى مزار للصبية.

هرب منزله من الانثناءة الحادة لزقاق «المستعجل» واستقر في انبساطته النهائية مجاوراً من الجهة اليمنى بيت السقا صالح أبو ذنب الذي غادر «البيزان» بعد دخول شبكة مياه العزيزية وترك بيته مهجوراً يتقافز إليه المخمورون وطالبو المتعة، بينما جاورته من الجهة اليسرى بيوت المري وحسين أبو يوسف وخليل المسلكي وصالح الشرقي، في تسلسل يوصل إلى حوش مبارك موافي حيث تتجمع كتل الحديد المجلوبة من شوارع جدة لضغطها وإعادة تصديرها، وثمة فرجة ضيقة هربت من زقاق المستعجل وانحصرت بين بيتي يحيى عبد الله وموسى التكروني تكون ملاذاً لمن يلعب من الصبية...

يبدأ بيته بالبوابة الخضراء المشرعة على الدوام والمتصلة بانحناءين ركب أحدهما فوق الآخر ليسلماك لفناء ترابي ضم شجرة النيم الضخمة وشجيرات صغيرة لأنواع من الخضار قصيرة السيقان. وفي الزاوية اليمنى استقرت غرفتان ذواتا سقف خشبي إحداهما التصقت بضلع الشارع لتتنفس الهواء عبر نافذة خشبية تطل على بيتنا، وفي الجهة الأخرى تجاور المطبخ والحمام ليتبادلا نكهتهما في أوقات عمل كل منهما.

وعلى حبل طويل امتد من فروع شجرة النيم إلى مرزاب المطبخ ألقيت ملابسه لتجفيفها بعد غسيل يبذل جهداً في دهك أوساخها بصابون افتقر لرغوته. كان يفعل هذا قبل أن تقوم بهذا الدور زوجته

مؤنسة التي جلبها من قريته كما تجلب البضاعة الكاسدة.

في عصر يوم الجمعة يتحوّل بيته إلى مزار لصبية الحي، فقد ألف تزيين بوابة بيته بالبالونات والأشرطة الملوّنة وألعاب مختلفة الأنواع والأحجام يجلبها من سوق باب شريف وفي أحيان من الخاسكية. وعندما يتراص الصبية يسمح لهم بخلق ضجيج ومناداته لتوزيع هداياه... ويعلن عن مقدمه من داخل البيت بنفير بوق متقطع، فتتعالى الصيحات ويندفع الصبية إليه مهللين، فيعيدهم إلى الوراء ويقذف بالألعاب في الهواء فيتقافزون لالتقاطها قبل أن تقع على الأرض ومن لا يستطع القفز وخطف لعبته فلن يحصل عليها، فقط عليه أن يبقي أمله موصولاً بقفزة قادمة في تالي الأيام.

الصبايا لهن خصوصية فلا ينثر ألعابهن في الهواء بل يوشوش لكل واحدة بموعد لتأتي من أجل أخذ هديتها.

عزف عن مجالسة رجالات الحارة، ولا يقبل بأحد يجالسه في متكئه الذي ارتضاه لنفسه.

فمع دخول الأصيل يهيّئ جلسته، إذ يرطب المكان بماء ممخض بالورد، ويسند كرسيّه الخشبي بزاوية منفرجة، تجاوره طاولة صغيرة تحمل ثلاجة الشاي ومسجلاً وعدداً من الاشرطة، يستفتح ويختم جلسته دائماً بأغنية محمد عبده:

أغنم زمانك أمانة يا حبيب اغنم
ما دام عادك صغير السن طيشانِ
خايف عليك بعد ستعشر سنة تندم

لا أعرف لماذا كنت أستقبل هذه الأغنية كرسالة خاصة، فيمتلئ قلبي حبوراً، وأنتشي. أخرج من بيتنا لأعدو أمامه كمهرة تبحث عن لجام يريحها من كل ركضها.

تسبّب بإصابة عينيّ بالتهابات حادة لازمتني لأيام. كانت تلك مزحة لم أفقه فحواها حينها، فقد كنت أصطف مع الصبايا للحصول على الهدايا و لم أكن أنظر إليه مباشرة بل أطبق أجفاني وأنصت لانسياب صوته في داخلي مباشرة، وأحس بأنفاسه تحرق خديّ حينما يوشوشني كي أعود في وقت لاحق من أجل تسلّم هديتي. مرّر إغماض عينيّ ثلاث مرات مكتفياً بترديد:

– وصلت الغاضبة.

نفرت في المرة الرابعة وردّدت عليه:

– لست غاضبة.

– إذاً لماذا لا تنظرين إليّ ودائماً تغمضين عينيك؟

– تؤلمانني...

– هل أدلك على ما يزيل ألمهما؟

هززت رأسي، فأمسك بجديلتي ضاحكاً وهابطاً بيده للشامة المستقرة أسفل عنقي:

– اغسليهما بالملح.

لم تكن عيناي تشتكيان من شيء، فقط لم أكن أقوى على احتمال الاقتراب منه والتحديق في وجهه مباشرة، وكلما حدث ذلك

أغمضت عينيّ. وصيّته بغسلهما بالملح حسبتها أمراً سوف يزيل ارتباكي ويمكنني من التحديق فيه عن قرب. كان كلامه بالنسبة لي كلاماً منزلاً، عدت للبيت عازمة على تنفيذ وصيته وقد استعصى عليّ كيفية غسلهما بالملح. رششت كمية متساوية من الملح في راحة يدي، وفتحت محجريَّ، وكبستهما ملحاً.

عندما فعلت ذلك استقرت جهنم في عينيّ و لم يتوقف صراخي لليلتين متواليتين، عجزت فيهما أمي عن تطبيبي، وجرّبت كل القطرات التي وصلت إليها يدها، وأخذت تلعن أبي بصوت مسموع معللة لعنه بكونه يخذلها دائماً ويتركها تواجه الحياة منفردة.

استطعت في اليوم الثالث فتح أجفاني وامتلأ حوضا عينيّ باحمرار قان.

6

حملت ذاكرتنا جمال صباحات العطل الصيفية فهي صباحات ندية رائقة تتمايل مع تهدّج صوت المقرئ عبد الباسط عبد الصمد المبثوث عبر موجات الأثير من إذاعة جدة. رخامة صوته تكسب الصباح رونقاً أخاذاً ولا أعلم لماذا تكرّر خلال خمسة صباحات البدء بتلاوة قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ...)

هذه الآية حفظتها عن ظهر قلب، و لم أستشعر بقدرية سماعي لها مراراً إلا متأخراً، ومتأخراً جداً.

أعشق صباحات الإجازة بهدوئها، وارتواء مفاصلنا بشلالات نوم مسترخٍ لا جلبة فيه، أو حث متواصل على الإسراع بلحاق الطابور الصباحي. في الإجازة ثمة استرخاء ممتد، يفيق إخوتي واحداً تلو الآخر من غير جلبة، ونتنادى من أجل استدارتنا على فطور جماعي ننهيه بالتقافز للشارع ومشاركة بقية الصبية ألعاباً جماعية.

رحل مبخوت مع الأيام الأولى للإجازة الصيفية في ذلك العام.

الأيدي التي تقاسمت قامته ضرباً استطاعت خفض انتصابها الدائم فمضى مخبّأً يحمل انكساراً عجزت صلابته عن ترميمه.

تبعته إلى أن دسّ جسده داخل سيارة الأجرة، كنت أسير خلف النابذين له صائحة به، أحياناً يكون الصوت أداة كسولة لا تثقب سمعاً ولا تنبه متقاعساً.

عدت للبيت في حالة يرثى لها. كنت أنتحب، وقد تغطى رأسي بطبقة تراب تلبّد بين خصلات شعري المتطايرة، وتنّورتي البيضاء علقت بها آثار دم طازج. استغاثتي الملهوفة بأمي أخرجتها من داخل البيت، فتلقفتني جزعة:

– ما بك، أين كنت؟

ظل سؤالها معلقاً على مسامعي وحالة غضبها تنمو مع بكائي المتواصل والمتقطع بنشيج أمدّه بملء هواء رئتيّ وإطلاقه حاراً. هيئتي مزرية وصوت أمي يتكرّر:

– أين كنت؟

احتاجت لهز كتفيّ مراراً وهي تكرّر سؤالها قبل أن تصل إلى ثورتها العارمة وهي تسمع ردّي:

– في بيت مبخوت.

تفحّصت تنورتي، والتصاق بقع الدم بمقدمتها، وضربت على صدرها مولولة:

– لعنة الله عليك في كل كتاب.

وأخذت برأسي تجرجرني إلى داخل غرفتها، وانهالت عليّ ضرباً مبرحاً وهي تخلع ملابسي على عجل، فلخت فخذيّ، ولامست الدم الجاري بينهما وأطلقت صرخة عالية:

– هل كنت آخر ضحاياه؟

أمسكت عن صراخها، وأخذت تحوم داخل الغرفة محوقلة ومستغفرة، وكلما ارتفع نحيبي عاد ضربها أشدّ إيلاماً.

أرسلت في طلب أبي مع التأكيد على حضوره في أقصى سرعة،

وعندما جاء سألتني مرة أخرى:

– هل كنت آخر ضحاياه؟

أهزّ رأسي فلا تجد ما يهدّئ من ثورتها سوى شد شعري وتوالي رفساتها على أي موقع من جسدي.

أشبعتني ضرباً مبرحاً و لم تسألني عمّا يبكيني.

مع رحيل مبخوت تغيّرت حياتي فجأة، ارتديت العباءة، ومنعت من الخروج، و لم يعد أبواي يخاطبانني، آخر صوت سمعته من أبي:

– أنا بريء منك.

منذ حريق جدتي تغيّر سلوك أمي تماماً. أبقت فقط على رغبتها في الشجار وإن لم تجد من تخاصمه خاصمت ذباب وجهها. نرتاح من صراخها حينما تدخل إلى الصلاة. فجأة تخلت عن خرجاتها ودخلاتها واختارت موقعاً داخلياً من البيت جعلته محراباً لها، وغدت طوال الوقت واقفة تصلي. تنهض عن سجادتها لتجهيز وجبات الأكل أو تنظيف حجراتنا، وتعود إلى محرابها، وتوكل مهمة جلي وغسل الصحون إليّ وإلى بقية إخوتي. زادت قسوتها عليّ تعبر وجهي بطرفها وكأنها لا تراني.

كرهتها وكرهت أبي، وزاد بغضي لهما حين قذفاني في بئر مظلمة.

مغادرة مبخوت لحيّنا صادفت أيام الإجازة الصيفية، حينها اجتزت الصف السادس بامتياز، لم يقدر هذا المستوى سواه هو، فأهداني ألبوماً لحفظ الصور له غلاف عشبي، تزيّنه صورة فتاة التفت بجذعها حول شجرة بينما شعرها تطاير من خلفها، وحلقت حولها

عصافير الكناري بألوان تموجت في امتزاج بين الأزرق والأصفر.

وأول صورة وضعتها في ذلك الألبوم كانت صورته، وهي الصورة التي اختطفتها من أسفل سريره حين كنت مرافقة لجدتي وهي تطبّب زوجته مؤنسة من حمى أكلت أنفاسها.

أُخرجت من الغرفة التي احتجزتني بها أمي بعد أربعة أيام، وربما كان خوفها من أن ألحق بجدتي هو السبب وراء اتخاذها ذلك القرار، وخشيتها من أن لا يحتمل ضميرها وخزاً جديداً في التسبّب بقتل روح أخرى.

نُبذت داخل البيت، وكثرت الممنوعات المضروبة حولي، وكان أبشعها حرماني من الخروج لخارج البيت أو الالتقاء بصديقاتي.

انسحابي المفاجئ من الشارع جعل أمي تبرّر ذلك بكوني غدوت فتاة ووجب احتجابي. لم يعد لي من منفذ أطل به للحياة سوى نافذة خارجية كانت تربطني بمخبوت أراقب اقتعاده اليومي من خلالها، أو الصعود إلى سطح منزلنا ومشاهدة أسطح الجيران المتجاورة التي تتنافر منها أنواع الحمام الذي تعهد بتربيته بعض الجيران، ومع دخول أمي إلى محرابها أركض باتجاه النافذة متخيّلة أن مبخوت ما زال يقتعد مكانه حتى إذا استشعرت فقده، داهمتني الحسرة وذرف الدموع.

انطفأ المكان الذي كان يقتعده، لم يعد منيراً. تمضي العصارى باردة ساكنة، وبابه الأخضر الكبير أغلق، وتمسك جدار بيته بكلمات نابية كتب جلّها المتجمهرون حول بيته يوم أن طرد، فبقيت في مكانها مانعة نسيان مبخوت. ظللت أتهجّى حروفها الصغيرة البعيدة أو المنزوية عن نافذتنا المقابلة لبيته. كانت كلمات عارية تماماً لم يسترها طلاء بعد رحيله.

في حبستي هذه، وددت لو أني لحقت به و لم أعد إلى بيتنا.

* * *

كل أهل الحيّ يتذكرون ليلة ويوم زفافي...

و لم يمسكوا بهذه الذكرى إلا لتفردها، وغرابة هذا الزفاف في توقيته أولاً، حين أصر جابر على إقامته ظهراً، وتغامز الكبار في ما بينهم في تأكيد ذئبية جابر وتوقه في كسب الوقت للاستمتاع بافتراسي في وقت مبكر لعل ضوءاً طائشاً يسكن بين عينيه.

وتلتها حادثة أخرى حين انتقلت إلى داره، واشتعلت الحارة بخبرها وظلت غارقة في الأفواه، وكلما شاهدت نساء الحارة فتنتي تحسّرن عليها لكونها مدفونة في أرض عمياء.

* * *

ارتباطي بجابر بدأ بلعبة الرجم...

أول من حصبته أمون ابنة الحاجة زهرا، وتحوّل ذلك الحصب إلى لعبة تتناقلها البنات في ما بينهن كشغب يحرصن على مداراته، حتى إذا جمعهن جامع تكاشفن وأفصحت كل منهن عن تجربة رجمها لجابر أثناء سيره لأداء الصلاة.

فقد روت أمون حصبها له مشبّهة ردة فعله بانفعالات الحمار المهموز في موقع همزه، وكل من سمعتها وهي تصف حالته أرادت معرفة كيف تكون ردة فعل الحمار المهموز...

ومع كل حصى تلقى عليه تروي الحاصبة ردة فعله، وكل منهن لم

تستطع إيصال الصورة إلى ذهني وإن كنا نتسابق في الضحك ونحن نتخيّله يعمق بصره فلا يرى شيئاً فيستعيض عن عماه بإدارة عصاه حول جسده ورفع صوته بالشتائم المهورة باسمه.

كانت له شتائم معروفة تتندّر بها النساء في مجالسهن إن جاء ذكره.

لم أحبّه قط. كان فاجراً، وقد فجر في خصومته مع مبخوت، وسمعت أنه شارك في التقوّل عليه وأنه من حمل لواء المناداة بطرده من الحيّ. ويوم مغادرة مبخوت سمعته يصيح:

– مكنوني من قرع رأس هذا الفاسق بعصاي.

فازداد كرهي له.

مع صلاة العشاء يخرج باتجاه المسجد يتلمّس طريقه بعصا طويلة معكوفة لها رأس فضي، وشّى امتدادها بلاصق ملوّن، تداخل باللونين الأسود والأصفر إشارةً لناديه المحبّب الذي انتهت علاقته به كمشاهدة، واكتفى بسماع أخباره بعد آخر مرة حضر فيها للملعب، ومُني بسقوط عن المدرجات كسر فيه ذراعه اليمنى.

يصفه داوود خيّاط بالفأر المدلوق بماء حار فلا تعرف أيّ جزء منه انسلخ، وإذا رأيته مرة أخرى أيقنت أن ركضه تسبّب بإبقائه حياً.

يدب مزمجراً يخاصم الهواء العابر، وقد صك أذنيه عن أي نصيحة تقلل من فورانه، وإذا عبرت مسامعه نصيحة جعل من أطلقها يتمنّى أن لا يرى ذرية كي لا تتناقل ما وصمه به. عنيف اللفظ والطرق مثل إبرة مكنة الخياطة ترتق الجهتين في آن واحد. عنفه مع الآخرين يمنعه من الشكوى أو إظهار ضعفه، فكان يتحمّل الحصب سائراً في طريقه من غير إظهار تذمّر مسموع وإن كان داخله يغلي غلياناً يبخر ماءه بلسانه.

أخته عائشة هي الوحيدة التي أشفقت على ما يجده في طريقه المؤدي للمسجد، وخففت عنه ما يلاقيه من إيذاء بتذكيره بأن ذلك سيصب في ميزان حسناته...

مضى أسبوعان على مغادرة مبخوت للحيّ، وعشرة أيام على خروجي من محبسي الذي اختارته لي أمي، تحرّري من حبسي داخل البيت فقط مع الإبقاء على منعي من الخروج للشارع أو النظر من النافذة لأي سبب من الأسباب. كانت غرف وسطح البيت هي الأمكنة التي تستقبل تجوالي، وكان حظي عاثراً حينما نويت الاقتصاص لمبخوت من ذلك الأعمى اللعين، وقد نويت فلق رأسه كما نوى فلق رأس مبخوت، فأعددت حجارة شديدة السواد ملساء الملمس (طلبت من أخي توفيق جمعها)، وصعدت لسطح منزلنا منتظرة عبوره. احتجت أن أدلي طرفي الأسفل من أجل التصويب وإصابة الهدف...

اخترت حجر صوّان ذا كتلة ثقيلة وباعدت ساعدي قدر استطاعتي ومع موازاته لموقعي أطلقت عليه قذيفة لم تصبه لكنها أصابتني.

ففي ذلك المساء كانت أخته عائشة تتبعه عن قرب من أجل أن تعرف من ذا الذي يحصب أخاها (عرفت هذا لاحقاً).

ومع ارتطام الحجر بجدار بيت الميمني، كانت عائشة تنادي عليّ:

- رأيتك يا فتون، وأبشري.

هذا الكشف جعلني أنتظر عقاباً سيصلني حالما تشتكي عائشة على ما فعلته بأخيها. لم يكن العقاب هو الذي يلهب حواسي بل الخشية من أن أعود سجينة في غرفتنا الداخلية.

مضى الوقت و لم تأت خالة عائشة - هكذا دأبت على مناداتها - وتوقعت أن تطرق بابنا في اليوم التالي إلا أن ذلك لم يحدث.

استشعرت في ظهيرة اليوم الثالث حركة غير معتادة، تجلت في بقاء أبي مستلقياً على سريره و لم يدب مع نجمة الصبح بحثاً عن رزقه كالعادة، وانشغال أمي بتنظيف مجلس الرجال وإضفاء لمسات جمالية إضافية على الكنبات والستائر وتوزيع طاولات جانبية وضعت عليها شتلات ورد بلاستيكية، وتجهيز أنواع من الحلويات، وقد استعانت بأمون ابنة الحاجة زهرا لمشاركتها في كنس مقدّمة البيت وداخله، وتلميع دلة القهوة وإبريق الشاي، وتبرّعت جارتنا حليمة نور بتقديم كعكة محشوّة بالمكسّرات اشتهرت بإجادتها وتقديمها لجيرانها في المناسبات أو إذا طلب منها.

تنقلاتي المحدودة داخل البيت جعلت قدومي إلى أيّ ركن منه مقبولاً. ومع عصر ذلك اليوم عبرت بغرفة أبويّ فسمعتهما يتناجيان همساً ثم ارتفع صوتهما بالقدر الذي يجعله يتسلل إلى أي أذن تعبر بالقرب من باب غرفتهما:

- أنا غير مطمئن على دفن قطعة منّي عند هذا الأعمى.

- أقول لك رأيت دم بكارتها يسيل من بين فخذيها. ندفنها عند الأعمى (ولا أحد شاف ولا أحد دري).

- لماذا لا نكشف عليها فربما لم تفقد بكارتها؟

- أقول لك جاءت من عنده ودمها بين فخذيها، فهل تريد الفضيحة؟

غمغم بجمل لم تصلني إلا نغمة تذمّرها من تصلب رأيه لتقاطعه مستحثة إياه على تجهيز هندامه، واستقبال الضيوف في أحسن هيئة

وترك الأمر لها.

بنفسٍ مرّة سحبتني أمي لدورة المياه، وأجرت لي تنظيفاً كاملاً عرفت يومها أن هناك شعراً يزال تماماً، وحرصت على تبخيري وتطييبي ودهنت شعري بمحلول عطري تتفنّن في تركيبته وتوليفه من عدة عطور محلية.

- ماذا يحدث يا أمي؟

- لا تقولي أمي، وما أفعله أحاول به دفن فعلتك قبل أن تدفنينا بفضيحتك.

- أي فضيحة؟

لكزتني بيمناها على فمي:

- لا أريد أن أسمع كلمة واحدة.

ومع أذان العصر خضعت لعملية تجميل إضافية على يدي المزيّنة صفية محمود التي أبدت مهارة فائقة بتنقل يديها على وجهي بأناقة وخفة، وحالما انتهت من أداء مهمتها أسلمتني لأمي مكبّرة ومحوّطة، ارتديت فستاناً جديداً، جلبته الدلالة حليمة خيبر وغالت في سعره كما سمعت من حديث أمي لجارتنا صفية برقوق.

كان أذان المغرب قد حل مع توافد صديقتيْ أمي المقربتين فاطمة يحيى وليلى مبارك لتكونا في صحبتها في هذا الحدث المقدّمة عليه من غير استظهار كنه.

وبعد انتهاء الصلاة طُرق بابنا الخارجي، ودلف منه جابر وإمام المسجد وأبو غنيم (صاحب المخبز) ويوسف معشى، ومن خلفهم ثلاث نسوة عرفت الخالة عائشة من بينهن.

الاندهاش والحيرة أبقياني داخل الحدث لا أعرف ما الذي يجب فعله.

– هل هذه شكوى؟ وماذا عن كل هذه التحضيرات؟

بقيت في غرفتنا الداخلية بينما توزع حضور أبي وأمي في المجلسين الرجالي والنسائي، ومع انطلاق الزغاريد من مجلس النساء، رغبت في استكشاف ما الذي يحدث، فسرت على أطراف أصابعي، مسترقة السمع لما يدور في مجلس الرجال، فظهر صوت أحد الرجال (وأظنه إمام المسجد):

– جابر يريد النظرة الشرعية.

ارتفع صوت أبي مستنكراً:

– وهل يرى؟

أجابه نفس الصوت: وإن لم ير فهذا حقه الشرعي.

زفر أبي بحنق كاتماً غيضه، ونهض باتجاه الباب، فأسرعت بالعودة إلى غرفتي.

مضت لحظات وأنا متهيّبة ومستنفرة المشاعر لا أعرف ما الذي ينتظرني.

سبقته عصاه المعكوفة تقوده أخته عائشة ومن خلفهما أبي وأمي، في ذلك المقدم شاهدته كحمار وقف وفرق بين قوائمه رافعاً رقبته ومتشمّماً الهواء من حوله:

– رائحة جميلة، هل هي رائحة ابنتك؟

تمعّر وجه أبي، ولاذت أمي بالصمت فيما ارتفعت تكبيرات عائشة وأتبعتها بالصلاة والسلام على سيدنا محمد:

– أش كل هذا الزين!

تبعها صوته:

- جميلة.. جميلة، لا تخدعيني يا عائشة.

- سبحان من خلق وصوّر.

- قرّبيني منها... قرّبيني.

شعرت بالتقزز وهو يتشمّم رأسي، ولولا يد أبي التي رفعت من انحناءته المخيّمة على جسدي لاستنشقني كاملة.

- تعرف أني لا أرى، ولي طلب أخير.

نفر أبي بضيق: ما هو؟

- أريد معرفة طولها.

- وكيف السبيل إلى ذلك؟

حثّ أخته على أن توقفني، وشرع يشبر قامتي بيده اليمنى مبتدئاً من رأسي.

أنهى تشبيره متأففاً من طول قامتي. كان أبي على وشك جذبه من عنقه لولا تثبيط أمي وإمساكه وإبعاده عنه قائلة:

- يستحسن أن تعودوا للرجال.

سحبته أخته وهو يردّد:

- أفضل يا عمة أن يكون الزواج الأسبوع القادم مثل اليوم تماماً.

مع انسحابه إلى مجلس الرجال فرّت من عين أمي دمعة، وهي تتمتم:

- يقول لي عمّة وهو يكبرني بعشر سنوات إن لم تزد.

تمخطت في منديل سحبته من صدرها وواصلت متناشجة:

- كنت أنتظر هذا اليوم لأسعد بك لكنك حرقتِني الله يحرقك.

وأعادت نفس الجملة في يوم زفافي.

7

ليلة الدخلة كانت بلاءً عظيماً.

امتنعت أمي عن إيصالي إلى بيت الزوجية، فقامت بالدور الخالة عائشة، وهي ما زالت تحولق وتسمّي، وتحوّطني بآية الكرسي، وأصرت على تغطية وجهي أمام النساء خوفاً من عين حاسدة عابرة أو مقيمة.

– ألم أقل لك أبشري، ها أنت تنالين مرادك.

عرفت معنى كلمة «أبشري» التي أطلقتها عائشة في ذلك المساء المشؤوم الذي حصبت فيه أخاها.

شكوى أخيها من حصب الطرقات أرّقتها، وأخذت تهوّن عليه الأمر، عاقدة العزم على معرفة الجاني، وكسر يده، فتبعت ممشاه لتعرف الفاعل. رؤيتها لي شرحت صدرها، واستقبلت عودة أخيها من المسجد بالتباشير.

– المرأة إذا شاغلتك فهي تحبّك.

ولا أعرف كيف صوّر لها عقلها المريض أن قذفي لأخيها هو عشق مبرّح، وكعادة العقول السقيمة ربطت بين ثقل الحجر المقذوف وعمق حبي لأخيها.

الاحتفالية الكبيرة التي أقامتها أمي بمناسبة الخطبة لفتت انتباه الجارات، فتقوّلن بما شئن من أقاويل، وكان اللوم منصباً أن فعلتها ستغدو سنّة تتبع في الحيّ لم يكن معمولاً بها في أي زمن، ونشرت بدرية حسن استهجان الجارات وتقوّلهن بفرحة أمي على صيدها

لأعمى اقترب من الخرف طمعاً في الاستحواذ على ممتلكاته من عقار وأموال سائلة، وتأكد هذا الظن بموافقة أسرتي على كل طلب يتفوّه به جابر.

و لم يشأ هذا الأعمى إلا أن يكون نشازاً في كل شيء، فأقسم على إقامة حفل الزواج ظهراً.

تلقف يد أبي بعد صلاة الفجر، وسحبه إلى المحراب حيث ما زال الإمام في حالة تسبيح:

– يا شيخنا لو تفعل خيراً وتعقد لنا...

– يا جابر وهل أخبروك أني أؤم الناس وبيدي دفتر النكاح.

– نستطيع انتظارك حتى تأتي به.

وألح في الطلب، مبقياً نفراً ممن حضر صلاة الفجر ليشهدوا إتمام العقد.

عاد أبي ليخبر أمي بما حدث بالتفصيل مبدياً غيظه من جابر والحظ العاثر الذي قربه منه. اكتفت أمي بمط شفتيها، وضرب فخذيها:

– ابنتك من أوقعنا في هذه المهانة.

– الليلة سينتهي الأمر.

– وما أدراك أن هذا الأعمى لا يكشف سترنا.

انتصبت قامة أبي من جلستها، وزفر ملوّحاً بيديه في الهواء في محاولة لإسكات انصباب فم أمي بمقولات تكدّر الخاطر فنفطت وجنتاه (غضب أبي يظهر على شكل حبيبات حمراء تفترش وجهه وتبقى لأيام)، تلجلج الكلام في حنجرته، وتيبس بين أوتاره الصوتية، و لم تسعفه تنحنحاته المتواصلة على صرف ما يريد قوله، فتحرك

لرشف جرعة ماء، وغادر البيت، وأغلق الباب الخارجي بعنف.
رأتني بطرف عينيها متوارية خلف باب غرفة الجلوس فصاحت:
- سوّد الله وجهك، أنت هنا؟

واصلت أمي إظهار قسوة غير معتادة، وقفزت باتجاهي وجذبتني من خصلة شعري:

- سوف أتخلص منك الليلة.

لم أكن أعرف ما تنوي فعله، استجبت كرهاً لجذبها حانية رقبتي في محاولة تخفيف ألم جذبها لمنابت الشعر. ملامحها اكتست بالجهامة والغلظة. اعترضنا ياسر المستيقظ للتو من نومه، فدفعته باليد الأخرى، ليرتد للخلف متعثراً بسجادة طبقت ليلة أمس بغير استواء، واتجهت بي لغرفة نومها، وألقتني على سريرها:

- أتعرفين هذه؟
- ....
- هذه غرفة الزوجية.

لم تكمل حديثها بسبب وصول ياسر باكياً فأخرت نيّتها ريثما تسكته، وتأخرت مرة أخرى بوصول الجارات اللاتي حضرن مبكراً لمعونتها في بعض التجهيزات.

رُفعت الزغاريد، وأخذت كل واحدة منهن تجرّب فمها في إطلاق زغرودة أكثر حدة وصولاً إلى المدى المطلوب.

انفردت بي المزيّنة صفية محمود مبدية تعاطفاً حيال دموعي الجارية. ضمّتني لصدرها، وربّتت كتفي، وأخرجت أدواتها لإعادة تنظيف ما قامت به منذ أسبوع.

توافدت الجارات، واختلطت أصواتهن بزغاريدهن، وانشغلن مجتمعات ومتفرقات بتجهيز لوازم ليلة العرس.

أسمع عن هذه الليلة ولا أعرف ماهيتها، وتتعلق بي الحيرة، فلا أجد وقتاً لتدبّرها فالأحداث متسارعة، ولا أعرف لماذا يحدث كل هذا، ولماذا أنا دون صويحباتي الأخريات.

تمنّيت لو أن مبخوت لم يغادر كي أذهب إليه وأسأله.

بعد نصيحته بغسل عينيّ بالملح، وما وجدت من تباريح الألم المضني، عوّضني بإغداق حنوّه عليّ، مانحاً إياي كل اهتمامه، يستمع لي بإصغاء مفرط ويضيف على ذلك تدليلي دون الصبايا مجتمعات، واصطفائي بهدايا غالية الثمن. كنت أبحث عن إيذاء نفسي لكي أتزوّد منه بتدليل مضاعف.

هلت الخواطر وأصابع المزيّنة تتنزّه في جسدي، تخيّلت صوته يتعالى في الخارج، فأيقنت من عودته إلى بيته. تحللت من بين يدي صفية، أنقب عن أي حاجة تجيز خروجي للشارع ومن هناك ألج تلك البوابة الخضراء أبكي بين يديه وأخبره بما تفعله بي أمي. سبحت في مخيّلتي بعيداً أفقت على خطوات الحاجة زهرا المتهادية وانحنت مقبلة رأسي، وأبانت استنكارها بلهجتها العربية المتداعية، ويبدو أنها ألقت بحمولة استنكافها مما يحدث على مسامع أمي، فشرحها لإيصال تعجبها من هذا الزواج جعلها تذكر المؤنث، وتؤنث المذكر في جمل غاب معناها. استشعارها بعجزها عن إيصال ما تودّ قوله اختصرته بتقبيل رأسي وعيناها تمسكان بدمع أوشك على الترادف.

انتفض المكان لجلبة صادرة من النساء المفترشات صالة الاستقبال،

وزاد الهرج والصراخ، وهنّ يتصايحن مستنكرات لاقتحام جابر صحن بيتنا، تسبقه عصاه في تلمّس خطواته، وصوته الخشن يجوب الآذان باستقباح:

– أين مراتي؟

لحقت به أخته عائشة محاولة الاعتذار من غير صوت، فحركات يدها تطالب الحاضرات بمسح خزيه في وجهها.

انبرت أمي تعنّفه على سوء أدبه بكشف ستر بيتها، فجاء رده أعمق تبجّحاً من فعله:

– أي ستر وأنا لا أرى شيئاً.

– ما الذي جاء بك؟

أخرج قهقهة نيئة، رافعاً عصاه بموازاة رأسه:

– أهذا سؤال يا عمة، جئت لأخذ زوجتي، ألم يخبرك زوجك؟

– بمَ يخبرني؟

اشترطت عليه عند العقد أن آخذ زوجتي مباشرة... هاتيها.

أصبح وسط دائرة النساء، يلوب برأسه في اتجاهات مختلفة متشمّماً الهواء:

– لا أشم رائحة زوجتي بينكن... أين هي؟

أصر على انقيادي له في تلك الظهيرة غير راغب في إقامة حفل العرس لاستواء الليل والنهار في عينيه، وأحدث خصومة فاحشة حين اعترضت أمي على طلبه، وأقسم أن أسير معه من ساعتها. إصراره أحدث غوغاء بين النساء وتجرأن على هتر ملابسه كل واحدة جذبته من جهة وهنّ يتضاحكن، مما أغضبه وجعله يدير عصاه ليصيب عدداً

منهن إصابات تفاوت ضررها، وارتفع صياحهن فتقافز الرجال من الخارج طالبين الإذن لهم بالدخول. أعتقد أن جابر لم يحمل أمنية في حياته كما تمنى أن يتدخل أي أحد كي يسعفه مما هو فيه. عصاه التي أصابت بعضهن جُذبت من يده، وتجاذبته النسوة، فوقع بين أقدامهن وتشاركن في رفسه ودهسه. الحاجة زهرا وجدتها فرصة مناسبة لأن تقتص منه، تقدّمت وانتزعته من رقدته بالقبض على لحيته فاستجاب لجذبها ذهاباً وإياباً صارخاً ولاعناً أخته التي تركته سخرية بين نساء فقدن الحياء، ما جعل الضحك يتفوّق على صراخهن السابق. خشيت عائشة إن ساندت أخاها أن تقع فريسة هياج النسوة، فأسرعت إلى خارج البيت تستحث الرجال للدخول وانتشال أخيها قبل أن تزهق روحه.

وقفت ياسمينة خالد خلف الباب الخارجي مانعة دخول أي رجل، محتجة بأن النساء متبرّجات وفي أوضاع متكشفة، وأن جابر سيخرج حالاً.

لم يخرج إلا وقد ارتضت كل من أصابتها عصاه بأن اقتصّت لنفسها بما يشبع رضاها، وتحاملن على حمله من أطراف ملابسه وقذفن به للشارع فوقع ككيس قمامة لم يحكم إغلاقه، فتبعثرت أناته ولعناته الطائشة على كل النساء، وأقسم على إحضار الشرطة وجرجرة كل امرأة اعتدت عليه إلى السجن.

تعدّدت أيمانه المغلظة، وكل قسم أطلقه لم يبرّ به...

تجمّع حوله رجال الحيّ الذين جاؤوا استجابة لصراخ النساء، مستفسرين منه عما حدث، فأظهر استياءه من أرحامه واتهم عمته

بتدبير ما حدث، وبقي أمام الباب يتهدّد ويتوعّد مصراً على انقيادي له في تلك الظهيرة.

ولكي لا يحنث بقسمه، تدخل إمام المسجد بحل أرضاه جزئياً، وزاد من تعكير مزاج أمي التي صبّت جام غضبها على أبي الغائب. كان الحل الذي اقترحه أبكر عيسى لإيهام جابر أنه أبر بقسمه أن يمسك بيدي ويزف من داخل البيت إلى خارجه، مقابل تنازله عن قسمه ريثما تقام مراسيم الفرح مساءً.

تنبّهت للمصير الأسود الذي أسير إليه من تلك الخطوات القليلات التي عبرت معه إلى بابنا الخارجي.

تقرر أن تقام ليلة الدخلة في برحة المشربي، واحتاج أبي إلى الدوران على شباب الحارة وتحفيزهم على معاونته في إقامة التيازير وفرش البسط، وتعليق خطوط الإنارة. كان يقوم بكل ذلك وغيظ مرّ استوطن صدره مما حدث في الظهيرة وكاد يذهب لقطف روح جابر لولا معارضة أمي وحثه على نسيان ما حدث:

– كيف يجرؤ هذا الخسيس على ذلك وفي غيابي؟

عاد أبي من عمله عصراً، وعلم بما أحدثه جابر من انتهاك لبيته، فاشتعل غضباً، وعزم على إلغاء الزواج، وتأديب جابر بكسر ضلع من ضلوعه إلا أن أمي وقفت في حلقه كشوكة موجعة مذكرة إياه بما ينتظره من فضيحة إن فعل.

– دع هذه الليلة تمضِ.

آخر المشاجرات التي شهدتها في بيتنا أحدثتها خالتي مستفسرة عن العجلة في تزويجي وأنا ما زلت صغيرة، ولماذا جابر تحديداً:

- هل اشتراها بماله؟

- هذا لا يعنيك.

صرامة أمي، وروحها الضيقة استنفرت غضب خالتي التي قاطعت الحفل، وأقسمت أن لا تحضره ولا تدخل بيتنا بعد اليوم. لم تظهر أمي أسفاً على هذه القطيعة، فهمّها الوحيد وصولي إلى بيت جابر بأي صورة كانت.

في بداية الليلة أحاطت بي نساء كثيرات، أغلبهن أظهرن شفقة على طفولتي. كانت ليلة تقترب من الحزن أكثر من اقترابها للسرور، تبرعت المطربة فاطمة عدنان بإحياء ليلة العرس مجاناً، فالمهر لم يكن كافياً لشراء الذهب والملابس، ولم تصدق جارتنا ياسيمن عمر أن المهر قصر عن الإيفاء باستكمال طقوس الزواج، ونخزت فاطمة عيسى أمي عند التهيّؤ للزفة:

- إذا كان الزوج ناقصاً ومهره ناقصاً، فلماذا ترمين ابنتك الصغيرة في هذا الجحر؟

مع اقتراب الفجر حانت الزفة. كنت نائمة بملابس العرس، فأيقظتني ياسمين عمر ملاطفة نعاسي الذي ثقل بي، وقادتني إلى مدخل الكوشة، لأجد أبي في انتظاري. تناول يدي، وسار معي بخطى ثقيلة بينما ارتفع رتم الدفوف معلناً الزفة، فقد تعذر على جابر حضور الزفة بسبب الرضوض التي تلقاها ظهراً، وتقوّلت النساء بأقاويل كثيرة عن عدم حضوره للزفة.

وجدت نفسي في مواجهته مباشرة داخل غرفته، أصابني الرعب وأنا أراه يتخفف من ملابسه بعجلة، وعندما انتزع آخر قطعة من

ملابسه كاد يغمى عليّ. بقي مني وجيف قلب متسارع. تعرّى كاملاً فظهر جسده كبالون لم ينفخ جيداً فتوزع الهواء الذي به رابياً في مكان ومنخفضاً في مكان آخر. أخذ يتلمس موقعي متشمّماً فضاء الغرفة، وأنا أتنقل بين زواياها. بدأ بالتغزل برائحتي التي يقول إنها سكنت قحف جمجمته منذ استنشاقه جديلة شعري، وذكر أنه أخذ يستعيد ملامح وجهي - قبل فقدانه لبصره - ويستملح لون بشرتي، متسائلاً عن الشامة التي تسكن أسفل عنقي أما زالت في موقعها (وما أدراه عن شامتي، هل كان يتربّص بالصبايا الصغيرات؟)... رعب حقيقي عشته، مع تنقلي كنت أضع أمام خطواته ما أجده من قطع أو أثاث في محاولة لإعاقة تقدمه. وقع مرتين، وعندما نهض كان غضبه قد استوى، فاحتد مطلقاً شتائمه وتهديداته متناولاً عصاه المسندة على طرف سريره وهزّها في الهواء مقسماً إن لم أمكنه من نفسي ليقرعنّ رأسي بما في يمينه. فاض خوفي عن حاجتي، فأمسكت بباب الغرفة وانسللت أركض للخارج على غير هدى.

* * *

أظن أن الحيّ مجتمعاً خرج يبحث عني.

منظره مفزع، ومع عريه الكامل لم يعد به شيء يمكن قبوله. تملكني الرعب، ووجدت قدميّ تنهبان الشارع بسرعة وخفة لم يعقها فستان العرس المشبع بالفصوص وكرانيش الدانتيل إلا أن وميض فصوصه يلمع كلما عبرت إضاءة منصوبة في تلك الأزقة. تمنيت لو أني خطفت عباءة أو أي غطاء يستر هيئتي.

مع ارتفاع صوت أذان الفجر الأول استعد الليل للإفصاح عن صبحه بتخليه عن صنصنته، وبهوت ظلمته، ونهوض الكلاب من ربوضها في المنحنيات، وحمحمة المشائين صوب المسجد، ومن على بعد تواصلت أحاديث وحركة من بقي يجاور برحة المشربي التي أقيم بها حفل العرس. كانت خشيتي أن أجد في طريقي أحداً فيعيدني إلى بيتنا أو بيت جابر.

وقفت ألهث أمام بابه الأخضر. دفعته فإذا به مغلق بإحكام. من فعل هذا؟ فيوم رحيله ترك الباب مشرعاً كعادته. لم أحتج إلى وقت فائض للتفكير بالوصول إلى عمق بيت مبخوت، فقد فعلتها ذات يوم.

ومن خلال ذلك المرقب المغروس في ضلع زقاق المستعجل حشرت نفسي بين جدار بيته وعمود الإضاءة الملاصق لبيت موسى التكروني، وارتقيت (كما فعلت سابقاً) وهبطت بجوار شجرة النيم.

أطرافي لم تعد مستقرة في مكانها. جريان الخوف أدى إلى اصطكاكها، وتحفزي لأيّ طارئ نبه حواسي لأيّ حركة قد تصدر.

جلبة وضوضاء بجوار بيتنا، وصوت جابر يشق سكون الوقت:

– أعيدوا إليّ مراتي.

قفزت للنافذة المواجهة لبيتنا، وألصقت عينيّ بخرم استقر على جنبها الأيسر. صراخه وانفعاله هبط بهما على باب بيتنا في طرق متوالٍ مستخدماً في ذلك رأس عصاه المعكوفة، وسرعان ما تجمّع الجيران حوله، مهدئين من انفعاله، ليظهر أبي أجرد الصدر مؤتزراً

فوطة أندونيسية ومبدياً انزعاجاً يقترب من التهوّر حين قبض على ترقوة جابر وشده للأعلى:

– ماذا تقول؟

لم يكن بمقدوره الرد وهو معلق على تلك الهيئة التي خلصه منها المجتمعون، فاستقرت قدماه على الأرض فصعد صراخه:

– أعد إليّ زوجتي وإلا فلن أجعلك تهنأ ما حييت.

أظن أن أبي استشعر الندم حين رد عليه:

– لم تعد ابنتي إلى البيت، فماذا فعلت بها؟

هذه الجملة مكنت جابر من الهياج صارخاً:

– بنتك هربت يا قاسم... ممكن تخبرني لماذا هربت؟

احتشرت أصوات الرجال بالنساء في ترديد لفظة هربت، ولم تصفُ إلا على صوت ميمونة:

– كأني رأيتها تركض في هذا الصوب...

وأشارت إلى زقاق المستعجل، تلقفتها أصوات متعددة:

– متى؟

– كنت لا أزال أجمع فناجين الشاي والقهوة في برحة المشربي، وحانت مني التفاتة فرأيت طيفاً يركض بشرعته وظننت أني واهمة...

لم يعقب على قولها سوى جابر حاثاً المجتمعين: اركضوا لإعادتها.

لم يقف المجتمعون على رد خيري مساوى:

– وهل نحن خدم أبيك؟

فقد تنافروا من على بابنا في انصبابة واحدة لعمق زقاق المستعجل... رأيت أمي تقف مستترة بستارة الباب، وقد بقيت

بجوارها ليلى عثمان وياسمين عمر وبقية من نساء لم تمكنّي الفرجة التي أطل منها من رؤيتهن.

انشق الصباح.

رحل مبخوت وترك حياة ضاجة به هنا. زقزقة العصافير تملأ شجرة النيم، ورفرفة حمام تتعرش بمرازيب الغرف، وشجيرات صغيرة أزهرت ثمارها، وقطط كثيرة مختلفة الألوان تموء من داخل المطبخ، وتسرح على امتداد الفناء باسترخاء وتقاعس، وملابس لا تزال مدلاة على حبل الغسيل الممتد من فروع شجرع النيم إلى مرزاب المطبخ. وفي نفس الغرفة التي طبّبت جدتي فيها مؤنسة، لا يزال فراشها القطني مغطى بملاءة بيضاء لها زخارف عشبية تنتهي أطرافها بعروق نبات الحنطة، تناثرت فوقه حبات فل وأغصان البعيثران والكادي اليابسة، وأسفل المخدة نامت زجاجة عطر لم تعد محتفظة إلا باليسير منها، شممتها فانبثقت رائحة مبخوت تملأ تجاويف خشمي. شرعت في تفقد خزانة الملابس، أخرجت ثيابه وكوافيه والشالات التي كان يتمنطق بها، ومن غير تنبّه وجدت نفسي أقذف بملابس مؤنسة على الأرض، وأتعمد الوقوف عليها، أسفل خزانة الملابس استقرت حقيبة حمراء تناثرت منها فواتير وسندات وأوراق مصفرة، ورسائل تلقاها مبخوت أثناء وجوده هنا... قرأت بعضها فأعيتني لهجتها ولم تكن سنّي كفيلة بإعطائي أبعاد ما استطعت قراءته منها. رسائل كثيرة لم أصل فيها إلى سلوى، فأعدتها إلى موضعها، وخطوت إلى الجهة اليسرى من الغرفة حيث استقر التلفاز، وذلك المسجل الذي يخرجه عصراً ويغيّر ويبدل أشرطته وفق مزاجه. مجاميع الأشرطة

وضعت في كرتون مستطيل غطي بقطعة قماش سوداء. غلبت على مجموع الأشرطة أشرطة محمد عبده، ووجدت أشرطة لطلال مداح، وفوزي محسون، وأبو بكر سالم بالفقيه، وأسماء لم أسمع بها من قبل: كالأنسي، ومحمد مرشد ناجي، ومحمد سعد عبد الله، والكوكبان، والقطعبي.

تشوّقت إلى سماع أي شريط منها. فكرت بالبحث عن شريط بعينه إلا أن نفسي راودتني بلعب لعبة الحظ، فالشريط الذي أختاره مغمضة العينين ستكون أغنيته بمثابة إهداء من مبخوت. أغمضت عينيّ وتسللت يدي إلى مجاميع الأشرطة والتقطت أحدها. وضعته في آلة التسجيل لينبثق صوت محمد عبده حارقاً مهيجاً النفس على البكاء:

قلبي اللّي لواه من الصواديف لاوي
جرَّحته الليالي والحظوظ الرّديَّه
والله انّي بوسط النّاس كنّي خلاوي
من يلوم المفارِق عقب فرقا خويَّه
أنا اشهد أن المفارَق من عظيم البلاوي
مير هذا نصيبك يا العيون الشّقيَّه
اتصبّر واقول انّي على البعد قاوي
والله اعلم بقلبٍ فيه الاشواق حيَّه
كيف راحت يا بوتركي حياتي شقاوي
وين درب السعادة والحياة الهنيَّه

وليت لاهل الهوَى والحب قاضي دعاوي
كان بشكي عيون الّلي فراقه خطيّه
كنّي المَبْلي الّلي قطّعته المِكاوي
كل ما جظّ بالونّات زادوه كيَّه

كانت رسالة غيبية تقف على جرحي تماماً. أعدت سماعها مرتين متتاليتين وأنا أعيد تطبيق ملابسه وأصغي إلى رسالة الحظ متشمّمة رائحته التي انبثقت من صدره ليلة المطر التي حملني فيها إلى بيت الفلالي. جاءت الأغنية مدببة الرأس أصابت هدفها بدقة، فأجهشت بالبكاء، وغبت في النوم. اختلطت الكوابيس باحتضانه لي، وتمسيد خصلات شعري، وصرامة أمي ومكتب العري للسياحة وأبي وتهادي امرأة مغربية تخرج لسانها وجابر ومائدة فاخرة التهمت نصفها، وهدايا تتساقط... تنبّهت من رقدتي على تجاوز وقت العصر، وجوع عاصف يعبث بمعدتي.

أسرعت للمطبخ فاستشعرت بثقل فستان العرس، فانسلخت منه وقذفت به جانباً، وتناولت فوطة من فوط مبخوت، وألقيت على صدري فنلة من فنلاته بعد أن سكبت عليها من عطره، فانسلت من على أكتافي، وواربتها في جهة واحدة وشددت رباطها، وأعدت تثبيت عيني من ثقب النافذة لمحت باب بيتنا الخارجي مواربا ولا أحد يقف بجواره.

تسارعت خطواتي للمطبخ وحمدت الله على وجود كيس رز تناصف وقارورة سمن وكبريت ما زال ممتلئ الأعواد وبصل اعتور

معظمه. غرست كفيّ في كيس الرز مكتفية بما امتلأت به، وألقيته في قدر متوسطة الحجم، وقلبت حبّات البصل بحثاً عن الصالح منها، محاولات إشعالي للنار باءت بالفشل. أشعلت أكثر من ثمانية أعواد وأعين الغاز لا تستجيب للاشتعال، اتضح لي أن الأنبوبة ليست في مكانها وبحثت عنها تنقلت في كل الزوايا من غير أن أصل إلى ضالتي.

قرقعة أمعائي واصلت استغاثتها، وليس بالمطبخ شيء يسد الرمق. مواء القطط خارج المطبخ جذبني، فوجدت أعداداً كبيرة منها ملتمة على هيئة مجموعات تقرض بقايا دجاج وسمك ولحم. كانت مائدتها حصيلة تلصّصها على القمائم أو من موائد أهل الحيّ.

هششت أول مجموعة، فتخاطفت غنيمتها بمخالبها وبين أسنانها، وانتقلت ركضاً إلى جهة أخرى من الفناء، هذه التجربة جعلتني على حذر مع بقية المجموعات، ومع الحرص الزائد كان نصيبي رأس سمكة أمسكت بعمودها الفقري عارياً، وبقايا اللحم تهتش وبقي منه الممسك بالحبل الشوكي والخياشيم. عدت للرز المنقوع، وقحطت كمية صغيرة، فأحسست بوجع يتمدد على أطراف أسناني، فأقلعت عن خطوتي تلك، وأخذت أزدرد الرز ازدراداً مليّنة جفافه وصلابته بماء فاتر انساب من صنبور المطبخ، وعرمشت غنيمتي من رأس السمكة قاضمة الخياشيم ومصمصة مرقها بنهم مبالغ فيه.

عدت إلى ثقب النافذة أراقب باب بيتنا. رأيت: نساءً داخلات وخارجات، ورجالاً اصطفوا على الجدران في أوضاع مختلفة،

وثلاثة أو أربعة أحاطوا بأبي في أحاديث ترتفع حيناً وتنخفض حيناً.

ومع ارتفاع أذان المغرب لم يعد الرجال في أماكنهم، بقيت العباءات تتحرك ذهاباً وإياباً على ضوء المصباح المعلق على باب بيتنا الخارجي.

مع انتهاء صلاة المغرب عاد اصطفاف الرجال إلى مواقعهم وارتفعت أحاديثهم الممزوجة بسعال البعض أو نحنحته مفتعلة أو نداء عابث. أحاديث مختلطة تقترب من الهمهمة تصلني معانيها بصعوبة.

أحدثت خطأ فادحاً.

أظلمت الغرفة تماماً وأنا أقلب أشرطة الكاسيت قارئة أسماء الأغنيات في كل شريط، ومن غير تنبّه أضأت مصباح الغرفة فشع نوره بفائض انسكب إلى خارج الغرفة عبر شقوق النافذة المطلة للشارع. لم أكن متنبهة تماماً فواصلت تحركي، وفتحت التلفاز، وانشغلت بتقليب الحقيبة الحمراء.

ومن نفس الثقب الذي استخدمته أطل محجر عين سوداء وصاح:

– هي في بيت مبخوت.

لدغتني صرخته، وارتفع الصياح في ما بينهم وأخذوا يتناقلون وصية أحدهم بمداهمة بيت مبخوت، وعلى عجل نهضت من مكاني راكضة، متعرّشة جدار بيت المري، ومع وصولي إلى سطحه كان الرجال قد تناقروا على امتداد جدار بيت مبخوت، وهم يشيرون نحوي، فقفزت من سطح إلى سطح، وهم يتبعونني متواصين بإحاطتي من كل الجهات. أمسكوا بي داخل حوش مبارك موافي محشورة بين كتل الحديد المجمعة هناك.

أول من أمسك بي جميل عبده، فنحلت بين يديه عروة عقدة فنلة مبخوت التي أحدثتها ليلة البارحة. انحلالها أبان صدري، فسارع جميل عبده بإلقاء شاله على جسدي، مجيراً إياي من أبي الذي وصل يتقطر خجلاً وغضباً.

لم يلتفت للاعتراضات التي انهالت عليه في ما يصنع.

في تلك الإضاءة الخافتة أصابني وجهه بالرعب فلم أشاهده على هذه الحالة أبداً. بدت أوداجه متوترة وقلص العرق الذي في هامته والذي يظهر حينما يكون قد بلغ مرحلة غضب متقدمة، وسكب فمه كل الشتائم التي لم يسمعني إياها، جاذباً شعري للخلف وصفعني على وجهي صائحاً:

– يا ابنة الكلب.

ثم فجّ للسانه مجرى يسرب من خلاله بقية الشتائم.

كنت في حالة عري، فقد انسلت فنلة مبخوت من على عاتقي وسقط الشال الذي غطاني به جميل عبده. حالة العري التي كنت بها لم تثر نخوته. عامد بين يدي وتناول سلسلة حملها معه مقيّداً يديّ من المعصم، وبسط كيس خيش خشناً آمراً إياي بالدخول في فوهته. ومع غياب قامتي في غياهب ذلك الكيس أحكم إغلاق فوهته، واحتملني على كتفه. كنت أسمع الاستنكار والترجّي والجاهة تلاحقه وهو ماضٍ في طريق لا أعرف إلى أين يوصلنا.

حشمشة ثياب وطرق نعل وأصوات متباينة تتبعنا، ورجاءات مسكوبة لا تصل إلى مسامع أبي، وجملة بقي صاحبها يردّدها طوال ممشانا:

– لقد أجرتها، إلا تقدّر جواري يا أبا توفيق، هذه بحق.

حين وقفنا، سمعت طرقاً عنيفاً، تواصل إلى أن فتح المزلاج عن ذلك الباب ليزأر أبي بصوت شق حنجرته:

– يا جابر الكلب، هذه مراتك ولو هربت من عندك ثانية لست مسؤولاً عنها، فقد برئت منها.

وصدع بصوت غليظ أطلقه إلى مداه، أحسست معه بهلع عظيم:

– اشهدوا يا خلق الله، لقد برئت من هذه البنت.

كان صوت جابر يبحث له عن مكان وسط تلك الأصوات المستغفرة والمحوقلة:

– أين هي هذه الملعونة؟

في هذه اللحظة تساوينا أنا وجابر، فهو لا يرى ما يحدث وأنا كذلك، استشعرت بحركة أبي تتقدم إلى الأمام وأنا محمولة على عاتقه داخل ذلك الكيس المظلم تماماً، لحظات تقدّمه لم تطل فقد صدرت مني آهة عميقة حين ارتطمت عظامي بالأرض، فقد ألقى بي من بين يديه فجأة وصاح بجابر:

– هذه سلسلة طرفها في معصمها فقيّد قدميها كي لا تفكر بالهرب ثانية.

– وكيف أقيّدها وأنا لا أرى، أكمل جميلك وشدّ قيدها.

أحسست بيد أبي تتلمّس الكيس، وتمسك برجلي اليمنى، وتدير حلقة حديدية حول الكيس وحولها بعد أن أطلق قيد يدي:

– أين تريد أن أثبت سلسلة القيد؟

– هنا، في حلقة سريري.

– والله ثم والله لو هربت من عندك لا أبقيك حياً، أفهمت؟
تأوّهت مرة أخرى بسبب صفعة مفاجئة أصابت رأسي:
– وأنت يا ابنة الكلب، إذا حاولت الهرب فلن أبقيك حيّة.
يبدو أن أبي غادرنا. تمنيت أن يبقى بقية الوقت يجلدني ويقطع جسدي على أن لا يرحل ويتركني مع هذه الهامة.
سقط صمت ثقيل امتزج بظلمة قاهرة وجوع فاتك وانتظار مجهول.
صمت كل شيء بعد ابتعاد وقع خطوات أبي، وظلت الأصوات تصل من الخارج واهنة ثم أخذت تبتعد، وتقترب قهقهة جابر من مسامعي بتلذذ واشتهاء.
غرست خشمي بفنلة مبخوت أستنشق رائحته وأبكي بحرقة.

* * *

أيقنت من وصف الناس للظلمة الفاقعة حينما يقولون: لا ترى كف يدك، وكنت لا أراها فعلاً، فالظلام كثيف يعمي الإحساس بأي شيء.
لم أكن أرى شيئاً، أمعن النظر فلا أرى أيّ بصيص لضوء، فأيقنت أن غرفة جابر مطفأة الأنوار وأن لا حاجة له كي يتزوّد بالضوء. أرهقتني صعوبة الحركة وكذلك تبديل وضعي داخل الكيس المربوط ربطاً محكماً فمحاولاتي المتكررة لاختراق فوهته باءت بالفشل، وآلمني وزادني توجعاً ضيق قيد قدميّ. أعلم أن الوقت ليل، وأن ذئباً يقف خلف هذا الرباط المحكم كي ينهشني، فتحوّل الكيس المربوط إلى آخر حصن يحميني من ذلك النهش، وحين أحسست بمحاولاته

فك الرباط، استنفرت كل حواسي لمواجهة المجهول الذي أخذت أعدّد صوره. سمعت صوت عائشة يأتي من بعد:

– هل تحتاج إلى مساعدة يا جابر؟

شتمها شتيمة بذيئة وواصل قذفها بما يجود به لسانه من قذارة بصوت خشخش ببلغم خفض من اتساعه:

– يا قليلة الناموس، أي مساعدة لرجل في ليلة زفافه يبغيها منك؟

أحسست بتلمّس يديه وبحثهما عن تموضعي داخل الكيس. تلمّسني كاملاً، وعجز عن فك عقدة الرباط، يتعالى وجيب قلبي في سباق مع تبرّمه الممزوج بسخط فائر يزداد مع كل محاولة فاشلة، فيوقد كل محاولة تالية بشتم أبي وأجدادي مجتمعين. أعيته الحيلة، وقرّر الاستعانة بأخته، فاستدعاها مكرّراً صياحه بها. حضرت طارقة الباب، فاستمهلها ريثما يلبس ملابسه:

– افتحي لي هذا الكيس لعنة الله على الرابط والمربوط.

استفزته بردّها:

– كيف أفتحه في هذه الظلمة دعني أشغل مفتاح الكهرباء...

– تعيّرينني يا كلبة...

لم ترد عليه، وهي تضيء المكان، وحلت العقدة بأسنانها، ففقست من الكيس كرأس ثوم أنتن في مخزن سيّئ التهوية. رقت عائشة لحالي الرثة فاستأذنته كي تغسل وجهي، وتهيّئني له، فصاح بها:

– تهيئة ماذا، فهل أراها؟

صمت قليلاً وأتبع جملته المبتورة بعد أن أنهى سعالاً خشخش له صدره:

- ولو هربت منك...

- سأغلق الباب الخارجي بالقفل...

فامتنع عن فك القيد، وتسامح مع جلب الماء لغسل وجهي داخل غرفته وتسامح بتناولي جرعات ماء أعيد بها بعض جزعي، وبذلت عائشة جهداً لإنعاش روحي الذاوية بمؤانسة استهدفت منها طرد وحشتي من المكان ومن أخيها، وظلت تحاول فكفكة عناده من أجل إعادة تهيئتي وإلباسي لباساً لائقاً من خزانة الثياب التي جلبتها أمي كمقتنات عروس تزف إلى بيتها إلا أنه أبدى انزعاجاً من تدخلها في ما لا يعنيها، مفضّلاً بقائي في قيدي مع حلحلة الكيس إلى أسفل قدمي. استنكرت رغبته:

- وكيف ستدخل بها؟

جاءت خطواته وحركاته متخبطة هاماً بصفعها أو القبض على شعرها:

- أتريدين تعليمي كيف أكون رجلاً يا فاجرة؟ هيا اخرجي.

تابع خروجها في خطوات أكثر دربة للوصول إلى باب الغرفة وإغلاقه بإحكام، متعرّياً من كل ملابسه، ومتخبطاً في الوصول إليّ. مع صراخي تلقيت لطمة على شدقي أسكتتني تماماً، ورضخت لما ينوي فعله.

أنزل الكيس إلى ما تحت ركبتي مبقياً على رجلي اليمنى المقيّدة كي يتمكن من إعادتي إلى هذا الكفن، ورمى بثقله ملتصقاً بجسدي، وفي لحظات حمحم كفحل تأخر أوان إراقة فحولته و لم يكن يعنيه التصويب الدقيق أكثر من الإنزال المظلي لرجولته.

8

سيّرت حياتي على نبوءة عرّافة مبصرة لم تبتعد نبوءتها كثيراً عما عشته.

في أيام الحج يتناثر الحجيج في مواقع مختلفة، وتزدان أحياء جدة بوجودهم وهم يتوشحون إحراماتهم، ويذرفون تلبياتهم، وفي منتصف شهر ذي القعدة يغصّ بهم شارع الميناء حيث تنزلهم السفن القادمة من البلدان الإسلامية، فيفدون إلى مدينة الحجاج الواقفة على فوهة ميناء جدة والتي تؤوي قدر استطاعتها من الحجيج وتلفظ الفائض منهم على أسوارها الخارجية، فيتدبّرون معيشتهم ريثما يحين موعد الصعود إلى مكة ومنها إلى منى لاستكمال شعائر الحج. يقضون أياماً يجفّفون وجودهم على أشعة شمس حارقة وإن استتروا منها رفعوا شراشف تعقد أطرافها على نواصب خشبية واندسوا أسفلها مفترشين الأرصفة وعارضين سلعاً بسيطة قدموا بها من بلدانهم...

في مثل هذه الأيام تتحول أسوار مدينة الحجاج إلى سوق يعرض سلعاً من كل أنحاء العالم.

يستغل أبي هذا الموسم للانشغال بعروض تجارية مختلفة، ولا يعرف المتابع له، هل هو من الباعة أم من التجار؟

يعمل ليل نهار، موزعاً أوقاته بين المهن المنشغل بها، فيتقلب مزاجه وفق سهولة ما يشتغل به أو وعورته.

نصب «بسطة» لبيع الماء والعصائر المثلجة، وأوكل مهمة تسييرها لأبنائه. يأخذ في كل يوم واحداً منا لمعاونته في تكسير ألواح الثلج

وغمره بمشروب التوت أو التمر الهندي أو الليمون. وليست هذه هي المهمة الوحيدة التي ألفنا أداءها، فهي مهمات تتنوّع حسب الموضع الذي يتركنا به، فمرة تكون حاملاً لألواح الثلج أو مغسلاً أو منظفاً أو متفرغاً لملء الكاسات للزبائن بما يطلبونه من عصائر أو ماء.

وأحيانا يغيّر مهمتنا بالاقتعاد مع البائعات والبائعين كي نعرض بضاعة اشتراها بثمن بخس من الحاجّات اللاتي لا يعرفن مقدار القيمة التي يعرضها عليهن من أجل شراء معروضاتهن، وغالباً ما يقوم بالشراء في أول مقدم للحجيج قبل أن يتعرفوا إلى الأسعار الواجب الوقوف عليها. كنا نبيع الأقمشة الأندونيسية أو المعدات السوفياتية أو عاجيات الهنود أو قطنيات المصريين.

تدفُّق الزائرين لهذا السوق الموسمي ينشط له كثير من أبناء الحارات المجاورة لمبنى مدينة الحجاج فتجدهم يسيحون بأعداد غفيرة متنقلين بين المعروضات فيطول مكوثهم أمام البائعات في مساومة تحدّد زمنيتها بالطول أو القصر وفق جمال البائعة.

في الموسم الثاني من اصطحابي لهذا الموقع اكتشفت أن جل الرجال يأتون متصنّعين الشراء بينما عيونهم ورغباتهم تتلصّص بالحاجات الصغيرات، وتزداد رغبة اقتناصهن بعد عودتهن من المشاعر المقدسة، حيث تعجز السفن عن نقل الحجيج في مواعيد محدّدة، ويطول بقاؤهم إلى وقت متأخر من السنة، فيتحوّل السور إلى جالب للمتبضّعين ولمن حمل نيّة المكوث داخل البلد.

كنت مع أبي أتجول في مدينة الحجاج حين استوقفته حاجة مغربية قائلة:

- هل أقرأ لك طالعك؟

فزجرها ومضى إلى وكالة العري للسياحة من أجل تخليص بضاعة تأخر وصولها من شهر مضى، فلحقت بنا تلك المرأة المغربية:

- ستحصل على بضاعتك الغائبة... وأنا أنتظر استفتاحي هنا.

خرج من الوكالة فرحاً و لم يعطها شيئاً. تبعته فزجرها بغلظة. سارعت خطاها ووقفت أمامه مباشرة مطلقة جملتها ومضت:

- ستتعلق حياة ابنتك كما علقتني.

لم أكن أتذكر هذه الواقعة لولا تكرار رواية أبي لها كلما تعرّضت لحدث ما، مفصلاً تعابير ملامح تلك المرأة وكأنه ما زال يراها.

تكرار رواية الحادثة جعلني أؤمن بها بل أسعى كي أحقق نبوءتها من غير قصد.

وكلما هممت بالانعطاف عن نبوءتها لاحت في داخلي كشمس لا تغرب.

صدقت تلك المرأة، فمبخوت علقني ومضى...

ومع مضيّه ومرور الأيام أزداد لهفة للقياه. كل شيء يحيا به، فحين يرفرف في بالي تخضر الحياة وتجري في أوردتي نغماً تتراقص له الروح كأرض اهتزت وربت وفارت أشجارها، ومن غيره أنا الضامرة الضائعة عن كل شيء إلا عنه.

أجلس أمام المرآة عارية أستعرض فتنتي وأطمئن أني ما زلت أحمل له الروح والجسد...

كل نقطة في جسدي تثير رجلاً ما، وخلايا جسدي خلية خلية تتلهف لمبخوت وحده.

عيون كثيرة سلبت مفاتني اختلاساً أو صراحة، وكلما استشعرت بإحداها قد عبرت ونفذت حواجزي أطبق على كل منافذ جسدي كي لا تهرب منه قطعة ربما يشتهيها مبخوت. فعلت هذا حتى مع من يسمّونه زوجي...

جزء من سعادتي أن جابر لا يرى. وكلما أراد تحسّس جزء مني وضعت يده على قطعة لحم وثبتت يدي على يده كي لا يصل إلى نهاية القطعة التي أضعها له، هي تجربة مارستها إلى حين وأقلعت عنها لكونها مكلفة مادياً وكذلك أعداداً لكنني تدبّرت أوضاعاً عديدة تبعد يد جابر عن تلويث جسدي كي لا يتسمّم مبخوت من آثار النجس جابر فربما أكون بين يديه ذات يوم.

ومن حظي أن تجربتي الأولى مع فتح مسام الجسد كانت بشعة. أقدم جابر على اقترافها بغباء وحش لم يتريّث أثناء نهشه لوجبته.

9

-هل عاد مبخوت؟

سؤال كنت أردّده متحيّنة أن ألقيه على مسامع أي أحد يمكنه أن يجيب، صغر سني والخشية من افتضاح أمري جعلا السؤال قابعاً في داخلي كرسالة بريد ضاعت بين كومة رسائل وجاء قرار إتلافها لكونها غير واضحة العنوان.

رسائل روحي كلها لم تصله، فلم أكن قادرة على فرز تلك المشاعر الصغيرة المتأججة في داخلي والتي لا تنطفئ إلا برؤيته أو محادثته. اعتراني جنون عاصف فقد مضت أيام ولم يظهر، وخشية مركبة تعتريني في اختيار من أسأل، وأحياناً أحتار فيمن أفصح له عن مشاعري.

اسمه كان سخرية يتندّر بها بعض رجال الحيّ ومنهم أبي...

وكان اسمه أجمل الأسماء التي أزيّن به فمي أو مسمعي... هناك من تكرهه هكذا، تكره اسمه أو شكله أو سلوكه أو قوله وتعجز عن تفسير هذا الكره، وفي طفولتي تلك تسللت إلى داخلي مشاعر الكره. لم أكن أميّز لماذا أو كيف لكن هذا ما حدث.

كرهت مؤنسة منذ اليوم الأول الذي رأيتها فيه.

غيابه وعدم مقدرتي على البوح بلهفتي جعلاني أقدم على تسلق جدار بيته لعلّي أراه فقد مضت ثمانية أيام على غياب نوره، وفي اليوم الخامس انطلقت جملة شائعات أحرقتني منفردة ومجتمعة فقد تطايرت الشائعات فأشيع أنه مريض، وأنه سُجن وأنه عاد إلى بلده

وأنه دهس وتعلقت قدماه في أحد المستشفيات... كنت أنصت لما يقال عن تغيّبه، و لم يكن غيابه شاغلاً لأحد سواي، وتلك الشائعات تتطاير وتتوالد من أفواه القائلين في لحظة عابرة من غير شعور بالفقد...

أنا التي كنت المشطورة الجزعة على غيابه، وأخذت أتدبّر طرقاً لمعرفة ما الذي دعاه لكل هذا الغياب حين خالجني شعور جازم بأنه داخل بيته إما مريضاً أو عازفاً عن الخروج، و لم يخطر ببالي أنه ميت مثلاً. اخترت موقعاً منزوياً من شارع المستعجل وارتقيت سور منزله المحفوف ونابت به الزجاج المكسور الناتئ بحدة صارمة. ومن مكاني تجول بصري في أرجاء بيته، وحينما لم ألمح أي طيف له تجاسرت في التعرّش مشدودة العضلات ومحتملة ألم انغراس الزجاج الناتئ في أوصالي التي عبرته. تفقدت كل أرجاء البيت وحين لم أعثر عليه، عدت أدراجي هذه المرة من باب بيته الأمامي. عدت إلى منزلنا بخدوش وجروح صغيرة، ادّعيت سقوطي في حوش مبارك موافي حيث تتناثر أكوام الحديد وبواقي السيارات.

وقبل أن تجف جروحي كان قادماً من منطقته يحمل امرأة أشبه بنخلة لا سعف لها، تدعى مؤنسة.

كرهت مؤنسة هذه مع أول نظرة ألقيتها عليها، وتمنيت موتها. وكلما مضى يوم وهي على قيد الحياة أجتهد في الصلاة والدعاء أن لا يبقيها الله في اليوم التالي. ذات يوم اجتاحتني فرحة غامرة وشعور لا لبس فيه أن دعواتي استجيب لها أخيراً.

طرق مبخوت بابنا متمنياً لو أن أمي ألقت نظرة على زوجته

ومعاونته على تطبيبها مدّعياً أنه لا يعرف ما الذي يمكن فعله حيال مرضها، فتبرّعت جدتي بتطبيبها من غير خشية انتقال العدوى إلى جسدها الواهن الذي عبر سنوات طويلة من المعاناة والإنهاك.

– ألقادمون من بر جازان يحملون رعدة حمّى الملاريا أينما ذهبوا.

هذا ما قالته جدتي، وهي تضع منشفة رقيقة زهرية في إناء مليء بالماء المثلج، وتعصرها عصراً هيناً، وتمررها على وجه مؤنسة الزافرة لأنفاسها بثقل والقاضمة شفتيها بأسنان اصفرّت جذورها العلوية لأنها لا تدع تخزين الشمة ليلاً أو نهاراً، والدليل على إدمانها استقرار متفلة أسفل سريرها ملئت بتراب ناعم، لاستقبال بصقاتها حتى وهي في مرضها.

حور عينيها يغيب كلما استقرت يد جدتي على رأسها ممرّرة المنشفة:

– لا تقلق، ستكون بخير.

وصلت جملة جدتي إلى مسامع مبخوت المقتعد كرسياً مقابلاً، حائراً في ما يجب أن يصنع، وإن لم يهمد لسانه عن ذرف جمل الشكر والامتنان.

كرهت مؤنسة تلك وكرهت جدتي التي تقف أمام تدفق وتحقيق دعواتي.

رقدت مؤنسة على فراش قطني غطي بملاءة بيضاء لها زخارف عشبية تنتهي أطرافه بعروق لنبات الحنطة، هو فراش قدّمته هدية إلى مبخوت، فالشرشف جلبه أبي مع بعض المشتريات المنزلية، فصادرته

قبل أن تراه أمي وحملته إلى مبخوت مدّعية أن رجلاً غريباً حمّلني هذه الهدية لإيصالها له، ومع سؤاله عن ماهية وهيئة الرجل العاطي اكتشف كذبتي سريعاً وأراد إعادته فلذت بالبكاء ومقاطعة بيته إن هو فعل.

– هل عليّ حملها إلى المستشفى؟

– سيكون ذلك أفضل.

نهضت جدتي من جلستها تحفزني على الحركة استعداداً للمغادرة. تقاعست حركتي وأنا أوصيه بتركها نائمة كي لا يرهقها في التنقلات، واستعرت حجج أمي حين ترفض إيصال جدتي إلى أي مستشفى:

– تعاني من وعكة وعلاجها النوم...

استقبلت جدتي جملتي ضاحكة وهي تدفعني أمامها. ضحكتها تلك حسبتها اكتشافاً لما يمور داخلي إلا أنها كانت تستعيد كره أمي لها من خلال تلك الجملة.

10

أيّ لوعة مجنونة تسكنني؟

أنفقت كل أيامي بحثاً عنه.

أربعة وثلاثون عاماً أقف بها في هذه الحياة، منها أربعة وعشرين عاما غادرت عمري بحثاً عنه.

جدتي مضت وجملتها التحذيرية التي علقتها على مسامع خالتي تحذرني من مخزون مخيّلتي الذي أغرقني في التذكر، تذكر كل شيء...

- يا بنية، الرجال ينصبون راياتهم وينسون مواقعها.

كانت خالتي تحلم برجل يحملها على بساط سحري، وتتوهّم أن كل الرجال يخبئون تحت معاطفهم أبسطة يقلون بها من يصطفونها لأنفسهم، وخالتي لم يكن يشغلها إلا الجلوس في صحن البساط والتحليق مع أحلامها عالياً. كل يوم كان لها عشيق. انسياقها المحموم تنبّهت له جدّتي التي تحمل لها وداً، فجالستها مباسطة ومتحدثة عن الرجال وعلاقتهم بالمرأة منهية حديثها بجملة أيقظت خدر أحلام خالتي:

- الرجال كالجياد التي تدخل مضمار السبق.. لا تفرّق بين أرض تركض عليها وأرض تفوز فيها، فكل الأمكنة عندها هي ميدان للركض والحمحمة.

وأنا لم يركض في قلبي رجل سواه. أضاع عمري، قضمني كثمرة نيئة ومضغ ما استقر بين أسنانه أو خلّلها منه ومضى بجزء مني غافلاً عن لوعة ما بقي منه اشتهاءً به...

كأي عطب يلازم الأشياء ويحيلها إلى تالف. أتلف حياتي بغيابه.

كنت صغيرة تلاحقه عيناي في تحركاته أينما سكن، وحين غاب كبرت وكبر معي. الآن لم أعد صغيرة، كانت أسئلتي عنه مواربة، وحين استفاقت أنوثتي و لم تطق من يلمسها غيره تجرأت وسألت عنه علانية.

في زوايا حيّ السبيل الحادة يتعطف قوامه مثل ظل لا يستقيم. تشتته أشعة الشمس أو تقف عليه مائلة دائماً، فيبدو على غير هيئته. مرة تراه أقل انتصاباً، ومرة معوج المشية، ومرة فارداً صدره كطود أشم ترك المدى واخترق المدينة مثل ضوء في ليلة عتمة غامقة لا يبحث عن شيء سوى أن يتمدّد ولا يعنيه أي جانب أضاء له، وفي أحيان يغدو شجرة سدر أصابها نحس.

خالتي (ومن قبلها جبرانة وبعض عوانس الحيّ) كانت ترغب في اختطافه وتعرض عليه إخراج بساطه السحري، وحين عاد من غيبته حاملاً زوجته سحبت عينيها عن ملاحقته وأسلمتني مهمة متابعة ظله.

قذف الحصى أوردني المهالك.

مرات عديدة أزرع ابتسامتي ونظري في محيّاه فلا يلتفت إليّ. كان يجاذب من هنّ أكبر مني أطراف الحديث فأقذف باتجاهه الحجارة وهي حركة تعلمتها من خالتي التي شاغلت مبخوت بهذه الطريقة، وعندما لم يعرها انتباهاً تابعت مهمة حصب قامات أخرى حتى أوقعت بلال عجيلي في حبائلها، فابتنى بها وأسكنها المدينة العسكرية بتبوك بعد أن علق على صدرها أربعة أطفال تأتي بهم في

كل إجازة لتتنفس الحياة بين أسواق جدة ومتاجرها.

حين بلغت التاسعة كان جسدي قد استعد للقفز عالياً ليحملني ثمار أنثى حان قطافها. حينها تنبّه لي (هكذا أحسست). تنبّه لاتساع وركي وطفح نهديّ واحمرار خديّ. حين يمرّر أصابعه الثقيلة على جيدي يمرّرها من أجل أن يصل لتلك الشامة المخبأة أسفل أذني اليسرى.

قفزت من الطفولة إلى عالم النساء سريعاً أحمل راية عشقي لمبخوت...

وإن كان هناك من يحتقر لوعتي به فلأنه لا يعرف الجهد المبذول والمسكوب لطفلة فقدت حياتها عند العاشرة و لم تبرح هذا العمر... بحث وانتظار طويلان عشتهما.

يقولون عني إني امرأة صفيقة، وهو نعت مقيت لوضع عاجز.

كل الأقاويل التي تسكب على سيرتي أفتح لها مجرى من أذني لتصب عند قدميّ وأخطوها كماء موحل...

مبخوت قدم من أطراف تهامة، وأنا أنحدر من أصول تهامية. تلك الأصول الراغبة في بذر نفسها في بقاع مختلفة من العالم وكأنه المرض الذي عليه أن يقطع الكرة الأرضية قبل أن يحين أوان التطعيم لإيقاف استشرائه.

يؤكد أبي دائماً نقاء سلالته ويتحسّر على نطفته العربية الخالصة التي لم يمسسها تبدل إلا على يديه حين خالط عرق أمي المغاربي، ليغدو هذا الاختلاط محل مماحكة بينهما، فهو يدّعي عروبته الخالصة التي وهبها إياها لاضفاء التهذيب على بربريتها المهجنة وهي تراه

عرقاً نافراً لم يشذب، التصق بها على حين غرة ولا تعرف كيف التفّ حول شجرتها الخضراء. مماحكتهما تلك لم تكن لتنتهي.

هذا التزاوج بينهما نتج عنه خمسة أولاد، ثلاثة ذكور وبنتان. كنت الثانية في الترتيب فلحقت برؤية جذوة هيامهما قبل انطفائها بماء الملل المخزون في روحيهما...

افتتان شباب الحي بخالتي جعلني أقتفي أثرها منذ الطفولة الأولى. كنت أحس أني اقترب من جمالها، إلا أن أمي تفخر بخروج نسخة أصيلة تعيد أمجاد عروقها الصافية.

حين يموت الحب بين حبيبين يتمسك أيّ منهما بمفارقة تميّزه عن طرفه الآخر لكي يرثي نفسه حين ينقاد في السير داخل حياة ميتة.

أبي وأمي يدّعي كل منهما أنه من عروق صافية مدت على أرض موحلة فتلوّثت.

ادّعاء الصفاء رافعة تصعد بنا حين نشعر بخسارة ما، وأمي تجلس متحسّرة على ضياع خطابها الأثرياء الذين فرطت بالاقتران بهم من أجل لحظات غزل مسروقة كان أبي يقوم بها فوقعت في شراكه وتمدّدت حسرتها بعد ذلك بقية العمر. تطلق ضحكة جافة:

- وجدته في كل مكان أذهب إليه وظننت أنه موزع الأحلام الذي سيمنحني كل الأماني.

اقترنت بأبي الذي جاورها وشاغلها بعينيه، حتى إذا استقرّت ببيته، انشغلت عيناه بالبحث عن الرزق.

ترك وظيفته الرقيقة بوزارة المعارف، وخرج للأسواق متسبباً، وظل في الأسواق القريبة والبعيدة. كان يظن أنه على هدى، وأنه

يقف في الطريق الصحيح. فقط ينتظر قافلة الحظ لأن يمضي معها، فرهن بيتنا ليبدأ بالمقاولات، وقبل أن يمضي إليها أغراه أحد أصدقائه بشراء صفقة موز رست في الميناء و لم تجد صاحبها الذي مات. كانت صفقة بمثابة حفرة عميقة، وجد نفسه يحمل عشرين طناً من الموز الخائس على ظهره. و لم يكن يعاني من هذا الثقل فقط بل أضيف عليه ثقل آخر في أن يتدبر شحنات نقل لحمل كميات الموز إلى مرمى البلدية.

عرك أيامه في مشاريع خاسرة، وخسر معها أعصابه. بات لا يطيق لوماً أو سؤالاً عن غيابه الدائم، وكلما أطل علينا، وسمع تنهدات أمي وتحسّرها على ضياع عمرها مع رجل معلق في الأسواق، ترك لها البيت ومضى يكمل خسارته.

اعترته حالة من التبلد والرغبة في التخلص من كل حمولاته، وكنت طوق النجاة الذي فر به من الأمواج المتلاطمة. تعلق بي حتى لامست قدماه اليابسة وهبط مطلقاً قدميه للريح في هرب متواصل، بعد أن تركني منقوعة في مياه آسنة.

خرجت إلى الدنيا بجسد ضئيل لم يقوَ على اختراق المشيمة فنزلت بها كمظلة برشوت.

قالوا إني خرجت أحمل فالي...

فمن يولد «مبرنساً» تغلفه مشيمته فسيعيش داخل مأساة ولن يخرج منها وستتحول مشكلته إلى مشيمة يستنشق منها حياته...

كانت ولادتي فضائحية كما تصفها أمي، فقد داهمها ماء الرحم وهي داخل السوق و لم تتمكن من الانتقال بعيداً، فتبرّع بائع القماش

بمتجره ونشطت جدتي في معالجة خروجي، وكلما تذكرت ذلك تضحك وتقول إني خرجت كلفافة قماش مكوّرة وتم قص حبل السرة بمقص البائع الذي استخدمه مباشرة في قص قطعة قماش هديةً للمولودة وأمها.

خالتي أول من فتحت بصري على لفظة الحب، هذا الحب اللعين الذي يقيك شبعاً من كل الناس إلا ممن تحب.

الحب يحيل المحبوب إلى كون مترامي الأطراف.

دفعت سمية فلالي الباب الخارجي لمنزلنا فيما كانت خالتي تظفر جديلتي. ألقت التحية من طرف لسانها، ووجهها مكسوّ بتذمّر عكر تضاريس ملامحها:

– أريد التحدث معك، تعالي للداخل.

– تحدّثي ففتون لا تفهم.

– فعلت كل شيء، فماذا أصنع بعد ذلك؟

– هل تحبينه؟

كان حديثهما منصباً على عمر بديوي أحد شباب الحيّ المفتون بجماله، وسمية ترتعش لمجرد ذكر اسمه، وتسرق الوقت لرؤية تحركاته داخل الحيّ من خلال نوافذ بيتهم أو من على السطح أو الخروج إلى بيوت صديقاتها والشكوى لهنّ مما تجد.

خالتي تمتلك خبرة في التعامل مع الشباب، فكل أبناء الحيّ رغبوا فيها، وكل واحد منهم تصدّه بطريقة تبقيه بعيداً قريباً... وقد دخلت في منافسات لاجتذاب شاب أو خطفه من فتاة أخرى كلعبة تجري المساومة أو المراهنة عليها. هذه الألعاب المكررة أوصلتها إلى قناعة

بأن النساء يتلقطن رجالات الحارة من غير عناية، كالتقاطهن لكرة صوف تشتت خيوطها فيمضي الوقت في إصلاح المشتت بالنظرات والابتسامات السريعة حتى إذا وقع أحدهم تحت إبرتها قامت الواحدة منهن تبحث عن كومة صوف أخرى لمعاودة إتقان غزلها من جديد.

هنهنة سميّة جعلت خالتي تقبض على جديلتي بقوة وتوجّه حديثها إلى صديقتها الدامعة:

– يا هبلا، لو عرف ببكائك فلن تصلي إليه... اسحبيه إليك واتركيه.

– وهل يعرف ما أجد؟ ثم كيف أسحبه وهو لا يعيرني اهتماماً؟

أنهت خالتي جدل ضفيرتي ونهضت متخلصة من بقايا شعري العالق بين أصابعها وبين أسنان المشط بجمعه ولفه ودسه في ثنايا كيس أبقته بجوارها من أجل هذا الغرض، والتفتت إلى صديقتها مربّتة كتفها:

– إذا أردتِ إشعار رجل بحبك فلاحقيه بنظرك، وإذا كان مترفعاً فاصدميه باعترافك.

وعندما اتسعت حدقة سمية أردفت خالتي: نعم، اعترفي له. على أيه حال، الرجال يحبون العري في كل شيء.

هذا الدرس كان وسيلتي في إنجاح كل خطواتي التي عبرتها بين الرجال لاحقاً وكانت وسيلة ناجعة انتهجتها مع أساتذة الجامعات وبقية الرجال الذين احتجت إلى عبورهم، وهذبت نظرية خالتي بقص الأجزاء النافرة منها واستبدالها بأجزاء، فأنا لا أريد امتلاك أحد منهم لذلك كنت أعبر أوحال الرجال بالرفع عن ساقي كي لا

يلصق وحلهم بثيابي وإن كان لا بد من ملاصقة أوحالهم فليكن ذلك الالتصاق مع حذائي أثناء عبوري لهم.

لم أكن قادرة على الاعتراف لأحد بحبي. كنت أنثر كلمات الحب في داخلي كبذور أنتظر ثمارها، وحين أثمرت كنت أقف بثماري وحيدة، فحين كان مبخوت حاضراً لم يكن الوقت قد شبّ في داخلي لأن أقول له إني أحبك أي منحه روح الحب لا كلماته. أحياناً أجلس متفكرة متدبرة في ما أصنع، ويتعمّق احساسي بالافتراق الحاد عما كنت عليه، وكأن التي تفعل كل هذه المغامرات مع الرجال امرأة لا أعرفها إلا أني شاهدة على كل ما تفعله.

من كان يتوقع لتلك الطفلة الساذجة أن تمضي بعيداً في غيها.

الرجال يفرحون حين يسمعون بأنك متزوّجة وكأن باباً فتح لهم للدخول إلى متنزّه من غير مقابل، وزواجي المبكر مكّن العشرات من مزاحمة بعضهم لبعض لإظهار حسرتهم على ضياع فتنتي في عين رجل لا يبصر، وكل واحد منهم يريد جعل حسرته طوق نجاة يحملني فيه إلى ملذاته. كنت أعلم إن وصل أيّ منهم إلى ذلك فسينهي أمري بلفلفتي في كفن الإهمال وموارتي في تراب ذاكرته من غير أن يعيد حسرته لضياعي في داخله أو ضياعي عند أعمى يدهك روحي قبل جسدي.

بعد مغادرة مبخوت مباشرة وجد أبواي في زواجي انعتاقاً من الفضيحة. ولأن الأمر يحتاج إلى دفن فقد دفناني مبكراً ودفنا فضيحتي في حضن رجل أعمى لا أعرف في دنياه سوى الأصوات والظلمة الفاقعة.

مبخوت هو من أحرقني وترك ناري تتلظى من غير أن يطفئني أو يوصي بإطفائي.

أحبه، لا لا، أعشقه لا لا، أحيا به. قد يكون هذا تعبيراً يقارب ما أحس به...

بكيته أربعة وعشرين عاماً منذ تلك الظهيرة التي لملم فيها عفشه ومضى بزيغ عينيه الباحثتين عن ملجأ يقيه تتابع اللعنات والبصاق المندلق من أفواه مودّعيه. من تلك الظهيرة وأنا أبكيه.

أول مرة ضربت من أجله...

في كل شيء يحدث لي يكون مبخوت هو الأول فيه.

لم أكن أعلم كم كان عمري حين تلقيت صفعة على صدغي الأيسر، من مؤنسة. ولم تؤلمني صفعتها كما آلمني جذبي من بين ذراعيه وهو يتشمّم أسفل رقبتي.

ولم أستطع تنقية آثار صفعتها، بالرغم من مثابرتي جاهدة في طمس أناملها المتفرقة على خدي بدلك وجنتي بالصابون كي لا تلمح أمي تلك الاصابع المتناثرة على خدي فتسألني:

– من فعل هذا؟

تصيبني أمي بالرعب، كلما تفحصت قوامي واستبشرت بدنوّ موعد احتجابي، فاحتجابي يعني بقائي رهينة البيت ولن أتمكن من مقابلة جلسته في كل عصر يخرج فيه لزرع أغانيه في منعطفات الحيّ.

راقني منذ أن كان عمري تسع سنوات وربما قبل ذلك.

غريباً جاء إلى الحيّ، ودخل ذاكرتي غريباً بين الرجال...

لم تكن له تلك الهيبة الغليظة المغروسة في رجالات الحيّ،

وأعتقد أن رقته تلك جعلته ينفر من مجالسة رجال حارتنا المتمركزين في جنبات وبرحات الحارة. وإن جالسهم يكون منقاداً رغماً عنه ليحكي لهم عن الأخبار التي حملها في صباحه أو مسائه.

يصدقون أخباره تصديقاً أعمى خاصة بعد أن صدق في نقل خبر سماح الملك فهد للقوات الأميركية بالدخول إلى البلد من أجل صد أي هجوم محتمل يقوم به صدام حسين، وقد أوصل إليهم الخبر بتفاصيل دقيقة لم يسمعوا بها رسمياً إلا بعد ثلاثة أيام.

بعد هذا الخبر غدا مذياعهم السري الذي يوشوش في آذانهم أخبار البلد وتقلباته. وعندما ضاعف لهم جرعة الأخبار عمّا يحدث في دهاليز الدولة من خبايا - تذهب بسامعها قبل قائلها إلى أبعد من الشمس - توجسوا خيفة وبدأوا يتهربون منه ولا يدعونه إلى مجالسهم.

لم تكن أخبار البلد تجري على الألسن بطلاقة، فالتكتم والحذر أمران محبّبان في تناقل الأخبار السياسية تحديداً، وكلما تمادى الشخص في إعلان رأيه أو نقل خبراً حسّاساً ظنوا به الظنون... لهذا حسبوه مخبراً سرياً قدم للحارة من أجل تلقط أخبار عن المعارضين للوجود الأميركي وكتابة تقارير لمن يهمه الأمر...

كان غريباً في كل شيء، اسمه، هيئته، مهنته، سلوكه.

كان كائناً غريباً ودخل إلى قلبي غريباً وغامضاً.

منحني أول هدية في حياتي عبارة عن عروسة محشوّة بكتان طبيعي، ومغطاة بقطيفة شامو أرجواني زركشت أطرافها بالدانتيل المذهب، ولها ضفائر ذهبية بينما كانت ملامحها مطرزة بحبات لؤلؤ صناعي.

هو الأول في كل شيء.

11

الاختناق المروري يجعلني أتخلى عن غطاء الوجه بحثاً عن رؤية واضحة لا اهتزاز أو تعمية فيها، فتسارع السيارة وارتدادها يصيبانني بالغثيان فتتهيّج حالة التقيّؤ يضاعفها ياسين بغيرته الممجوجة.

– يا ويل امرأة تسفر عن وجهها في هذا البلد!

الوقوف أمام إشارة المرور يحوّل رقاب الرجال إلى بوصلات منصوبة تبحث عن أي امرأة كي ترشقها بنظرات حداد ويقضي الرجل منهم ثواني الانتظار أمام إشارة المرور الحمراء في حياكة حلم أن تحبّه امرأة عابرة.

– غطي وجهك.

– ياسين يؤدّي دور العاشق السمج، يعرف أني لن أكون له يوماً ومع ذلك يسفح أشواقه على مسامعي منذ زمن بعيد...

ولا يعرف أن المرأة التي تسمع كلمات الغزل كثيراً تكتسب حصانة حيال المشاعر المسكوبة في طريقها لأنها تمتلك دربة السير بين أوحال الرغبات المتوثبة لافتراسها.

ولو أحصيت من علق قلبه بين فروع أيامي لعجزت عن إكمال ذلك، فأنا مثل شجرة وثنية كل من مر بها علق خيطاً أو عقد عقدة لعل أمانيه تخضر وتثمر بين فروعها.

امتلكت دربة في جذب قلوب الرجال وإبقائها خفاقة بعشقي من غير أن تمل من طلب الاقتراب وأمنية نصب وتعميق وجودها برفع ساريتها على أرضي.

اجتزت مرحلة البكالوريس بالهاتف... كنت أحرص على أخذ موادي مع الأساتذة الذكور، ومن خلال الدائرة التلفزيونية أثير كوامن جشع الرغبة الذكورية لدى أستاذي بحديث يسيل غنجاً وأتبعه بمكالمة هاتفية ووعود مشتهاة.

حصلت على شهادة البكالوريس بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف الأولى بواسطة الوعود والصور المبثوثة عبر المحمول وأحياناً بمساعدة صديقتي هناء ميسر...

الدكتور منصور المجرد أسحبه خلفي من العام الماضي بوعد أن نلتقي في شقته الخاصة، وما زال يتبعني بريق كلب دبق.

يمتلك مراس صيّاد صبور، يؤثث فخه بعناية، وينثر حبوب صيده على مساحه فخاخه ويرخي حبائله، ويقتعد واثقاً من رؤية فريسته ترقص أسفل قامته وتطالبه بالمزيد من الوطء، وفي كل مرة أعزز يقينه بأني أتلهّف لتلك اللحظات المسعورة.

لم يشأ أن يفقد صبره حيال مماطلتي، فأغدق عليّ وعوداً جازمة بتعليق درجة الماجستير بين فتحتي فستاني مع أول لقاء يجمعنا...

كنت أفكر كيف أجتازه من غير تدنيس حبي لمبخوت...

أي حمق أحمله؟ لا أعرف.

ولا أعرف كيف أجمع بين عشقي اللامتناهي لمبخوت وبين انسياقي إلى مغامرات لفظية ساقطة مع الرجال. حقاً لا أعرف.

لم يمسسني بشر وأنا التي أسير بلقب الفاجرة. أمارس الإغواء باشتهاء، وأعف بكبرياء. أسحب خلفي عشرات القلوب الخاوية والباحثة عن لهاث مسروق. أعرف جيداً أن الرجل يسكب ماءه من

غير عناية تذكر مثله مثل السيل يبحث له عن مجرى يوصله للبحر ولا يتفحص طرقه القذرة، وكل الرجال يبحثون عن الوحل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً من غير تحرّز لبلل سيرته.

هل جعلني جابر مطمعاً للرجال، أم مبخوت الذي علقني ومضى؟

ليالٍ طويلة مضت، وأنا أبكي بعد مبخوت. بكيته سراً وجهراً ولم أجد شيئا يسليني عن بعده سوى الدراسة، وبها هربت من أفعال جابر واشمئزازي حيال كل تصرفاته. أهرب منه في كل حين، ومع الليل يشدّد محاصرتي وكلما تلمس موقعي نفرت بحجّة الاستذكار.

أين أنت يا مبخوت؟

اللعنة! كيف لغائب أن يكون طاغي الحضور بهذه الصورة الملحة؟

قلب المرأة إذا دق بمسمار الحب ثبت، فهي تفضّل أن تكون تائهة في دم هواها وتمعن في سفكه كي يرأف بها قاتلها، هي لا تريد يقين الحب بل ضلاله.

ومن يصل إلى ضلال الحب يعشْ عاشقاً... وأنا أستظل بهذا الظل منذ الطفولة الأولى.

المرأة تفضّل ثبات صدأ حبها على أن تكون لامعة في كل حين من غير إحساس بوجع العشق، فكما هي مهيّأة للولادة هي أيضاً مهيّأة لزفرات لوعتها، فمن غيرها تشعر بأن قلبها عاقر كرحمها إن لم يضم جنيناً. هي بحاجة للحب تنزف من خلاله كي تحيا ومن أجل أن تتذكر دائماً أنها ضحية.

ياسين يذكّرني بسذاجة الضال الموقن. حبّه جعلني أقترب من فكرة راودتني متأخرةً وغدت هاجساً أبحث له عن معنى.

استغرب الدكتور منصور المجرد إصراري على تناول مفردتي اليقين والضلال وأثرهما الاجتماعي على سلوك الفرد كموضوع بحثي من أجل نيل درجة الماجستير في العلوم الاجتماعية، وحاول إقناعي بأن المفردات اللغوية من اختصاص دارسي الأدب، ووضع أمامي مفردات ملت أدراج الكلية من حمل رسائلها الثقيلة العديمة الجدوى.

أراد تخفيف حدته وصبره على مماطلتي من الاستجابة للجلوس معه في شقته الخاصة بتسهيل بحثي من خلال اقتراح عدة مواضيع رتّبها رقمياً: أثر الارتحال في تريّف المدينة، المخدّرات واستنزاف الطاقات المالية والبشرية، العنوسة وأثرها الأخلاقي، أثر البعد الأسري على نفسيات مرضى المستشفيات، العمالة وما تنتجه من قيم مغايرة، الفوارق الاقتصادية والسلوك الاجتماعي... صناعة الوهم من خلال علاقات الشبكة العنكبوتية.

طريقه محادثته تشي بأن صبر الصيّاد بدأ ينفد، وكان عليّ أن أقدّم له طعماً يسيراً يقي لعابه دبقاً. لجأت إلى جهازي، وأدرت محرّك البحث «غوغل»، واستحضرت صوراً خليعة إلى أبعد ما يمكن لإحدى بطلات أفلام الإغراء، وحمّلت أربع صور منها على هاتفي المنقول مع حذف الوجه، وأرسلتها إليه مع جملة:

– جسدي يبحث عنك كما أبحث عن اليقين.

جاء صوته يتقطر حناناً ولهفة:

– أنا لا أريد أحداً أن يقف أمام رسالتك في الماستر، وثقي بأني أبحث لك عن أسهل الطرق.

ارتضيت ليونته المؤقتة واقتراحه تناول «أثر البعد الأسري على

نفسيات مرضى المستشفيات» عنواناً لرسالة الماجستير.

وكان عليّ تمديد صبره بأي صورة كانت. كنت قد أنهيت المواد الدراسية، وبقيت الدراسة الميدانية التي تستوجب قضاء فصل كامل داخل أحد المستشفيات.

الحياة مجموعة لعب، وفي كل مكان تجرى لعبة ما. كنت متمرّسة على لعبة أجدتها خلال السنوات الماضيات، لعبة: خامد ونشط، من أجل إبقاء مَن حولي بين حالتي: الجذب والأخذ، إلا أن حرقة الروح على كينونتها تجعل تطبيق هذه اللعبة متباطئاً. وكلما أحسست أن مبخوت يرقبني تعتريني حالة خجل عميق فأتباطأ وأغدو خاملة متوجّسة من أداء الأدوار المتناسخة. مملٌّ أن تكون مطارداً بمشاعر الآخرين الملتهبة وعليك أن تبقي تأجّجها وأنت عازف عنها.

العزوف داء يسقطك في مستنقع النسيان.

- كن مع عمتك.

هذا الأمر جاء مبكراً على لسان جابر موصياً ياسين (ابن أخيه) بمرافقتي أينما ذهبت. ومنذ سنوات طويلة قلب ياسين المسايرة إلى عشق.

يكبرني بخمس سنوات، جاء من قريته لمواصلة دراسته الجامعية، وحل ضيفاً على عمّه، وأصبح يناديني كما ينادي عمه جابر وعمته عائشة. كلنا أعمامه داخل البيت حتى إذا انفرد بي أطلق كلمات الهيام من غير تحفظ.

عيشتنا في بيت واحد، وتقارب أعمارنا، وتفتّح مراهقته، أوقعته في حبي. هكذا أظن، صدف كثيرة مكنته من رؤيتي متخففة من ملابسي.

استذكاري الليلي، جرّأه على أن يتربص بغرفة عمه من خلال نافذة داخلية بها شقوق سقيمة، واكتسب مدى إضافياً من الجرأة بدفع باب الغرفة بمواربة طفيفة تمكنه من اختلاس النظر لكل حركة أقوم بها.

استهوتني متابعته، فلم أتضجر، و لم أبدِ علماً بما يفعل، فجسد المرأة يرتوي بجريان العيون في مناكبها.

أصاب بحرج شديد حينما تتحرّك نوازع جابر نحوي، فما إن يبدأ بتلمّس الأمكنة للوصول إليّ حتى أنتقل من موضع لآخر، فيفور غضبه وأجده يستذكر البدايات الأولى مهدّداً:

– اشتقتِ للقيد والسلسلة؟

دأبت على إبقاء جابر بين حالتي الوهم واليقين، فإن فاض غضبه مكنته من إفراغ حمحمته مقابل اشتراطات يضل يسدّدها لأيام طوال. في أحيان يصل به الأمر لمناداتي إلى الفراش بصوت يسمع الجيران، وفي أحيان يستنجد بأخته لأجدها تقف في وسط غرفتنا تلومني:

– الرجل يريد حقه الشرعي.

هذا الهروب من الوقوع بين يدي جابر، يدخل السرور إلى قلب ياسين.

– عليك الاستمرار في عدم تمكينه منك.

قالها في أحد الصباحات وهو يوصلني إلى مدرستي. وعندما لزمت الصمت المطبق، استشعر فداحة جملته، وأراد ترقيع فضيحته، فلم يتمكن، وعندما عجز تماماً أنهى حديثه بكلمة:

– أكرهه.

وساد صمت ثقيل دفعه محرك السيارة المتهالك بهدير رتيب.

غدت مهمة ياسين الأساسية الإيصال.

يمسك بيد عمه جابر ليوصله إلى الأماكن التي لم يتعوّد تلمّسها بعصاه، ويوصلني إلى أي جهة أرغب في الذهاب إليها. لم أحتج إلى سائق مستقدم كما هو حادث في كل البلد. ياسين قام بالدور بأفضل ما يمكن القيام به. أتركه مقذوفاً في الشوارع ينتظر مهاتفتي له بأن يكون أمام الباب الذي سأنزل منه أو أصعد إليه.

يقلقني أنه لم يتزوّج بعد.

قارب الولوج إلى الأربعين وهو ينتظر رحيل عمه جابر لعلّي أكون له ذات يوم.

– أراه يزداد قوة.

– من؟

– هذا الأعمى.

– لا تنسَ أنه عمك.

– لم أنس أنه سرق حياتي.

لو لم يعبث مبخوت بداخلي منذ الطفولة ربما أحببت ياسين...

هناك من يحلم ولا يستيقظ لتحقيق حلمه، وياسين لن يستيقظ أبداً. استشعرت أني سجينة حلم مثله تماماً، وعليّ أن أستيقظ. استشعرت هذا مبكراً، فأنا سجينة عشق مبخوت. أنقب عنه كل زوايا الأرض، وأستحضره بإلحاح حارق:

– أين أنت يا مبخوت؟

حلمي أن أجده، وعليّ أن استيقظ لتحقيق ذلك الحلم. ياسين لم يكن يعرف بقصة عشقي فجعلت منه إدارة بحث.

فاحت رائحة سمعتي بين نساء الحيّ كامرأة صفيقة لا تتورّع عن قول أي شيء وفي أي مكان.

وهذه الصفات يحبّذها الرجال حين لا تكون صاحبتها معلقة بشجرة النسب الخاصة بهم...

نفور تضاريس جسدي وارتواؤه يغري رجالات الحيّ بمتابعة تثنياته في ممشاي إلى بيت الجارات، وسهولة الحديث معي طمع الكثيرين. وعمّق هذا الطمع كوني حملت لقب امرأة عاقر لن تجرؤ رحمها على فضحها أو الإشارة صوب من يصل إلى مفاتنها العميقة.

أول المنافذ التي تسللت منها إلى الدنيا هرباً من ظلام جابر كان الأعراس.

أستجيب لأي حفل زفاف وإن لم أجد دعوة أبادر بطلبها أو أغامر بالذهاب والاختلاط بالمدعوّات من غير حرج، وبسهولة يُكتشف وجودي، فما إن يبدأ الحفل حتى أعتلي المنصة وأطالب مطربة الحفل بغناء أغنية «ابعاد كنتم والا قريّبين»، وهي الأغنية التي أبثها لمبخوت دوماً وكأني أناجيه، فمع تراقص أنغامها أترك لجسدي أن يذوب شوقاً. وما إن تشرع الفرقة الموسيقية بعزف مقدمة الأغنية حتى أتراخى في هيام واضح، وإذا نشطت الآلات الوترية متزاحمة مع الإيقاعات يتخلى عود جسدي عن استقامته ويستجيب لإبحار عنيف من التثنيات الموجعة تنفق عليه نمنمة ارتعاشات أتقنها مع أنها تنهكني، وقبل أن تتجاوز المطربة نهاية

الأغنية تكون روحي قد فاضت بألمها وأسقط مع آخر نغمة أجهش بالبكاء.

غدا حضوري غير مرغوب به في الاحتفالات، فالتشنّج والنحيب اللذان أصدرهما يشغل المدعوّات عن العرس والتراكض من أجل إسعافي وحملي إلى زاوية من زوايا الحفل وتطبيبي كيفما اتفق.

رافقت الدقاقة نور في كل الأعراس التي تحضرها.

ذات حفل، وكعادتي حضرت في أبهى زينة. أربط في أساوري منديلاً عشبياً من نفس قماشة الفستان الذي اتسعت فتحة الصدر به حيث يظل نهداي يتلصّصان من فتحتهما متحيّنَين فرصة الهروب من ضيق الفستان، ما حمل النسوة على فتح أفواههن، بعضهن استمتاعاً ورغبة وبعضهن استنكاراً. لم أكن أحفل بأيّ منهن. أسير بشموخ الجبال ولا أمنح بالاً للسيدات اللاتي يمضغن سيرتي، حتى إذا أمسك الليل بنصف قامته السفلى وتدلى مثل ساعة رملية عجلت بسكب رمالها عندها أجد نفسي ككوكب أنار الكون منفرداً، فأتجلى. أصعد إلى المنصة وأطلب من مطربة الحفل غناء أغنيتي الأثيرة، ومع دوزنتها لأوتار عودها أستحضر طقس رقصتي بسلّ منديلي من بين أساوري الذهبية وأفرشه على المنصة كأرضية لقدميّ، وأشارك المطربة بدوزنة جسدي بانثناءات بطيئة متسقة. ومع انطلاق الإيقاع أكون جاهزة في الغياب أنفض جسدي في رقص عصيّ متوحش، من غير أن أغادر مساحة المنديل المفروش. أستجلب كل شيء إلى داخلي ولا أعود ألمح أحداً، ومع انتهاء الأغنية أتهدّم، وكأن طاقتي الكهربائية فصل عنها التيار فجأة، فأخرّ على الأرض زافرة أنفاساً ثقيلة مجهدة، وفي

سقوطي تتلقفني الأيدي جزءاً على جسد كان للتوّ يلوّن بانحناءاته لوحة راقصة تعجز كثير من النساء عن الإتيان بها.

صاحت إحدى المدعوّات:

- هي ممسوسة.

- آه! وقانا الله شرّ ذلك.

حين سمعت الدقاقة نور بأني ممسوسة صرخت بالمسعفات أن يتركنني في مكاني، وتناولت طارها تضربه ضرباً مبرّحاً بإيقاعات الخبيتي، تهبط النغمات إلى قاع نفسي وتنتشلني. أشعر بجسد آخر ينهض بدلاً مني، جسد استعاد عافيته كي يواصل الرقص المذبوح.

منذ تلك الحادثة، غدا حضوري للأعراس مقترناً بوجود نور.

ونور تحب النساء الممشوقات وتسعى لصحبتهن والتفاخر بتعدّد علاقاتها مع ذوات الرقة المتناهية... كادت أن تسحبني إلى فضائها مراراً، وكلما تمنعت ازداد إصرارها، ولولا خشيتها من فقدي للأبد لما طاوعتني وارتضت بإلقاء النظرة والاكتفاء بها!

ومن حفلات الأعراس انطلقت في مغامرات أخرى لا أعرف سبب الإقدام عليها، فما أفعله يجوز أن تفعله من تشعر بفراغ روحها بينما مبخوت عالق في كل خلية من خلايا روحي، فلماذا أقوم بكل هذا؟ هو سؤال لم أقف على مكنون نفسي كي أجيب عنه.

مراراً حاولت الوقوف على سبب هذه التصرّفات الرعناء، لكن الوقت كان يسرقني من جهات عدة: الهرب من جابر، والبحث عن مبخوت، والانغماس في التفاهات التي تلبّي رغبات النساء في امتلاك كل شيء، ومسايرة هناء ميسر التي كانت تسكن أيّ هاجس يكبح

تصرفاتي وتدفع بي معها لقطع طريق أقل ما يوصف به هو العبث.

لم أكن أحلم بالمال الوفير إلا أن الرجال يسكبون الأموال في طريق الحسناوات من غير مقابل، وهناء ميسر أقنعتني بأخذ ما يرمى في طريقي والاكتفاء به إن لم أشأ أن أطلب أكثر منه.

تعلم خالتي علم اليقين أنها ذبلت وشاخت أوردة جمالها لكنها تصر على وضع صورة شبابها في غرفة الضيوف، فالمرأة هي المرآة، لا تريد انتقاصاً لما تتوهّمه.

عادت إلى جدة محمّلة بأولادها الأربعة، وحنق متشظ على الرجال، واصفة إياهم بالحيوانات الناهشة التي لا تكملُ أكل فريستها بل تكتفي بشرف السبق بنهشها متسبّبة بتمزيقها وتركها جثة للحيوانات الأدنى.

انطفأ جمالها، وترهّل جسدها المشدود مخلفاً زوائد شحمية أسفل بطنها وذوت أردافها، وخارت قمتا نهديها، فأيقنت أنها غدت بيتاً خرباً.

– المرأة الموطوءة كالثوب المغسول يفقد لمعته.

قالت جملتها كحكمة خصّتني بها، وحرّضتني على اكتساب كل شيء من غير أن أمكن أحداً من استنشاق رائحتي أو لعق مائي (كانت وصاياها تعاكس وصايا هناء وتجتمعان في نهاية الامر على التكسّب).

انغمست داخل المطبخ تعد طعاماً لأولادها، الذين جزعت أمعاؤهم من التقلص فلم يصبروا على خواء بطونهم فتصايحوا معلنين جوعهم. ألقت اللعنات المتطايرة، وضربت على بطنها:

– نحن متاع، إناء مكشوف يسكب الرجل رغبته فيه فيخرج بشراً، وكما رعتهم رحمك تتفرغين لاستكمال تلك الرعاية، فتغدو

أيامك رحماً لهم تحوطينهم من كل شيء بينما أنت معرّضة لكل أنواع الإيذاء وتتحمّلين كل شيء من أجلهم. الأولاد يمتصون ثديك وحياتك.

بلغ غضبها حداً جعلها تتقعر في وقفتها مستخدمة يدها كإشارة:

– اللعنة على هذا الفرج.

تعيش حالة إحباط لكونها لم تكن تمتلك إلا جمال وجهها، و لم أرغب في نكءِ اعتدادها بنفسها، موقنة أن أغلب النساء ألفن استهلاك كل شيء، لم يبقين شيئاً مدّخراً كقيمة. حتى ذواتهن استهلكنها جسداً وروحاً، لهذا ليس ثمة قيمة للذات سوى ما كان يستهلك منها حتى إذا نفدت لم تعد هناك قيمة مدخرة.

هذا ما تعيشه خالتي وتشاركها في حالتها نساء كثيرات.

كنت أسعى للبقاء خالصة مخلصة لمبخوت، أبقى له جسداً وروحاً وأن لا استهلك. أمنح الواهمين زاداً لأوهامهم من طرف اللسان. أطبق جزءاً من نصيحة خالتي وجزءاً من نصيحة هناء، والأهم أن لا أمكن أحداً من استنشاقي.

قطعت صلتي تماماً بأهلي مع أن المكان يجمعنا ولا يفصل بيننا إلا شارعان ضيقان، إلا أني جعلتهما مدناً وموانئ لا توصل بينها طرق. ومع هذه القطيعة المتبادلة لم تعد سيرتي تلحقهم بأذى، و لم أعد أكترث بهم خيراً أو شراً، واكتسبت بهذا السلوك حنقاً إضافياً من نساء الحيّ اللاتي تبرّأن حتى من معرفتي إذا جمعنا جامع. مع عودة خالتي إلى جدة تواصلت معها وإن كنت قد استغللت غياب أبي أيّما استغلال.

غاب أبي تماماً، فبعد تلك الليلة التي حملني في كيس خيش وألقى

بي مقيّدة في غرفة جابر، لم يعد إلى الدار.

- كل نقيصة تبحث عن غطاء.

ولافتقاري المدقع لأي حسنة تعزّز سمعتي بين الجيران الوالغين في إنائها، اتخذت من غياب أبي غطاءً لنقائصي مظهرة البر به وإن كان الكثيرون سحبوا عني هذا الغطاء لكوني عاقة بأمي ولا أصلها بتاتاً.

جعلت من غياب أبي غطاءً آخر أتسرّب من تحته بحثاً عن مبخوت، وقد حرثت البلد سفراً مدّعية البحث عن أبي ومصرّحة بأنه لن يغمض لي جفن حتى أجده وأعيده كي يظلل أسرته كما كان. لم يكن يعنيني أن يعود أو يغيب، بل كنت معنية تماماً بالبحث عن ذلك الذي سكنني وترك مردته يصيحون ليلياً في ظلمتي: نريد مبخوت.

في السنوات الأولى من غياب مبخوت كنت عاجزة عن فعل أي شيء، أو معرفة طرق البحث أو التمرّد، أو كيفية السؤال عنه، ياسين المفتاح الأول الذي وقع في يدي، وفتحت به بوابة الخروج إلى الدنيا.

أوكل إلى ياسين إيصالي للمدرسة، ثم الجامعة، ومن هناك تفتحت عيناي على ما تفعله الفتيات للوصول إلى تحقيق رغباتهن. اكتسبت خبرات مما أسمع من تجاربهن، ومضيت بعيداً.

جمل حفظتها من محيط الجامعة كنت ألتقطها من أي اجتماع يجمعني بهن.

- الحياة أغنية قصيرة عليك أن لا تكتفي بالاستماع بل بالاستمتاع بكل مقاطعها.

(الدكتورة أماني النجار - أستاذة علم الاجتماع)

– لا تنتظر الموافقة على ما تريد فعله فمن يرفض الآن فسيقبل غداً.

(زميلتي في الماجستير وفاء باكرمان)

– بائع الخواتم لا يتختم بها لكنه يستخدم أصابعه للقياس فلا تكن إصبعاً للآخرين.

(الدكتورة ليلى ناظر – أستاذة علم النفس)

– إذا أنرت طريقك فلن تجد ظلمة تعرقلك.

(الدكتورة سماح سعيد – أستاذة الأدب المقارن)

امض لغايتك تصل.

(هناء ميسر صديقتي الوحيدة)

المرأة كالبيضة عليها أن تدخل في الماء المغلي كي تبقي على تماسكها.

(مقولة لخالتي حين وجدت نفسها مهشمة)

– لا تبذر هواء رئتيك في نفخ بالونة لا تعرف كيف تحافظ على أمانتها.

(أنثى في مكان – صديقة افتراضية جمعتنا صفحة الفايسبوك)

تتساقط حكمهن، وكل واحدة منهن تتأنق في صياغة جملها وتحوّلها إلى توقيع يخصّها على صفحتي الفايسبوك أو التويتر، وبعضهن يحوّلن جملهن إلى رسائل تجوب العالم عبر الـ«بي بي». وقد جاهدت من أجل أن تتنازل لي هناء ميسر عن جملة: «امض لغايتك تصل» لتكون شعاري في البحث عن مبخوت عبر الفايسبوك

بعد أن أجهدني البحث عنه في كل الأراضي لعلّه يأتي من خلال العالم الافتراضي.

فغايتي حبه. أحبه بكل لغات العالم. أعترف بأني أحبه، أعشقه، أهيم به، متلهفة عليه، ملتاعة، مسكونة بملامحه بل مطعونه به...

كل مفردات الغرام لا تفي بالتقاط صورة لتلاطم مشاعري الباحثة عن شاطئه، ولا تستطيع مفردة وصف اختصام جيوش الشوق عليه.

في داخلي رغبات تبدأ به وتنتهي فيه.

هذه الأعماق أو ما يسمّونه الداخل، أو قبر خيالاتنا الخاصة، أو الصندوق المغلق على الدوام، ندس به رغباتنا، ومع مكوثها الطويل تتخمّر وتربو وحين لا نجد لها مخرجاً تنتن فنخشى من فضيحة انفجار روائحها.

وقد أنتن مبخوت في داخلي وفضحني بحبي له...

في مجتمعي، الحب فضيحة لأنه يكشف خياراتنا بين أناس لم يختاروا شيئاً يخصّهم حتى لم يختاروا أزواجهم، ولهذا فمن يقترن بغير هوى أو خيار محض ينتن فتطفح آثامه.

أعلم أن الحياة تتأرجح بين الإجبار والاختيار. لهذا قرّرت السير إلى حتفي مختارة فالحياة تقول:

– اسقط باختيارك أو اسمُ به، أما الإجبار فينقص بهجتك حتى لو كنت ملكاً.

بدأت حياتي بالإجبار وظللت أتنقل من حياة إلى أخرى مجبرة ومعنفة. كنت صغيرة، والرشد معناه الاختيار والتميّز، وأنا الآن أميّز أن بامكاني الوصول إلى غايتي.

حبّي لمبخوت نما في داخلي منذ طفولتي. تخمّر فيّ لسنوات وكان لا بد من انتشار رائحته، فكل أعماقي تفوح به، والبوح بهذا الحب تهوية أو تسريب نتج من ضغط أبخرة شوقي وإلا كنت سأنفجر كمداً.

تعذبت بالصمت، صمتّ طويلاً قبل إعلان حبي له، ورضخت لقاعدة حرمة إظهار مشاعرك، فالحب عيب وحرام وفجور، وقد طالت مدة عقوبتي من غير أن يبين أيّ ضوء في آخر النفق، لا أعرف جرمي فقد نبت في داخلي وأنا طفلة لا أفهم معنى تشجّر وتورّد إنسان في داخلك. وعندما كبرت وجدت أن جذوره متعمقة في كل خلية من خلايا روحي وعرفت أن هذا هو الحب...

همت به مبكراً، ولم يكن لي من عمل سوى انتظار طلته، وعودته من عمله أو رؤيته قابعاً بجوار منزله كشجرة النيم التي تفرعت في فناء منزله وحيدة لا يجاورها سوى صنبور ماء لا تقف قطراته صباحاً أو مساءً...

ولم يكن يقف شوقي له عند حد. كنت كدودة القز أفرز خيوط حبّي متلحفة بها ولا يشير غزلها إلى الجثة بل إلى الكفن.

من يصدق أن طفلة تتعلق برجل مضى عنها بعيداً ولا يعرف شيئاً عن قلبها، وربما نسي أن يديه عبثتا بخصلات شعرها أو مرّت عيناه على تكوّر صدرها باشتهاء عابر فحسبته الهدهد الذي وقف على عنفوان ملكها وخفق بجناحيه ليفتن من يأتي بها أو يشيع ما تمتلكه من فتنة...

وجدت نفسي في سنّ صغيرة تائهة لا أعرف ماذا أصنع؟ أو كيف أبوح أو كيف أشكو؟

مؤلم أن لا تعرف وسائل الشكوى، أو الإشارة إلى مكمن الألم، فتتأوّه من وجودك كله...

كنت صغيرة أبحث فيه عنه، لا أعرف شيئاً سوى الانشراح برؤيته أو مقدمه أو الحديث معه أو سماع صوته. أحياناً كنت أسير خلفه أينما ذهب وأنا صامتة. تنبّه لي ذات مرة بعد أن اخترق حيّنا وغدا موازياً لمبنى التلفزيون، فأعادني مرة أخرى مع تحذير بأن لا أتبعه وأبقى بجوار بيتنا وأن لا أبتعد. التزمت بأمره، واكتفيت بالنظر إليه من أمام الباب أو من نافذتنا.

من عادة الصغيرات جدل الأحلام الوردية لمقدم عصفور يحط بين نهديها فترفرف به، وتحكي لصويحباتها عنه. كل صغيرة تنتظر رجلاً ما، يفتق أحلام أنوثتها، ويشعرها بأنه هو الذي كتبها حرفاً أو اسماً في الوجود. وفي انتظارها ذاك قد يعبرها العشرات فتختار فارساً منهم تعبر به مراهقتها. أنا الوحيدة التي علمها مبخوت البحث عن فارسها والتنقيب عنه في زوايا الأرض من غير أن يُقبل إليّ أو أن أقبل سواه.

كان رحيله المغارة الأولى التي أسقط فيها من غير اتزان أو دربة.

أضعت وقتاً طويلاً وأنا أبحث عنه في أحياء جدة.

كان غطاء خروجي الدائم من البيت هو البحث عن أبي، وصدّق جابر هذه الحجة (أو أراد تصديقها)، وكنت أدعو الله أن لا يعود أبي حتى أعثر على مبخوت.

ندمت أشد الندم لتفريطي بالحقيبة الحمراء التي عثرت عليها في بيته. كانت متخمة بالأوراق والرسائل، ولو كنت قرأت جيداً أو

اختطفت بعضها لهان أمر البحث عنه.

صاحب البيت الذي استأجر منه مبخوت استغل مغادرته وجمع أغراضه (ومعها فستان عرسي الذي ألقيته بغرفة مبخوت) وباعها بالحراج ليستوفي إيجار شهرين كما قال، وإن كنت أظنه كاذباً، فمبخوت يفي بما عليه من التزامات كما كنت أسمع وأرى من كرمه.

من ثقب نافذتنا أراه ينقد السائلين مبالغ تعدّ كبيرة على عابر سبيل، والهدايا التي يوزعها أسبوعياً على صبية الحيّ لا يجرؤ شحيح على اقترافها. مع رحيله فرغ بيته تماماً إلا من شجرة النيم المختالة بتسامقها حتى غدت تُرى من أيّ جزء من حارتنا.

طرأت جبرانة على البال، فهي من كان يستقدم الغرباء ويفاتحهم عن ديارهم وأحوالهم (كما كنت أسمع من خالتي). قصدتها في بيتها، فتحرّجت من زيارتي وأبدت ارتباكاً وعجلة في إنهاء حديثي معها، ومع خروجي طلبت برجاء حار أن لا أصلها بتاتاً:

– زوجي لا يرغب في أن أكون على صلة بك.

مع اعتوار خلقتها ولهفتها على الزواج بأي كائن، وتندّر نساء الحارة بما كانت عليه من اقتتال على أيّ رجل غريب يدخل الحيّ، لم تتوقع أيّ منهن أن يكون نصيب جبرانة أعلى من سقف حلمها كثيراً. فحين شاع خبر زواجها بالمؤذن مصطفى المشر، لم تصدّق نساء الحي ذلك الخبر، واعتبرنه تشنيعاً إضافياً للهفة جبرانة على الزواج. حتى بعد إعلان موعد الزفاف لم يشأن تصديق أن المؤذن الشاب الوسيم يُقدم على الزواج من امرأة ليس لها من أنوثتها إلا أرداف تضلل العابر بها. إعلان زواجها جعل البعض منهن يبحثن عن ميزة غير

ظاهرة جذبت إليها المؤذن مصطفى، ولم يجدن سبباً مقنعاً لهذا الزواج إلا ما قالته فاطمة عيسى:

– مصطفى رجل صالح يريد أن يعف نفسه عن الحرام.

فتضاحكت النسوة لهذا الرأي وخلعت حسنة خليل مفاصل هذا التبرير ضاحكة:

– هي ووجهها يتسبّبان بأن يعوف المرء الحياة نفسها.

فقطعت حديثها فاطمة عيسى بضحكة تناغم ضحكتها:

– لهذا فالرجل يريد أن يدخل من خلالها الجنة.

في طفولتي كنت أرى جبرانة هذرة نزقة، أما الآن فقد سكنها الهدوء والخشية. لم أرها زائغة البصر (كما كنت أراها دائماً)، شيء ما يلمع فيها أو يشع منها: فهل هو الحب أم الايمان؟

ودعتني على عجل ولسانها يلهج بالاستغفار.

لم تقل شيئاً عن مبخوت، وأنكرت معرفتها به تماماً، واكتفت بالإخبار أنها سمعت به يوم أن طرد من الحيّ جراء إيذائه للبنات الصغيرات. قلبت صمتها بال

رجاءات الحارة، ووصلت إلى البكاء مراراً وهي كباب مغلق لا يستجيب لدفع أو دوران المفاتيح في ثقبه الصدئ، وكمن يريد إزاحتك مدّت لسانها قليلاً كي تبعدني عن طريقها بجملة مقطوعة:

– يقولون إنه من سكان قرى جازان، وقد نسيت اسم قريته.

وقفت تحثني على المغادرة، وتقرّب خطواتي إلى خارج بيتها مستعجلة إغلاق بابها وهي تذكرني:

– رجاءً، أتمنى أن لا أراك ثانية، لا خيراً ولا شراً.

فاح خبر سؤالي عن مبخوت، ووجدت فيه بعض النسوة تعليلاً لإقدام أبي على تزويجي برجل أعمى يكبرني بثلاثين عاماً، وكذلك مبخوت يكبرني بنفس العمر (أو أقل قليلاً) إلا أني تمنّيته أمنية ما زلت أبحث عن تحقيقها.

أوذيت كثيراً في سمعتي بسبب مبخوت. وصلني قول خديجة بدري:

– المرأة تنسى خالقها ولا تنسى خارقها.

غدوت متهمة به صراحة ومع ذلك لم أكترث.

بدأ بحثي عنه بدوراني المحموم في جميع أحياء جدة لعلّي أجده، وامتدت خطواتي إلى مكة والمدينة والطائف. قفزت جدتي إلى مخيّلتي وهي تلوم أبي لعدم زيارته لأهله والتواصل معهم:

– الإنسان كالشجر يمكنه أن ينمو في مكان ما لكن جذوره الأولى تجذبه دائماً حتى ولو بالحنين.

في نيتي قرنت مبخوت وأبي بالبحث عنهما في تربتهما الأولى لعل حنينهما جذبهما إلى هناك. مهّدت طريق سفري إلى جازان بادّعاء خبر كاذب صببته في أذن جابر بأن أبي عاد إلى قريته. ومع علمي أن هذا العرق الجنوبي يرحل إلى كل الدنيا لكنه لا يعود، فكيف عاد مبخوت؟ كيف عنّ له كسر هذه القاعدة؟

ضحكت عندما طرأ ببالي أن اقتران لوعتي به مصدره أيضاً جاذبية الحنين للجذر الأول، رغم أني لم أعرف قرية أبي بتاتاً، ولم أزر الجنوب في يوم ما. أعرف أن لي عمة هناك، جاءت ذات مرة لأداء العمرة، فإذا بها تتقبّل العزاء في أمها. حتى في زواجي لم يدعُها

أبي إلى حضور زفافي، وكأن دفني في لحد جابر مهمة مقدّسة واجب أداؤها بسرية مماثلة وعليهم إنجازها قبل أن يفوح نتن سيرتي داخل أسرتي أو خارجها.

أذعن جابر لإرادتي وأصبحت البوصلة تشير إلى الجنوب، فيمّمت وجهي شطره.

14

- غداً سيكون السفر.

أنتظر حزم حقائب السفر منذ طفولتي المتأخرة، وها هي ساعة الرحيل اقتربت...

حرصت على حمل شريط أغنية «خذني معاك» لشادية، فالأغاني أجنحة تحلق بنا في حالة انسحاقنا، تتحوّل إلى مرهم سحري يطبّب حرماناً مثخناً بالعجز...

بعد مغادرة مبخوت بليلتين، حجرت عليّ أمي داخل غرفتنا الداخلية، وأغلقت عليّ الباب، وكانت تزوّدني بكسرات خبز وقناني الماء بتمريرها عبر عقب الباب المرتفع عن سطح الأرض. لم أكن أعي سبب سلوكها العدواني اتجاهي. كان جرح غياب مبخوت هو الأشد إيلاماً وليس تعاملها معي، وزادت بشاعة تصرفاتها معي بإغلاق مصابيح الغرفة من الخارج حتى إذ جنّ الليل تملكني رعب هائل لرؤية هياكل ظلامية تتقافز من كل جهة من أجل ابتلاعي، فأصرخ مستغيثة فلا أجد إلا صوتها يجلجل من خارج الباب:

- ستموتين هنا كما أمتّ شرفي يا ابنة الكلب.

تتعدّد شتائمها ووعيدها بأن أقضي نحبي في الموقع الذي اختارته قبراً لدفن أنفاسي، وتقسم إنها بدأت الحفر لمواراة جسدي. كان صوتها يصل إلى مسامعي محترقاً من غضبه:

- أنت كغائط لا يمنع انتشار رائحته إلا التراب.

وفي الليلة التالية تقسم أن تقذف بي في بالوعة البيت كي أجاور

القاذورات التي أشبهها في نتنها ولزوجتها، وفي الليالي التاليات ألفت الظلمة وهواجسها وأهملت تهديدات أمي القادمة من خارج الغرفة.

كل تلك الليالي لم أسمع صوتاً لأبي أو لإخوتي وكأنها اختارت هذه الغرفة الداخلية من غرف منزلنا لتحويلها إلى زنزانة لا يقربها إلا هي، ولا تصل إليها إلا مع دنوّ الغروب حيث تمرّر كسرات الخبز وشتائمها متمنية هبوب رياح الموت لأسقط من غصن بنوّتها مثل ورقة تالفة.

لم يكن هناك من سلوى سوى دموعي المنهمرة، وإحساس بالمقت لكل أهلي ومعهم رجالات الحارة. في ظلمتي تلك وفيما كنت أجذف بخيالي في وحشة متلاطمة أطرافها. اكتشفت وجود مذياع قديم استعاض عنه أبي بمذيع وآلة تسجيل مجتمعة، وترك مذياعه القديم في تلك الغرفة. أدرت مفتاحه، فحل صوت شادية مهيّجاً كل الأحاسيس المحتبسة:

خدني معاك ياللي انت مسافر خدني معاك
خدني معاك عنـــد الحبـــايب خدني معاك
خدني معاك عنـــد اللي غايـــب خدني معاك
وحياتك يا ماشي عدي ولا تنساشي
حبيبي راح ولا جاشي
من سنين وانا صابرة عالحنين مش قادرة
ولأجل خاطره مسافرة

خدني معاك ياللي انت مسافر
وحياتك يا جارنا يامسافر لقمرنا من يوم فراقه لدارنا
غابت في بعده قمره تكتب عليه الشجره
سألت عليه كم مره خدني معاك...
والله ان كنت اعدي سبع بحور لاعدي
حتى ان تعبت ما هدي
عدي وخدني معاك خدني لحبيبي هناك
وانا واقفه باستناك
خدني معاك ياللي انت مسافر

ومع آخر قطرة من صوتها الدافئ كنت أنهج بنحيب متعالٍ، وما زلت أمارس هذا النحيب كلما سمعت تلك الأغنية، سماع يصيبني بالتشظي، فأحنّ للسفر رغبة في البحث عن مبخوت. كنت مولعة بالبحث عمن يوصلني إليه، وكل شخص أسمع عنه على وشك اقتحام وعثاء سفر أتمنى أن أقول له: «خذني معاك ياللي انت مسافر، خذني معاك»...

انتقل إليّ حب سماع الأغاني من مبخوت. كان مغرماً بإسماع الشارع الذي يقتعده أغاني تذوب لهفة ولوعة، وكنت أتلقى كل أغنية كإهداء خاص لجنوني وتعرّش عواطفي بشخصه.

منذ عرفت نفسي وأنا متيّمة به. أكره كل من يعاديه أو يتقوّل عليه، أو يصمه بنعت شائه. بتر كل شيء عني وأدخلني دائرته، بتر حتى علاقتي بأهلي من غير أن يقصد.

أحدثت أمي بيني وبينها قطيعة بيّنة منذ مغادرة مبخوت.

في تلك الحقبة الزمنية المبكرة لم أفهم سبب عدوانية تصرفها بتاتاً. ربما عرفت لاحقاً أو فسّرت ذلك لكن كرهي لها تعمّق عبر جريان الأيام. تعمّق مثل حفرة كلما أخذت منها زاد عمقها.

لم أر وجهها منذ انتقالي إلى بيت جابر، وتعمّدت صم أذنيّ عن أي خبر لها أو عليها. المسافة المكانية القصيرة بيننا لا تتعدى شارعين إلا أن المسافة الوجدانية في داخلي ابتعدت عنها كنجم ضنين في مد الكون ببصيص من نوره.

تعليلي لسلوك أمي جاء متأخراً إلا أني لم أسامحها ولن أفعل أبداً، فقد أحالت حياتي إلى ريحانة من يراها أو يشمّها يظن أنها نافذة الوجود لكن حقيقتها مرة، مرة لا يقبل على مضغها حيوان جائع.

أيام السنة الأولى من زواجي كانت دامية. عشت الأشهر الثلاثة الأولى منها داخل الكيس. يخرجني ويعبث بي كما يحلو له، ويعيدني إلى مكاني. انتشرت البثور في مناطق مختلفة من جسدي، وخاصة أطرافي السفلية. دميت ساقي المقيّدة وتغلغل جرحها عميقاً بفعل الاحتكاك بخيوط الخيش الخشنة، ومن حماقة جابر تفكيره بتغيير الكيس بدلاً من إخراجي وتطبيب أطرافي.

احتاجت عائشة إلى خبث نسوي مضاعف كي تقنعه بحسن معاملتي وإخراجي من الكيس فلم تعد قادرة على التلصّص يومياً وانتظار مغادرته المنزل لأداء الصلاة أو مجالسة رجال الحارة في مركازهم، كي تخرجني من داخل الكيس وتدهن جسدي بفازلين ظانة أنه يقلل من آلامي، و لم تتوقف إلا عندما شكوت لها ازدياد

حرارة جسدي وبقائي في حالة هرش دام كلما وضعت مرهمها.

بعد زواجي لم يزرني أحد من أسرتي، وفي الأيام الأولى توافدت بعض الجارات إلى زيارتي وتهنئتي، وأغلبهن جئن لرؤية طفلة هربت ليلة زواجها وأعيدت محمولة داخل كيس وكأنها قطمة رز أخرجها أبوها زكاةً عنه وعن أسرته. الفضول دفعهن للزيارة لا شيء غير ذلك.

وقد حمدت سوء أخلاق جابر لأنها تسبّبت بكفّ تدفق النسوة الفضوليات، فسوء طبعه حمله على طردهن بصورة غير لائقة لم يراع فيها اللباقة أو مشاعر أخته التي وقفت خجلة تعتذر لهن عن سوء تصرف أخيها، فتلقت على ظهرها ضربة من عصاه وتهديداً مقذعاً بطردها معهن إن فتحت الباب لاستقبال أي واحدة منهن، واصفاً إياهن بالمسامير التي لا تثقب شيئاً إلا بضربها على رأسها.

بيت جابر مقفر من الناس، وكأنه كهف أعد للهاربين من الحياة. بيت يقع وسط ضجيج الحارة لكن لا أحد يصله. أيقنت بانقطاعي عن الكل إلا وجه عائشة وعري جابر المستمر.

في شهوري الأولى عشت من خلال السمع، فكل ما يصلني بالحياة يدا جابر وعائشة، فيد عائشة لإطعامي، ويد جابر للعبث بي، وبقية الوقت داخل الكيس المربوط من أعلاه والمقيّدة من أسفله.

أفرج عني بعد ثلاثة أشهر على ما أظن، وإن قلت سنة لم أخطئ، فالزمن الذي مكثته حبيسة الكيس ليس زمناً يُحسب بالساعات أو الأيام. هو زمن خاص يغدو فيه اليوم سنة، والحالة ردحاً من دهر، في ذلك الكيس لم يكن حاضراً إلا الظلام: ظلمة الروح، وظلمة الكيس، وظلمة جابر، وظلمة الوحدة، وظلمة ذوي القربى، وظلمة

الجهل، وظلمة الطفولة، ظلمات فوق ظلمات وأنا أتخبط في ما بينها بحثاً عن بصيص نور.

الآن لا أذكر تحديداً، ما الذي قالته أو فعلته عائشة وأقنعت به أخاها كي أعتق من غياهب الكيس.

انعتاقك من حالة كرب ربما يوصلك إلى حالة أكثر حرقة وألماً ممّا كنت فيه، أو أن حالة الكرب تلك تنمو وفي كل مرحلة من نموّها تضيق حلقاتها قبل انفراجها. استشعرت هذا حينما وجدت نفسي خارج الكيس:

– يا مرة تعالي همزيني.

متعة جابر الوحيدة بعد تجشؤ وجبة غذائه الدسمة خلع فنلته والاستلقاء على بطنه من أجل تمرير أصابعي في دهك وتليين عضلات ظهره.

جفلت مع أول طلب له. كم تتألم على نفسك حين لا يكون لك حول أو قوة في دفع بلاء واقع. كنت أبحث عن حضن أختبئ فيه من ضربات جابر الطائشة التي يسدّدها في اتجاه صوتي، ولكي لا أفرّ منه يظل يتلمس الغرفة إلى أن يمسك بي، ويثبتني من شعري أسفل قامته، وينهال عليّ بالصفعات مهدّداً إياي من اقتراف التراخي أو عدم الاستجابة لأي أمر يصدر منه.

كم كانت بشعة تلك الأيام، فملامسة جلد من تكره عذاب مقيت...

يتجرّد من كل ملابسه، ويناولني قطعة قطعة من أجل طيّها بعناية ووضعها في رف سفلي من خزانة الثياب، ويفرد جسده على الفراش

متخيّراً مواقع بعينها كي أدلكها، ويمعن في الاسترخاء مطالباً بتليين عضلات كتفيه وظهره وقدميه بواسطة مستحضر زلق نافذ الرائحة. ملامستي لجلده تثير حالة تقزز في داخلي. ومع نفاذ رائحة ذلك المستحضر تراودني حالة غثيان متكرّرة ألجم مناوبتها بثني رقبتي في اتجاه آخر.

مقرف هذا الجابر كحيوان مات وأنتن ومهمتك كحت نتنه.

تدليك ظهره واجب يومي أؤدّيه مجبرة، ويزيد في دلاله حين يطالبني بحك جلده فأتمنى لو بيدي مشرط أقشره مثل برتقالة استعصى تقشيرها. كنت أظن أن رؤية دمه ينزف ستشفي غليلي وأرد له دين دمي المسفوك على يديه، كي يكون دماً بدم. عندما كبرت وأصبحت لي الغلبة في تسييره، فرد جسده مطالباً بتتبع ثآليل امتدت أسفل كتفه اليمنى إلى خاصرته، فقشطتها بأظافري، فصرخ لاعناً أول أسلافي كعادته. دمه العالق في جذور أظافري هيّج تقززي واستشعرت قذارتها. كنت أظن أن هذا الفعل سيشفي غليلي لكن دمه العالق بين أظافري أشعرني بالتقزز والقذارة، فألقيت حمم معدتي الحائمة على ظهره، و لم أشأ إبعاد قيئي عن جسده. كان يصيح ويشتم كل من له علاقة بي، وأنا أمتطي ظهره وأسفح من فمي كل تقززي منه.

- يا مرة لبسيني ثيابي.

أكره لفظة «يا مرة» لارتباطها بعبوديتي له، ورهبتي منه. ظللت سنوات طفولتي المتأخرة أخشى صوته. مجرد أن تنفرج شفتاه أكون في حالة اهتزاز مروّع خشية التباطؤ الذي يعني صفعات وركلات وشتائم تجري في سلسلة أسلافي.

ربما انصياعي لكل ما يتفوّه به هو المفتاح الذي استخدمته عائشة لفتح مزاجه العكر بقبول فكرة ذهابي إلى المدرسة لكوني مطيعة له. ربما يكون هذا هو السبب أو أن هناك سبباً آخر لا أعلمه. تحديداً لا أعرف أي عصا سحرية استخدمتها معه كي يخرجني من داخل الكيس، ويسمح لي بالذهاب إلى المدرسة. لا أعلم كيف حدث هذا. ربما رحمني القدر و لم يشأ تكبيلي مرتين. كنت محتاجة إلى الخروج من أغرب سجن يمكن أن يوضع فيه إنسان.

عدت إلى المدرسة وكنت الطالبة الوحيدة التي تتمنى لو أن اليوم الدراسي لا ينتهي.

انتشر في المدرسة خبر أني متزوجة، فتهافتت الطالبات لرؤيتي أو تبادل الإشارات لمزاً وغمزاً في الطابور الصباحي أو الفسحة أو حينما يحين موعد خروجنا، وتحوّلت إلى محطة إشفاق عند بعض المعلمات اللاتي يرين ضآلة جسمي وعمري الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة و لم تصل خبرتي إلى إتقان الغطاء أو ارتداء العباءة...

الوحيدة التي ناصبتني العداء أبلة سمية التي أنهت عمرها من غير أن تتزوّج وقد بقيت لها سنة أو سنتان وتنهي خدمتها التعليمية. كرمشة يديها وتعطف جلد نحرها وسقوط السن الضاحكة اليمنى أبان عبث لسانها حين يتحرّك لملء فراغ السن المفقودة بظهوره الدائم مثل رأس إبرة حجمها لا يمكنها من النفاذ الكامل. وتحريك لسانها الدائم خروجاً ودخولاً مع انطباق حنكها يصدر صوتاً كطفل متعطش للرضع. تتفرس وجوهنا وكأنها تبحث عن شبيهاتها اللاتي سيمضين أعمارهن موغلات في الوحدة مكتفيات

بترميم أحلامهن بما يفيض عن حاجة الجميلات.

بشاعة خلقتها كانت رحمة لشبيهاتها حيث دأبت على تقريب الدميمات وإفاضة حنوّها عليهن، وإذا ما تعكر مزاجها انهالت بالسباب المبطن على جمال المرأة التي لا تعرف من حياتها إلا الجلوس أمام المرآة للمحافظة على قشرة جمالها الخارجي ولا تجلس للحظات من أجل تجميل داخلها...

من فمها المكسور عرفت سر غضبة أمّي حين ثارت يوم عودتي من بيت مبخوت والدم عالق في تنّورتي.

تتحرك أبلة سمية بأعطافها المتهدلة حاملة مللاً يزيد عن حاجتها، فتوزع الفائض منه على كراسي الصف. تجلس مكان كل طالبة تخرجها لمسح السبورة أو جلب الماء أو توكل إليها استدعاء مديرة المدرسة كي تنظر في حالة طالبة أصدرت شغباً أو سلوكاً مشيناً أو خمولاً متقاعساً، ولا تتذكر أنها نسيت جسدها على كراسينا.

معظم حصصها تستغلها في إراحة تهدم جسدها. يرهقها مرور مديرة المدرسة، ما يدفعها إلى إقامة تهدمها بالحركة بين صفوفنا أو الاتكاء على السبورة وإظهار يقظة حازمة لمن تسرح منا في خيالاتها.

شدّت جسدها جيداً وأطلقت سؤالها بتلذذ:

– ماذا تعرفن عن الحيض؟

خمس طالبات من أربعين طالبة رفعن أصابعهن. حرارة عينيها تشوي وتقلب الفصل متلذذة بالسر الذي ستبوح به على مسامعنا متحرزة على أن لا أفشي سرها قبل أن تفك غموضه، وأدهشها أني

لم أكن من ضمن الطالبات اللاتي رفعن أصابعهن، فعمّقت نظرها في وجهي، وأشارت إلي باستهجان:

– أنت، ألا تعرفين الحيض؟

هززت رأسي نافية تلك المعرفة، فأثرت غضبها من حيث لا أعلم. وفي المقابل لم تكظم غيظها متهمة إياي بتقمص أدوار البراءة القبيحة، ثم مضت تشرح علامات قرب ظهور الحيض، وكيف يخرج، وماذا يجب أن تفعله الفتاة عند بلوغها، وفي كل لحظة تنظر إليّ:

– لا تعرفين الحيض ولكن تعرفين المضاجعة.

الطالبات الخمس العارفات أطلقن ضحكة مسموعة بسبب سؤال إحدى الزميلات:

– أبلة، وهل تأتي الدورة الشهرية للرجال؟

– اسألي فتون فهي تعرف الرجال أكثر منا.

ووجدتها فرصة لأن تنهضني من جلستي:

– هه ما رأيك؟

ظللت صامتة لا أجيب وهي تكرّر جملة:

– لا تعرفين الحيض ولكن تعرفين المضاجعة.

ومع تكرار الجملة رفعت طالبة أخرى إصبعها متسائلة:

– ما هي المضاجعة يا أبلة؟

وانضمت الطالبات لمعرفة الجواب. وجدت أبلة سمية تقودني إلى غرفة المديرة مدّعية أني افتح عيون الطالبات الصغيرات لأسرار المعاشرة الزوجية.

لم يطل مكوثي أمام المديرة فهي تعرف اعوجاج مزاج أبلة سمية

إلا أنها حذرتني من استمرار عدائها لي وزوّدتني بنصيحة مدح جمالها كلما رأيتها:

– المرآة معلقة من أذنها.

ومنذ ذلك اليوم وأنا أغدق عليها نعوت الجميلات وتغدق عليّ اهتمامها المبالغ فيه حتى أخذت تقدّم لي الإرشادات للمحافظة على جمالي ولو أني اتبعت نصائحها ربما أدخلتني قائمة القبح المكتسب.

بعودتي إلى المدرسة، شيء ما حدث. الذي كنت أعيه أني خرجت من ظلمة، في تلك الظلمة لم أكن لأعرف التواريخ أو الأيام، وانتظامي في المدرسة أعاد قلادة الأيام إلى انتظامها الذي لم يسدّ شعوري بالوحشة والوحدة.

* * *

كل شيء كان يحدث لي أسارع إلى إخبار مبخوت، كان بئري الذي أرمي به أسراري.

اعترتني حالة انطواء وشعور بالاتساخ. أظن أن هذا حدث في الحادية عشرة من عمري. بزغ شعر في أطرافي وفي إبطيّ وفي المنطقة المرعبة.ذ بدأ على هيئة زغب سرعان ما اسودّ وتفلت ركضه من إبطيّ إلى ساعديّ، إلى ساقيّ. لم أعرف سبباً لافتراش الشعر مواقع من جسدي. كان افتراشاً مروّعاً، وللتقليل من تهيّجه عمدت إلى قصّه بمقصّ استللته من أدوات الخياطة الموضوعة في درج أمي، ومن أجل شعوري بأن المقص اتسخ وخشية أن تلحظ أمي ذلك الاتساخ، كنت أغسل حدّيه بالصابون وأجفّفه بمنشفتي الخاصة

وأعيده إلى الدرج بكل حرص على أن لا يكتشف توسيخي له.

ازداد تهيّبي ورعبي، فمع كل عملية قص يعاود الشعر النمو، وتبادر إلى ذهني أني سأتحوّل إلى «أمنا الغولة» عما قريب. في الليل أبيت محدقة في الظلام وكل الخشية أن يظهر النهار لأجد نفسي غولة مغطاة بالشعر الكثيف. أغمض عينيّ وأنهج بالبكاء الصامت. بدأت أتنبّه لكل ما يحدث في جسدي وأزداد انطواءً وبعداً. أيقنت من التحوّل مع نغزات صدري ومع ملامسة موضعها أحس بحصاتين نابتتين داخل ثدييّ تتكوّران وتربوان على استواء صدري. حل الفزع في أعماقي، وأخذت أتربّص بوجهي. في كل صباح وقبل جفاف النوم من أهدابي أركض باتجاه المرآة خشية أن أكون قد تحوّلت إلى أمنا الغولة. استمر هذا الوضع عاماً كاملاً، وعندما لم أتحول إلى «غولة» تعوّدت ارتداء الملابس الطويلة كي لا يظهر اتساخ جسدي بالشعر المتنامي.

لم تكن أمي متنبهة لما أجده من خوف، ولم أكن لأجرؤ على مفاتحتها لانشغالها بالحروب الكلامية مع جدتي التي توصلها إلى حالة فوران دائم لا تستقبل معه أي ثقل آخر.

وصاياها كانت مركزة على البكارة، سمعتها منها من وقت مبكر بأن البنت التي لا تحافظ على أمانتها لا تعيش أبداً ولن تذهب إلى بيت الزوجية بل إلى المقبرة التي يودع بها جثث الموتى.

البكارة أول رعب أسمع به، وتلقيت أحاديث غامضة عن هذه البكارة. لم أكن أعرف أين موقعها، وما الذي تسبّبه، ولماذا لا يفقدها الصبي وتفقدها البنت. وبالتقاط نتف من أخبار البكارة عرفت أن

لفقدها دليلاً واضحاً عبارة عن خيط دم يسيل بين الفخذين، وأن أي فتاة تفقد بكارتها ستموت ويحملها أهلها إلى المقبرة وهي حيّة.

تقلدت هذا الفزع مبكراً. خوفي مما بين فخذيّ يوصلني إلى حالة ارتعاد كامل. كنت أحاذر من ظهور ذلك الدليل بما أمتلك من معرفة ضئيلة عنه.

ذات يوم كنت في الشارع ألعب مع صديقاتي لعبة «الاستغماية» وعيني معلقة على جلسة مبخوت. حتى حينما أقوم بالعد من أجل تنافر زميلاتي واختبائهن، أتظاهر بأني أضع يدي على عينيّ بينما أفرج أصابعي كي لا يهرب موقعه عني. تدافعت صديقاتي من ثنايا مكان لعبتنا كسرب حمام حلق للوصول إلى «العزيزة»، وجرفنني مع تدافعهن، فسقطت ومع نهوضي شعرت بألم يخترق عانتي كسيخ حام يجتثّ أحشائي. عدت إلى البيت سريعاً. لم تكن أمي هناك، وفي دورة المياه، سقط قلبي. قطع دم تخرج لها رائحة كريهة. أول ما تبادر إلى ذهني أني سأحمل إلى المقبرة حالما تعود أمي، لم أعرف ماذا أصنع. ركضت إلى المطبخ، وحملت علبة بها بن. أفرغت محتواها وأنا أحثو منها وأكبس على مصدر خروج تلك القطع الدموية، ظننت أني جرحت أثناء تدافع صديقاتي في إنهاء اللعبة.

بتّ ليلة عمياء.

لم يخطر في بالي أن ألجأ لأحد سوى مبخوت. عزمت على إخباره والاسترشاد بما يجب علي فعله.

شيء ما ليس في مكانه. في شارعنا حالة غليان لم أعرف كنهها وإن كانت تشير بمحاصرة بيت مبخوت، فمع تقدمي إلى منزله

زُجرت ودُفعت للعودة من حيث أتيت.

هالني منظر المجتمعين حول بيته منذ الظهيرة، وكلما منّيت النفس بتفرّقهم تضاعفوا وتداخلوا مثل نمل يتنادى بعضه على بعض من غير أن تسمع نداءهم. اقتعدت باب بيتنا أحمل حسرات أني لن ألقاه في ظل تجمهر هؤلاء الناس الرافضين لأي شخص أن يتقدم إلى بيت مبخوت. وكلما مضى الوقت ازدادت كثافة المتجمهرين، فاقتعدت مكاني متلصّصة أنهض مع رؤية أي فرصة يمكن أن تحقق دخولي إلى منزله وأتراجع مع إماتة تلك الفرصة بسبب نهر أو زجر لأن أعود من حيث أتيت.

كنت قد اتخذت مرقباً أصعد إليه من ضلع زقاق المستعجل حيث تنحشر البيوت مبقية على فرجة بين بيت يحيى عبد الله وموسى التكروني. في غياب مبخوت أو تأخر خروجه أتسلل إلى تلك الفرجة وأرتقي جدار بيته مستندة إلى ألواح خشبية نفرت من بيت موسى التكروني، لأجد نفسي متساوية مع ارتفاع السور، وأنزلق إلى داخل البيت عبر دلدلة قدميّ والانسحاب إلى الأسفل بالاتكاء على خزان مياه ابتعد كثيراً عن الارض مقترباً بعلوه من ارتفاع السور. بعدها أجد نفسي داخل بيت مبخوت من الجهة الخلفية. الجميل أن الزجاج النافر من سور بيته أزيل مع تجديد بنائه.

خوفي من القبر الذي تحفره أمي لإخفاء جسدي داخله زاد من إصراراي على ملاقاة مبخوت، وفي ظل التزايد المستمر للمتجمهرين. تسللت إلى مرصدي متعرّشة السور وهابطة إلى داخل بيت مبخوت. كنت أتدبّر حلحلة أيّ ظرف يبعدني عن مبخوت حيث تعتريني

جسارة مضاعفة. في تعرّشي وهبوطي إلى داخل بيت مبخوت لم أدر في عقلي فكرة رؤية مؤنسة لي وأنا أقف بينها وبين زوجها داخل صحن بيتهما. كنت متلهفة لأن أخبره أني فقدت بكارتي. كنت راغبة في التضرع إليه أن يعدني عن المقبرة التي هدّدتني أمي بدخولها لو أني فقدت هذه البكارة...

استقبلني مبتسماً فيما كانت مؤنسة متجهّمة الوجه تضع ثياباً في حقيبة كبيرة بعينين مغروقتين بالدمع. التفتت إلى مبخوت بعدائية:

– هذه واحدة منهن.

ونهضت مزمجرة وأمسكت بكتفي:

– ما الذي جاء بك؟

فهبّ مبخوت من جلسته ناهراً إياها ومقسماً أن يريها ما لا تحب.

انقلب المكان من الخارج ودلل على ذلك الانقلاب ارتفاع أصوات مزمجرة وصفير يعصف بأسماعنا تصلنا من خارج البيت، وحجارة متوالية القذف تصيب النوافذ، تشتت تفكيري وأنا أرى حيرته وعدم اتزان نظراته التي طالما رأيتها ثاقبة، وزاد من ذلك ترجرج كلماته بإسكاتي عن الكلام ريثما يفرغ لي. كان قرع الباب الخارجي يصلنا مرتجاً ومتتابعاً وصوت خليل المسلكي يحل بيننا:

– افتح يا مبخوت أنا خليل...

خطا مبخوت لخارج الغرفة وغاب للحظات وعاد يجذب الحقيبة التي أغلقتها مؤنسة وأسلمها لشابين من شباب الحارة أمرا مؤنسة بارتداء عباءتها والاستعداد للمغادرة، وعندما حرنت جذبها من كم فستانها:

- لا وقت لدينا في حلحلة عنادك.

- لن أخرج معك...

- ستخرجين رغماً عنك...

لأول مرة أقف على نفوذه اللفظي، وقد اكتسى وجهه باحمرار يشير إلى غليان يقلب مكنونات صدره فلا يجد لها من تهوية إلا ذلك الاحمرار وقطم الكلمات قطماً. دفعها أمامه وتراجع نحوي ليوصيني، فأمسكت بيده:

- إلى أين أنت ذاهب؟

حاول جاهداً تقليل احمرار وجهه وهو يبتسم بإجهاد ظاهر واضعاً يده على رأسي:

- سأعود...

- أظن أني فقدت بكارتي، ماذا أفعل؟

صعقت مؤنسة وهي تسمعني، واتسعت عيناه في دهشة لجمت ما بقي له من كلمات قليلة لينهض صوت مؤنسة:

- ليتهم يقتلونك يا شيخ...

نهرها من مغبة مواصلة أي جملة، وأبقاني داخل الغرفة موصياً إياي أن أخرج بعد خروجه بزمن ليس بالقصير.

كنت في حيرة من كل ما يحدث، ولم ألتزم بنصيحته، فمع خروجه مباشرة لحقت به، وليتني لم أفعل.

ما زالت نظرات وداعه لي تحرقني من سنوات طويلة.

15

قرى تهامة كالكواكب المتناثرة في المجرات تومض من ماضيها السحيق نراها فقط لكن لا نسكنها ولا نعرف كم تكابد في لظى وجودها.

أمنيتي بالوصول إلى جبال الريف في «تدغين» تلاشت و لم أعد مكترثة بسلالة حملت راية الإسلام إلى جنوب فرنسا أو نامت بها في الطرقات. غدوت حريصة (كل الحرص) للبحث عمن حمل راية قلبي ونزع سلام روحي الداخلي ومضى غير أوّاب.

خبّأت في أذن ياسين رغبتي في التجول بين قرى تهامة، على أن لا يبوح بهذا السر بل يشاركني في تدبّر أمر الانتقال إلى هناك بعيداً عن رائحة جابر.

مرة واحدة جرّبنا السفر المنفرد ثم ظهرت صعوبة التنقل خشية أن ينتهي تجوالنا بالسجن على يدي هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

تحوّل ياسين إلى سائقي الخاص. أقتعد المقعد الخلفي من السيارة وأشير له باتجاهي الذي أنوي سلوكه. قرار عودتي إلى المقعد الخلفي استقبله ياسين متذمراً:

– هل أنا سائقك الأندونيسي؟

أفهمته أن هذا تحرّز من أي تعدٍّ يصدر من رجال الهيئة. اطمأن للعذر بعد أن حكى قصصاً مخجلة لأقارب وأزواج اصطحبوا إلى مراكز الهيئة بحجة الاختلاء.

أستخدم جابر كالدولاب الاحتياطي المقذوف في صندوق

السيارة لا أنتشله من مكانه إلا عند الحاجة القصوى، وقد ارتضى بهذا الدور مقابل دلال إضافي يتزّه حين أعرض حاجتي.

سلوك الآباء المشين يتحوّل إلى معرة تنقص من قدرك، فلا تجد مناصاً من التعامل بها مقدماً ذاتك كعوض عما سلف. جئت من الجامعة مفتعلة الحبور ومعلنة لجابر عن خبر ملفق مضمرة رغبة السفر للبحث عن مبخوت:

– أبشرك، أبي عاد إلى قريته في الجنوب.

ضحك حتى فاحت أبخرة فمه في كل أرجاء الغرفة:

– ليعد إلى حيث يشاء فما يعنيني من ذهابه أو عودته.

– لكنه أبي.

– أنسيتِ أنه جلبك في كيس خيش.

كان عليّ تحمّل غثاثته، ومدارة عنجهيته حين تقفز فجأة، فبعد ما وجدته من عنت في جازان، استوجب عليّ حمله كبطل حكاية «عمر ما يقوم». أحياناً نسلك طريقاً لا نحبّذ تعفير وجوهنا بترابه، لكننا نسير...

وجابر من الكائنات التي وجدتها صالحة لظرفي إلى أن تثبت إبرة بوصلتي في الاتجاه الذي أشتهيه.

كانت تجربة البحث الأولى السفر جواً إلى جازان ومن غير علم جابر. خططت مع ياسين، ونفذنا. ادّعيت أني سأمكث في الجامعة إلى العشاء، وأقلعت الطائرة في السابعة صباحاً.

وقفنا في مطار جازان حائرين أمام سؤال السائق الذي تلقفنا من بوابة المطار مؤكداً معرفته بكل تفاصيل المنطقة:

– أي قرية تريدان؟

في كل أحاديث أبي عن قريته وأهله لم أمسك باسم القرية. في أحاديثه عن قريته تأتي مقرونة بقولة ذهبنا إلى صبيا أو عدنا منها، ربما لو ذكرت على مسامعي لتذكرت. حاولت جاهدة استرجاع اسم القرية فلم أفلح:

– هي قرية بجوار صبيا.

– من أي اتجاه.

– لا أعرف.

انطلقت السيارة وعيناي ترقبان القرى أو ما تشير إليه اللوحات الإرشادية:

المعبوج، دحيقة، العشوة، الشواجرة، صنبة، خبت الفلق، الضبية، الفرا، المعترض، صبيا، الحسيني، جبل عكوة اليماني، نخلان، أبو القعايد، أبو السلع، جبل عكوة الشامي، المليحيا، غوان، قايم الدش.

وعاد السائق في خطه منعطفاً باتجاه الشرق وهابطاً على: مدر دب، العيدابي، الحناية، الشقيري، والجهو، والسلسل، وضمد وخضيرة... كل هذه القرى والمدن لم تذكرني باسم قرية أبي. كان الوقت قد قفز إلى ما بعد منتصف النهار.

تنبّهت لغبائي حين سألني ياسين:

– وهل الرجل الذي تبحثين عنه في قرية أبيك؟

خالط سؤاله صوت السائق ممتدحاً جبل الجنة. راقني الاسم فأهملت سؤال ياسين ووجّهت حديثي للسائق بأن يتّجه إلى جبل الجنة، وكانت الجنة هناك. لولا أن رحلتنا كانت تقلع قبل الغروب

لمكثت أجوب هذه القرى المنثورة كحبات الرمان مزهرة ولامعة.

ودّعنا السائق على بوابة المطار مؤكداً أن مئات القرى لم نرها بعد واصفاً قرى بر جازان بالنجوم التي تومض ولا يصلها أحد.

في كبينة درجة الضيافة استقررت على مقعدي مقلبة صفحات مجلة الخطوط بينما كان المضيف يعلن قرب إقلاع طائرتنا المتجهة إلى مطار الملك عبد العزيز بجدة، فداهمني سؤال أضحكني:

– هل سافرت بحثاً عن مبخوت أم بحثاً عن قرية أبي؟

قررت إعادة المحاولة مرة أخرى وبنفس الطريقة:

– سيكون من الصعب التنقل خارج جدة.

قالها ياسين متيقناً وناصحاً اصطحاب جابر كغطاء رسمي ومهم للوصول إلى قرى تهامة مجتمعة إن أردت إعادة تجربة التنقل بين تلك القرى.

كيف أقود هذا الأعمى إلى آخر الدنيا؟

وقبل حلحلة عنجهيته، كان لا بد هذه المرة من معرفة قرية أبي، فاصطحاب جابر يقتضي ذلك، إذ كيف لي تأكيد ادعائي من غير أن يصل إلى أهلي هناك. كنت متردّدة وفي أحيان أستسخف اصطحاب جابر أو معرفة قرية أبي، فكلاهما يبطل غايتي من الوصول إلى مبخوت. أحياناً نمارس أفعالاً غبية بارتياح كامل.

هذه الفكرة أخرت رحيلي بعض الوقت، كنت قد تخففت من مشاعر الولاء لأي كائن من كان، وأنا وأمي تبادلنا البراء كلٌ من الأخرى. وتقاطعنا كسلكين فصلا عن دائرتهما الكهربائية. هذه القطيعة تمنعني من زيارتها أو مفاتحتها في أي أمر.

عائشة امرأة تعيش في الهامش بقلب يقطر طيبة. حسرتها الوحيدة أن بطنها لم يثمر لها ابناً تتكئ عليه في أيامها المقبلة. ملت من صراخ جابر واتهامه لها بالبتراء والعاقر وإلقاء قاذورات فمه على رأسها في كل حين. جئت إلى أخيها طفلة، فتعهّدت برعايتي وإرشادي إلى أمور لم أكن لأعرفها لولا قربها منّي، وساهمت في تمكيني من إكمال دراستي. لم أبدِ لها جميلاً و لم تطلبه، ترضى بالكلمات الطائرة والعميقة ولا تمسك بعتاب أو غضب. ترى الناس جميعاً خيّرين أنقياء. هكذا عرفتها، امرأة خلقها الله لتعتني بهذا السافل الذي يُدعى جابر.

– عائشة، أريد منك خدمة.

عادت بعد ساعتين قضتها مع أمي، تداري سبب زيارتها، متخذة من غياب أبي وسيلة لسؤالها عن اسم قريته، كنت أنتظر عودتها بلهفة وحين وقفت أمامي لتعطيني ثمرة زيارتها سلكت مسلكاً آخر وأخذت ترثي لأمي وما أصابها من هزال وعدم إقبال على الحياة، في محاولة مستميتة لتليين قلبي ودفعي إلى زيارتها:

– هل نسيت ما ذهبت من أجله يا عائشة؟

– لا لا، تقول اسم قريته الباحر.

ما من شيء مرئي يمكن إغراء جابر وتحميسه لزيارة منطقتنا، فلو تزيّنت أو تغنّجت فلن يحرّكه هذا الأمر أبعد من عادة كلب ممدود لسانه على الدوام، ولو امتدحت له جمال الطبيعة هناك فسوف يصاب بالكمد والحسرة ويمعن في الرفض كي لا يزداد شقاءً بما هو فيه، ولو أخبرته اشتياقي لأهلي لانفرط لسانه انتقاصاً واحتقاراً لأبي

ولذكّرني بنسياني أمي التي تجاورني. فكرت في طرق كثيرة أسلكها من أجل اصطحابه.

لم يطرأ في بالي يوماً أن أكون بهذا الحرص على وجوده معي. أؤمن: أن هناك طرقاً تمشينا ولا نمشي فيها.

– سأقلع عن تناول حبوب منع الحمل لو جئت معي.

لا أصدق أن هذا الرجل له تجارب أو رأى في حياته فرجاً. منذ ليلة إخراجي من الكيس وهو يمارس الفعل نفسه: التصاق في المكان الخاطئ وحمحمة تنتهي خلال دقائق لا تصل إلى عشر دقائق جلها يمضي في حراكي المتواصل من أجل الابتعاد عن رائحة فمه.

في تلك الليلة التي حملني فيها أبي إليه كنت قطعة لحم يدهكها أسفله، واليوم غدوت امرأة كاملة النضج والأنوثة وما زال ممعناً في الذهاب إلى المكان الخطأ، و لم أشأ تصويب خطئه ممعنة في الإبقاء على كل شيء لمبخوت.

طار فرحاً:

– تعدين أن تفعلي وتحافظي على الجنين.

– أعدك.

رائحة فمه كريهة لا تطاق، وجلده كأنه نقع في ثوم مدهوك بخل، وشعر ذقنه وإبطيه كسلالة عنكبوت تجمعت لتكثيف غزلها. كل ما به مقزّز. حين يرتمي عليّ أضع منشفة على وجهي وأكمّم منافذ التهوية جيداً، فيأتي نفسي كمن يزفر روحه. لم أتنبه أن هذا يروقه كظن يستشري في داخله أنه أتقن مضاجعته. أضحك حتى أنكفئ على وجهي حين يقول:

– ألا تريدين أن تتنّي؟

وهرباً من هذا الجحيم الليلي، ادّعيت أني حامل. مضت ستة أشهر وأنا أضع لفافة قطن على بطني، ومع كل شهر أزيد تكويرها، وفي الشهر السابع حمّلته جريرة إجهاضي حين سحبني إليه بقوة، وفي كل مرة أبعده شهوراً بهذه الخدعة وأدّعي الإجهاض لسبب أو لآخر حتى خشيت افتضاح أمري. استعنت بتشخيص إحدى صديقاتي وحملته إليه ليعتمد على ياسين في معرفة ما حمله التقرير. أصابه الكدر لما أشار إليه التقرير من ضيق رحمي ولفظه للجنين قبل اكتماله وأضاف ياسين من عنده نصيحة أخذ الراحة الكاملة والابتعاد عن المضاجعة قدر المستطاع. هذه النصيحة لم يستمع إليها جابر أو يعمل بها، وأقلعت عن مواصلة لعبة لفافة القطن، كنت أظن أنه سيفهم ما حمله التقرير فإذا به يسألني كل حين:

– لماذا لا تحملين كسابق عهدك؟

فأجيبه على الفور أني أتناول أقراص منع الحمل.

هكذا أبادله غباءً بغباء.

وجدت في نفسي رغبة في البقاء أطول وقت ممكن خارج البيت الذي غدا موقداً تذكي ناره أنفاس ياسين وفحيح جابر.

فياسين مثله مثل عمه حفرة قذرة أقع فيها يومياً، قذارة ياسين في عواطفه السمجة وتوقه لامتلاكي من الداخل. عتهه لم يوصله إلى اكتشاف أن داخلي مستوطن.

الدائرة المغلقة التي وضعت نفسي فيها داخل الحي جعلتني أبتعد كثيراً عن المساءلة أو اللوم أو البحث عمّا أخفيه.

سمعتي السيئة أسهمت في ابتعاد نساء الحيّ عني، وطيبة عائشة لم تجز لها نقل ما تسمع لأخيها، والرجال لا يجرؤون على جرح أمثالهم حتى وإن كانوا معطوبين كجابر، والسمعة السيئة لامرأة يعرفونها تجذبهم إلى عرض خدماتهم لعلهم يعيدون نهش ذلك الجسد الذي نهشوا سمعته بألسنتهم.

أعلم أن بمقدوري الإقدام على خلع جابر في أقرب محكمة، وعذريتي قادرة على تطليقي أيضاً من غير الحاجة إلى المطالبة بالخلع كما فعلت صديقتي هناء ميسر. لم أفعل ذلك لأن عماه وتسلطي المتأخر عليه لم يبقيا قيداً يعوق حركتي، كما أن بيت جابر يمنحني الشرعية الاجتماعية ووضعي هنا يمكّنني من التحرك والبحث عن مبخوت...

فبعد أن أقسمت أن لا أعود إلى بيت أهلي ما حييت ارتضيت ببيت جابر مأوى مؤقتاً.

حصلت على شهادة البكالوريس في علم الاجتماع بتمرير رشوة أن أكون هدية فراش لمن يعبر بي أسوار الجامعة. الرجل هو الرجل. يبحث عن إفراغ مائه في أي حوض، متعلماً كان أو جاهلاً. فقط يريد وعداً حتى لو لم يتحقق، فهو يكمل إنجاز مثل هذه الوعود في خياله.

* * *

على مدار شهر تجولنا بين قرى تهامة أجرّ من خلفي ذلك الأعمى كتيس جذبه علف يابس.

حللنا ضيوفاً على أبناء عمومة أبي، وادّعيت أنني جئت زائرة لعمتي، من غير أن آتي على ذكر سيرة لأبي، وعندما ضاق الخناق عليّ ادّعيت أن أبي يقطن مع عمتي، ولم أحتج إلى برهنة صحة ادعائي حيث لم يطلب مني ذلك.

مكثنا أسبوعاً نتنقل صباحاً ومساءً من أجل تلبية دعوات الاستضافة والترحيب، وتبرّع ابن عمي بوعد إيصالنا إلى قرية عمتي التي دخلت في الحدود اليمنية.

لم أكن راغبة في كل هذا الكرم الباذخ والتضييق في اختيار أين نذهب. صعقوا حينما أصررت على بقاء جابر في ضيافتهم ورغبتي في التنقل بدونه، بحجة كبر سنّه وخشيتي عليه من الطرق الطويلة. صفحت عن رأي كبيرهم وإصراره على تنقلي مع زوجي كي لا يأكل الناس وجوههم. لم يكن من بد توديعهم والاستغناء عن مقترحاتهم بالبقاء في قرية الباحر ريثما يتدبّرون مجيء عمتي وأبي أو الذهاب إليهما عبر المنفذ الحدودي مبدين تساهلاً في استخراج جوازات سفر لنا. غيّبت معلومة موقع قرية عمّتي عن جابر، وأوهمته أن أبي على قطيعة مع أهله، وهذا ما حمله على إظهار سخريته المقززة:

– إذاً أنت تحملين داء أبيك لدرجة مقاطعتك لأمك وإخوتك.

تمنيت لو أني أتناول حجراً وأهشّم به أسنان فمه.

صرّح كبير أقاربي بتبرّمه من وجودي:

– دعوها ترحل قبل أن تفضحنا.

أحدثت شرخاً في سمعة أبي حينما غادرت القرية، أقلها ملاحظتهم

أني امرأة سافرة، وأعلاها أني امرأة ليس لها رجل يحد من تبجّحها.

كنت قد جذبت ياسين كي أزوّده برغبتي وأدفعه من أجل تحقيقها:

– أريدك أن تسأل لي عن رجل يدعى مبخوت من غير أن يعرف عمك.

– من مبخوت هذا؟

– صديق أبي، وهو من سيوصلني إليه.

– ألم تقولي إن أباك عند عمتك؟

– قلت هذا كي لا أبقى عند أعمامي وقتاً أطول... إياك أن تنسى اسمه مبخوت.

كانت هذه وصيتي لياسين في الفترة التي قضيتها متنقلة من بيت إلى بيت أتلقى كرماً يومياً، وكنت أظن أن أبي سدّد المقابل مسبقاً حين كان يستقبل ذويه في زياراتهم وعمرتهم أو حجّهم. كنت أظن هذا، لكني اكتشفت أن الجنوبيين مصابون بمرض الكرم فهو خصلة أساسية في جيناتهم.

في كل قرية نصل إليها نجد شفرة على أهبة الاستعداد للذبح وأسمطة تمد من غير معرفة سوى كوننا غرباء قادمين إلى المنطقة.

ضاق ياسين من وجود عمّه الملاصق لنا، فأخذنا نتبادل الرسائل في ما بيننا (عبر الجوال) ونحن في سيارة واحدة. هو يبثّ شوقه وأنا أسأله عن نتيجة بحثه.

بعد تسع عشرة رسالة تبادلناها كان الهدف المقصود هو مدينة الخوبة.

أبدى جابر تذمّره من سفر لا يهدأ بين القرى عن رجل وصفه

بالتافه الذي لا يستحق قيمة الوقود المحرك لكل هذه المشاوير.

انثنيت إليه هامسة:

– لو أعدت كلامك وربي لأرميك في هذه الخبوت أو أدحرجك من أعلى جبل فتقضي نحبك أسفله.

أطلق ضحكته المقززة:

– وأين ذهب ابن أخي؟

أجابه ياسين متثاقلاً: أنا هنا يا عم.

– أسمعها صوتك مرة ثانية.

لم أكن أتوقع أن ما همست به لجابر كان حاضراً في مخيّلة ياسين. جاءت رسالة تحمل جملة أن الموت تباطأ في زيارة عمه، وأن علينا أن نقدّم هدية لضباع هذه القرى وذئابها جزاء كرم أهلها.

ذات يوم أشرت إلى ياسين بضرورة الزواج وأن لا فائدة من سفك شبابه منتظراً أملاً لن يتحقق. واجهني بصمت مطبق، وتلاه انهيار، نقل على أثره للمستشفى، فتركته يعيش الوهم كما أعيشه أنا.

– هل نحن عاشقون لضعفنا؟

استكثرت على ياسين انهياره العاطفي، وإظهار الانكسار المروّع الذي أوصله إلى المستشفى بمجرد محاولتي إيقاظه من وهمه، وهل أنا واهمة ببحثي عن مبخوت بكل هذا الصلف والمكابرة. لم أجد من يوقظني. كيف لو انتهى ركضي بأن قال لي مبخوت: اذهبي بعيداً. هل ستتخلى عنّي قامتي وأسقط في مرارة الخيبة أو الخذلان؟

نحن كائنات متعلقة كي تبقى مجذوبة لفضائها مثل جرم سماوي إذا فارق مداره هوى... ولا أرغب بتاتاً في التخلص من تعلقي

بمبخوت. سأتدبّر وضعي لو سقطت.

ياسين خاتم يسقط من الأصابع، والمرأة بحاجة إلى محبس يلتحم بلحمها وعظمها، فلا ينحلّ من موقعه حتى وإن أرادت خلعه.

وأجدني معذبة بمبخوت لأنه تغلغل عميقاً وغدا عصباً يوجعني بوخزه.

أهالي القرى يعيشون ليالي مؤنسة، يحتفلون بالفرح وإن لم يوجد خلقوه. هذا ما يفعله أهالي القرى في منطقة جازان.

بهرتني عجوز من قرية خضيرة برقصها وذوبانها مع تقلبات النقر على الدف، تناغمها مع النغمات يشي بحالة تبتّل، غابت في اهتزازاتها ملتحمة مع الوجود بإغماض عينيها ورفع ذقنها بيدها اليمنى والطواف حول ذاتها في سموّ وكأنها تؤدي طقساً دينياً واجباً تنفيذه بخشوع.

رفت عيناها في استفاقة منزعجة مع آخر قرع حكى به الطار.

– قاتلك الله.

قالتها من القلب لضارب الطار وكأنه جذبها من عل لتقع على صخر صلد.

وانسحبت لارتشاف فنجان القهوة وهي لا تزال تتوق للالتحام بتلك اللحظة الخارجة عن واقعها بالاهتزاز جالسة ومحاولة العودة للسموّ بإغماض عينيها، دنوت منها:

– من أين يأتي كل هذا الفرح يا خالة؟

عمّقت بصرها في وجهي، وهي تلملم جديلتها الذابلة، ووضعت يدها على صدرها:

- الرضى يا ابنتي.

كنت أتمنى أن أقول لها من أين يأتي الرضى حين يكون المرء غارقاً في الوحل ويرى من على بعد ظلال منقذه فيستغيث مبقياً على أمل النجاة من الأوحال المغروس بها... أيّ رضى يمكن حدوثه في مثل حالي؟

أعرف العداء المستأصل بين مبخوت وجابر، فماذا سيحل به لو عرف أني أجوب الأرض بحثاً عن عدوه وحبيبي أنا؟ نعم، حبيبي أنا وحدي.

ياسين يهوى أي شيء يقربه من استنشاقي، وكل أحاديثه معي يهمس بها همساً كي يلصق فمه على جيدي ويطيل المخافتة. يزعجني فعله هذا، وفي رحلة البحث عن مبخوت ارتضيت مناجاته وكافأته على جهود بحثه باختصار المسافة بين فمه وجيدي بانثنائي عليه حين وصل إلى نتيجة باهرة، فغرس فمه في صوان أذني:

- وجدناه.

- أين؟

اختلج فؤادي بتسارع نبضاته. أخيراً وبعد كل هذه السنوات سأقف أمام مبخوت، سأروي عطشي منه به. لن يهرب منّي ثانية، ولن أعدم الوسيلة من التخلص من الرائحة الكريهة لهذا الأعمى. أعدت وصيتي لياسين:

- إياك أن تأتي باسمه أمام عمك.

يغدو ياسين طفلاً صغيراً يلتزم بما أشير إليه طمعاً بجائزة تلهب فرحه.

وصلنا إلى الخوبة، وهبط ياسين سائلاً عن موقع مبخوت فقيل له ذهب إلى قرية الجابري، ومن هناك عدنا إلى العديد من القرى. كلما وصلنا إلى أيّ منها أعيد توجيهنا إلى قرية أخرى حتى نزلنا الخوجرة ومنها قيل إنه هاجر إلى اليمن ولن يعود...

– في أي جهة من اليمن؟

– لا أحد يعلم.

عدت إلى جدة كسيرة، فبعد أن أصبح أقرب من هواء تخطفه إلى رئتيك غدا كالزفرة بعيداً وماضياً.

16

– ما الذي حمله على الهجرة إلى اليمن؟

لم أجد جواباً شافياً من كل الأفواه التي أجابت عن هذا السؤال، وهي أفواه مفتوحة على أية حال، تردّ على ما تسمعه من قول كواجب مفترض أن لا يهمل قائله، وليس مهماً أن يكون الرد صائباً. تمسّكت بيقين الوصول إلى مبخوت في مكان ما من تلك المنطقة المتناثر أهلها كهواء هرب من ضيق المكان إلى ضيق الصدور.

كنت أتربّص بالوجوه والأمكنة آملة هبوب طلعته في أي لحظة ومن أي جهة.

أقاويل كثيرة قيلت عن هجرته لليمن وكان بالإمكان إهمال كل تلك الأقاويل، وانتظار خبر عودته إلى قريته لولا انفتاح فم المغلس الدائم.

بعد رحلات متوالية بين القرى الحدودية استقر بنا المقام في قرية الخوجرة ومكثنا بها أسبوعاً كاملاً لا نبرحها، ونزلنا في استراحة مجهزة لاستقبال المسافرين القادمين من اليمن والمغادرين إليها. استراحة يمتلكها المغلس وهو رجل مهذار جف ريقه من سكب الكلمات.

كاد المغلس يفضح سبب مكوثنا في قرية الخوجرة على مسامع جابر، فالمغلس رجل أخرق يباسط زبائنه كما لو كانوا بعضاً من أقاربه، ولا يتحرّج من قول أي شيء يأتي بباله. وجد جابر عنده حكايات يطرب لها، فاستأنس مجالسته، ورغب في القات فتقوت،

وأبقى أذنيه مرخيتين كحمار توفر له حسكوه بكميات كبيرة فلم يعد متفرّغاً إلا لسماع الأحاديث الجارية في المتّكأ مركزاً في لهجة لم يألف فهم كثير من مفرداتها، وكان معطلاً لجريان الأحاديث بين المقوّتين حين يستوقف المتحدث لمعرفة المعنى. خلال تلك الجلسات كانت وصيتي لياسين أن يذبّ أي حديث يقترب من مقصدنا في المجيء للمنطقة كي لا يعلق الحديث في شبكة أذني جابر المتربصة بالكلمات.

عادة التقويت المكتسبة أخّرت بحثي، فمع دخول وقت العصر يتسابق أهالي القرية (بل المنطقة) للجلوس واجترار حزمة قات إلى ما بعد العشاء، وخلال فترة العصرية تخلو القرية تماماً من أي حركة، وكان التوقيت المستحب لخروج الأهالي هو الليل. عثرنا بصعوبة قصوى على سيارة تقلنا إلى قرية الغاوية وكان سائقها قد عزم على ترك التقويت فبحث عمّا يشغله في ذلك التوقيت وارتضى بإيصال نزلاء استراحة المغلس لأي قرية من قرى الشريط الحدودي. استوينا داخل سيارة ذلك الشاب عازمين على التحرك إلى قرية الغاوية لوصول خبر تلقفه ياسين من جوف الاستراحة. وقبل أن نتحرك استوقف المغلس سيارتنا المعدة للانطلاق، ماداً رقبته إلى داخل مقصورة السائق وموجّهاً حديثه إلى جابر:

– لن تجدوه في قريته، قلت لكم لقد هاجر لليمن...

كان جابر يجاورني في المقعد الخلفي يتلمّس حافة نافذة السيارة التي لم تغلق، وثنى رقبته موجهاً صوبي أذناً مفتوحة على الدوام:

– ولماذا يهاجر أبوك إلى اليمن؟

تفحّص المغلس وجهي المتساهل في غطوته:

– هل أنت ابنته... لم يقل إنه تزوج بامرأة من الحجاز...

وتضاحك مظهراً ظرفاً نيئاً:

– سوف أشيع خبر زواجه بالحجازية وتخليه عن ابنته.

قاطعة جابر بنفس الضحكة الغبية:

– أهله جميعهم يعرفون أنه متزوّج بإحدى بنات مكة.

– أو تقول إن مبخو...

قطمت جملته قبل إكمالها وبصوت مرتفع:

– نعم أنا ابنته وأعمامي المباخرة؟

– من هم المباخرة؟ لا توجد قبيلة في منطقتنا بهذا الاسم؟

هذا المخاط الذي يدعى المغلس لصق رأسه بيننا راغباً في إطالة الشرح.

أعرف أنه تزوّج بامرأة كعبية لم تلد له ولقبه بكيري واسمه مبخ.............

فزجرته بغلظة مدّعية تبرّماً منه ومن إدامة النظر إلى وجهي:

– أرخ بصرك، أكلت وجهي يا رجل.

فسحب رأسه من داخل المقصورة معتذراً لتفيق غيرة جابر على حين غرة لاعناً ياسين الذي اقتعد المقعد الأمامي:

– أنت يا حمار ألا تعرف كيف تحافظ على زوجة عمك؟

كان وداعاً سيئاً ظهرت فيه قذارة لسان جابر وحدتها وندمت أني لم أستطع تفادي هذا الموقف إلا بادعاء أن المغلس نهب وجهي. غضبة جابر مما حدث جعلته يقسم على العودة مباشرة إلى جدة.

اسم قرية مبخوت الغاوية، وأنا الغاوية به.

فلو ضاع المكان فهل نضيع فيه أو معه؟

ثمة أماكن كتب عليها التيه. الغاوي هو التائه، وأن تزل قدم أحد في الغواية هو الانحراف عما تعارف عليه الناس سلوكاً أو طريقاً بينما حقيقة الأمر أن ليس هناك اهتداء كامل. ثمة انحراف في كل اهتداء، شيء ناقص حتى لو كان ذلك الانحراف يسيراً. يحدث هذا لكي نبقى ضالين، فالاهتداء دراية كاملة، ومن منّا يملك الدراية الكاملة.

ويبدو أن الغاوية في غوايتها أضاعت معها مبخوت. شققنا دروبها الضيقة المحفوفة بحقول الذرة والقمح، وأنزلت ياسين للسؤال عن مبخوت، وعاد ليخبرني عبر رسائل الجوال أنه راحل مقيم فيها، يبقى أياماً ويتركها شهوراً وخشية من افتضاح سر بحثي أمام جابر. عزمت على العودة بصحبة ياسين في وقت لاحق مقللة من شأن رجال الهيئة.

تعريجنا إلى قرية الغاوية، لم يكن يعلم به جابر، فقسمه أن نتوجّه إلى جدة مباشرة التففت عليه برسالة وجهتها لياسين بأن يمضي بنا صوب قرية الغاوية، موهمين جابر بأنها محطة نقف بها من أجل التزود بالوقود والمشروبات، وحين بلغناها رغبت في الوقوف على باب داره، فترجّلت من السيارة متصنعة الذهاب لقضاء الحاجة. كانت بالقرب من سور منزله صبية تقود بقرة وتتلهّى بارتشاف عصير محفوظ في قنينة زجاجية. كان اقترابي منها معجلاً بتخلصها من رشفاتها المتباطئة، ومع سؤالي عن مبخوت سكبت أخباره

كسقف منزل ملّ من مياهه الراكدة.

سعدت كثيراً لكونه لم يعد مرتبطاً بتلك الأرضة التي تدعى مؤنسة وأنه فارقها منذ أن عاد من الحجاز (وفق تعبير تلك الصبية).

هذا الخبر وحده أحياني تماماً.

انطلقت السيارة تخب الطريق وأنا جذلة بما عرفت.

من يشفيني من هواه؟

تغلغل في كياني حتى لم أعد قادرة على شيء سوى تذكره. أشعر به يقترب إلا أن فكرة هجرته لليمن تبعده كثيراً.

كنت مقررة العودة إلى قريته حالما أصل إلى جدة وقذف جابر في أقرب برميل زبالة داخل بيته.

كنت عازمة على ذلك، إلا أن انتظام الدراسة وضرورة معرفة ما سوف أفعله في رسالة الماجستير أخر عودتي بعض الشيء. وحين أصبحت على أهبة الاستعداد حدثت أحداث متداخلة جعلت فكرة السفر غير ممكنة البتة في حينها.

فقد عاد جابر من المسجد مكفهراً:

– أتعبتِنا بالدوران على أبيك وهو هنا. لقد عاد الخسيس.

بهذا الخبر لم يعد هناك من مسوّغ للسفر لعدة أيام وإذا عزمت فبالإمكان السفر ليوم واحد برفقه ياسين (كما فعلتها سابقاً)، حتى هذه الفكرة تباطأ تنفيذها بوصول خبر تسلل الحوثيّين إلى المنطقة وإعلان التلفاز الرسمي عن تحرك الجيش لتأديب المتسللين. هي أيام بقيت فيها الأخبار على صياغتها بينما الصور المبثوثة من هناك تشي بأنها حرب وليست تأديباً.

وجاء حدث معطل آخر من خلال مهاتفة تلقيتها من الدكتور منصور المجرد (المشرف على رسالتي في الماجستير) رافضاً فكرة الاستبيان قبل معايشة أحوال المرضى ميدانياً، وهذا دفعني للتنسيق مع المستشفى لأن أعايش أوضاع المرضى وأقاربهم لفصل دراسي كامل.

تشابك هذه الظروف أكمله ياسين، فمن الندرة سفره إلى ديارهم أو زيارة أهله، ومن المرات النادرة أقدم على السفر في تلك الأيام، فقد تلقى خبراً عن تضعضع صحة والده، واعتذر جابر عن مصاحبته بحديث خلا من اللياقة اللفظية (وفقدان اللياقة عند جابر هي الفقر المدقع الذي يحيا به). ودّع ياسين قائلاً:

– لو مات أبوك فلن أقدر على الحضور، تكفل أنت بكل شيء.

جملته هذه جعلت عائشة ترمي نبوءة جابر بعيداً عن أخيها بالجملة المتداولة رغم خطئها «فأل الله ولا فألك» داعية لأخيها الذي لم تره من زمن بعيد بطول العمر، وحضنت ياسين مودعة ومعتذرة عن عدم مقدرتها على مصاحبته لتضاعف آلام مفاصل ركبتيها جراء ارتفاع نسبة خشونتها مدللة على هذا بما يراه منها في أعمال البيت وعدم مقدرتها على الانتقال أبعد من سريرها أو الحبو للوصول إلى الصالة، متمنية أن الأزمة التي يمر بها أخوها عثرة سينهض منها حتماً.

أعرف أن ياسين ضائق الصدر ببقاء عمه جابر متماسكاً من غير أن يشكو من شيء يقرّب دنوّه من القبر كما يقول دائماً. ومع مجيء خبر أبيه وتقاعس صحة عمته أيقن أن جابر سيدفن أخويه الأصغر منه سناً وسيبقى في مكانه ككسّارة البندق.

أطال توديعي بالإمساك بأناملي والتحديق في ملامحي ليذكّرني

بسذاجة الممثل الذي يريد البرهنة على مقدرته التمثيلية فتأتي حركاته وصوته أعلى مما يتطلبه تجسيد الحالة. سحبت يدي من غير النظر إلى دموعه التي أراد أن يجذبني لمشاهدتها بمسح أجفانه بطرف شماغه مراراً.

أصنف ياسين بالنوعية الرديئة من الرجال الذين لا أستمزج سلوكهم، وهم أولئك الذين يخلعون قلوبهم ويقدّمونها كأحذية لقطع الطرق اللزجة أو الموحلة، وبعد العبور يصبح من حق مستخدمها الخيار في قذفها أو خلعها والاحتفاظ بها من أجل استعمالها في عبور قذارة قادمة.

– الباب الموصد بإحكام تتهاوى صلادة مقاومته بإدارة مفتاح صغير.

أعرف نفسيات رجال بلدي جيداً، فقد تقلبت في معاملاتي بين العشرات منهم، وكل واحد منهم مفتاحه المرأة، إلا أن سنن المفتاح تختلف تعرّجاتها باختلاف القفل لكنه يفتح على أية حال.

أما الأقفال المفتوحة أصلاً فمن الغباء إدارة مفتاح في ثقبها، وياسين من نوعية تلك الأقفال.

أجلت ذهابي إلى منطقة جازان متمنية أن تكون أحداث الحوثيين محرّضة لمخبوت على العودة إلى بلده، وظل هاجس هجرته لليمن ليس له معنى، ولو تيقنت من هجرته لن أتوانى عن اللحاق به إلى أي بلد كان بها.

– هل يمكنني فعلاً تتبعه في أي مكان بعد عودة هذا الأب الخسيس كما وصفه جابر؟

أرجأت الإجابة وتدبّر أمر الانتقال والبحث ريثما تنحل هذه العقد المترادفة دفعة واحدة، وحملت طلباً لمدير المستشفى كي أنضم إلى فريق الشؤون الاجتماعية وأكون قريبة من مرضى المستشفى لأعمل على إنجاز بحثي عن قرب.

مدير المستشفى يغلق بابه بحجج الاجتماعات التطويرية، وهو تلميذ نجيب لمدرسة البيرقراطية المعطلة، وقد تسلّم المستشفى من أستاذه المعطل الكبير محمد العاشري الذي غادر منصبه بعد صفقات فاسدة حققت له رصيداً مصرفياً يعيش به سادس جيل من أحفاده أمناً من الفقر، وقد سلم هذا العاشري تلميذه مفاتيح الفساد كأمانة يجب المحافظة عليها من الضياع فكان خير خلف لأتعس سلف.

يطلقون عليه مدير المراقبة والتعدّي و لم أستوعب هذا اللقب إلا لاحقاً.

أمضيت يومين متتاليين أقتعد كرسياً في سكرتيرية مكتبه من غير أن أستطيع مقابلته، أرقب المراجعين الذين تنتهي معاملاتهم بتوقيع مدير المكتب أو إبقاء معاملاتهم للنظر فيها من غير أن تتجاوز قدم أيّ من المراجعين باب المدير المغلق.

سكرتيره المباشر أبدى استعداداً مفرطاً لتسهيل وإنجاز ما أرغب به وبتوقيع مدير المستشفى نفسه إن أردت ذلك. ظننت أن هذا حدث لكوني تساهلت معه بإظهار بعض المغريات التي يتساقط لها رجال بلدي بسهولة قصوى. كانت إغراءات كفيلة بتحريك رغبات العازفين على أية حال.

تستغل تضاريس جسد المرأة كمفتاح لفتح الأبواب الموصدة.

جئت من أجل إتمام بحث الماجستير على المرضى المهملين من زيارة ذويهم، فلم يلتفت لطلبي بتاتاً. وحين تثنّت أعطافي وانفرجت بلوزتي عن صدري وتنغمت كلماتي بغنج امرأة تنادي من يقابلها بزيارة أنوثتها، هذه الحلحلة البسيطة انحل معها تجاهل السكرتير ووجدت نفسي أقتعد كرسياً وثيراً وتقدّم لي فناجين القهوة والشاي والاعتذارات من طول الانتظار. لم أكن أتوقع الحصول على عرض وظيفي مميّز لمجرد أداء حركات إغراء سأقلع عنها حالما أخرج من هذا المكتب...

– لم آت للحصول على وظيفة، بل السماح لي بالمداومة لشهر من أجل إنهاء بحثي...

– وما الذي يمنع أن تقومي بالمهمتين، فنحن بحاجة إلى تخصّصك.

خلال أيام وجيزة – وبسهولة قصوى – حصلت على الوظيفة من غير مفاضلات أو ذهاب وإياب إلى مكتب ديوان الخدمة أو انتظار سير طابور آلاف المتقدّمات للوظائف. حظيت بامتيازات أثارت حفيظة زملائي الذين انضممت إلى إدارتهم. وخلال شهرين حللت رئيسة لقسم العلاقات العامة، وهو المنصب الذي انتظره أبو بكر المحمدي منذ سنتين. ومع تعييني رئيسة للقسم أظهر استغراباً فائقاً لحصولي على امتيازات إدارية لا يحظى بها أصحاب الدرجات الوظيفية العالية مع أني موظفة لم يمض على تعيينها سوى شهرين. عيون زملائي كانت تفيض بالشك و لم توقف غمزها.

أغدق عليّ عبد الوهّاب السيح كرماً طائياً بتسخير سائق وسيارة تقلني وتعيدني من بيتي إلى المستشفى حين أخبرته أن سائقي يتمتع بإجازته السنوية.

تركت تهامز الموظفين وتلامزهم يستطيل كيف شاءت نواياهم، وتنعمت بالمزايا التي وهبت لي من غير التفات لما يقال.

في البدء استغربت أن يكون لعبد الوهاب كل هذا النفوذ مع كون وظيفته لا تتعدّى إدارة مكتب مدير المستشفى. وحين داهمني بطلب قضاء بعض الوقت في أحد الشاليهات تمنعت مظهرة حججاً يسيرة تعوق تلبيتي لدعوته وأوصلت له أن عوائق استجابتي لطلبه يمكن التغلب عليها لو منحني بعض الوقت. وقد فاجأني حين صرّح بأن من يرغب في مجالستي ليس هو بل مدير المستشفى نفسه. مع الاتصالات المتواصلة علمت خبايا اللعبة المنصوبة في داخل سكرتيرية مدير المستشفى، فمكتب المدير المغلق لإدارة الاجتماعات وإنهاء الأعمال الشاقة لم يكن مكتباً بل منصة مراقبة فيها نقل مباشر يمكنه من رؤية كل القابعين داخل صالة السكرتارية، وكم هن اللاتي رفض طلبهن من طبيبات أو ممرضات أو إداريات حين تنقل الكاميرات المخفية والموزعة في كل زوايا الصالة تفاصيل هيئاتهن وهندامهن لعينيه المتربصتين بشاشة العرض...

– ما الذي أعجبه منّي؟

– يقول إنك قطعة زبدة ترمّم العظم.

كان تعبيراً شاذاً وغريباً على مسامعي، فكثير من صيغ الإعجاب التي أسمعها ذات تناغم وجداني تُبث للمتغزل بها في بدء العلاقة على الاقل إلا أن هذا الوصف جعل هناء ميسر تنفرط في ضحكة طويلة حينما أخبرتها متسائلة هل سبق لها أن سمعت غزلاً دهنياً كهذا.

ختمت هناء ضحكتها بتعليق ساخر أضحكني:

– ربما يكون جسده مشبعاً بالكولسترول ومحروماً من تناول الدهن في الأكل فبحث عن تعويض نقصه في الفراش.

انتظمت في العمل غير آبهة بقبول أو رفض جابر الذي لم يعد متمكناً من شيء سوى الإذعان لمشيئتي. وأول عمل قمت به حمل عائشة إلى المستشفى لإجراء عملية لركبتيها، وكنت مرافقتها في دور خصّص لكبار الشخصيات.

* * *

تعلمت الغواية من هناء ميسر.

زاملتني في المرحلة النهائية من الثانوية، ولكوننا متزوّجتين كانت إدارة المدرسة تجاهد من أجل فصلنا وإقصاء مخالطتنا ببقية الطالبات.

هناء آية في الجمال ومكنة غنج تصدر طباعات مختلفة من الميوعة وفق الحال التي هي عليها. يستعصي وصف جمالها وإن كان مختصره يجيء وفق تعبير أبناء حارتي الشعبيين «جمالها يحل رقبة من المشنقة».

دفعت ثمن جمالها كثيراً، فطوال الوقت تكون محل صفقة تبرم بشروط من يملك قرارها، وحين استقلت بنفسها أصبحت تبرم الصفقات لمصلحتها.

هي مثلي تماماً، لا تكترث بسمعتها بتاتاً. هذا التماثل في إغفال ما يقوله الناس ظننته متطابقاً معها في بقية التصرفات فدعتني لمشاركتها جباية الأموال بعقد صفقات إغواء لشخصيات نافذة في البلد.

وكلما ذكرت اسماً من أولئك فغرت فمي فتؤكد أن ذلك الاسم لا يتورع عن الارتماء على أي جسد يجده. أسماء كبيرة كانت تذكرها وتستهدفها. في غوايتها لم تكن تستهدف إلا الأعيان والأثرياء، وتصل إلى أهدافها بسرعة قصوى وهي تغيّر فرائسها كحية تسلخ جلدها ولا تريك كيف تفعل ذلك.

تمنح فريستها لذة الاحتواء والتملك مع إغداق مفردات التودّد والهيام، فأيّ ممّن تستهدفهم بغوايتها تتساهل معه في كل ما يطلب وتستجيب لكل رغباته، الشاذة منها والسوية، وليس لديها مانع من قطف ثمارها بعد أن تستوثق من وصول ثمن تلك المتعة.

أثمانها باهضة، تصل إلى مخدع أي شخص بعد أن تكون قد حصلت على مبتغاها منه، وهي لا تفرق بين متحفظ أو زير نساء، وإن كان الصنف الأخير يستهويها لكونها تجرّب معه سطوة أنوثتها عليه. وكلما أوقعت أحداً من هؤلاء في شراكها اطمأنت إلى مقدرتها الأنثوية على الجذب وإرضاخ العتاة من معاشري النساء ومعاقريهن.

وإن استهدفت رجل يتحرّز من الحرام تجذبه إليها بفكرة الزواج، وقد جمعت الثلاثة أزواج والأربعة بدهاء وتفنّن في إبقاء كل منهم خاتماً في إصبعها، فحين يتعفف أحدهم عن الحرام تقنعه بفكرة الزواج العرفي وأنه أخف الحلول للابتعاد عن الحرام المطلق. ودائماً ما تكون ورقة ذلك الزواج بيدها فإذا حققت هدفها من المتزوّج بامتلاك فيلا أو مئات الألوف مزقت الورقة ومضت لسواه.

كنت أعجب كيف لها فعل ذلك من غير أن يتنبّه زوجها لكل أفعالها (لاحقاً أقدمت على خلعه).

لم تعرف الحب مطلقاً، وترى أن تعدّد علاقاتها أمات فيها فكرة الخضوع لشخص وأظهرت حججاً نفسية وبيولوجية تثبت بها أن ليس هناك رجل يقنع بامرأة واحدة، وإذا انتشت من تحليلها تضاحكت وهي تضع يدها في وجهي:

– قلب الرجل كالطبل يستجيب لأي يد تقرعه.

أعرف عنها أشياء كثيرة ولا تعرف عني إلا الأكاذيب، فأنا أسوق لها الحكايات عن فجوري وتحللي، وفي حقيقة الأمر لا أجرؤ على فعل أي شيء، فعشق مبخوت يحميني من أي خطأ أهمّ باقترافه.

الاكتفاء يؤدي إلى الملل إذ لا بد للإنسان من إبقاء الحاجة قائمة كي يستطيع مواصلة ركضه في هذه الحياة بنشوة.

أحسست بهذا حين وصلت هناء إلى حالة ملل وقرف من كل شيء، فلديها: المال والعقارات والمجوهرات ومارست كل المتع، فغدت كفندق ملّ من نزلائه... وكانت تبحث عن أمر لم تستطع امتلاكه.

رؤيتها الدائمة لياسين وعدم اقترافه بها جعلها تستشعر أن هناك من لا يريدها، هذا الشعور تضخم لديها، وأصبح هدفها جرجرة ياسين خلفها، ولا أعرف لماذا شعرت بالغيرة أو أنها تظهر جرأة على اختطاف شيء خاص ومن ممتلكاتي.

نحن البشر حين يكبر الشيء المهمل من ملكياتنا في أعين الآخرين نتمسّك به ونبدأ بتغيير نظرتنا لذلك المهمل، ومع سفور رغبة هناء اتجاه ياسين كنت أذودها عن الوصول إليه بكل الطرق.

احتجت لهناء ميسر في كبح جماح هشام طاهر ومنصور المجرد

فطلبت مقابلاً لذلك أن أفسح لها المجال للوصول إلى ياسين، وقد بدأت هي بتطبيق الجزء الأول من الاتفاق، ففي خلال مدة وجيزة استطاعت أن تجعل من هشام طاهر ومنصور المجرد خاتمين في خنصرها وبنصرها.

الفصل الرابع

أدار مبخوت مفتاح باب بيتهم بعد تخلصه من جشع السائق الذي لازمه من جازان إلى قرية المعرسة والعودة به إلى قرية الغاوية. تخلص منه بنقده مبلغاً مضاعفاً، وهبط من السيارة كعود كسر في الطريق. لم يكن يحمل شيئاً، فالحقيبة الوحيدة التي حملها أنزلها مع مؤنسة من غير تفكير بأن يأخذ منها ملابسه على أقل تقدير.

تبادل التحايا مع من صادف عبورهم نزوله، وخطا بخطوات مشتتة إلى داخل البيت مستشعراً وطأة الوحدة. الغبار يسكن كل زاوية من البيت، ولا شيء يطري القلب. آلة التسجيل الوحيدة التي حملها من أثاث بيته في جدة قبعت في الحقيبة الوحيدة التي حملتها مؤنسة، هجس:

– لو نزلت وسلمت على أبيها لكنت أدّيت الواجب كما ينبغي.

طائر الوحدة يرفرف على المكان، وضيق ثقيل يجثم على صدره، وإحساس بالمرارة يعبر حنجرته. جال بخاطره سؤال: ما الذي يمكن أن تقوله مؤنسة لأبيها الآن؟

– المرأة التي لا تكون كورقة التوت... تعرّيك.

دبيب قدمين واهنتين يحملان حسينة سالم وصوتها الخفيض يسبقها:

– هل عدت يا مبخوت؟

قفز من مكانه مقبلاً رأسها: عدت يا خالة حسينة.

– اعذرني يا ولدي، الكبر والسكر أكلا حركتي، ولو كنت أعلم بمقدمك كنت نظفت لك البيت.

تباكت على الأيام الخوالي، واتساع راحة البال التي ضاقت، والناس وجمعتهم، وذكريات ختانه. سالت بكلام كثير، يرد على بعضه ويترك بعضه لشهوة انطلاقها فيه أو إحجامها.

وكأنها تنبهت متأخرةً إلى نقصان ما:

– (يا غارة الله فيان زوجتك ما أراها)؟

احتاج مبخوت إلى مواربة عديدة قبل إخبارها أنه أنزلها في قرية المعرسة.

تنهدت بعمق وأرادت مواساته من طرف خفي:

– يا ولدي، المرأة التي لا تحتويك هي بئر سحيقة وجافة... ومؤنسة كشجر السلام ثمرها شوك.

مع مغادرة حسينة سالم مستأذنة ومتمنية له راحة البال، تبعها مودعاً، وأغلق الباب مرة أخرى، واستوت مشيته داخل الدار. تعمّق في سيره إلى غرفة أمه التي بنتها قبل موتها بسنة، وتكوّم في فراشها من غير نفضه أو التقليل من كمية الغبار الساكنة بين طيّات الوسائد،

وارتمى عليه فارداً قامته وإذا به يتلوّى ويهتز في بكاء محموم.

* * *

قبل سنوات غادر مبخوت قريته ملتحفاً بالليل وسالكاً طرقاً موحشة كي يبتعد عن الغاوية وعيونِ أهلها فلا يراه أحد. نصيحة أبيه دعته لتحديد وجهته إلى الحجاز. وعثاء السفر التي قدم بها على أبويه لم تجف عن ملامحه فإذا بأبيه يحثه على مواصلة الغياب، و لم يستشعر غيابه سوى الصبايا الصغيرات.

منذ وقت مبكر ألف قصد الأسواق المقامة على امتداد قرى المخلاف السليماني، واقتناص الغريب والعجيب من الألعاب والهدايا ومنحها للصبايا.

يمكث قليلاً في قريته وبقية الأوقات لا يعرف في أي قرية ينام أو يأكل. عجز أبواه في محاولتهما المتكرّرة تزويجه بمن يشاء من بنات عمومته أو خؤولته أو بمن يشاء من بنات بر جازان أو خارجه. تجاوز الثلاثين بعامين هائماً بين مرتفعات جبال صعدة لا يؤوب إلا ليعود.

على قعادة نصبت في فناء الدار اتكأ عمر بكيري يتقوّت حزمة قات شماخ، متلاعباً بمؤشر موجة الراديو بحثاً عمّا يجلب له البهجة، مظهراً ضجراً من تصرّف ابنه مبخوت الذي حرمه من آلة التسجيل وكل الأشرطة التي اقتناها عبر سني حياته.

ذات ليلة انسل مبخوت إلى داخل غرفة أبيه مطالباً إياه بإعارته آلة التسجيل، وحمل معها كل الأشرطة المرصوصة في رف علوي. حملها كثروة يجوب بها الأمكنة التي يهبط فيها. كثرت تنقلاته من

غير معرفة لأي المواقع ستكون خطوته القادمة.

في تنقلات عمر البكيري على مؤشر الراديو جاورته زوجته عوش خالدية تلتّ عجيناً استوى سحقه ملتفتة إليه ومحترقة من برودة ردوده المتأخرة:

– ألم يعد ابنك؟

تباكت ومسحت دموعها بيد ملطخة بالعجين:

– غدا قاسياً بعد موت حفصة.

– أين زمن حفصة يا مرة؟

مضى زمن على رحيل حفصة، وكان رحيلها بئر حزن استضافهم جميعاً في داخله. كانت عوش ترغب في الخروج إلى الفرح بتزويج مبخوت إلا أنها لم تعد تراه، وبقيت مؤنسة تنتظره تحقيقاً لأمنية أمه التي وعدتها أن تكون حليلة لابنها، وكلما التقت بمبخوت وذكرتها له أشاح بوجهه:

– قلت لكم بعد أُنس لا أريد امرأة.

من ذلك الصباح المعبّأ بالنار والبارود غادر الفرح قلب عوش خالدية. لم تقوَ على رؤية ابنتها وهي تُغسل وتحنط مفجورة الهامة، وما زال الندم يسكنها لكونها لم تقبّلها قبلة الوداع. تذهب أسبوعياً إلى قبرها تحت سفح جبل الدخان، وتمكث ما طاب لها في محاكاتها بما حدث لهم من بعد مماتها، وتعود لجمع ما يمكن أن ترويه لها في المرة المقبلة من حكايات.

بعد مقتل حفصة لم يتم ختان مبخوت.

ظل يسير بحشفته إلى ما بعد البلوغ بسنتين، ووجد أقرانه في

وضعه مدخلاً للتندّر عليه، وملاحقته بالنكات، ومحاولة إلصاق النبز باسمه، كلها أفلت منها إلا نبزة «أبو حشفة» هي النبزة الوحيدة الثابتة عليه في قريته و لم يزلها موقفه الذي بهرهم وجعلهم يسرعون لمداواته.

في أحد متاكئهم، جاءهم في المقيل وهم مجتمعون يجترّ كل منهم تخزينته، فاستغربوا من ملابس الفرح التي يرتديها، فتمنطقه بالجنبية واعتماره بكوفية قصب، وإسبال مأز صنعاني تقاربت ألوانه مع (شميز) كاكي، وقبل أن يبادروه بكلمة وقف في صدر المتكأ صاعداً على طاولة استقرت هناك، وباغت ترقبهم باستلال «الجنبية» التي وصلت إليه كإهداء من هواش الصعدي، وجز «حشفته» قاذفاً بها وجوههم، ومع فورة دمه، تصايحوا طلباً للبن أو الرماد من أجل ردم تدفق الدم قبل أن يقضي نحبه بينهم بسبب النزف الحاد.

يومها قيل إنه جزّ جزءاً من شيئه فعزفت فتيات القرية عن التفكير بالاقتران به، وتواصين على رفضه إن تقدّم لأيّ منهن.

حصل على شهادة الثانوية العامة من معهد صامطة العلمي بتقدير جيد، ولا يعرف كيف استطاع مواصلة دراسته وهو الهائم بين الجبال والقرى لا يستقر في مكان.

أصيبت عوش خالدية بمرض الحصبا على كبر، فأقبلت جاراتها على عيادتها يتضاحكن:

- «عادك لصغيرة ياعوش».

سخريتهن لم تصب خاطرها بالضيق، تكدرت من تقوّلهن على ابنها معللات عزوفه عن الزواج بعشقه لجنية في جبال صعدة مصّت

عروقه ورجولته، وخطفت لبّه حتى لا يرى أين يقيم.

ومع توارد الحكايات استعاد البعض حكاية ختانه لنفسه وقيل إنه فقد فحولته كاملة في تلك المغامرة الطائشة التي أراد أن يثبت بها رجولته فإذا به يفقدها، ولهذا تواصت الفتيات على رفضه إن تقدم لأيّ منهن.

كان مبخوت بعيداً عن حكاياتهم التي تدور في المجالس بين النساء أو في المتاكئ بين الرجال، فقد غاب في رحلات متوالية لا أحد يعرف أين يستقر به المقام.

في تنقلاته بين الجبال تآخى مع الطيور الجارحة، واكتسب منها صفة الانقضاض. يحدّد الفريسة بعين ثاقبة ويترصّدها، حائماً حولها منتظراً الوقت المناسب كي ينقض عليها. تعلم هذا من الطير إلا أن فريسته لا تظهر.

يحوم في فضاء قرية المعرسة اليمنية صباح مساء لعله يلمح أُنس. يختلط بالمرضى القادمين للعلاج في مصحّة أبيها، ويندس وسط جموعهم مبحلقاً باتجاه بيتها وهي كفجر خبّأه الليل فلم يظهر.

تعلق بها منذ أن أفاق من غيبوبة الحمى، ومع تكرّر الزيارات الأسرية في ما بين الأسرتين، شغف بها، فبعد تشافيه بعام، شحن عمر بكيري سيارة كاملة وحمّلها بسلع متنوّعة، وأنزلها بفناء الحاج بن علي كهدية عرفان بأن منّ الله على ابنه بالشفاء على يديه، ومكث بأسرته ضيفاً لأسبوعين، فتوطدت العلاقة، وكثرت الزيارات بينهما. أُنس قطعت زيارتها لقرية الغاوية بعد مقتل حفصة مباشرة.

ظل مبخوت الطائر المحلق يخفق بجناحيه ويحط على قريتها،

يرفرف بجوارها كالذبيح ويفر بنفسه قبل أن تزهق برمية حجر.

سنوات طويلة يسقي روحه من عذوبة أُنس، وكلما اتسع ضمأه يمّم وجهته صوب قرية المعرسة اليمنية عابراً طرق غفلتها عيون حرس الحدود وينزل ضيفاً على أبيها الحاج علي بن حسن مختلقاً الحجج لسبب زيارته. في زياراته يظل متأملاً وجه أُنس كغيمة ينتظر هطل مائها، وفي كل زيارة يحاول صبّ لوعته على مسامعها ويتراجع مستنكفاً عمّا عزم عليه صيانة لعرض مضيفه. يحرقه عبور الأيام من غير أن يقول لها كلمته التي فضحت سلوكه، وعجزت قدرته عن تحمّلها، فهي تتعمق فيه كشجرة تفشت جذورها في كل خلاياه.

روى شجرة عشقه بالأغاني وترديدها، وحمل هدايا خالطها بأشرطة غنائية يبث من خلالها أحاديث الجوى وتركها بين يديها. أطال التحديق في عينيها، وهي غيمة حبلى بمائها إلا أنها لم تتصبّب أو تظهر وشلاً يمكنه أن يبشّر بانصبابها.

هكذا ظهرت له الحال في بداية الأمر. وفي ليلة غرق كل شيء في ظلمته وأنارت أُنس، كانت تحمل له لوعة الدنيا وانفجرت بها، اعترفت بأنه أفسد مخيّلتها ببقائه وحيداً بها وأن يمثل كل ما يطوف بخاطرها، وإذا حلق عائداً إلى بلاده تجف أوردتها ولا تعود لها الحياة إلا مع مجيئه.

أمضيا زمناً يحيي كل منهما بنظرة من صاحبه، وتواعدا أن فراقهما لن يكون إلا بموت أحدهما.

– منذ أن قالت حفصة تنبّهي لعين مبخوت وأنا مسكونة بك.

هزّته جملتها هذه حتى إنه لم يكمل حديثه معها وانطلق محلقاً

فوق الجبال وهابطاً الأودية يوشوش لكل مكان باسمها. في طريق عودته حفر اسمها على جذوع الأشجار، وعلى واجهات الصخور وخطه على رمل الأودية، وكأنه يبحث عن تخليد اسمها في كل موقع يصل إليه أو يمر به.

لم يعد يتحسّس من زياراته المتكررة، فهي تطالبه باستدامتها، وأخبرته أن أبويها لا يجدان غضاضة من وجوده خاصة أمها التي ترى فيه ابناً يعوّض رحمها من فقد الذكور لذلك أوصته بأن يصل مع نور الصباح كي يمكثا معاً أكبر وقت ممكن قبل عودة أبيها من مصحته التي يمكث بها من بعد صلاة الفجر إلى العشاء، وإن اختل جدول مكوثه فلا يعود إلا بعد صلاة العصر.

وحاكت له سبباً مقنعاً يمحو به غرابة تردّده المستمر وذلك من خلال ادّعاء المتاجرة، فوجد في نقل السلع والبنزين من قريته وبيعها في القرى اليمنية بثمن يحقق له ربحاً مجزياً وسنداً قوياً يمكنه من الارتحال والإياب من غير إثارة الأقاويل، وفي كل رحلة له يؤكد امتهانه للتجارة وحضور أسواق القرى المقامة على الشريط الحدودي في مواعيدها المحددة.

وتهاون الحاج علي بن حسن مع حضوره الدائم بعد حادثة أبقت مبخوت ثلاثة أسابيع متوالية راقداً على فراش بسط له في وسط العريش المقابل لغرفة مبيت الحاج علي وأسرته الصغيرة، وكانت تطبّبه زوجته وابنته أُنس.

كان ذلك في صباح ماطر اتسعت معدة الأودية متهيّئة لاستقبال سيل جارف، فالغيوم الملبّدة الداكنة احتلت مساحة شاسعة من فضاء

المنطقة وقد استجابت لجلد البروق المتواصل بالانهمار الغزير، وكان وصول مبخوت في مثل هذا الوقت معيناً للحاج علي في تدبّر بعض الحالات الطارئة، فأوصاه بتفقد زريبة البهائم ومرابط الأبقار والحمير وإبعاد المتعرّض منها للبلل إلى مكان آمن، فسارع إلى جمع الأغنام والأبقار ودفعها إلى داخل الدارة. بقي له حمار عَندَ في الاستجابة للجذب أو الدفع، وأعيته الحيل المختلفة في تسليم الحمار له بالانقياد، فاعتمد على قوته واستدبر الحمار وأخذ يدفعه من الخلف بكل ما أوتي من قوة، فتشبّث الحمار في مكانه راكزاً قوائمه بزوايا عمودية حارناً عن أيّ تقدّم، فتناول مبخوت غصن شجرة مقذوفاً وهمزه من دبره، وفي لمح البصر رفع قائمتيه الخلفيتين رافساً صدر مبخوت رداً على إجباره على ما لا يريد، فألقاه على خشب جمع عند مدخل الدارة.

كانت رفسة صائبة أدّت إلى كسر عظم الترقوة وشجّ في أعلى الهامة، أبقته يئن في مكانه.

فيما كان المطر ينسكب مدراراً، وأهل القرية يتصايحون لإبعاد جريان السيول عن بيوتهم، وبعض الأصوات تطالب الرجال بالتراكض إلى المزارع لوضع العقوم أمام تدفق السيل كي لا يصل إلى مزارعهم ويتلف محاصيلها، أظهر تدفق السيل قوة بتجريف الأماكن وسلبها أتربتها مبيّناً غلته من الحصى والزجاج المهشم وأغطية المعلبات والأعواد التالفة اليابسة.

كان السيل قد زهد من مصبّه ففاض على الجوانب مغتنماً مواصلة انصباب المطر في زيادة اندفاعه وجني ما لم تطله مياهه المندفعة.

في هذا الجو المبلل تسابقت القطط والكلاب بحثاً عن مأوى تلوذ به أو بأي فرجة مغطاة تتقي بها من تساقط المطر، وتقافز الدجاج من أعلى كننه إلى داخلها، وبعض النسوة خرجن لتغطية تنانيرهن و«ملحاتهن» من أن يصيبها الغرق، وتراكض بعض الصبية لإبعاد الحطب عن البلل بحمله إلى داخل البيوت.

كان مبخوت يرى أطياف المتقافزين من حوله وسط انصباب المطر، ولا يسعفه صوته الواهن في جذبهم لإسعافه. في سقطته تلك لمح الحمار العنيد يتحرك من مكانه باحثاً عن ملجأ يقيه تصبّب الماء فلا يجد، فشعر بنشوة الانتصار المتأخر، إلا أن رؤية الوضع من موقعه المقذوف فيه أظهرت له سبب تشبّث الحمار بمكانه. ابتسم في داخله لكون بوابة الدارة مغلقة، وكان دفعه للحمار دفعاً عبثياً.

– أظنه لحق بأبيك.

تنبهت أُنس إلى تغيّبه الذي طال أكثر مما يلزم لتلك المهمة، فخرجت تنظر إلى فناء دارهم ومع هطل المطر الكثيف نهرتها أمها وأمرتها بالعودة، مرجّحة ذهاب مبخوت بصحبة زوجها. كان الحاج علي بن حسن قد غادر المنزل من أجل تفقد مشفاه موصياً زوجته بإخبار مبخوت باللحاق به حالما يعود من مهمته، لهذا استعادت خروج ابنتها وسط انهمار المطر بجملتها:

– أظنه لحق بأبيك.

تنبّه لسقوط مبخوت مسعود بن محمد جار الحاج من الجهة اليمنى حين أشفق على الحمار برؤيته يبحث عما يقيه من زخات المطر فلا يجد، فأسرع من أجل مداراته بإدخاله إلى داخل الدارة. وقبل أن

يفتح بوابة الدارة لمح مبخوت مقذوفاً بين أكوام أخشاب متناثرة يئن بثقل.

لم تستجب قامة مبخوت للانتصاب. ظل منثنياً واضعاً يده اليسرى على ترقوته بينما يده اليمنى شلت حركتها تماماً، والدم يسيل من جبهته وقد وصل إلى أسفل ياقة ثوبه متناثراً بلون حائل على كتفه. اختلاط الدم بالماء قلل من لونه القاني، كما أن بلله الكامل وتعرّضه للريح أضاف له رعدة سرت في بدنه محدثة ارتعاشات تفيض عن حاجته.

منظره المزري روّع أم أُنس فأسرعت بإلقاء محرمة ثقيلة على جسده، طالبة من أُنس سرعة تسخين ماء وجلب قطع قماشية قصيرة ونظيفة، راجية من جارها مسعود الإسراع بإخبار الحاج علي بن حسن بما هو عليه ضيفه.

قضم الحاج علي بن حسن على شفته السفلى وهو يجس عظمة ترقوة مبخوت عندما بان له أن كسر الترقوة حدث في موضع صعب الالتئام فقرّر إبقاءه تحت إشرافه وأوكل إلى زوجته مهمة تطبيبه في غيابه وأرسل إلى عمر بكيري من يخبره بما ألّم بمبخوت.

ارتبط الحاج علي بن حسن في مخيّلة مبخوت بالمطبّب القادر على إحداث الشفاء منذ أيام الحمّى ولم يجزع من كسر عظم ترقوته ما دام سيكون تحت إشرافه، أقلقته الكيفية التي ستكون عليها أمّه حين تتلقى الخبر.

بُسط له فراش وثير في وسط عريش خصّص لاستقبال الضيوف، وداوم الحاج علي بن حسن على معاينة الكسر وترميمه بوضع لبخة

من الصبر واللبان والمر والملح عجنت جميعها بصفار البيض مع إتقان تضميد الكسر ولفه بحزام قماشي، موصياً زوجته بتنقيع نبتة السراو وإسقائه ماءها مكتفياً بتنظيف جرح هامته وكبس فجوته بمسحوق نباتي له رائحة عطرية يتسبّب انتشارها داخل الجرح بإحداث وخزات باعثة إلى الرغبة في نزع الرأس كاملاً.

تعوده أُنس مع أمها غارسة عينيها بعينيه مبدية جزعها حيال تأوّهاته النادرة التي أراد كبتها كي لا تشعر بضعفه وتهاويه، وتظل بجواره حين تمضي أمها لإنهاء مشاغل البيت واحتياجاته.

في تلك الايام التي مكثها بالقرب منها تعمّق هواها في داخله ولم يكره أبويه كما كرههما حين قرّرا نقله إلى قرية الغاوية، وتمنى لو أن الحاج بن حسن يعارض هذه الفكرة كما عارضها في المرة الأولى بحجة أن الانتقال يعرّض الكسر لمضاعفات خطرة، إلا أن هذه الأمنية تلاشت بمباركته على انتقاله وتطمين أبويه أن ليس ثمة خطر من انتقاله موصياً عمر بكيري أن يمكث مبخوت سبعة أسابيع لا يحدث أيّ جهد من شأنه أن يؤدي إلى افتراق أو استعصاء التحام العظم...

وقفت أُنس على بوابة منزلها تودّع مبخوت بانكسار واضح ورقرقة دمع طفح من على أهدابها لم تحاول إيقافه.

منذ اعتراف كل منهما بالذوبان في الآخر، تغيّب عنها فترتان طويلتان. في الغيبة الأولى وجدها تتحرّق لهفة عليه، وفي الغيبة الثانية لم يجدها بتاتاً.

كسر ترقوته سبق نصيحتها، وبعد تشافيه أخذ بتلك النصيحة

فجهز عبوات من الحجم الصغير من الدقيق والأرز والسكر والسمن والزيت وعبوتيْ بنزين وقبل ذلك اشترى قلادة ذهبية وأشرطة منوّعة انتقاها انتقاءً، وحل رباط حمار أبيه وانطلق إلى قريتها يحمله شوقه.

مضى زمن على امتهانه تجارة كاذبة، فكل السلع التي يحملها للمتاجرة ما هي إلا ذريعة لسد عين أبيها عنه وقبل أن يغادر قرية المعرسة يكون قد وزع بضاعته على من يجده في طريقه ودائماً يخص مسعود بن محمد بالأثمن منها.

لم يكن بحاجة لأن يدسّ سره في أذن أمه، فأمره مفضوح كما أخبرته وقد فوّتت عليه لذة تفجير سره:

العشاق يتكتمون ويداورون وهم لا يعرفون أن العشق رداء فاضح.

كانت أمه قد عجزت عن تحفيز همّته كي يواصل تعليمه اقتداءً بأقرانه، فوجدت في لهفته على أُنس محفزاً جيداً من أجل إعادته إلى التعليم، وحرّضته على إنهاء تعليمه كي يكون لائقاً بمن يحب...

لم يتعود كثيراً الغياب عن أُنس، يسلك أقرب الطرق إليها، فاستشعر الحاج علي بن حسن بلهفته، وانسكابه في حوض عشق ابنته، وفي إحدى زياراته ودّعه قائلاً:

– قل لأبيك حصّن العين فهي مفتوحة.

ضربت عوش خالدية صدرها عند سماعها لمبخوت وهو ينقل وصية الحاج علي بن حسن لأبيه، وولولت:

– عيون الحسّاد تطاردنا، وها هو الحاج يوصينا بالتحصين... هذا الولد محسود وليس مبخوتاً.

ضحك عمر بكيري مقللاً من فهمها:

- الحاج يقول لك زوّجي ابنك.

هذا الرد وجدت فيه منفذاً فاتحت به زوجها عن رغبة ابنها في الاقتران بأُنس، فاشترط أن تكون موافقته مرتبطة بحصوله على شهادة المعهد حيث كان يتمنّى أن ينجز ابنه تعليمه، ويراه معلماً أو قاضياً كبقية أقرانه الذين مضوا في تسلق صرح دراستهم بعيداً...

هذه الأماني هي الجرف الذي سقط منه ابنهما بقيّة عمره، فحينما كانت عوش خالدية تخبر زوجها بما يحلم به ابنها، ويرد عليها عمر البكيري بما يتمنّى أن يحققه ابنه كشرط للسعي من أجل إتمام رغبته كان مبخوت غائباً.

هي الزيارة الأخيرة التي هبط فيها مبخوت إلى قرية المعرسة ووجد أُنس بمفردها فقد ذهبت أمها لإعادة صديقة لها قرض المرض قدميها وأعجزها عن الحركة. بقي معها إلى ما قبل الغروب وأخبرها أنه سيعود في المرة المقبلة مع أبيه لخطبتها، وحين تلهفت لمعرفة الموعد، قال لها ليس أكثر من أسبوعين، وتفارقا على ذلك.

ارتبط مبخوت في استذكار سنته الأخيرة بالمعهد العلمي في مدينة صامطة كي يجبر أباه على التقدم كي يخطب له أُنس.

انتظامه في دراسته ولد ندماً على تفريطه في تعليمه فأقرانه يدرسون في الجامعات أو يمتهنون التدريس أو القضاء أو الطب، وهو ما زال يقبع في السنة الثالثة معهد بسبب انقطاعه وتكرار إخفاقاته في سنوات ماضية.

حاصر نفسه بالكتب وحشد الذكريات وتهيّجها بأغنيات الشوق. لم يستصعب شيئاً سوى مكوثه ثلاثة أشهر متواصلة لم

يصل فيها إلى بلد أُنس، وكان بمقدوره الذهاب والإياب في نهاية كل أسبوع إلا أن وعداً قطعه على نفسه أن لا يصل إلى قريتها إلا مع أبيه والخطاب.

ومع آخر يوم من الاختبارات كان محلقاً في سماء قرية المعرسة، وسقط من علوّ ليبشرها بأنه في الغد ستزهر بهجتهما بمقدم أبيه والخطاب.

كان فرح غامر يرفرف في قلبه و لم يكن يعلم أن تلك الرفرفة لن تجد ريحاً تحرّضها على المواصلة في تالي الأيام.

مع وصوله استقبله الحاج علي بن حسن مرحباً ومكرماً وفادته كالعادة، مكث ساعات ينقل بصره في أرجاء الدار و لم يرها، أو يسمع لها حساً... توجس خيفة من أن يكون أصابها مكروه، وتململ كثيراً قبل أن يسأل أمها عنها ليتلقى جواباً صاعقاً:

– زفت أُنس إلى عريسها قبل أسبوعين.

عاد مدحوراً، وهو لا يعرف كيف عاد.

الفصل الخامس

توافد بعض جيرانه للترحيب بعودته وتهنئته على سلامة الوصول. أبانت كلماتهم لمزاً نيئاً لم يُطهَ جيداً. فضحته رفة أهدابهم، وزيغ أبصارهم، فعجزت أفواههم عن إخفاء رائحة الإدانة المنحشرة بين الأسئلة المفتوحة.

– كيف رجعت من جدة؟

في إحدى الليالي عاد من ضياعه بين الأودية والجبال. سقط كنجم غاوٍ يبحث عن سماء أو أرض توقف سرعته المهولة أو تطفئ حرقته الملتهبة. عاد متلصّصاً ومعتمراً شملة يمانية، منهكاً ترهقه خشية. دخل إلى بيتهم بعد غياب دام أربعة أشهر، وجد أبوه يمشغ بقايا قات منصتاً لأخبار التاسعة. انكفأ على تقبيل يده ورأسه، وجاءت أمه على صوتيهما عجلة متلقفة إياه بين أحضانها باكية.

لم يشأ فتح فمه بحضور أمه، فتنبه أبوه لذلك:

– يا عوش ابنك جائع جهّزي عشاءً يشبع جملاً.

مدّ مبخوت لأبيه بمسدّس بلجيكي اف إن، وخلع الشملة التي على رأسه وألقى بجملة اتسعت في صدر أبيه وهوى بها:

- عدت بدم سيملأ الوادي.

أغمض عمر البكيري عينيه محوقلاً واستوى في جلسته:

- أي دم هو يا مبخوت؟

غدا قلبه هواءً، يحل على أي أرض تقل أُنس ويحوم كزوبعة.

علم أن أُنس غادرت قرية المعرسة إلى الملاحيظ، فخف إليها. لم يكن يعرف أحداً في تلك المدينة. دخلها سائلاً عن موسى هواش، واستدل على بيته، فاطمأن، وانسل إلى سوق المدينة. وإذ داهمه الليل نام في باطن الأودية، وانقلب صباحاً يترصّد الفرص لرؤية أُنس. لم يحسن التصرف تماماً، فقصد هواش الصعدي في منزله المستقل، وذكّره بنفسه شاهراً الجنبية التي أهداه إياها في يوم ختانه، فعرف هواش جنبيته واسترجع تاريخ الضيف وما حدث في ذلك اليوم. كان مبخوت يمنّي النفس بالاقتراب من هواش كي يعبر من خلاله إلى زوجة ابنه موسى.

اختار مبخوت مسلكاً وعراً من أجل رؤية أُنس وهو طريق يحتاج إلى دربة التلوّن وإخفاء النوايا وكأنه يعبر بين جبلين يشك الواحد منهما في نفسه، فهواش كالأرض الحامية تلسعك بسطحها وعمقها، فقد أظهر لمبخوت البشاشة والفرح بمقدمه، والتمسّك بضيافته، فتفلت مبخوت من هذا الإمساك بادعاء العزم على العودة سريعاً وأن الوقت يسبقه ولديه عمل لا يقبل الاسترخاء أو الضيافة.

أمسك هواش بابنه موسى محذراً:

- لعلّ الرجل جاء طلباً لثأر قديم، ولا أعرف أيّ منا جعله هدفاً لنواياه، فخذ حذرك...

عمّق مبخوت هذه الخشية بمداهمته لبيت موسى في ساعة كان

التربّص به واقعاً، فمنذ حلوله مدينة الملاحيظ، لم تقف مخيّلته على شيء سوى رؤية أُنس. كان قد درس يوميات موسى المجدولة بصرامة، فمن الصباح إلى الظهر في السوق يتابع عمّاله في ثلاثة متاجر يمتلكها تخصّصت في بيع الأدوات الفضية والخناجر، وعرف أن له تجارة مبطنة هي الأساس في در الأموال الكثيرة إليه من خلال تهريب السلاح عبر القرى المحاذية للشريط الحدودي. وحسب مبخوت أن هذا الوقت لم يكن ملائماً للحركة المتلاحقة في الشوارع والأسواق، ووجد أن الحصة الثانية من يوميات موسى تبدأ من الظهر إلى العصر يقيل في بيته، ويغيب ما بين العصر والمغرب في المقيل من أجل التقويت، وهو الوقت المناسب لمداهمة بيته وطرق الباب لرؤية أُنس موقناً أن الاسترخاء سمة المخزنين وهو بحاجة إلى فترة تكسل فيها الأطراف عن الحركة.

حزم أمره على اختيار هذا التوقيت كي يطرق باب موسى لعل أُنس تفتح الباب وتراه. مكث غير بعيد ينتظر خروج موسى المعتاد، وفي لمح البصر كانت قدماه تصعدان درجات رفعت باب المنزل عن مستوى البيوت المجاورة. طرق الباب، وخيالات من الصور تتقافز إلى ذهنه لا يعرف أي منها سيأتي أولاً. لحظات ثقيلة عبرت، ومع أطيط الباب وانفراجه سقط فؤاده، لم يكن متوقعاً أن تستقبله طلة هواش الصعدي، فأسقط في يده، وتلعثم بارتباك واضح:

– أردت الحديث مع موسى.

– موسى غادر البيت، تفضّل.

لم يكن مستعداً للتراجع، أمنيته الدخول إلى بيتها واستنشاق

رائحتها كانت أعمق من أي حذر يخشاه. تنتابه رغبة ملحة لأن تعلم أُنس أنه ملتصق بها أينما ذهبت، أجلسه هواش وسط المجلس، وخرج إلى خارج غرفة الاستقبال، وعاد محتزباً بمسدس أميركي أم جي 9 ملم محاولاً إظهاره بثني قميصه أسفل السبطانة:

– أرسلت في طلبه، سيكون هنا حالاً.

جلس مبخوت صامتاً، يقلب ندماً على إغفاله مراقبة كل من يسكن البيت، ولام نفسه على قصور المتابعة التي استغرقت منه الوقت والجهد كونها اقتصرت على حركة موسى، من غير أن تمتد إلى متابعة بقية رجاله أو أفراد أسرته. خفف اللوم عن نفسه محتجاً لها بعدم معرفته المكان وأهله.

عاد موسى على غير الهيئة التي خرج بها، فقد تخفف من جبته، وحزامه، والكوت الكشميري المخطط، ومع إطلالته الأولى نهض أبوه باتجاهه ودفعه إلى خارج المجلس قبل اقتعاده، فوصل صوت تحذيره المغلف إلى مسامع مبخوت:

– الحنش يبحث عن جوهرته.

هبطت الجملة كحجر ثقيل على صدر مبخوت، وهمهم «كيف عرفوا أني أبحث عن جوهرتي؟».

وقد تنبّه إلى مغزى الجملة متأخراً حين واجهه موسى في بطن الوادي ليلاً. ساعتها لم يكن أمامه سوى النجاة بروحه...

غادر مبخوت منزل موسى هواش ذاكراً حجة واهية عمّقت الخشية منه، ادّعى أنه جاء لشراء سلاح بكميات كبيرة ويرغب في مد يد العون للحصول على الكمية التي يريدها.

في اليوم التالي رصده موسى يقف منزوياً أمام بيته، فانقلب حرصه إلى مبادرة في الايذاء، وتحوّل من مرصود إلى راصد، فأحس مبخوت أنه تحول إلى فريسة مشتهاة تتبعها فوهة بندقية صيّاد يؤثر التريّث والتلهّي برؤية فريسته حائرة في ما تفعل.

من الصباح الباكر ينقلب مبخوت للسوق متسكعاً بداخله. لا شيء يفعله سوى البحث عن وسيلة توصله إلى بغيته، واقتصرت غايته على التواصل بموسى وتعميق علاقته به لعله يعبر من خلاله إلى أُنس، ومع شعوره بدناءة فعله إلا أن غايته ليس لها من منفذ سوى اقتراف خصلة ذميمة. احتار في الطريقة التي يسلكها لمحو العدائية التي أظهرها موسى له:

- هل علم بما يجوس في خاطري؟

حمل مبخوت هذا السؤال عقب المداهمة الفاشلة التي أبطل جدواها هواش الصعدي، وقرّر معاودة رأب الصدع بطريقة الكسر والجبر، وعقد العزم على أداء هذه الطريقة كي يجتث أي شكوك نبتت في ذهنية موسى.

الفراغ الذي يتحرك فيه ضيق لا يمكنه من المناورة الطويلة، فوجوده داخل السوق بلا بضاعة ولا شراء يحد من انطلاقه ويمكن المتربص به تحميله أثقال ظنه.

وصل موسى إلى متجر «الجنابي» فوجد مبخوت مقتعداً بجوار بائع المساويك، لا يعمل شيئاً سوى تحريك عينيه من أجل الإمساك بأي مشهد عابر، فأوكل لأحد عمّاله التحرّش به، وافتعال شجار يمكنه من فضه بنفسه...

تجمّع متسوّقو السوق على شجار أظهر فيه مبخوت ليونة وتسامحاً مكّنا عامل موسى من الإمعان في إذلاله، والتطاول عليه بما يأنف منه الرجل الحر.

تفرّق المتخاصمان بتدخل موسى، وإبعاد كل منهما إلى ناحية، مستغلاً بقاء المتجمهرين حافين بالمتشاجرين صائحاً بهم:

– هذا السعودي الوهّابي له مطامع دنيئة يريد تحقيقها ولا نعرف ما هي.

جملة تحريضية أطلقها موسى عالماً بعمق أثرها في نفوس من تجمّع، وانسحب وعنقه لا تزال تتابع خطوات مبخوت المتجهة إلى خارج السوق.

شعر مبخوت بأن قدميه علقتا بالشراك، فسار متسكعاً على غير هدى أو يقين مبين في ما ينوي فعله تحديداً، وصورتا حفصة وأنس تعبثان بمخيّلته تقابلهما صورتا موسى وأبيه هواش الصعدي وكل منهما شق قلبه بخطف واحدة.

– ما الذي يمنع أن أقطف روحيهما الآن؟

تشتتت هواجسه وتناثر هطولها فلم يمسك بشيء منها، فكلما قبض على فكرة نقضها خشية من الوقوع في ما لا تحمد عقباه، أخطرها قتل هوش وابنه وخطف أنس والفرار بها إلى الحد الفاصل بين الدولتين.

ضحك متهكماً من رعونة الفكرة، وأحسّ بسذاجته تقترب من العته، قفزت حيرته من خاطره كصوت مسموع:

– ماذا أفعل؟

حفصة وأُنس وجهان يلاحقانه أينما ذهب. واحدة خطفها الموت، والأخرى هرّبها الجهل بما هو فيه.

الليل داخل الأودية يرسل مردته تنقب عن إشاعة الخوف، فالأشجار والكثبان والحيوانات تتشارك في صياغة لوحة مرعبة، وصنصنة الجنادب وعواء الضباع والذئاب وضغيب الأرانب وفحيح الأفاعي تجعل وجيب القلب يتصاعد إلى سقف الحنجرة.

أمضى مبخوت لياليَ في هذا الجو على أمل رؤية أُنس وإشعارها بأنه لا يستطيع العيش من دونها. تنبّه موسى وغلظته غيّرا استراتيجيته، وعزم على تنفيذ فكرة طرأت بباله وليكن ما يكون، ولام نفسه على تباطؤ تنفيذ فكرته.

استوطن أحراج الوادي يأوي إليها ليلاً، وقبل أن تثقب الشمس الجهة الشرقية تكون خطواته مدلاة في منحنيات المدينة تخب في اتجاه السوق بحثاً عما يسكت به جوع بطنه.

استشعر حساسية وجوده بين متبضّعي السوق وباعته، فجنح إلى الانزواء بين المنعطفات والزوايا الحادة منتظراً الفرصة السانحة لتنفيذ ما عزم عليه...

بدر ساطع قلل من وطأة جبروت ليل غاشم بنثر ضوء باذخ متلامساً مع فضية ثرى الوادي، ومكسباً ترابها لمعاناً يومض كنجوم أرضية.

ابتاع حبات بطاطا وقرر الاستمتاع بانصباب القمر كاملاً في حضن الوادي، وتحرك في جمع أعواد يابسة. اتكأ على منحدر كثبان، مشعلاً ناراً قلب على جمراتها حبّات بطاطا حلوة. كان

ينتظر شواءها بعجلة هافاً على نار متكاسلة بهمّة ويده اليسرى ممسكة بعود استخدمه لتقليب الجمرات وحبات البطاطا معاً.

فجأة وجد موسى هواش يقف أمامه حاملاً كشافاً صغيراً وواضعاً ضوءه بين عيني مخبوت.

– ما الذي جاء بك إلى بلادنا؟

– ....

– هل جئت لتثأر لأختك؟

باغته حضوره المفاجئ، فانعقد لسانه

– ....

– تأخرت كثيراً، الحنش لا يصبر كل هذا الوقت على غياب جوهرته.

– عمّ تتحدث؟

– عن دم أختك.

– لم نطلب بدمها في حينه، وأبوك قدّم رأسه ورأسك فرددناكما معزّزين مكرّمين.

– هذا فعل أبيك، وليس فعلك، فهل جئت لتثبت أنك رجل لا يموت عندك دم.

– لقد مضى زمن وتسامحنا في حينها.

– الدم لا يُنسى، وأنت جئت من أجل إحيائه.

– ....

– ستموت هنا ولن يعلم بك أحد، تشهّد.

مد يده إلى حزامه وشهر مسدسه بشكل عمودي يتلاقى مع وجه

مبخوت مباشرة، فأيقن بالنهاية، وفكر بتمرير سبب مجيئه، وتراجع عن الإفصاح كي لا يصعر خدّه في آخر نفس يخرجه من صدره:

– أريد أن أدفن بجوار أختي. وصيتي إيصال جثتي لأهلي.

تضاحك موسى متمايلاً:

– لم أظن أن أحلامك بعيدة. أقول لك لن يعلم بك أحد...

مع تمايل موسى وتضاحكه تشتت ضوء الكشاف على يدي مبخوت المشيرتين للخلف:

انظر، و لم أظن أنك جبان لتأتي بكل هؤلاء الرجال معك.

كانت لفتة قاتلة أخلت بتركيز موسى حين استجاب لإشارة مبخوت الذي قفز بجنبيته باقراً بطن موسى ومعمّقاً طعنته للأعلى والأسفل، متفادياً طلقتين طائشتين خرجتا من فوهة المسدس، ونهض من على جثته متلفتاً يمنة ويسرة متحرزاً من وجود أعوان يتربّصون به، وعلى عجل قفز من مكانه تاركاً موسى مجندلاً يشخب دمه، بعد اختطاف شال موسى ومسدّسه، وأطلق ساقيه للريح متلهفاً إلى دنو الأراضي السعودية.

قطع الليل راكضاً يقع وينهض، وعلى أضواء القرى المتناثرة يحدد جهة يصلها قبل الأخرى، معرفته للدروب القصيرة والمختصرة سهّلت عليه التعرج فلم يسلك طريقاً واحداً. تجده يغرب ويشرق ثم يعود شمالاً. قبيل الفجر وصل إلى قرية المزرق وسطا على دراجة نارية من داخل سوقها، وتخلص منها قبل مروقه للحد السعودي...

لم يشأ الدخول إلى أبيه نهاراً، فمكث بين سفوح جبل الدخان إلى أن حان دخول الليل، فمرق إلى عمق قريته متلفعاً بشملة موسى

هواش واندسّ إلى داخل بيتهم من غير أن يستشعر به أحد.

– أيّ دم هو يا مبخوت؟

ربا تكوّر القات في شدق عمر بكيري عما كان عليه، مقلباً المسدس بين يديه ومتفكراً:

– منذ متى حدث هذا؟

– من ثلاث ليال.

– وهل رآك أحد؟

– كان ليلاً، ولا أعرف هل جاء معه أحد.

نهض من متّكئه فاتحاً خزانة حديدية أسفل جلسته، وألقى المسدّس والشملة داخلها، وأسند يده إلى كتف ابنه:

– إن بقيت هنا فلن يقف الدم، وهناك اتفاقية وقّع عليها كبار المشايخ أن يسلموا أيّ معتدٍ لخصمه يفعل به ما يشاء. المهم الآن ابتعادك ونفي وصولك إلى اليمن أو إلى هنا.

– وماذا ستفعل؟

– هذا لا يعنيك، فهذه قضيتنا.

وأخذ يزوّده بكثير من الوصايا بترها اقتراب صوت عوش خالدية مكركرة:

– جهزت عشاءً يكفي جملين.

– لا يظهر عليك الصباح إلا وأنت بالحجاز أو تدانيه.

وجذب زوجته إليه موصياً إياها:

– من يسألك عن ابنك فقولي لم أرَه من ثلاثة أشهر وسمعنا أنه يعمل في الحجاز، وإياك ثم إياك أن تقولي إنه كان هنا، أو إنك رأيتِه

قريباً فهو غائب منذ أشهر. فهمتِ أم أعيد عليك؟

ولم يدع لها الفرصة لاستبيان سبب ترحيل ابنها بعدما عاد... انصاعت للأمر مستشعرة وقوع حدث جلل.

الفصل السادس

وصله إخطار من مؤنسة تطلب الطلاق.

فانتابته حالة تهكم مريرة، يذكر أن زواجه بها جاء كرهاً وها هو يقدم على طلاقها كرهاً.

سنوات متواصلة قضاها في مدينة جدة ليس له صلة بقريته سوى مكاتبات. أرسل بأول خطاب إلى صديق أبيه جابر مديني في مدينة الخوبة راجياً منه إيصال مكتوبه لأبيه في قرية الغاوية ويطمئنه ويسأل عن الأحوال، ومضى شهران قبل أن يتلقى رداً في رسالة قصيرة:

الابن مبخوت

بعد السلام والسؤال عن الأحوال نحن في أتم الصحة لا نسأل إلا عنكم، جمع الله الشمل عن قريب.

نحن الليلة نحتفل بالمولد النبوي وكم تمنّينا وجودك كما هي العادة فقد تشتت جمعنا لكن ندعو الله أن يعيدك إلينا كما أعاد يوسف إلى يعقوب...

أبلغك أننا نسمع عواء الذئب لكنه لم يخرج من وكره ونحن ننتظر ما يحدث.

والدتك تبلغك السلام وتقول لك سلم على نفسك.

أبوك عمر البكيري

حرّر في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول

تواصلت بينهما «المراسيل» حاملة الشوق والشكوى من مر الفراق. رسائل مرمّزة في أغلب الأحيان عمّا يحدث بين القبائل الحدودية من إثبات أو نفي تورّط مبخوت بقتل موسى هواش الصعدي.

كان مقرراً أن يستوطن مدينة مكة، ولخشيته من إحداث ذنب يكون عقابه مضاعفاً انعطف بقراره إلى جدة.

دخل إلى حيّ السبيل غريباً، وجال في شوارع جدة بحثاً عن عمل، فاستقر به المقام موظفاً بالبريد المركزي في قسم الفرز. هذه الوظيفة خلقت له أهمية لم يتصنّع في إيجادها، فقد توالت الأيام وهو غافل عمّا يقال عنه بين رجالات الحارة ونسائها. جابهته في بداية مقدمه عداوات بعض رجال الحارة، وسرعان ما انقلبت إلى ود، ولم يكن يعرف مسبّبات الحالتين، وقد ألف تقبّل أمزجة أهل الحيّ المتغيرة معه فلم يعد يكترث بها ونأى بنفسه عن كل تجمعاتهم.

لم يكن يعلم أن ما ينثره من فائض الأخبار التي تصل مع الرسائل أو تسرّب بعض الأخبار من الرسائل المفتوحة يمكن أن يكون له هالة تقدير في ذهنية رجال الحارة. كانت تلك الأخبار التي يزرعها في مسامعهم سبباً في خلق الريبة منه. كان يعيش متلمّساً التقارب مع الجميع من غير إثارة أي منهم. هذه العفوية المفرطة حقنت ألباب البعض بالشك والريبة كذلك.

في البدء تواصل مع جيرانه بهدايا رمزية كان يحملها من مقر عمله ويوزعها على المتلهفين لكل ما هو ممنوع، ففي قسم الفرز تتراكم الكتب والمجلات التي تُمنع من الدخول، فيتساهل رئيس القسم مع من أراد حمل شيء منها، وفي أحيان تكون هناك تلفيات لا تحدث بل يتقاسمها بعض الموظفين وفق اهتماماتهم. مبخوت كان ممن يعشقون اقتناء الكتب والمجلات الممنوعة وكان حمله لها لكونها تقذف مع النفايات.

اكتسب مبخوت بتوزيع وتمرير هذه المجلات والكتب حظوة وقرباً، وازدادت مكانته مع إيصال الأخبار المدفونة قبل انبعاثها وانتشار روائحها.

بعد حادثة احتلال الكويت وتتابع الأحداث بظهور المفجّرين داخل البلد تغيّر الموقف منه، وأشيع أنه رجل مخابرات يبحث عن أي من رجالات الحارة من أجل تحميله تهمة التعاون مع الإرهابيين. وتواصوا سراً أن معاداته أو تعكير مزاجه سيكون وخيماً على من يفعل ذلك، والأسلم للجميع محاباته والتودّد له كي لا يغيب أيّ منهم في غياهب السجون الأرضية.

تكشفت حقيقة عمله متأخراً، وتبيّن لهم أنه لا يقدر على ذبح فرخة (كما قال محمد يونس)، فتطاولت عداوة جابر له وبلغت مداها بالدعوة إلى إخراجه من الحيّ مبكراً، محتجاً على عزوبته بين العوائل، فوجدت دعوته آذاناً صاغية. وفي رسالة لأبيه شكا مما يجد،

فتحركت نوازع عوش خالدية للإيفاء لمؤنسة بما وعدت.

* * *

مع رحيل أو هروب مبخوت من قريته، استعان عمر البكيري بصديق يمني يستعلم له عما يقال في قرية الملاحيظ عن مقتل موسى هواش، فتصله مقولات تتشابه في مروياتها:

وجدوه (في صباح اليوم التالي) وسط الوادي مبقور البطن جاحظ العينين اجتمعت عليه ضباع تنهش منه ما تسهل، فملابسه الثقيلة عطلت أنياب السباع من الوصول إلى أحشائه، فتلحمت أطرافه.

اكتشف هواش الصعدي مقتل ابنه مبكراً قبل أن يفنى في بطون الطير والحيوانات الجائعة، وجرى في البدء خبر مقتله في السوق على لسان أحد عمّاله الذي انطلق بين منحنيات السوق مشتتاً صارخاً:

– السعودي قتل موسى هواش وهرب.

هبط أعيان قبيلته إلى باطن الوادي يتقدّمهم محمد المنصور شيخ شمل، وساءهم ما تعرّضت له الجثة من تشويه، فألقى عليه الشيخ شاله مستقبحاً ما جرى للجثة من نهش ومصرحاً:

– لو أن قاتله حر لما تركه نهباً للسباع. هذه فعلة جبان رعديد.

رؤية جثة موسى ممثلاً بها أفقدت هواش صوابه وأطلق السباب واللعن وأقسم أن يقتص لابنه بألف رأس ويختمها برأس قاتله.

أمر الشيخ محمد بدفن الجثة في مكانها، وتعهد بالموافقة على ما يطيّب خاطر هواش وقبيلته. كانت حالة هواش لا تسمح بإبداء الرأي النهائي لما تقرر فعله، فأرجئ اتخاذ القرار له حتى يبصر ما يقول.

في اجتماع آخر أحضر هواش حفيده الذي لا يزال صغيراً على التزيّن بحلة الحرب، ورفعه بين يديه مخاطباً قومه:

- كما وعدت سأنجز على ألف رأس أختمها بقاتل ابني، وإن لم أكمل نذري فساعدوا حفيدي إسماعيل بالوفاء بهذا العهد.

حملت المكاتيب والمراسلات بين مشايخ القبائل، واجتمعوا مراراً و لم يصلوا إلى دليل واحد يشير إلى هوية القاتل، فالأقاويل التي اندلقت من فم هواش ومعاوني ابنه لم تكن دليلاً قاطعاً على مبخوت.

ودحض انتقال مبخوت إلى الملاحيظ كونه يعيش في الحجاز قبل مقتل موسى بشهور طويلة.

وبسبب الخشية من إراقة دم الأقارب والأصهار المنتشرين على الخط الحدودي الفاصل بين الدولتين بُثّت الوساطات لحقن الدم، والاستبصار في أي تهمة بلا دليل وخيّروا هواش بين نسيان دم ابنه أو فديته من كل قبائل الشريط الحدودي بما يشاء من مال أو عقار أو أنعام.

بعد هذا القرار المجمع عليه من المشايخ سكن خاطر الشيخ محمد المنصور لتهافت قيام الحجة وبقاء هيبته بما حكم به.

بقي هواش الصعدي يصرف النقود لأعوانه ويطلق رصاص رشاشه يومياً من غير قبول أي كلمة ترغب له في نسيان دم ابنه.

و لم يعد يرى إلا على الشريط الحدودي يطلق أعيرة رشاشه في

اتجاه أي ظلال تبزغ من جهة الحدود السعودية...

* * *

خرج جابر الأعمى محرّضاً جيران مبخوت على طرده:

– كيف لرجل أعزب أن يبقى بين ظهرانيكم ويفضح ستر بيوتكم.

فاستجاب لدعوته نفر من الناس وقبل أن تمتد مطالباتهم كان مبخوت قد تدبّر أمره ووصل إلى قرية الغاوية بعد غياب دام ثلاث سنوات تلبية لرغبة أبويه في الزواج بمؤنسة. كانت الخشية من إقامة حفل الزفاف في قرية المعرسة حيث سيكون مكلفاً بسقوط ضحايا إتماماً لوعد هواش الذي أصر على أن قاتل ابنه هو مبخوت عينه. لهذا أقيم حفل الزواج في قرية الغاوية، واقتصر على الأهل والأقارب من غير توجيه الدعوات للقرى المجاورة.

مع مجيء مبخوت لإتمام رغبة أمه في الزواج بمؤنسة، جالس أباه مستمعاً إلى كل الأخبار التي سكبها في أذنه عن قضية مقتل موسى ولم تشبعه كل تلك الحكايات، ومع كل حكاية كان ينتظر ورود شيء عن أُنس، ومع انغلاق فم أبيه عن الكلام، تحرّج وتململ، فاستشعر عمر البكيري به، وتغاضى عنه، فتجاسر على السؤال:

– وما هي أخبار أُنس؟

قبض عمر على كتفيه واضعاً عينيه في عيني ابنه ضاغطاً الكلمات كآخر درس يتفوّه به:

– يا بني ما من شيء يراق فيه الدم إلا شان.

أقيم حفل العرس خابياً مفتقراً للبهجة. سوّر رجال قبيلة عمر

البكيري القرية من جميع مداخلها بالرجال المتمنطقين بأسلحتهم، واختصرت كثير من مظاهر العرس رغبة من رجالات القرية وتحرزاً من وقوع مكروه فيحملون دماً لن يجف على مدار سنوات.

في صبيحة اليوم التالي للزواج غادرت سيارة خاصة تحمل العريسين سراً إلى جازان. بعد أن قبّل مبخوت رأس أمه جذبه أبوه من أجل إلقاء نصائح إضافية، حملها كرهاً كما حمل زوجته، ومضى في حياته مدفوعاً لإرضاء أبيه وحقناً لدم ما زال ينقط في مكان ما من صعدة.

* * *

حين يتذكر مبخوت مسيرته يكتشف بوضوح أنه دائماً يخرج من كل الأمكنة حاملاً عاراً أو خزياً بصورة ما، وفي كل خروج له لا يقرّر مواجهة ما حدث قط، ولهذا فهو يبغض تردّده واستسلامه لمثل هذا التخاذل...

وفاة أبويه مكّنته من الاقتراب من فكرة التحرّر، ومؤنسة عجّلت باتخاذ ذلك القرار، فهي لم تحفظ سر ما حدث في جدة، وأذاعت خبره وتبرّأت منه بطلب الطلاق. جاء خبر طلبها للطلاق محمّلاً بإشاعات وزوائد اختلقتها وجعلت سيرته قذرة يستحي المرء من تداول حكاياتها ويكتفي بالتلميحات التي تشير إلى قبح تلك الأفعال.

أيقن أن لسانها لم يحفظ عهداً كما لم يحفظ بطنها أمانة ما صبّه فيها...

تلك الوليدة الخديج التي أخرجتها قبل أوانها هي الشيء الوحيد الذي كان بالإمكان أن يردعه عن المساس بمؤنسة، إلا أنها لفظت ما في بطنها وجعلتهما شجرتين متوازيتين.

في ليلة أوصاها بحماية جنينها وأن لا ترهق نفسها بأعمال البيت. لم يكن يعرف أسباب غضبتها وازدرائها له، فتفوّهت بجملة أحرقته:

أما زلت تطلب من الصبايا الصغيرات الإتيان إليك؟

لم يكن سؤالها مستفسراً بل باحثاً عن شيء جرى في خاطرها، ومع تعنيفه لها لعنت بطنها الذي حمل شيئاً منه وأقسمت لو أنها تستطيع إنزال ذلك الجنين لفعلت.

استيقظ صباحاً على صراخها وألم مضنٍ يثوّر صيحاتها واستغاثتها، ولم تهدأ إلا مع عودة مبخوت من المقبرة حاملاً حزنه على فقد وليدته، وكانت أمنيته أن يسمّيها أُنس لعلها تخفف وجع لوعة غياب معذبته.

شعر مبخوت بالاطمئنان حين طلبت مؤنسة الطلاق، وأحس أنه على وشك التحرّر من كل القيود التي أبقته حبيساً لظرفيتها.

وقبل أن يتوسّط أحد في ما بينهما عجّل باتخاذ قرار الانفصال عبر محكمة الخوبة وأرسل ورقة طلاق مؤنسة راضياً تماماً بما صنع.

* * *

جاء إليه أبناء عمومته راجين منه التنازل أو بيع الأراضي الشامية المحاذية لوادي حمران التي ورثها عن أبيه. كان عرضاً سافراً ليس فيه الحد الأدنى من الحشمة:

– أنت ليس لديك تلد أو ولد ونخشى ذهاب أراضي أجدادنا لأصهارك.

– ولو قلت لكم إني طلقت مؤنسة فهل يبقى عرضكم هذا قائماً؟

تمايل أحدهم وأصلح كوفيته:

– لن نسمح لك ببيعها والصرف على الصبايا الصغيرات.

انتفض كما لم يفعلها سابقاً، وطرد كل من حضر لمساومته على أرضه، وقطع كل علاقة تبقيه معلقاً بأحد، وتحلل من البقاء في مكان بعينه بادئاً بترتيب خطواته من أجل البحث عن أنس.

الفصل السابع

شعر بأن عادة توزيع الهدايا على الصبايا تجلب له المعرة.

وتوالت أحاسيسه في فرز ما يصيبه بالكدر، فبعد رحيل أبويه وطلاق زوجته أحس أنه غدا غصناً يابساً لا يحفل به أحد.

– لم يبق لي في هذا الكون سوى أُنس.

تنافر الكثيرون من حوله، فمؤنسة استطاعت أن تقلده كل النعوت الحقيرة، وأبناء عمومته يقايضون وجوده بمنحهم أراضيه الواقعة على الوادي، وغربته غيّبت وجوده في أماكن مختلفة، فالناس في حياته كالأشباح تظهر لإثارة الرعب وتعود إلى ظلمتها، فظل معلقاً بأصدقاء أبيه كوفاء وبر يسايرهم أكثر من مسايرة أقرانه. الغربة لم تترك له صديقاً مقرباً، فكلما بحث عمّن يسكن أعماقه من أنداده وأترابه لا يتذكر إلا ميمون وعزان صديقيْ الزمن الغابر، وقد ابتلعهما الغياب، فميمون في القوات المسلحة بتبوك، وعزان كالإبرة يوصل تقسيم الحدود برتقها تهريباً للسلاح والقات.

قبل انطلاقه متجولاً بحثاً عن أُنس، لم يقطع عادته التي ظل مصرّاً على مواصلتها، منذ تلك الحادثة التي وعد فيها حفصة بأن لا يقطع

توزيع الهدايا بتاتاً ظل وفياً لذلك الوعد، يفتح بابه عصراً، ويدير أشرطة الغناء ويمنح الصبية الهدايا والألعاب.

عندما عاد إلى قريته جلس أمام بيته منتظراً مقدم الصبية والصبايا بعد أن اشترى كميات من الهدايا كي يوزعها. كثرت تلك الهدايا المعلقة ولا أحد من الصبية يقبل من أجل أخذها.

– ما زلت على عهدي يا حفصة لكن الناس تغيّروا.

تزوره في الأحلام، كما ودّعته قبل أن تتركه بمفرده في هذه الحياة، وكلما أطلت من حلم لامها على تركها له وحيداً، فتنشغل عن إجابته بتفنيد هداياه، وتبعثرها في زوايا المكان، وتغيب مخلفة صوتها:

– هداياك كحياتك مبعثرة.

ينهض من نومه والحلم يلوب في مخيّلته يسحبه كخيط تعقّد وانقطع ولم يعد صالحاً لرتق أي شيء، فقد أيام كان غصناً يتمايل في شجرة أسرته متشابكاً معها في حياة رغدة.

في تلك الأيام لم يكن يقدر على فراق توأمه. كانا يتنقلان كجسد وروح، وحين سلّت منه بقي كعود يابس قذف في فلاة.

– هداياك كحياتك مبعثرة.

تهل عليه حفصة في كل حين ويذكر تفاصيل إطلالتها وما تبادلاه من حديث، وفي كل ظهور لها تربطه بوعد ما، يذكر وعوداً كثيرة قطعها على نفسه إرضاءً لتوأمه وتودّداً لها. يذكر تماماً حين تناثرت عرائش الحماة في جوانب وبطون الحقول لحماية أعذاق الحبوب من هجمات طيور «المساملة»، وأسندت المهمة لأطفال مستأجرين للقيام بهذا الدور مقابل حفنة من النقود تسلم لهم بعد بيع المحصول...

أطفال كثر يفرحون بهذا العمل حيث يجمع لهم ميزة اللعب والسلوى وكذلك الحصول على المال، وبشير طفل من أولئك الأطفال الذين اشتغلوا بهذه المهنة، فقد كان يبحث عن أي شيء يوفر له المال مهما كان ضئيلاً، فقد تيتّم من سنوات فاقداً أبويه في شوطة وباء اجتاحت القرية، فخرج يعرض خدماته مقابل ملء بطنه. لا يعرف من الدنيا سوى تلبية الأوامر. عمل خادماً لكل من يشبع بطنه.

في تلك الأيام كانت حقول الذرة المملوكة لعمر البكيري هدفاً لطالبي العمل حيث ترامت على مد البصر بخضرة غامقة، تشي بمحصول وفير، ولكي لا يبطل عمر البكيري هذا الظن أسهم بتكثيف عدد الحماة اتقاءً ودفعاً من هجوم الطيور المنظم وخشية من إفساد غلة موسمه.

وبسبب حفصة وفي الناحية الشرقية من تلك الحقول تراخت المقالع وحطت العصافير فوق العذوق مخلخلة حبيباتها نقماً ومصدرة شقشقة في مناداة بعضها بعضاً لغياب الحراسة، إذ صادف مرور حفصة من أجل تزويد أبيها بزوّادته اليومية التي حرصت على القيام بها دون الخدم أو أخيها. وجودها في تلك الناحية بلعبتها الغريبة استقطب صغار الحماة فأخلوا مواقعهم من أجل التطلع إلى لعبتها الفريدة مع إبقاء مقاليعهم معلقة على جذوع عرائشهم المنصوبة في أطراف الحقول الشرقية.

هبط صغار الحماة من عرائشهم بغية مشاهدة مكة، والمدينة، وغار ثور، وجبل أحد... من خلال تلك اللعبة العجيبة التي حصلت عليها

حفصة كهدية من أحد الحجاج تقرّب بها من أبيها. تناقل الصبية اللعبة بوضع العين على مبصار خارجي وتحريك مفتاحها الجانبي لتبديل الصور والمشاهد في عرض لبيت الله الحرام، وقبر المصطفى عليه السلام، والمآثر المنتشرة في مكة والمدينة المنورة. تخاطف الصبية المنظار مع سماح حفصة لهم بتنقله في ما بينهم مرتضين حكمها بإنهاء وقت مشاهدة كل منهم. وبينما هم مشغولون وغارقون في التطلع إلى الصور المتغيّرة والمنوّعة، قدم عمر البكيري تفقداً وبحثاً عن سبب تزايد العصافير في تلك الناحية، وفوجئ بالحماة يتناقلون المنظار في شغل شاغل عن عملهم، فتفرقوا على صوته الغاضب وركضه باتجاههم حاملاً هراوته التي انتهى حملها بإلقائها على هامة بشير فشخب دمه ملطخاً وجه حفصة.

كان حادثاً عابراً ألف البكيري ممارسته مع الحماة المتقاعسين، و لم يكن يتصوّر أن ابنته سيهجرها النوم فزعاً من رؤية رأس بشير الدامي، وظلت عيناها مفتوحتين صباحاً ومساءً، فدار بها على مشايخ القرى، وكل واحد منهم يهبها حرزاً ومروخاً، ويودعها بيقين أنها ستُسلم جفنيها في نوم عميق.

أمها عوش خالدية رق قلبها عندما سمعت نتفاً من أخبار تباريح وتوجّع بشير للشجّ الغائر الذي منعه من الخروج وأبقاه طريح الفراش، وفي زيارتها وتفقدها لحاله حنّت عليه وعادت به إلى البيت تطبّبه وتسهر على تسكين توجعه.

نهض بشير من رقدته و لم تنم حفصة.

جاءها النوم حينما كسا أبوها بشيراً وأجزل له مكافأة حمايته

وقدّمت له منظارها هديةً وتعهّدت بنذر مقرون تنفيذه بأخيها مبخوت:

- لنتعاهد وهو عهد أسالك عنه يوم القيامة...

- أيّ عهد يا حفصة؟

- تعاهدني أن لا يمر علينا أسبوع إلا ونهدي هدية لأي طفل مسكين.

وأمام إلحاحها أقسم كلاهما على البر بتعهّده.

واصل مبخوت الإيفاء بالنذر منذ سنوات إلا أن ما علق بسيرته جعل هداياه محل ريبة واستفسار ويقين بأنه ينثر هداياه كي يغرّر بالصبايا الصغيرات.

وكلما تذكر ما لحق بسمعته من أذى زاد كمده واحتار أيّ الدروب يسلك وهو القابع في بيت واسع وهمٍّ أوسع يدور في فلكهما لا شيء يفعله سوى الاستلقاء وتمرير رحيق قات يجتره يومياً، وسماع أغانٍ مهيّجة للذكرى والحزن معاً.

تلقى تعويضاً مجزياً عن حقول شمالية نزعت من أجل شق طريق يوصل بين مدينتين جبليتين، وأدرك حينها سبب تهافت أبناء عمومته على مطالبته - سابقاً - بالتنازل أو بيعها لهم.

تعاوده نوازع اللهفة والبحث عن أُنس، وشرح ما حدث وإن نخر قحف جمجمته سؤال حائر:

- هل ستقبل بك بعد قتلك لزوجها وترميلها وتيتيم ولدها؟

هو سؤال حاجز يشعل فتيل حيرته بين الإقدام والتراجع النهائي عن ملاحقه أُنس.

وجد مسدّس هواش في سحارة أبيه ملفوفاً بنفس الشال الذي

خطفه من على جثة موسى يجاوره حزام الجنبية المتغلغلة في أحشاء جسدٍ هبط الوادي ليلاً من أجل قطف أنفاسه فسبقه إلى ذلك بجنبية كانت هدية، ولو علم هواش أن هديته ستبقر بطن ابنه لما يسرها كلقمة سائغة مهمتها تمرير أحداث ذلك القدر.

فراغ البيت والظلال المعكوسة من الإضاءة الخافتة المنبثقة من مصباح ذاوٍ، تبيّنه من بعد كمارد خرج من قمقمه، فيجد ظله محبوساً على الجدران كلما نزعه استطال و لم يجد مساحة تقبل بتمدّده فقبل بانكسار قامته وتشظيها.

انثنى إلى عمق السحارة يقلب مسدّساً محشوّاً، فتح مخزن الرصاص وقلب حبيباته اللامعة برؤوسها المدبّبة فتنهد عميقاً:

– واحدة من هذه الرصاصات كانت كفيلة بإيقاف الحياة من زمن مبكر.

في أحيان تنتابه حالة من التأمل في ما يعبره من أحداث، فتفور تأمّلاته على صورة يقين لا يسعى إلى تمحيصه. ومع تقليب رصاصات المسدس بين يديه تسللت إليه فكرة أن الخوف والغضب يولدان الجريمة. هكذا أيقن مبرراً تغلغل جنبيته في أحشاء موسى هواش وليدة ظرف فقس من لحظة خوف، و لم يشأ إعادة غزل الحكاية منذ انطلاق رشاش هواش الصعدي برصاصات كشفت إحداها هامة حفصة وغيّبت أُنس بعيداً عنه.

فالتفكير فيمن هو المجرم فكرة مفرطة التطرّف، لأن الحكم النهائي يأتي بعد إسدال الحجب على الظرف والملابسات، فتعليق التهمة على سيرة شخص لم يشأ إحداث جريمة تخلّصٌ من المعرفة.

فكيف نحكم على شخص بالإجرام في زمن انتفت فيه الظروف المؤدية إلى الفعل ووقف صاحبه مجرداً من المسبّبات حاملاً جرمه فقط، كيف؟!

استعصى عليه استكمال توارد خواطره في ماهية الجريمة ومن المجرم، أحياناً كثيرة يحمّل نفسه جريرة هذا التشابك بين الحب وما يخلفه من مآسٍ في طريقه، وهل الحب المسروق يولّد دائماً جريمة؟

ينشغل بهذه الافكار في أوقات تسبق نومه، حتى إذا أفاق محا كل شيء إلا وجه أُنس، فيخرج بحثاً عن وميضها من غير حذر أو تخطيط.

عاد إلى رحلاته المكوكية إلى أرض اليمن يجول على أطراف مدينة الملاحيظ متحرزاً من الظهور المباشر، وعمد إلى استئجار من يسأل له عن بغيته. ظل يحوم حول الحمى يخشى أن يقع في براثن قبيلة هواش من غير سند يجيره. العيون التي أرسلها هنا وهناك، لم توصل له خبراً صريحاً طمعاً في استمرار استدرارِ أمواله. رضي بذلك الاستنزاف مقابل العثور على جهة توصله إلى أُنس.

استنزفت تغطية نفقات المرسلين مالاً كثيراً، قيل له انتقلت إلى صعدة وبعضهم قال إلى حجة وبعضهم قال إلى عمران...

ومع توارد أخبار لا تجتمع في نقطة، استشعر بطول أمد استغلال المرسلين، وقرّر الدخول إلى الملاحيظ بحثاً عن أُنس حتى لو كان الثمن حياته، وإن كان يحمل تصديقاً داخلياً من انتقالها إلى عمران.

ومع اطمئنانه لهذا الإحساس عزم على خوض المغامرة والذهاب إلى عمران، وقبل ذلك عليه أن يتأكد من صدق هذا الإحساس

(بما لا يدع مجالاً للشك)، فخطر بباله الاستعانة بعزان سالم صديق طفولته كي يكون دليله إلى هناك.

* * *

يشبّه نفسه بالضوء الذي لا تحتاج إليه الظلمة.

يغيب أياماً ويعود إلى منزل خاوٍ كي ينام في فراشه ولا يعمل شيئاً يستحق أن يكون ثمناً للحياة التي تجري في عروقه سوى سماع الأغاني والحرص على عرض هدايا الصبية عصر كل جمعة، وفي الليل ينصت للأخبار متنقلاً من قناة إلى أخرى متزوداً بكم هائل من كآبات ما تبثّه القنوات من مواد إعلامية مثيرة.

جذبت انتباهه تلك الحروب التي تنشأ في صعدة وتنطفئ مرة أخرى فحرص على تتبعها ومعرفة خبايا لعبتها.

أدمن تخزين القات وغدا طقساً من طقوسه اليومية، ففي العصاري يجلس في فناء منزله بجوار ردائم الفل والريحان ويظل يتقوّت منتشياً بسماع أغانٍ صنعانية حفظ جلها وغدا يترنّم بها قبل خروجها من حناجر مطربيها. هبطت عليه غلالة حسرة حين سمع جارتهم فاطمة شوعي تنادي على ابنتها:

الليلة «المرجبية» في بيت عبده بن علي، لا تنسي ذلك.

ساحت نظراته في أرجاء بيتهم الكبير بحسرة أخرجها عبر نفثات هواء حار، وجرت مخيّلته في الماضي (كما يفعل دائماً)، فالماضي بيته الذي لم يغادره بتاتاً، يدخله يومياً ويغلق على نفسه بين ردهاته لا عمل له سوى نفض الغبار واستنشاق هوائه، وترتيب أحداثه،

وتنظيف جوانبه من الدويبات، وغسل ما اسود من أحداثه. غدا ساكناً لبيتين خاويين، بيت الماضي وبيت أبيه، وقد هيّجت فاطمة شوعي ذكريات الفرح التي كانت تسكن في منزلهم. كان منزلاً ينغش بالأحياء. يومياً ثمة احتفال يقيمه أبواه احتفالاً بمناسبة دينية أو استعداداً لمقدم غريب أو مشاطرة صاحب فرح قصرت به الحاجة، ويتسابق الخدم والمستأجرون لحقوله إلى مجاملته بنصب المخادر أو جلب الماء أو دق الطبول أو الرقص أو إطلاق الأعيرة النارية.

والنساء يملأن الفناء فرحاً وغنجاً تهيج حبورهن نغمات الدفوف فيتراقصن وهنّ يقدمن خدماتهن عوناً ومحبة لصاحبة الدعوة، وتقف الفتيات خلف ردائم الفل والكاذي من أجل استراق النظرات إلى شباب القرية حين يصوّبون بنادقهم على الأهداف المنصوبة فوق «قرعينات» العشش، وتملأ كل واحدة منهن جراب أحلامها بمن تشاء من الفتيان، ومع انتشائها بمقدرة أحدهم على التصويب تطلق الزغاريد وتندس بين المحتجبات كي لا يعرف سرها. وهناك الصبية الذين يتخاطفون معابر الرصاص، أو يمدّون أيديهم إلى الحلوى المقدّمة لكبار القوم أو يتشاجرون على لعبة لعبوها...

ركدت الحياة في منزل لم يتعود على هذا الركود وتشكى من وريث لا عمل له إلا الاستلقاء طوال النهار. ينهض عصراً للتقوّت ويقضي الليل مستمعاً إلى الأغاني واجترار الأوهام.

منزل جفت فيه الحياة.

أحجار البيت نفرت من وحدتها، وتبدّلت مواقعها من غير أن تمنحها عيناه الاهتمام بتسوية السور أو حمايته من اختلاسات أنفار

اخترقوا الحدود وتفلتوا في القرية للسرقة والنهب.

نهرته خالته حسينة سالم وهي مشفقة من خموله:

– ستقصر قامتك من هذه الرقدة الطويلة، اخرج للناس.

وأسهبت في الحديث عن السرقات التي تتعرّض لها قريتهم والقرى المجاورة، مشفقة على حال زوجها الذي خرج البارحة يركض خلف لصّين حتى بلغ خارج القرية، وبدلاً من مواصلة هربهما انعطفا عليه وأمسكا به وأشبعاه ضرباً، وشدا وثاقه على سارية عمود كهرباء، ولولا لطف الله لمسّه صاعق كهربائي من سلك عارٍ تدلى على رأسه مباشرة.

ومع انتهاء سردها لحكاية اللصين اللذين دهما بيتها وضربا زوجها تأوّهت وهي تمسك بمكنسة من الخسف وتهم بالكنس:

– الأمان نعمة ونحن في آخر الزمان؛ السارق يسرقك ويجلدك أيضاً.

– هل سرقا شيئاً؟

– لا، ولكن حميّة أبيك بركات أبت إلا ملاحقتهما.

أعدّت له القهوة، وشطفت الفناجين الفخارية من صنبور صدئ شحّ ماؤه، وجلست أمامه مفتوحة الشهية للحديث عن لصوص المنازل، مقسمة إنهم لم يبقوا شيئاً إلا سلبوه، حتى أسلاك الكهرباء وتمديدات الماء، ذاكرة البيوت التي تعرّضت للسلب والنهب ليلاً ونهاراً وكأن البلد خاوية ليس بها رجال أو دوريات شرطة.

– سأترك لهم داري يسرقون منها ما شاؤوا.

– يا غارة الله يا مبخوت، كأنك تجنّنت.

تضاحكا معاً، وأنهت كركرتها خابطة ظهره برفق مستمتعة بحبها له وحنوّها عليه، ولأول مرة تروي له أنها أرضعته مع ابنتها آمنة فأبدى استنكاره ولامها إذ لم تخبره من وقت مبكر، فروت له كيف رفضت إكمال إرضاع حفصة وقبلت به، واصفة حفصة بالشرهة في امتصاص الحليب وكانت حلمتها تعاني من انسداد لم يفتح مسامها إلا قوة شفطها، وبعد أن قامت بهذه المهمة رفضت أن تسلمها ثديها مرة أخرى...

عادت تضحك مبدية درداً لم يزدها إلا جمالاً في نظره:

– لم يبق لي من أحد إلا أنت يا خالة.

– قل أمي فقد اشتهيتها منك.

تحرّكت إلى المطبخ حاملة ما تناثر من فناجين وبواقي أطعمة تركت مكشوفة داخل الغرفة، ورفعت صوتها من هناك تشتكي حالة ابنتها آمنة وما تعانيه من عوز بعد انتقالها مع زوجها إلى اليمن...

فرد عليها بنفس مستوى الصوت الذي يمكنها من سماعه:

– ولماذا لا تعود إلى بلدها...

– كلها بلاد الله، وهو رب واحد هنا وهناك.

غادرت حسينة سالم إلى دارها مشتملة بشرشف أخضر غطى نصفها الأعلى مظهراً حدبة ناشئة تكوّرت أسفل الرقبة مباشرة.

هواجس مبخوت الليلية اختمرت بما فيه الكفاية وقرّر الرحيل إلى اليمن بحثاً عن أنس. خرج يبحث عن إجابة سؤال لن يجده إلا عند سالم درين فهو الذي سيخبره أين يجد عزان. اخترق القرية من

جهة السوق، محاذياً لبيوتها من الخلف ومتحرزاً الالتقاء بأحد من أبناء عمومته.

في مدخل القرية تجمع نفر من المسنين للعب الدومينو وتبادل الأحاديث عمّن ذهب من أبناء القرية و لم يعد، مخفّفين اشتياقهم بحمد الله على تفوّق أبنائهم في بلاد الغربة ورفع أسهم سمعة قريتهم في المدن البعيدة بما يحققونه من تميّز دراسي أو وظيفي. ومع التحية التي ألقاها عليهم مبخوت، انثنت رقبة أبو ناب باتجاهه تاركاً لسانه يخرج ما يحمله من حنق على مبخوت:

– لا يعود إلا المعطوب.

لم يكن ناصر العجلي يقبل تلقّي هزيمة في لعبة الدومينو وإن حدث فاض فمه بتحقير من يقابله في اللعبة وغالباً ينهي خصامه بإلقاء قاذورات فمه منتهية ببصقة يلقيها في أي اتجاه حتى وإن كان موقعها في وجه رفيقه المقابل له في اللعبة. نسي الكثيرون اسمه وأطلقوا عليه لقب أبو ناب، وقد خسر نابه أثناء سقوطه عن دابّته. الإمام المعشي يخفف من تلقي حدة شتائمه معللاً أن الجمل النابية التي تخرج من فم ناصر غير مقصودة فهي تتسلل من فتحة الناب المفقود من غير قصد.! وهو تعليل لا يقل مكراً عما يبديه ناصر من تغافل واستمراء في مواصلة فجوره.

حين قدم عليهم مبخوت كانت اللعبة قد وصلت إلى مرحلة الحسم وكان أبو ناب متقدّماً فيها، وتأرجُح مبخوت بين المكوث والمغادرة خلق لدى اللاعبين تباطؤاً في إلقاء حجارتهم. أحسّ بثقله بينهم وعدم رغبتهم في جلوسه. تململ كثيراً قبل إلقاء سؤاله على سا لم

درين المتهيّج بسبب خسارته للمرة الثانية على ضحكات خصمه أبو ناب:

– يا عم سالم أين أجد عزان؟

واصل أبو ناب حديثه المستهجن:

– الشيطان يربط أولاده بخيط واحد.

جملته أغاظت سالم وأشعلت رغبة المماحكة لديه:

– ترى يا ناصر الجمل لا يرى رقبته عوجاء؟ وابني عزان رجل يبيع السلاح وكل يوم روحه في يده. العيب يحمله ابنك إبراهيم كل يوم وهو في بلد يتابع العاهرات...

انقلبت الجلسة إلى تهم متبادلة وشتائم متطايرة. حاول المجتمعون فضّ تلك الملاسنة مرجعين غضب سالم درين إلى تلقيه هزيمتين متتاليتين من أبي ناب ومحمّلين إياه تصعيد الحديث إلى درجة عالية من التوتر، فنهض سالم غاضباً وتركهم غير آسف على مفارقتهم فتبعه مبخوت متصيّداً لحظة انقشاع فورة غضبه:

– تجده في الضفة المقابلة من قرية الجابري.

اكتفى سالم بهذه الجملة كاعتراف برد الجميل لمبخوت الذي لازمه في ممشاه مهوّناً عليه سفالة ناصر العجيلي.

التقط الإجابة وعاد إلى منزله وصورة أمه حسينة سالم تلح عليه معددة البيوت المسروقة، مجترحاً حرقته الداخلية بآهة طويلة وهو يردّد: لو تعلم أن هناك سرقات لا تجف، سرقة حياتك أو قلبك أو حبيبتك...

توقف عند هذا وقلب الصورة، وتساءل من السارق ومن المسروق، ألست أنا من خرج من أجل أن يسرق من موسى زوجته،

وخفف من هذا الإحساس كون موسى هو من سرق حبيبته أولاً.
تشابكت أفكاره و لم يعد يميّز أيّهما المسروق.

عاد إلى يقينه بأن الرغبة والخوف يولدان كل الجرائم.

ضرب رأسه براحة كفه لإيقاف سيل المتناقضات التي تغزو مخيلته:

– لا يهم أي شيء. الذي يعنيني وأفهمه جيداً أني أريد أُنس. لا أعرف شيئاً سوى أني أريدها هي.

عاد إلى منزله جامعاً كل الهدايا التي علقها على باب غرفته وامتنع الصبية عن أخذها، وساق ثلاث غنمات ونعجة وبقرتين وحماراً، ومظروفاً وضع به مبلغاً مالياً مجزياً، وطرق الباب على مرضعته حسينة سالم، وانتظر حتى بانت:

– سوف أسافر وربما أغيب طويلاً. خذي الدواب لك أما الهدايا فوزعيها على صبية القرية.

– ضيّعت مالك في هدايا لا تجلب لك إلا اللعنات. إلى أين السفر هذه المرة؟ وكم ستغيب؟

– لا أعرف.

– يا غارة الله يا مبخوت تحرمني منك في آخر أيامي.

خبّأها في صدره مقبلاً رأسها ومتشمّماً رائحة الزباد الذي كانت تضعه أمّه في شعرها، فاغرورقت عيناه، ودس النقود في يدها:

– هذه هدية لآمنة.

فالتصقت به تقبّل ما يصل منه إليها، فيما ظهر زوجها من خلفها مستغرباً بكاء كل منهما:

- ما الخبر؟

استدارت وهي تسحب زوجها لمواجهة مبخوت تماماً:

- تعال يا بركات اسمع ابنك: يقول لك مسافر وأيضاً لا يعرف إلى أين؟

حاول بركات سحبه إلى داخل الدار واستيفاء أسئلة لماذا وأين، إلا أن مبخوت فضّل معانقته وتوديعهما على عجل.

* * *

- لماذا اخترت عزان لرحلتي هذه؟

كانت إجابته عن سؤاله الذي حاك في صدره منذ أن قرر العودة للبحث عن أُنس هي الخوف. ثمة خوف سكنه وعلّل ذلك بالكبر، فالإنسان يقل إقدامه مع تقدّم السن، ومهنة عزان لها عيون وسواعد قوية وإذا أخلص في مساعدته، فسيصل إلى أُنس. وقد كان خيار الاستعانة بعزان للدخول إلى مدينة الملاحيظ من أجل تأكيد خبر من أوصل إليه مغادرتها إلى عمران، وإن صدق الخبر تسلل إليها من غير أن ينكأ موضع الدم الأول، كما أن وجود عزان يمكنه أن يؤمنه إذا ما تعرّف إليه أحد من أعوان هواش.

- ستجده في جبل جحفان.

قضى ليلتين في قرية الجابري، متنقلاً بين معارف يسألهم عن عزان وكل منهم يسلمه لشخص آخر. كانت آخر وقفاته على عجوز استلقت على الأرض حاسرة الرأس بشعر أحمر احمراراً قانياً من شدة تخضيبه بالحناء، يغطيها شرشف حائل يوصل لك يقيناً أن كل

الألوان جمعت فيه ثم عصدت بأوساخ الأرض لتعطي ذلك اللون الذي لا اسم له. في جلستها تلك دأبت على طلب مقابل مادي إزاء أي غرض تؤديه أو قول تبوح به. مع مجيء مبخوت لم تنهض من رقدتها، وظلت تتحدث مغمضة العينين بثقة أن السائل مضمون السداد. نقدها مئة ريال وجدت فيها إهانة لمعلوماتها، فتباكت على حالها البائسة، وعندما أثمرت شكواها بزيادتها مئة ريال إضافية، سردت معاناة سقيمة الاستقامة تجعلك تقدم على سلبها ما قد جدت به عن طيب خاطر.

– ستجده في جبل جحفان.

وعلم منها أن عزان لا يستقر في مكان محدّد فهو متنقل كالريح، وإذا نشطت دوريات حرس الحدود مكث في قمم الجبال ينتظر لحظة يكون الانقضاض فيها واجباً.

وحين وصل إلى الجهة التي أشارت إليها تلك العجوز أيقن أنها تبيع قولاً كاذباً، حيث لم يجد عزان في جبل جحفان بل في جبل أبو النار الذي غدا مركزه الرئيس، فكلما اقترب من الساحل استيقظت حواسه وهدأ توتره. يقضي وقته متنقلاً بين الجبلين ومعرجاً على قرى الخوجرة وأبو الرديف، والسر ووعلان لتمرير وتسويق تجارته.

أبدى عزان استعداداً لنقله إلى داخل اليمن أو إلى حيث يريد، وقبل أن يمضي بعيداً في وعوده قال له مبخوت:

– برقبتي دم ولو عرفوني لن يقبلوا إلا فنائي وفناءك.

قبض عزان على جذع رقبته ضاحكاً:

– إذاً حانت الفرصة لأن أتخلص من آخر الأصدقاء القدامى.

الفصل الثامن

- المهم اجتياز الكيلومتر الأول مستترين تحت مسمّى مغتربين.

أوصى عزان مرافقيه بخلع الثوب، وارتداء فوطة وقميص والتعمّم بالشماغ والتخلي عن أي شيء له قيمة مادية نفيسة وموجّهاً حديثه إلى مبخوت:

- إن سالك أحد من الطرف اليمني فقل مغتربون عائدون إلى وطننا. إياك أن تخطئ.

- ولكن هذه ليست نقطة عبور، وأنا أحمل جواز سفري معي ظاناً أنك ستعبر بنا من المنفذ.

ضحك عزان:

- وهل تريدنا أن نعيد قصة الرجل الصالح؟

- أي رجل صالح هذا؟

- سأقول لك:لا تسأل كثيراً، وسأجيبك عن سؤالك: ولأنها ليست نقطة عبور لا جوازات لدى العابر. هنا منطقة تسلل.

- منطقة تسلل، لماذا؟

وبجملة استنكارية عقب عزان ضاحكاً:

- وهل مثلي يسير من المنافذ؟

أظهر مبخوت جواز السفر، فتناوله عزان وحشره بين حجارة متراكبة داخل كوة يأوي إليها في جبل أبو النار، والتفت إلى رفيقه الأكتع قبل أن يضع شمته في شدقه الأيمن:

- هل فات موعد إطلاق نيرانه.

عجل الأكتع بنفث بصقة افترشت حجراً عريضاً أسفل قامته، ورفع ساعته بموازاة عينيه:

- ما زال أمامنا ساعة قبل بدء إطلاق النيران ولن يصل بمحاذاتنا إلا بعد مرورنا.

- إذاً لننطلق.

الذئب الجريح كثير العواء ينهض بجرحه مهاجماً ويصبح أقرب للموت بتعريض نفسه للقتل، فذئبيته تأبى عليه البقاء في مكانه، وهواش كان ذئباً سفح دمه و لم يجد ما يضمّد جرحه النازف سوى مواصلة العواء على رصاصة تنهي عذاباته المتواصلة.

منذ سنوات بعيدة يخرج محتزباً ومتلفعاً بأشرطة نارية، وممشطاً الشريط الحدودي، وأي طيف يراه يصوّب باتجاه، وإن لم ير أحداً أفرغ رشاشه أفقياً ويسقط في مكانه منهكاً صائحاً:

- لن يشفيني قتلك.

تلقى مبخوت هذه المعلومة من صديقه عزان وهما ينهيان وجبة خفيفة تناولاها قبل الإيغال في مغامرتهما، فأمسك مبخوت بساعده:

- أظنه صاحب الدم يا عزان.

سار بهما الأكتع في اتجاه الجنوب من مدينة الملاحيظ متخففين

من كل شيء إلا قوارير ماء خرجوا بها مثلجة وما زالت متماسكة البرودة. دليلهم أكثر عافية منهما. يطالبهما بالإسراع وعدم الركون إلى التراخي، فتحسرا على أيام مضت لم يكن الإرهاق ينال منهما مهما بالغا في الحركة.

– عجزت يا مبخوت.

– الروح لا تشيخ، فالأيام تتلهى على مضغ الجسد لكونه عتبة تعبرها كي تثبت وجودها، أما الروح فهي مختبئة ونائية عن ذاك الدهك.

اختفى خلف تلك الجملة في مواراة لكهولة داهمته معلنة حضورها ببزوغ شعيرات بيضاء أضاءت مقدمة رأسه و لم تجرؤ على سطو ما بقي من شعره. ظهور الشيب لم يردع حيوية وعشق فتى ما زال يعيش بهما مستدلاً بقلبه المعلق بأنس والمستبقي لخفقات لم تذبل مع مرور الأيام، وكان الطريق إلى قرية المعرسة لم تجفف خطاه ذهاباً وإياباً للوصول إلى محبوبته، ويحس أن لوعته ما تزال نابضة تلسعه بجنون العشاق وشجن الأغاني. يعترف بكهولته ويؤمن بأن في ماضيه فرحة خطفت منه وأن مهمته استعادة ما خطف منه كي يعيش غداً مديداً، ويجزم بأن الموت لن يصل إليه قبل أن يستعيد ما سرق منه. تكرار الأكتع للجمل الحارقة عن الكهولة لم يصدّ بحكاية الروح الخضراء بل كان فرصة لإظهار أساليب الاستهزاء المبطنة. ولكي يهرب مما أعده الأكتع من جمل تستخف بفكرة الروح الممتدة، اعتصم بالصمت، عابثاً بالأسئلة في ما بينه وبين نفسه: كيف يهرب العمر؟ أو كيف ترتقي السنون قلب عاشق فتقضمه ساخرة

من سذاجته معيّرة إياه: لقد صدئت، وغدوت هشيماً تذروه الرياح، ومن الإضحاك المحزن إظهار أنك خرجت بحثاً عن عشق قديم.

خلخل بين أصابعه واحتجز إبهامه في راحة يده اليمنى وانداح في هواجسه: كيف لو علم الأكتع أنك خارج للبحث عن محبوبة ضائعة، محبوبة أسرتك بهواها وربطتك كبهيمة بقيت تتغذى على ما قدّم لها من حسوك بينما المكان قفر إلا من رياح تعبث بمحتويات الدار وتوهم تلك البهيمة أن هناك من سيزوّدها بعلف إن انقضى حسوكها.

استسلم الأكتع لطلبهما بالتوقف وأخذ قسط من الراحة بعد عبورهم الحدود ووصولهم إلى داخل الأراضي اليمنية. جلسوا مستظلين بأشجار سدر امتدت وتعرّجت بعضها ببعض من غير أن تقطع نهايتها أبصارهم. تراجع الأكتع للخلف مع رؤية أفعى تخرج من بين كومة حجارة و«تزرق» في الاتجاه الآخر. حمل حجراً وتبعها، فصاح به عزان:

– لم تعترضنا دعها.

– خفت أن تلدغ العم مبخوت.

صعق من كلمة عم. هل شاخ لهذا الحد حتى إن بغلاً كالأكتع يوقره ويخشى عليه من أفعى لطالما خدش رؤوسها في الجبال وفي بواطن الأودية والخبوت وحمل الثلاث والأربع على عصاه وعاد بها إلى داخل القرية مقدّماً عرضاً لأنواعها وأحجامها وإن أخذته النشوة حرص على الإتيان بها حية وقلع أنيابها أمام المتجمهرين.

– آه من الزمن.

خرجت آهته أشبه بالهمس، ووقفت أُنس بتلك الصورة الثابتة التي لم تغادر مخيّلته، فتاة ناحلة بعينين واسعتين واحمرار خدين بشعر منسكب كماء الغيل وعجيزتين متمرّدتين على الاحتجاب تزداد عجرفتهما كلما سارت متكبّبة للأمام.

– هل تهدّمت أردافها وارتقت الشيخوخة جمالها، وأسقطت فتنتها؟

نفض مخيّلته جيداً مردداً على نفسه كمن يؤكد على استرجاع درس قديم:

– الفتنة أن تكون حاضراً وأنت غائب؟ وحضورها لم ينضب.

تداهمه ذكريات أُنس في كل حين، فينشط في تحركاته لعله يقف مرة أخرى أمام عينيها، وفي كل مغامرة بحث يحمل معه سؤالاً ملحاً:

– هل ستقبل بك بعد كل ما حدث؟

تنازعه نفسه بإجابات مختلفة يقف ليلياً أمامها معتذراً ومعاتباً ولاعناً وساخطاً، وينهي حالته باستعادة ذكرى تعلقه بها منذ الطفولة مبيحاً لنفسه اقتراف كل شيء في جعل تخيّلاته واقعاً يعيشه ولو ليوم واحد.

فضل عزان دخول المدينة ليلاً متخفياً تحت جنح الظلام لكي لا يثير مقدمهم توجساً أو سؤالاً قبل أن يدخل في جوار شخصية تقيه وزميليه من أي مخاطر تتولد لأي ظرف كان.

نزلوا ضيوفاً على علي الرازحي أحد تجار السلاح ممن تربطهم صلة قوية بعزان. تناولوا وجبة العشاء نعاساً، وألقوا باجسادهم

كيفما اتفق على فرش وثيرة هيّئت لهم داخل غرفة كبيرة يبين من هيئتها أنها معدة لاستقبال الضيوف، فهي في طرف المنزل ملحق بها دورة مياه ويلاصقها من الخارج ركن مربع ليس مطبخاً إلا أنه يقوم بالدور ذاته فقد رصّت الكووس والبراريد والدلال في جانب بارز وتواضعت مواقع الشيش إلى أسفل الركن وحشرت معها أواني وقوارير الكورسين وأكياس الفحم، وموقد حجري وضع ليكون بديلاً للغاز.

هي غرفة لها بابان شمالي وغربي من أي منهما دخلت صافحتك روائح البخور المختلط النافذ، وانعكست أشعة الإنارة على براويز صور ذات أحجام مختلفة لبعض أفراد أسرة المضيف، وزيّنت حوائطها بتعليق السيوف والخناجر والبنادق القديمة.

كانوا يسبحون في نعاسهم، ولم يسمعوا تخيّر مضيفهم لهم بتشغيل أجهزة التبريد أو فتح النوافذ. ارتمى كل منهم كجثة فريدة تبحث عن قبر يتسع لشخيرها.

في عصر اليوم التالي غصّت نفس الغرفة بالمقوّتين بعد إعادة ترتيب المكان على هيئة مستديرة، تقابل جهاز التلفاز، ووُضعت بسط وألحفة خلفية لكل فرش مع ازدياد عدد الوسائد، وتناثرت الشيش على المقوّتين مع وضع ترامس المياه في متناول الأغلبية، ومبصق لكل مخزن.

احتضن كل واحد منهم تخزينته المستورة بمناشف صغيرة ناعمة ذات ألوان زاهية. بدا الحديث ثنائياً بين المتجاورين واتسع ليصل إلى صنعاء وما يدار هناك من مماحكات حزبية ورفض شعبي لإفساد نيّة الرئيس علي عبد الله صالح والحيلولة بينه وبين توريث ابنه حكم البلاد، وقفزت أحاديثهم إلى أيام المتوكلية ولو أن النظام الوراثي

استمر (كما يريده الرئيس) لما خرجت أسرة حميد الدين من البلاد ولما صعد هو إلى كرسي الرئاسة... مبدين حسرة مبطنة على تضعضع موقع صعدة في السلطة بعد سقوط حكم أسرة حميد الدين وضعفها في التأثير على القرار السياسي متمنين أن تكون الأيام حبلى بولادة دولة الحوثيين من صعدة بدلاً من صنعاء.

نهض أحد المقوّتين مستهدفاً توزيع ملازم على الحضور قارناً نهوضه برفع صوته المفخم:

– هذه الملازم تظهر أخطاء الأمة وما يراه سيدي حسين رحمه الله من تصويب لتلك الأخطاء...

تناول كل منهم ملزمته وقلب أوراقها وأوصى صاحب الصوت الفخم بتدارسها لاحقاً بعد استيعاب ما جاء فيها من لمحات ذكية سكبها حسين الحوثي.

وأجلت مناقشة مضامين تلك الملازم ليومين اثنين قبل أن تكون موضوعاً للحديث...

الأيام هنا تتساوى، وما يحدث بالأمس يحدث اليوم وغداً، وكأن الحياة كراسة خط بها سطر واحد يُنسخ يومياً.

مضت ثلاث ليال وهم ضيوف على الرازحي، يأكلون ويخزنون وينامون.

في متكأ الرازحي المعد منذ الأزل أعيد نفس الحديث بعصبيته واحتجاجاته وآرائه وغناه وسخطه. إعادة أحاديث تتكرر أثناء اجترار أغصان القات التي تنتهي بتكوّر أشداقهم ولا تصل أفواههم إلى منتهى أي قضية يلوكونها.

أحاديث متوترة ورشاشات مبسوطة أمام المقوّتين تشي بأن هناك دخاناً يقترب، فبعد معارك توقد وتطفأ ثمة ما يقود النظام اليمني إلى افتعال حرب جديدة. كان الحديث مبطناً كلعبة الورق المبقية على سرية ما بيد كل منهم. أحاديثهم تنز بقطرات من نوايا النظام في إبقاء الحركة الحوثية مشتعلة حيث يدفع بها في مفاوضاته الخارجية والداخلية... إثارة هذا الموضوع شكلت غباراً من الكلمات والآراء المتداخلة التي يقولها كل فرد من غير حرص في أن يسمعه أحد، وكأن مهمة كل منهم إلقاء ما في فمه من كلمات.

– لنكسب تأرجح صالح ولكي نمحّص دهاءه علينا اختراق نواياه قبل أن تنفذ على أرض الواقع...

– بيده ورقتان خارجيتان يجيد اللعب بهما: نحن والوهابيون. أما في الداخل فيلعب بالفقر، يعطي ويمنع...

– هو يخشى من اللواء علي محسن الأحمر ويخطط لإضعافه ولن يعدم الوسيلة...

اعتلى هذا التقرير سؤال ملح:

– هل حقاً لنا علاقة بالصفوية؟

مات السؤال قبل يتبرّع أحد بالإجابة عنه لأن أحد الجالسين أراد تنظيم الأحاديث كي يسمع الجميع ما يقال، فأخرس أي متحدث، وأنصتوا جميعاً إلى رجل بدت عليه سمات الصالحين والعارفين والمقدم في مجلسهم عندما سئل:

– هل يجوز التسليم لمن ليس من أهل البيت يا مولانا؟

كان متكئاً، فعدل من جلسته بحيث يصبح وجهه مقابلاً لأكبر

عدد ممكن، ومن لم تطله عينه يلتفت إليه بجسمه كله أثناء الحديث.
غرس غصن قات في فمه وتحدّث من غير تلجلج:

- الأساس أن الدعوة تتجدّد والحاجة تنسد بقيام المفضول مع وجود الفاضل والأفضل.

فردّ عليه رجل أربعيني خافضاً صوته إلى درجة أن أعاد مقولته مرّتين:

- ولكن هذا تحرّر عن المذهب الأصلي يا مولانا.

- لا بل في لبّ مذهبنا... أما إمامنا فهو قادم قادم.

- أولا ترى أن سيدي عبد الملك بدر الدين هو ذاك فمع انقضاء المئة عام لم يظهر إمام، وأظنه المجدّد...

- كنا نظنّ أن حسين هو المجدّد إلا أن وفاته أشارت إشارة واضحة إلى أخيه...

كرّر أحدهم جملته المبتورة مراراً في تداخل المعقبين:

- لن يلتف حوله كل محبّي آل البيت لأنه حسني...

- نعم ليس حسينياً، ونحن لا نفرق بين الشقين فالإمام يأتي من أي الشقين كان، ونؤمن بخروج إمامين في موقعين مختلفين وفي زمن واحد، فكلهما نصر للإسلام فلا يخذلكم أحد بالنظرة القاصرة للشقين عليهما أفضل الصلاة والتسليم.

- وهل هناك أحد غير سيدي عبد الملك بدر الدين؟

- هو الظاهر الآن، ونسلهم عليهم السلام كريم لا ينقطع.

- وهل تجب مساندته يا مولانا؟

- نعم، بالروح والمال...

وأعاد تعميق بصره وتقليب عينيه في وجوه المجتمعين:

– وبسبب الحصار وضيق اليد طالبت باستعارة فكرة الخُمس من إخواننا الشيعة لكن السيد رفض يقول هذا ليس من مذهبنا، وقال أيضاً ستتدبّر أمر التموين المادي عن طريق جباية الزكاة ومن المحبين الداعمين للحركة، ولهذا دعمه واجب بل فرض عين.

– وهل ستستمر الحرب؟

– وهل رأيتم دولة تولد بالتصفيق والتهليل؟

– وما رأيك يا مولانا في بيان علماء الزيدية وبراءتهم من حركة سيدي حسين ومن ثم أخيه.

– هؤلاء علماء سلطة يبحثون عن مصالحهم الدنيوية.

ضاق صدر مبخوت من متكأ انصبّت فيه الأحاديث عن المذهبية والإمامة والحكم في اليمن، والحرب المتكرّرة بين الحوثيين والحكومة اليمنية، وكان يتمنّى لو يقاطعهم مسفّهاً كل الآراء التي قيلت أو ستقال. ولولا تحذير مبكر تلقاه من عزان بالابتعاد عن أي حديث له علاقة بالمذهبية أو الحرب الدائرة بين الحوثيين والحكومة وإن سمع شيئاً من هذا فعليه الإصغاء والموافقة...

التفت الشيخ صوب علي الرازحي مرحّباً بضيوفه:

– ضيوفك من السعودية يا علي؟

رد عليه بالإيجاب فقال له:

– هل هم وهابيون هاربون مطلوبون أم ممن ترسلهم السعودية إلى العبث بمذهبنا؟

– لا لا، هم زائرون وبيننا عمل مشترك.

- تقصد السلاح، لم يعد السلاح هو العمل الوحيد على الحدود، فأعداد الوهابيين الفارين في تزايد وخزائنهم مفتوحة فهم يدفعون الكثير.

طفر أحد الجالسين متهكماً: وهل أتوا لنشر الوهابية أم للدخول في مذهبنا ومساندتنا في حربنا القائمة؟

- الباحث عن السلطة يقبل بكل أنواع الدقيق من أجل صنع عجينته.

ونظر أحدهم إلى الأكتع محدثاً مضيفنا: وهذا معكم.

فهز رأسه إيجاباً ليلحقه بسؤال أعمق سخرية:

- وكيف ينقل السلاح؟ هل ينقله برجله؟

فقهقه السامعون ما حدا بالأكتع إلى مبادلتهم النظرات الحارقة وفمه يتموّج بكلام لم يخرج وإن سمح لسيلان بصاقه بمجاورة قدميه.

دخلت الساعة السليمانية فساد الصمت المطبق، وغاص كل منهم في تأملاته، لولا رنين جوّال تلقاه الشيخ المقدم في جلستهم بانتباه وإصغاء شديدين بعد أن أسكت أصوات المتحدثين بإشارة من يده، ونهض عجلاً متوتراً حاملاً رشاشه وملتفتاً للجميع:

- وجب الاستعداد...

فتخاطفوا أسلحتهم ونهضوا جميعاً وكأن ناراً شبّت في مؤخراتهم.

بقيت قلة قليلة من المقوّتين انشغلوا بـ«تنكيب» تخزينتهم وارتشاف أقداح القهوة المرّة، والتفت الرازحي إلى الأكتع:

- يا جهلان، كل المال الذي جمعته لماذا لم تركب يداً صناعية؟
- لي فيها مآرب أخرى.
وأطلق ضحكة تشاركوا جميعاً في تبادلها.
مع التاسعة مساءً فرغ المجلس من مقوّتيه، ودخل الخدم من أجل إعادة ترتيب الفرش وتنظيف مخلفات تقويت جمع سبعة عشر رجلاً أفرغوا أحاديثهم وأمنياتهم خلف تكويرة أشداقهم، ومضوا بعد أن «لجوها».
وقف علي الرازحي مودعاً وسائلاً عن أي شيء يمكن تقديمه. قبل أن يأوي إلى بيته الداخلي جذبه عزان وأجلسه بينهم:
- أحتاج إليك للحظات، ولن نؤخرك...
تقبّل عزان لوماً خفيفاً من مضيفه:
- لا تقل هذا يا رجل أنت الآمر ونحن المنفذون.
كانت مجاملة راقت عزان فحضنه مبدياً ثقته به ومحبّته له:
- تعلم جئت للعمل الذي هاتفتني من أجله، وقبل ذلك أريد منك خدمة العمر.
وأشار إلى مبخوت:
- هذا أخي وصديق عمري وله أخت هنا لا يعرف طريق الوصول إليها، فهل يمكنك مساعدتنا...
ضرب الرازحي على صدره مستعداً لإيصاله إلى عفاريت الأرض وليس إلى بشر يسيرون عليها. ومع استفساره عن المطلوب الوصول إليها توجّس خيفة، وتعكّرت ملامحه:
- هل تعرف هواش الصعدي؟

باغت الرازحي مبخوت بسؤاله، فاحصاً وجهه ومترقباً ردّه:

– نعم فابنه رحمه الله كان متزوّجاً بأختي؟

– ألم تعرفوا من قتل صهركم؟

هز مبخوت رأسه نافياً السؤالين معاً:

– وهل تعرف ما حل بهواش؟

صدرت آهة عميقة من الرازحي، واستملح استكمال زفراته ذاكراً أن أحد الكلاب جاء إلى الملاحيظ قبل سنوات، وتربّص بموسى هواش وقتله غدراً وفر هارباً، ومنذ تلك القتلة وهواش يتسلل إلى داخل الاراضي السعودية باحثاً عن قاتل ابنه لعله يشفي غليله، وقد قتل العديد وسجن ورحّل مراراً من مراكز حدودية مختلفة بتهمة التسلل حتى غدا معروفاً عند رجال الحدود، وظل إلى آخر لحظة من عمره يركض على الشريط الحدودي مطلقاً أعيرته النارية في كل مكان. نسي كل أمور حياته إلا هذه العادة، ولكي لا تنقطع أوقف وقفاً يصرف ريعه على استئجار شخص مهمته الأساسية الركض على الشريط الحدودي وإطلاق النار، وقد أراد إبقاء جذوة ثأره مشتعلة كي يكمل حفيده حملها، رحمه الله هواش مات بكمده...

– وهل مات؟

– قريباً قتل في تبادل نار مع رجال الحدود بعد أن أردى واحداً أو اثنين منهم.

أظهر مبخوت تماسكاً وتأثراً بما سمع مترحّماً على هواش بمبالغة كبيرة، وأكمل:

– ونحن بدورنا ما زلنا نبحث عن قاتل صهرنا وأزعجنا انقطاع

أخبار أختنا من سنوات فجئت لأسأل عنها.

– لم يعد أحد من أهل بيته في الملاحيظ، سمعت أنهم انتقلوا جميعاً إلى عمران، لكن نوصلك إلى هناك فعزان له دلالة علينا.

تبادل عزان ومبخوت النظرات السريعة واستجمع مبخوت نفساً عميقاً وهبط إلى أعماقه خائراً.

وعاد إليه هاجس أكثر إيلاماً: كيف لو أن الرازحي يعلم بأن أُنس ليس لها إخوة. زاد توتراً واختلطت ملامحه منتظراً ما ينهي بحثه وحياته معاً.

حمل الخدم أطباق وجبة عشاء خفيفة لم يمسسها أحد، وانفرد عزان بتقليب هواجسه مستذكراً بعض التعليمات الواجب اتباعها أثناء تأدية العمل المناط به، وتخفف الأكتع من ملابسه استعداداً للنوم فظهر عضده المبتور بغير استواء أكثر تشوّهاً ورمق نظرات مبخوت الفاحصة للجزء المبتور من يده وهو يصلح من وضع وسادته:

– اسمك جهلان؟

هز رأسه إيجاباً وألقى بجسده على فراشه المبسوط من غير أن يتفوّه. كانت هي المرة الاولى التي يعرف فيها مبخوت اسم الأكتع بدلاً من نبزته، وهي المرة الأولى التي يجاوره في مرقده، فانزعج لانتشار رائحة نشادر مخمرة انبثقت من إبطي الأكتع مع شخير. تنبّه إلى أن تعب أمس أراحه من الإصغاء لهذه المكنة المثقوبة.

الفصل التاسع

قرر السفر إلى عمران عصراً.

مع الضحى، أقبل علي الرازحي بوجه غير الذي ذهب به ليلاً. أقبل عابساً، عجلاً، وانزوى بعزان في ركن قصيّ من غرفة الضيوف نافثاً جملاً منخفضة توترت لها ملامحهما، وأخرج مظروفاً سميك الاتساع وحشره بين يدي عزان، وهب واقفاً:

– أمامك اليوم والغد على أبعد تقدير. نفذ التعليمات كما هي، وإياك ثم إياك التلكؤ.

التفت صوب مبخوت مواسياً:

– جئت في وقت صعب فالحرب نشبت، وستكون مخاطرة وصولك إلى هناك إن لم تكن مخاطرة وجودنا كلنا هنا.

ومرق إلى خارج الغرفة خفيف الخطوة موصياً خادماً له بالإشراف على تجهيز الغداء والمقيل لمن يأتي في غيابه.

كان الخيار مفتوحاً بين البقاء أو العودة أو المخاطرة في الوصول إلى عمران.

أظهر عزان ندماً عميقاً على مسامع مبخوت معللاً نكوصه لأسباب قاهرة:

– أحياناً نقول قولاً حتى إذا جاء موعد تنفيذه يكون الظرف حائلاً دونه...

ألقى بجملته في بئر جافة لم تتسع لها دوائر الصمت الساكنة بين الأكتع ومبخوت، فحاول مرة أخرى تحريك مبخوت الذي يعنيه في حديثه:

– كنت أتمنى أن أموت قبل أن أنكص عن عمل أؤدّيه لك ولكن الظرف قاهر.

– ....

– ما الذي تنوي فعله؟

– سأبقى في اليمن.

– أرى أن تعود ونعيد المحاولة حين يتغيّر الظرف.

– أي ظرف؟

– يجب أن لا أخبرك لكن الإشارات تشير إلى حرب وشيكة إن لم تقع بعد ساعات وستطال كل مدن صعدة وأولاها هنا.

– إذاً نتحرك إلى عمران.

– ستشب النار في كل مكان...

– لن أتراجع بعد الآن.

– إذاً خذ حذرك. لن أكون أنا أو الرازحي هنا.

وطلب من الأكتع الخروج للتأكد من وصول السيارة التي ستقله إلى داخل سوق الملاحيظ، وعانق مبخوت مقسماً له إن الأمر المطلوب منه لا يتم إلا به، وسحب من حزامه ذلك الظرف المتسع واستل منه مبلغاً كبيراً وضعه في يد مبخوت الذي أقسم إنه لا حاجة له بالمال:

- إن لم تأخذه فسأعرف أن خاطرك عليل، ويجب عليك أن تعرف أن مسلكك إلى عمران سيتطلب مالاً وفيراً في مثل هذه الظروف.

عاد جهلان مستنكراً إخراجه بتلك الطريقة الصبيانية إذ لم يجد سيارة في الخارج ولا أحد قادماً كما أخبره خادم الرازحي، وكاد يحدث شجار لولا أن نفير بوق سيارة وصل إلى مسامعهم متواصلاً، التفت إليه عزان مبدياً غضباً مغطى:

- لم تتعوّد على السمع والطاعة من غير إظهار السخط، وهذا ما سوف أعلمك إياه لاحقاً.

ومع أن جملته وعيد مؤجل إلا أنه احتضنه ضاغطاً على كتفيه وحاملاً إياه من الأرض كإشارة قديمة يتبادلانها - منذ أن غدا رفيق المخاطرات المشتركة - وهي حركة يلجآن إليها حينما يريدان ردم أي خلاف وتعني: انسَ الأمر.

وأقبل على مبخوت ناثراً جملة نصائح وتحذيرات ومؤكداً على مراعاة وتنفيذ تلك النصائح إن رغب في الوصول إلى هدفه من غير الحاجة إلى البحث عن رقبته إن طارت من بين كتفيه:

- سيكون الأكتع ملازماً لك كظلك.

تطيّر مبخوت من الأكتع منذ رؤيته، فالأكتع يسير حاملاً كل النواقص الخَلقية والخُلقية، و لم يبتعد حدس مبخوت عمّا خمّن حيث تأكد له أنه ينهج سلوك لص محترف يخرج من كل مخاطرة بشيء ناقص منه، وكأنه يجمع العاهات بمثابرة المجتهدين.

كل المخاطر التي اعترك فيها لم تكسبه خبرة التدبّر. ألف الدخول

في المغامرات و لم يألف التفكر في الخروج منها، كما لا يعنيه نوع الخسائر التي يجنيها من أفعاله العديمة التريّث.

أضنى أبويه بشغب مبكر. يومياً له حدث يستوفيه منه أبوه بالجلد المبرّح حتى تظن أنه لن يقدم على شيء بعد ذلك الجلد فإذا به يقدم على الأسوأ مما أحدثه سابقاً. أذعن أبوه لقدره، ولكي ينعتق من كثرة الشكوى التي تصله من أناس تضرروا من أفعال ابنه، قبض على يد جهلان (وهذا اسمه) وسحبه إلى داخل سوق القرية وصاح بالمتسوقين والباعة أنه براء من ابنه فلا يأتيه أحد شاكياً.

عاش حياة المتشردين يتنقل بين أسواق القرى وينام داخل الأودية أو على أطراف المنازل أو يبتني له بيتاً بين فروع الأشجار المعمّرة...

خرج من مراهقته باثنين وخمسين شجاً وجرحاً توزعت على جسده كخريطة تظهر تضاريس نفسه العصيّة، وتعوّد إتيان أيّ فعل منكر من غير خشية عقاب أو حساب. يعرف تفاصيل التوقيف والحجز في كثير من مراكز الشرطة، و لم يحمل أوراقاً ثبوتية إلا في وقت متأخر حينما رُحّل إلى اليمن ثلاث مرات كشخص بلا هوية، وحالما حصل على بطاقة أحوال أخذ يجمع السوابق كنياشين ترصّع سجله المدني.

سجن لسنتين متتاليتين في سجن جازان العام بعد تسليمه من مركز أحد المسارحة بتهمة السطو وسرقة مبلغ ثلاثين ألفاً من أحد المواطنين.

ولكون سجله مزدحماً بالتهم حكم عليه قاضٍ بحد الحرابة وفي الاستئناف أعادت هيئة التمييز الحكم فخفف لينتهي بتطبيق حد

السرقة بقطع يده اليمنى من المعصم.

خرج يحمل تهمته معه، وكل من رأى يده المقطوعة صاح به: يا لص... سئم من سماع الصيحات التي تلاحقه أينما أقبل أو أدبر، فأوصله تفكيره الناقص إلى قطع اليد المبتورة من الساعد كي يمسح تهمة السرقة وتنفيذ الحد به، فاليد المقطوعة من الساعد لا تشير إلى سارق. ولإتمام قراره استأجر جزاراً تربطه به علاقة معرفة كي يقوم بتلك المهمة.

وحين يصف كيف حدث ذلك تصيبك حالة قشعريرة وتجزم بأن محدّثك قادر على الإقدام على أي شيء من غير التفكير ولو لحظة بما يمكن ان ينتج من قرارات لا تعنيه عواقبها.

أطلق ضحكة قصيرة:

– عرفت أنه جزار غبي، يحمل حظاً وفيراً كون رقاب البهائم المذبوحة لا تقدر على فضح سوء عمله.

لم يرتب لشيء. اكتفى بذرف وعود على إنهاء المهمة على أحسن وجه. سحب جهلان وبسط ساعده على خشبة غير مستوية وهوى بساطوره من غير أن يحدّد الجهة التي عليه ضربها أو فصلها، فوقع حد الساطور على المرفق غير المخدر، ووعد أن تكون الضربة الثانية في مكانها الصحيح. وفي محاولاته الوصول إلى قطع مثالي كان ساعد جهلان قد تهشم تماماً، وغاب عن الوعي لأسابيع يطبّب كيفما اتفق عند عجوز قطنت على جرف وادي ليه... وحين أفاق أغاظه ضعف حرفية الجزار فاستدرجه إلى مكان مقفر كمن به اثنان من أصدقائه، واقتص لنفسه بتجريد الجزار من ملابسه وقطع عضوه من المنتصف

وحشا به فم ضحيته وهو يطلق القهقهات العالية تاركاً خصمه بين الحياة والموت وفر متجولاً على الشريط الحدودي.

* * *

كانت أُنس قرية إلا أنها بعدت... بعدت كثيراً.

اقترح علي الرازحي تحرّك مبخوت إلى عمران مباشرة بمرافقة سائقه الخاص وأحد رجاله المعروفين في نقاط العبور من أجل تسهيل مهمّتهم. هذا الاقتراح أجّله الأكتع حين تباطأ في الخروج لإصابته بعسر هضم جعله يطيل القعود في المرحاض وكلما ظهر أقسم إنه لم يتمكن من فعل شيء سوى الزحر إلى درجة الشعور بأن عينيه غدتا جاحظتين وادّعى أن أمعاءه المتحجّرة لن يليّنها إلا احتساء «الملح الإنجليزي»، فخرج خادم الرازحي ملبياً طلبه وجالباً كمية تخرط معدة جمل. ومع تناوله تلك الكمية تأجل الخروج ليوم وليلة كانت هي الشرك الذي أوقعهما تحت مطر رصاص وقذائف مباغتة قيل إنها نيران الحوثيين، تلاها قصف جوي ومدفعي قام به الجيش الحكومي متعمّداً تحويل المدينة إلى خرابة يتلهّى بداخلها خصومه في فرصة لتعليمهم إتقان لعبة المتاهة. أثناء القصف شلت الحركة تماماً والتزم السكان منازلهم متضرّعين أن يتعافى الجيش من سعاره فيوقف القصف قبل أن تتحوّل البيوت إلى مقابر. وحين تغلبت حالة العمى بين صفوف الجيش، تناسل الناس هرباً إلى قرية المزرق بينما كانت المواجهات مشتعلة في منطقتي الكم والمنزالة جنوب الملاحيظ.

بعد يوم من إفراغ جهلان لقاذورات أمعائه تبخر الرجلان اللذان

أوصاهما الرازحي بمصاحبتهما إلى عمران. وفيما غلب على سكان الملاحيظ التسلل إلى الجانب السعودي كان مبخوت وصاحبه يغوصان داخل أتون الحرب إذ توجها جنوباً، بعد أن قدر الأكتع أن السير في وادي خلب سيوصلهما إلى منبعه في أعالي صعدة.

– مع مجرى الوادي لن نضل...

سارا ليومين مع تعرّجات الوادي قبل نفاد زادهما، ودخان وأبخرة المجابهة العسكرية تعتلي هامتيهما، فكثافة الطيران ومتابعته تزيغ له الأبصار، ودوي القذائف لا يهدأ، ووميض التفجيرات تتسع دائرته ولا يسير بين تلك المتعرجات إلا مقاتل.

أراد جهلان تحسين سمعة تفكيره أمام مبخوت فإذا بهما مشحونان كمحاربين في ناقلة إمدادات عسكرية تجوب مواطن الاقتتال لإمداد المقاتلين الحوثيين بالرجال والعتاد.

جاوز اليوم الثالث منتصفه وبطناهما خاويان ما أثقل حركتهما وأشعرهما بالإنهاك، فعدلا خطواتهما بحثاً عن أي تجمّع سكاني من أجل التزوّد بالغذاء والماء، والعودة إلى طريقهما. وكانت المسالك خاوية تحييها أصوات المدافع والقصف الجوي، وثمة جثث متناثرة، لحمها توزع بين الصخور، ومن بقي جسده متماسكاً كان على هيئة أنصاف علوية أو سفلية...

– علينا التزوّد بالسلاح كي نحصل على قوتنا...

كانت هذه هي فكرة الأكتع قالها وهو يتحرك صوب أربع جثث التصقت اثنتان منها بالصخور وهما يمسكان بسلاحهما تأكيداً لسمة المحارب النبيل: يموت ولا يتخلى عن سلاحه.

قلب الأكتع جثتين واستل من بين أحضانهما رشاشين، ناول أحدهما لمبخوت وأخذ الآخر بيده اليسرى ولكي يعزز ثقة صاحبه بمقدرته على التصويب بيد واحدة. أطلق العديد من الأعيرة النارية باتجاه أرنب ظهر من بين الشقوق رافعاً أذنيه ومتشمّماً موقعه وكان محظوظاً بتصويب الأكتع الذي أخطأه.

لم يرض الأكتع بهزيمة تصويب الطلقة الأولى فواصل تصويباته الخاطئة التي جذبت سرية من المقاتلين إليهما، وطوّقتهما كتيبة اتخذت من فرجات الوادي مركزاً لتحركاتها. أسرع جنديان إلى سحب رشاشيهما مبادراً إياهما:

– من أين جئتما؟

أوشك الأكتع أن ينهي حياتهما بذكر أنهما سعوديان ليس لهما علاقة بهذا الأمر، فقطع مبخوت صوته:

– نحن من المجاهدين.

– ما بال رفيقك يقول إنكما من السعودية.

– نعم، نحن من هناك ولكن خرجنا لرفع راية الإسلام ومحاربة الطواغيت في كل مكان.

– مقاتلان إذاً.

– نعم.

– أحدكما مسن والآخر أكتع، كيف يتسنّى لكما الجهاد، فأنتما ليس عليكما حرج؟

– أنا جاهدت في حروب كثيرة وتنقلت من أفغانستان إلى الشيشان إلى الصومال.

وأخذ مبخوت يروي أن هذا الأكتع فقد ذراعه في إحدى عملياته الجهادية في أفغانستان، وتنبه لحقارة الأكتع وصغر سنّه، ولو أن عمره ثلاثون عاماً فهل يكون حاضراً لمعارك أفغانستان. أخذ يدعو الله أن لا يركزوا في روايتهما كثيراً أو أن لا يكون لديهم الوقت للجلوس وأداء عملية حسابية لعمر ذلك الوغد...

استصغر القائد شأن الأكتع فأظهر احتقاره من خلال إشارته:

– هذا؟!

ووجد مبخوت فرصة لتقريب الأحداث متابعاً:

– نعم هذا، شارك في الجهاد الافغاني على نهايته ورافق الشيخ أسامة بن لادن.

اتسعت محاجر المحيطين بهما وتلامز بعضهم منتقصاً الأكتع، وكلما أوغل مبخوت في سيرة زاد في لوم نفسه لهذه الإضافات غير المستحسنة، وتضاخم الأكتع بسبب التفاف بعض المجاهدين حوله متسابقين إلى معانقته بحرارة... وفي مقر الثكنة قدّم لهما الطعام والشراب وواصل قائدهما استفساراته:

– أنتما من قائمة الوهّابيين الفارين من السعودية.

– نعم.

– تقول إنكما من المجاهدين، أي مجاهدين تقصد؟

– مجاهدون معكم. اكتشفنا زيغ كل الفرق وعرفنا أن الحق معكم.!

– من أي سرية؟

وانفتحت شهية السائل ببث أسئلته. كانت أسئلة غبية لا تحتاج

إلا إلى اختيار ما يوافق هواه، فقطع مبخوت تردّده واتخذ قراراً باستكمال أداء الدور متذكراً كل ما سمعه عن أن التفجيرات التي حدثت في الرياض أو جدة أو الظهران وأسماء أشهر المطلوبين في قوائم وزارة الداخلية السعودية وأهم الموجودين منهم في اليمن كي يدلل على فراره من السعودية. وزاد في تلوين وجوده بادعائه الانشقاق من قائمة الوهابيين حين اكتشف منهجهم القائم على سفك الدم والاستئثار بمسمّى الفرقة الناجية مظهراً أن وجودهما في اليمن كشف لهما محاسن الزيدية وعدم سعيها إلى الانتشار الأفقي، وبعد تأنّ قررا الانضمام إلى جيش عبد الملك الحوثي إيماناً بدعوته.

أنهى كل ما كان يحفظه من ترابط الأحداث في مخيّلته مما سمع من أقاويل وتقارير إخبارية، ولم يعد لديه ما يضيفه. كانت عيناه تتجوّلان باهتزاز ثابت محاولاً قراءة ردة فعل سامعيه، فلم تسعفه تلك الوجوه بما رغب فيه، فانتقلت خشيته من أن يتفوّه الأكتع بقول ينهي حياتهما. كان مبخوت يتحيّن الفرص لأن يحاذيه ويوصيه بالتزام الصمت التام.

أظهر المستجوبون تواضعاً معرفياً حاداً تغلغل فيه مبخوت بحشوه بمعلومات تفيض عن الحد اكتسب بها ثقة القائد بما يكفي لغض الطرف عن أي ظن يمكنه التعكير عليهما، وكانت الحشوة الأكبر إظهار الإيمان المطلق بدعوة عبد الملك الحوثي والانشقاق عن النهج الوهابي، ما حمل خطيب السرية على إلقاء خطبة بعد أداء الصلاة مشيراً إلى أن وجود مبخوت والأكتع علامة داحضة في إثبات أن دعوتهم تستقطب الأنصار من غير أن تسعى إلى التمدد وأن الأفكار

تسمو بأي دعوة فلا يصلها إلا كل ذي لب حصيف مطمئناً المصليين بأن النصر آتٍ عن قريب.

ارتفعت التكبيرات ورفع الأيدي حبوراً وانتشاءً، وكاد الأكتع يرفع يده ويشاركهم الهياج الحادث غير مستوعب سبباً واضحاً لإجلال الخطيب لهما، وقبل أن يفعل ذلكِ ثبّت له مبخوت يده اليسرى هامساً في أذنه:

– أبقها في مكانها قبل أن تلحق بأختها.

ومع انتهاء صلاة الجمعة اقتادهما القائد وأراد إضفاء أهمية موقعه القيادي في سلم الحركة فوضع خريطة اليمن أمامه، مشيراً إلى جنوب اليمن:

– هنا بوادر انشقاق، والمطالبة بإعلان حكومة مستقلة، وهنا (واضعاً يده على شمال الخريطة) انشقاق من أجل إقامة دولة الحوثيين وعاصمتها صعدة.

وانتشى زهواً:

– سنمسك بصالح من يمينه ويساره ونشققه.

تراجع قليلاً واستدرك نشوته:

– الخوف من بلدكما أن تسانده فهي تحارب الشيعة في كل مكان ونحن محسوبون على الشيعة لكن نصر الله غالب.

ردّد معه: نصر الله غالب.

لم تنكمش شهية الحديث لديه إلا أن تلهّي الأكتع عن حديثه بفك الرشاش وتركيبه بيد واحدة استوقف سيلان اعتداده بنفسه متسائلاً:

– ما بال مرافقك صامتاً على الدوام؟

– هذه عادته يتحدث بالأفعال في المعارك فقط.

وقف قائد الفرقة في منتصف المسافة بين أفراده متخيراً منهم أربعة أشداء ومعلناً للبقية نيّته:

– سأحمل ضيفينا إلى المركز الرئيس وأعود إليكم فأوصيكم بالثبات.

قبل التحرك وصلت الأخبار عن قصف مكثف للجيش اليمني على مدينة مطرة، المعقل الرئيس للحوثيين وأن ليس بالإمكان الوصول إلى هناك، فمكثنا خمسة أيام أخرى، حيث يتلقون قصفاً مكثفاً يستترون منه بالتخندق داخل فجوات الجبال.

– بهذه الكيفية سنفقد حياتنا.

قال مبخوت جملته للقائد غير متنبه لكلمة حياتنا إذ بالإمكان أن تفهم أنه يقصد هو ورفيقه لذلك استدرك جملته:

– سنفقد حياتنا كحركة ولن تقوم لنا قائمة بعدها.

ربت القائد على كتفه فرحاً بخشيته على الحركة وأبدى فطنة لما يحوكه الجيش اليمني ضد الحركة.

* * *

تعتلي الحيرة جباه أولئك المجتمعين حول خريطة فرشت على الأرض وهم يتجاذبون أقاويلهم بصوت لا يليق بسرية ما يتفوّهون به:

– نحن نتمركز في القرى الواقعة غربي صعدة وأنتم أعلم بعورتها وعجز الجيش اليمني عن الوصول إلينا بجنود المشاة أو بآلياته الثقيلة.

- نعم سيعجز ولو ظل يقصف مئة عام.

- أنا أجزم بأن نظام علي عبد الله صالح يريد إدخالنا في حرب مع السعودية أو الاتفاق معها على حربنا.

- لهذا علينا التحرّك للأمام، فالطريق الوحيد الذي يوصل الجيش اليمني إلينا يمر من هذا الممر المائي الذي يصب في لية.

تمعن في الخارطة جيداً:

- وهذا الممر يقع بين جبلي الدخان والرميح، ولو اتفق النظامان اليمني والسعودي فلن يكون أمامنا إلا الاستيلاء على جبل الرميح كي نمنع أيّ تقدّم يصلنا.

أنهى حديثه بزفرة عميقة متشمّماً كمية البارود العالقة في الجو:

- لا غالب إلا أمر الله.

منتظراً تمجيده بما يليق بقائد يعرف جريان سير المعركة إلا أن من يجاوره استدرك عليه نشوته:

- لكن جبل الرميح يقع في الأراضي السعودية.

جملة استفزته تماماً ونهض ينفض ثيابه مما علق بها من تراب:

- لماذا تنسون سريعاً؟ هذه أرضنا ممتدة إلى الطائف لكن الخسيس عقد اتفاقيات كسب من خلالها المليارات مقابل بيع أرضنا.

تعاضد المجتمعون على التأمين وامتصاص غضبه المفاجئ:

- نعم لقد باع الأرض.

وقبل الانتهاء من مراجعاتهم للموقف أطلق أحدهم سؤالاً انعقدت له ألسنتهم:

- وهل سندخل حرباً ضد السعودية؟

كان سؤالاً ساخناً عبر مسامعهم وحملته الريح العابرة كي تذرّيه على قمم تلك الجبال في ترديد مهيب.

* * *

في اليوم الخامس هدأ القصف فقرّر القائد التوجّه بكتيبته إلى مكان قصيّ حيث انتقلت القيادة المركزية إلى حين.

فنشطت سريته، وتناول كل مجاهد سلاحه وتقافزوا إلى موقع التجمّع وهم يتبادلون التحذيرات من مغبة أن يؤخذوا على حين غرة.

تحرك مبخوت مقارباً في سيره الأكتع موصياً إياه بعدم استخدام عقله بتاتاً، فتضاحك الأكتع:

– اطمئن، لا أملك منه شيئاً.

تلقى سخريته بنفس راضية، واقتفيا أثر السرية ولولا أن أحد الحوثيين نبههما على ترك سلاحيهما في مكان جلوسهما لما استطاعا دفع تندّر المجاهدين وربما أثار حفيظة القائد وأكد له رقة حال جهادهما. تراجعا سريعاً لحمل سلاحيهما وعجلا في خطواتهما للحاق بمن سبقهما. لم يترك الأكتع الموقف يعبره فاقتص من رفيقه بسخرية لاذعة:

– يبدو أنك استخدمت عقلك جيداً حتى إنك تركت سلاحك.

تلقى مبخوت جملة الأكتع بأريحية وتضاحكا على بعضهما حتى بلغا موقع التجمع.

تدافع أفراد السرية إلى صعود سيارة نقل متداعية، في أغلب

الأوقات يهبط ركابها من أجل دفعها لمواصلة الحركة كرجاء حار ان لا تتخلى عن دورها وسط هذه الجبال الموحشة، ويبالغ سائقها في عدم تقدير مقدرتها مرغماً محركها على ارتقاء ارتفاعات حادة مظهراً غضباً مفتعلاً إذا تقهقرت للخلف. واستجابةً لتلك الرجاءات وصلت بهم إلى المركز الرئيس وخارت قواها معلنة خروجها من الخدمة بدخان كثيف تصاعد من فوهة المكنة.

في عمق جبل أشم تمركزت القيادة وتناثر الأفراد في حالات مختلفة مبدين حنقاً على الجيش اليمني الذي يستخدم القصف الجوي بلاهوادة وكأنه يقاتل دولة أخرى لا أفراداً من شعبه. جاء صوت من عمق المجموعة أطفأ نيران غضبهم وردّدوه من خلفه:

- غداً سنحاكمه على كل هذا...

عجز مبخوت عن معرفة تراتبية القيادة فيمن واجههم فكلما ظن أنه يقف أمام أعلى رتبة في الحركة إذا به ينقض ذلك الظن حين يتم تعريفه إلى شخصية جديدة. حدث هذا حينما استُدعي إلى مقابلة قائد المجمع القيادي. في البدء رفض الأكتع تلبية الدعوة، فنهره مبخوت محملاً إياه مغبّة ما يحدث إن لم يجب فطوح بيده الوحيدة تعبيراً عن استخفافه بما قد يحدث.

هذا التراخي دفع مبخوت إلى شده من ياقة قميصه ودفعه أمامه محذراً إياه من تعريض روحيهما لأي خطر محتمل، فانساق لجذبه لاعناً اللحظة التي جمعتهما معاً.

التقى قائد المركز بالضيفين وكرت سبحة الأسئلة من جديد. لم يعد معروفاً من يسأل فكل من كان في المركز ورغب في طرح هواجسه

صبّها على هيئة أسئلة متلاحقة متنافرة، قابلها تباين في الإجابات وأظهر الأكتع ضجراً واضحاً مع من يطلب إعادة سرد كيف بترت يده حين نفذ عملية تحطيم المدرعة السوفياتية، وفي لحظة كاد ينفي كل الادعاءات التي سيقت...

أيقن مبخوت أن اسم جهلان كفيل بالتأكيد على عمق جهله وأنه أحدث خطأ فادحاً بتقليده دوراً يستوجب الدراية بما هو ممثل له على أقل تقدير، فلم يكن الأكتع يعرف اسم أي مدينة من مدن أفغانستان أو باكستان و لم ير في حياته مطاراً، ومن يعرفه جيداً يجزم بأن حبل خلاصه قطع على الشريط الحدودي.

تعثر في مرويات كثيرة وكل سرد لحكاية لا يتمّه وكل معلومة يعجنها بماء جهله فتأتي نيئة، ولولا براءة مخيّلته في سبك أحداث ملحمية تعملق بها لكون سامعيه لا يعدون عنه جهلاً لربما قيّدا إلى ساحة التصويب وانتهت حياتهما بعيارين ناريين...

عند مقدمهما وفيما هما يتقلبان على حصير من أجل تعويض ما فقداه من ساعات نوم، تهافت بعض المقاتلين الصغار على الأكتع سائلين عن أسامة بن لادن والملا عمر في تحرّكهما وأكلهما وقولهما وهل هما محبّان لآل البيت فخر بجهله حين سأل من هم آل البيت وأي بيت في البلد يقصدون فتدخل مبخوت بجملة عبّدت استنكارهم:

– نعم، نحن لا نعرف من آل البيت إلا سيدنا عبد الملك الحوثي أما ما عداه فلا نعترف بهم، والأكتع يصر على هذا ودائماً ينفي معرفته بأحد من آل البيت إلا سيدنا عبد الملك.

ومرّر للأكتع غمزة بأن يؤمن على قوله، فهز رأسه وردّد مراراً:

- نعم صدق مبخوت.

واستطاع قفز هذه الفجوة بتلفيق الأحاديث عن أسامة بن لادن وبطولاته إلا أنه سرعان ما رسب في الخطوة التالية حيث أعياه تذكر شيء عن الملا عمر فغاص في أكاذيب كشفت للعارف أنه يغوص في لجج الرمل المتحرك.

فوضى الريح قابلها تناثر وحدات المقاتلين انتظاراً لما يسفر عنه اجتماع القادة الذي انتهى بتوزيع المجاهدين وتقسيمهم على مواقع القتال وإعلان نفرتهم لاحتلال مواقعهم قبل حلول صلاة الظهر.

تمنّى الأكتع أن يلحق بالفرق التي تتجه نحو الشريط الحدودي لبناء متاريس يأوي إليها المقاتلون وتمكنهم من التسلل إلى داخل القرى السعودية إذا ما استطاع الجيش اليمني التقدّم منهم. أمنيته تلك ستمكنه من الفرار بسهولة حيث يعرف تفاصيل كل زاوية هناك. هذه الأمنية لم تبق حبيسة صدره فتجاسر وأشار إلى القائد بجدوى وجوده مع تلك الفرق لكنه وجد جواباً جاهزاً جعله يفيض بلعناته على عزان الذي أدخله في هذا الفخ:

- نحن نعدّكما من أجل عمل عظيم فلا تستعجل.

بعد أسبوع تقرّر وضع قدرتهما على المحك، فأصدر قائد المركز تكليفاً إلى كتيبة بالتسلل إلى مواقع تمركز الجيش اليمني وإعطاب آليات المدفعيات الراجمة في مدينة تتاخم مركزهم، ثم أعيد الترتيب وصدر الأمر بالتوجه إلى منطقة القهرة لمساندة فرقة عالقة هناك.

براءة أحد المتطوعين في حركة الحوثيين وصغر سنّه استمالا عواطف مبخوت فأشفق عليه من القنبلة التي يحملها كلعبة أطفال

من غير خشية أن تنفجر به بغتة، فتحيله إلى شظايا متناثرة. أمسك به يلاطفه، فنفر منه. تنبّه مبخوت أن طريقة إمساكه لكتفيه تثير الريبة خاصة مع فتى يعيش حياة قاسية لا تقبل ميوعة التصرفات، فحاول إعطاء شرعية لذلك التودّد:

– يا ابني لا تزال صغيراً على هذا الجو الهالك، فما الذي جاء بك؟

صرصر صوت الفتى منتصباً شاداً على بندقيته بقبضته:

– وهل ترى منّي ميوعة تستوجب أن أكون داخل الخدور.

– لا لا، بل أنت سيد الرجال لكن...

– دع لكن هذه من أجل تبرير طراوة شبابكم.

أحس مبخوت ان لا طائل من مجادلة ذلك الفتى، فقطع الحديث مفكراً:

– وما أدرى هذا الشاب بطراوة شبابنا.

ظل يتابعه بطرف خفي وعينين صحيحتين على الأكتع وإن بدا مشغولاً بتنظيف سلاحه. جلس الأكتع على صخرة مكشوفة تطل على بطن الوادي يقضم عوداً يابساً ويقذف بعض الحصى صوب هاوية سحيقة لا يصلها ما يقذف إلا بعد حين.

في طريقهما إلى منطقة القهرة كانت هيئتهما قد اقتربت من العطب، حيث سُلكت بهما طرق وعرة متخيّرين لهما المواقع الأمامية من أجل أن يبلي كل منهما بلاءً حسناً كما كانا يفعلان في جهادهما ضد الروس، وأضاف القائد أقوالاً كثيرة انحصرت دلالاتها عن حاجة كتيبته إلى رجال ذوي مراس ودراية بفنون الحرب ويمتلكون خبرة المقاتلين الأشداء وفسّر تقديمهما على طلاع المقاتلين بالرغبة في

الاستفادة من خبرتهما القتالية بين جبال أفغانستان. و لم يكن هذا التقديم إلا تتويجاً لنضالهما الطويل ضد الاستبداد والقهر، وأظهر أن مهمة المجاهدين تنصبّ على دحر فلول الغاشمين من الجيش اليمني، ومن يقف مع حركتهم إنما يؤدي واجباً دينياً.

استقبل الأكتع هذا التشريف بتحقير كل ما تفوّه به القائد مزدرياً هيئته المشتتة المظهر والمتردّدة في اتخاذ قراراتها.

جاء مخاض قرار المسير متعسّراً فقد احتاج إلى جهد بذله القائد متحسّساً من بعض معاونيه ومتهماً إياهم بركوب عجلة اليقين وإغفالهم خصلة الحذر من مداهمة مركزة تُشن عليهم فيما هم يقطعون الطريق إلى القهرة.

و لم ينبس بقرار السير إلا حين وصله تحذير من قلة المؤونة. تلفت كثيراً على أعوانه راغباً منهم في مساعدته في انتزاع القرار من جوفه فلم يسارع إليه أحد فقد أضناهم الضجر في محاولاتهم السابقة.

وقف القائد فارداً قامته وغارساً عينيه في منظار سوفياتي يتطلع إلى الخطوط غير المعبدة التي سيخترق جوانبها للوصول إلى هدفه. فعل ذلك مراراً وكلما همّ باتخاذ القرار تراجع خشية وقوع ما لا تحمد عقباه. استيقظ على صوت أحد معاونيه:

– سنموت هنا إن لم نتحرّك فالمؤونة نفدت.

لم يعد أمام القائد إلا خيار واحد يسلكه، فأعطى إشارة السير.

تمددت الطرق كخضاب اليد المنمنمة، مرتقية جبالاً عصيّة، تضيق خطوطها كلما ارتقت للأعلى وتنكشف أحياناً كثيرة لأي قصف يستهدفها.

تحركت الكتيبة في أحواض سيارات النقل تحفها أدعية المجاهدين بلوغ هدفهم آمنين.

اقتعد مبخوت الجانب الأيسر من السيارة محفوفاً بعدد من العسكر ذوي الملامح الضائعة، حيث تذهب عيونهم إلى الفراغ ولا تعود، وكلما تمحص وجوههم لا يرى غداً.

وكثعلب ربض لفريسته مانحاً إياها الأمان ومترقباً منها ارتكاب أي خطأ كي ينقض عليها كذلك فعل الجيش اليمني إذ بدت له تلك الكتيبة عارية من أي غطاء إلا التحصّن في الزوايا الضيقة من تجاويف الجبال.

نقل مبخوت بصره في سماء تصبّ جحيماً من اللهب. قضم شفتيه متأملاً هذا الموت الحادث أمامه ومقلّباً الأمر بين جوانحه في جريان أفكار تتبعها من بداية سؤاله: هل نضب الإدراك من عقول هؤلاء الجند ذوي الهيئة الرثة المنهكة لاستيضاح واقع الحال. لا شيء يعزّز الثقة بإمكانية انتصار محتمل، فهم لا يملكون سلاحاً جوياً ولا راجمات بعيدة المدى ولا خططاً عسكرية ولا مواقع حربية، وجل المشاركين في الحرب أفراد متطوّعون ليس لهم دراية بالاستراتيجيات الحربية. يمارسون اقتتالاً عشوائياً، حصنهم الوحيد التخندق بين الجبال والشعاب، فلا أرض تُكتسب ولا غنائم تعزز الثقة.

جنود يقيمون بيارق النصر في أحلامهم بينما الطيران الحربي يدك كل موقع متى ما أراد.

– أيّ حرب هذه ومن ذا الذي كتبها؟

حياة بدائية وتنقلات صعبة. شظف العيش يقاومه المنضمّون للواء

الحركة بأمل الانتصار أو وصول إمدادات خارجية.

- ما الذي أدخلني في هذا الفضاء المشبع بالخوف والبارود؟

تحوم الطائرات محلقة على ارتفاع منخفض وتصبّ قنابلها فوق الرؤوس باختيار مفتوح من الطيارين، فلا شيء يمنع ممارستهم تلك بينما تتنقل الكتيبة باحثة عن شق أو جوف جبل تختبئ داخله، وكلما حاولت مواصلة السير ازدادت المعاناة والخسائر.

واصل القائد لعناته المتكررة على الجيش مرة ومرات على أعوانه الذين شجّعوا هذا الخروج القاتل:

- علينا التخفف من السيارات والتعرّج بين منحنيات الجبال سيراً على الأقدام.

قال اقتراحه وأمر بالترجّل والسير بمحاذاة الشمال الشرقي.

لم يكن أمره قابلاً للتنفيذ، فتهاون به المجاهدون وواصلوا قطع المسافات الباقية بالانزواء في أحضان الجبال والتحرك البطيء.

شعر بأن مهابته لم يعد لها وجود بين جنوده و لم يشأ تكبّد الخسائر المضاعفة: فقد الهيبة وجند يقتل، فتبع تحركاتهم متبنّياً قراراتهم وإصدار الأوامر وفق مايرغبون فعله.

تعطلت الحركة و لم يجدوا في السير إلا مع توقف القصف الجوي، فجاء الأمر بسرعة اجتياز المنطقة المكشوفة قبل معاودة طائرات الجيش تحليقها.

كتل من اللحم جمعها حوض سيارة نقل، بقي مبخوت فيها ثابتاً في موقعه، بينما حياته تسيل من مخيّلته صوراً وأحداثاً ودماً ورحيلاً وأقاويل ولوعة، فزفر بضيق:

- أين أنت يا أُنس؟

سيلان تلك اللوعة خثّره باحتمال توجّه المقاتلين إلى عمران وأقسم لو حدث ذلك أنه سينسل ويغوص في المدينة بحثاً عن أُنس.

أول من اخرجه من شروده فتى غض احتزم برشاش مظهراً جلافة أعاقت أي تواصل معه، فمع توقف السيارة المقلة لهم بالقرب من خيام ثبتت بربط حبالها بصخور مختلفة الأحجام لكزه بطرف قدمه:

- انزل... وصلنا.

تنبّه مبخوت إلى أن تصرفات الفتى تحمل عدائية غير مبررة، إلا إن كان الإمساك به أول مرة بذلك الحنو والدفء ولّد في داخله شيئاً من الكراهية، فقرر محو كل ما طرأ في بال ذلك الفتى من سوء ظن حينما تسنح الفرصة.

تساقط أفراد المجموعة من صندوق السيارة المتهالكة تباعاً هابطين إلى المركز وكلماتهم تسابقهم طلباً للطعام.

مركز أقيم بمنطقة القهرة خلف جبال تلاصقت بامتداد تعمّق صعوداً إلى صعدة وأراد قائد الكتيبة استعادة هيبته والشكوى من عدم تنفيذ أوامره، وقبل أن تمتد شكواه واجهه رئيسه:

- ليس الآن وقت حساب، استعد فلديك مهمة.

التشكيل القيادي بين هذه المجموعات ليس له تصنيف أو رتب عسكرية ما يجعل الأمر مختلطاً أي قائد هو الذي يصدر الأوامر.

في المركز لم تكن الحال أفضل ممّا تكبّدته السرية من عنت في اختبائها من نيران الطائرات، إذ أطبق الجيش اليمني حصاره المدفعي عن بعد وتوالت القذائف كلهب طفح من موقده.

تجمّع القادة في جانب منزوٍ يتباحثون أوضاعهم ويلوكون الاحتمالات عما يمكن فعله.

- نحن مرصودون.

جملة قصيرة انبثت من فم أحدهم، فتغيّرت اهتماماتهم وتركزت على البحث عن مصدر ذلك الرصد.

لم يكن مبخوت أو الأكتع متنبهين لما يحاك لهما خفية إذ وجدا نفسيهما محاطين بعدد من المقاتلين يتقدّمهم قائد المركز:

- من أي جهة قدمتما؟

لزم الأكتع الصمت، يتطلع صوب مبخوت الذي أظهر رباطة جأش وهدوءاً تاماً:

- من رازح، كنا هناك وحين أظهرنا رغبتنا في الانضمام إلى المقاتلين جئنا إلى هنا.

كانت أغصان الظنون دانية يتسابق كل طرف منها إلى قطفها. وجه القائد تخالطه صفرة تسحبه إلى خانة المرضى إلا أن ابتسامته تترقرق من فمه:

- هل تريدان الشهادة؟

سكن صمت ثقيل بينهما فعجل مبخوت إلى إذابته:

- لم نأت إلا لهذا.

اقترب منه القائد شاداً على عضده:

- صدقت كلنا جئنا لهذا؟

وانقلب إلى بقية القياديين يحفزهم على توزيع المقاتلين في الأماكن التي يخشى منها وأعطى التوجيهات بتشكيل مجموعة

صغيرة مهمتها التسلل، وتعطيل راجمتين صبّتا جحيم قذائفهما باتجاه المقاتلين الرابضين في تخندقهم من ليلتين مضتا انعدم فيهما الزاد وأوشك الماء على النفاد، واختير لهذه المهمة ستة من الحوثيين يكمل مبخوت والأكتع ثمانيتهم. وكانت الأوامر تقضي بإنجاز المهمة في وقت قياسي لكي لا تتكبّد الحركة خسائر بشرية إضافية. قبل التحرك ألقى القائد وصيته الأخيرة إلى رئيس المجموعة:

– أما هذان البطلان فعاملوهما معاملة آل سالم فهما بهم أشبه.

أظهر المكلف بتسيير هذه السرية انضباطاً ظهر من خلال تفقد الآليات واختيار أفضل أنواع الألغام المتوفرة، واقترح أن يتسلح اثنان من المجموعة بسلاح الآر بي جي، وتحرك بمجموعته الصغيرة ملهباً حماسة أفرادها ومحفزاً إياهم على الوصول إلى الراجمتين بأي طريقة، مؤكداً أن نجاح قذائف الراجمتين في إصابة أهدافها سيسهّل على جنود مشاة الجيش الحكومي التغلغل وتمكينهم من تمشيط المنطقة وإنهاء أي مقاومة في هذه الجهة. ومن أجل قطع هذا الهدف ألهب فتيل الحماسة بين أفراد سريته متعاهدين أن لا يعودوا إلا بعد تحقيق ما خرجوا من أجله.

لاحظ مبخوت أن الفتى الذي أعلن العدائية عليه من ضمن الفرقة المكلفة بتنفيذ المهمة، اسمه إسماعيل. هكذا سمع القائد يناديه، فقفز في خفة مقترباً منه مائلاً برأسه ومصغياً إلى توصيات لم يشأ القائد تعميمها فصبّها في أذن إسماعيل. كانت مخافتة أبقت عيني الفتى متسعتين وهو يتلقى تلك الهمسات.

طلب القائد من السرية الانضباط في صف واحد، وقدّم مبخوت

والأكتع مدعياً أن في تقديمهما تكريماً لهما لنيل الشهادة، فاجتهد مبخوت لإظهار الفرح بهذه الكرامة صائحاً:

– الموت لأمريكا... الموت لإسرائيل...

قهقه قائد السرية:

– هذا شعار قديم وقد أصابه البلى، كنا نستخدمه في أيام جماعة «الشباب المؤمن» أما الآن فقولا: الموت لصالح وللسعودية.

حاول مبخوت مداراة جملته التي أطلقها مصحّحاً ومردفاً:

– صدقت ونحن هنا لسنا بحاجة للشعارات بل للقتال حتى الموت.

تحركت كتيبتهما بعتاد متواضع وبوصلة عمياء لا تحدّد الجهات، فلم يكن ثمة مكان مستهدف سوى إطلاق قذائف محمولة باتجاه الوميض الذي ينطلق من مدفعية هنا أو هناك.

سحب دخانية كثيفة تتولد من سقوط القنابل المتفرقة على الجبال المنتشرة على مد البصر، قصف جوي يحصد أي حركة تظهر لمجموعات أو أفراد، فكل ما هو أسفل تلك تلك الطائرات هدف لها من غير تمييز.

انثنى القائد بمجموعته للخلف مشيراً عليهم بالتخندق بين الصخور الناتئة والمجوفة ريثما ينتهي القصف الجوي مبدياً غضباً طارئاً:

– الجبان ينتزع روح شعبه بكل هذا الدمار والخسة.

صعوبة الحركة والتنقل تشي بأن المجموعة التي خرجت لن تكون رأس السهم المخترق لصلادة الجيش بل تشير إلى انكسارها لا محالة.

سير الأكتع المتخاذل وروحه النافرة تشيان بسخط يداريه بتصيّد اللحظات من أجل الانعتاق مما هو فيه.

ما أحدثه القائد لم يكن تحركاً مدروساً حيث وجدت السرية نفسها في مواجهة القصف، وزاد من حماقة التصرّف بإعطاء أمر التقدم، ما يعني الظهور المباشر والموت المحقق، فاقترح الأكتع تقسيم المجموعة إلى قسمين حرص على أن يكون مبخوت معه، بحيث تظل مجموعة تطلق النار بينما تتسلل المجموعة الأخرى إلى الاسفل للوصول إلى الراجمتين وتعطيلهما. ولم ينتظر رداً فقد سحب مبخوت واثنين من المقاتلين وعاد إلى خلف الجبل منعطفاً في سرعة أبهرت مبخوت المجذوب من ياقة قميصه وهو يصيح بالقائد ومن معه:

– أطلقوا النار باتجاه المدفعية وسوف نتسلل من الخلف.

كانت استجابة مبخوت بطيئة يحفزها الأكتع بجرّه المتواصل متلقياً تعنيفه وتحقيره له، بينما ارتفع صوت القائد منادياً عليهما بالرجوع، وظل صوت الأكتع يتعالى:

– واصلوا إطلاق النار سنعود...

وعلى غير المتوقع لحقت بهما كل المجموعة وقبل أن ينحرفوا لرؤية أي منعرج سلكا بين تلك الشعاب. كان الأكتع سانداً رشاشه على صخرة قائمة باستواء متحصّناً بها ومصوّباً طلقات رشاشه على كل المجموعة مظهراً حرصاً زائداً على أن لا ينجو أي منهم. تابع مبخوت أفعال الأكتع برمش لا يطرف مستقبلاً ما يحدث بذهول وصراخ متواصل:

– ماذا فعلت يا أحمق... سنموت هنا حتما بسبب فعلتك.

- سأخبرك لاحقاً، هيا انحدر بسرعة ولا تستقر إلا داخل الوادي.

فعل لم يستوعبه مبخوت فجمد في موقعه ينظر إلى الجثث الهامدة في مواقعها مفجوعاً حيال تصرّف لا يعرف لماذا حدث. في دهشته تلك أبقى اللعنات المكبوتة شعاراً لحنقه على الأكتع الذي انزلق سريعاً بين منحدرات جبل وصوته يصر كجندب ليل ظهر عليه النهار وهو مغمض العينين:

- لا تتباطأ، أسرع.

وقبل أن يستجيب لصرخاته لمح إسماعيل يتلوّى ويداه تبحثان عن سلاحه، فأهمل نداء الأكتع وانثنى على الفتى الذي جاهد على إبقاء أنفاسه منتظمة، حيال رصاصتين تمركزتا في كتفه اليسرى فانتشله من سقطته سانداً رأسه على كتفه. كز الفتى على أسنانه محاولاً إخفاء آهات تحوم بين فكيه فيخرجها عبر زفير تثاقل خروجه. كان فتى عصياً يكتنز كرهاً مترامي الأطراف:

- سبقني هذا الأكتع اللعين قبل أن أقطف روحيكما...

- هوّن عليك فالحياة أبطأ من أي جهد يسابقها.

على جملته عاد الأكتع مستفزاً ومعنفاً تخاذل مبخوت وشفقته المفرطة. وبينما هما يتجادلان، لمح إسماعيل ممسكاً بجنبية هاماً ببعج بطن مبخوت، فرفع رشاشه مرة أخرى ونخل الفتى بطلقات متوالية أردته جثة هامدة لم تمسك بشيء من هذه الحياة تاركة لها حسرة عينين مفتوحتين بقيتا تلاحقان خصمهما لعلهما تصلان إليه، فأطبق مبخوت جفنيهما وهو يتلقى جذباً متواصلاً من الأكتع وتحفيزاً على الركض، فاستجاب له بغيظ مضاعف:

– إن تأخرت فستكون بجوار هذه الجثث مأدبة لنسور الجبال... هيا.

اقتنع مبخوت بأن الزمن أكل مهارته، فالانحدار من تلك المرتفعات يحتاج إلى حرص وحذر ومعرفة أين تضع قدمك، والهرب لا يقبل التأني، ولا يمنح المرء تكرار الخطأ، إلا أنه يضخ مقدرة مضاعفة ويكسب الهارب التحمّل والحيوية المفاجئة. ولولا ذاك لكان سقوط مبخوت المتوالي بحاجة إلى تريّث وتفقد الجروح الناجمة من كل سقطة وتطبيبها.

– علينا اجتياز هذا الوادي بأي طريقة كانت.

استترا بأشجار الأراك الممتدة والملتفة على ضفتي الوادي، وفي الأجزاء المكشوفة منه زحفا زحفاً. لم يكن الوقت ملائماً للوم أو السؤال المعتركين في صدر مبخوت:

– ما جدوى كل هذا؟

كان السؤال الحاضر دائماً على لسان الأكتع:

– إلى أين الآن؟

– النزول إلى تهامة فهي آمنة من الطرفين.

استهدفا سوق عبس كمتوعدين من أجل الوصول من خلالها إلى مدينة حرض والعودة إلى ديارهما.

الفصل العاشر

- كانت أُنس قريبة لولا تحجّر أمعاء الأكتع وفكره.

وصل مبخوت إلى قريته منهكاً خائر القوى تغالبه حالة إشفاق على نفسه السادرة في قصة عشق لا تثمر إلا بما يرويها من ماء أوهامه. انتابه تقريع داخلي وفاض ضيقاً ملأ صدره و لم يجد تخفيفاً له سوى إخراج زفرات حارة.

هروب من نار إلى نار دام شهرين فقد خلالهما لياقة مزاولة التفكير بالوصول إلى أنس.

قال للأكتع في لحظة الوداع:

- الخوف ينسيك كل شيء ويغدو هدفك الوحيد الخروج منه... أما الآن فأنت تتشرط.

قبل أن يقفا على الشريط الحدودي لم يكن أمامهما من خيار سوى الهرب، ومع وصولهما إلى حالة الأمان تبدّلت أوضاعهما وانشرحت أسارير الأكتع مستفسراً عمّن هو الملا عمر، وظل يضحك كيف حكى لأولئك الملتفين حوله أن الملا عمر سائق حافلة عند أسامة بن لادن...

– لماذا اخترت لي ذلك الدور فمن البداية شعرت بأني غارق به لا محالة؟

رفع مبخوت يده ممسكاً بشعر الأكتع المحمر بفعل انصباب أشعة الشمس الدائم على فروته:

– أقدارنا تضعنا في ما لا نحب وتنتظر منا التخلص مما نحن فيه بما نحب.

– لا أفهمك...

– وأنا أيضاً لا أفهم. تطوّرت بذكر انضمامنا للمقاتلين في أفغانستان فهذا أمر لا يعني الحوثيين بشيء لكن أقدارنا تضعنا في ما لا نحب.

أمام قرية الخوجرة عاد إليهما خيارهما، ففضّل الأكتع البقاء على الشريط الحدودي فوطنه كما يقول هو المسافة بين الرسمي واللارسمي.

لم يكن بمقدور مبخوت الدخول إلى بلده إلا متسللاً، فالعبور من منفذ الطوال سيجعله محل شك ربما لن يسعفه الوقت لإثبات هويته قبل أن يعاد إلى الأراضي اليمنية، فجوازه ينام في إحدى مغارات جبل أبو النار، وكان المقترح الذهاب إلى هناك لولا أن القصف لا يعرف تحديد الجهات، فاعتمد على خبرة الأكتع الذي اختار له التسلل من الجهة المقابلة لقرية الخوجرة.

وتوادعا وداعاً أكثر مبخوت فيه الاعتذار حاملاً كل الشكر للأكتع لتحمّله حدة لسانه طوال محنتهما، تعانقا بحرارة وثمة خاطر يسري في مخيّلة مبخوت...

– كل إنسان له خصلة نعشقه من أجلها...

الأيام التي أمضياها معاً أثبتت أن المرء إذا فقد خصلة أو شان بها

فله مكارم أخرى يوطد بها وجوده، والأكتع يحمل خصلة وحيدة لا تشترى بكل المال: إذ كان يؤثر صاحبه على نفسه...

دفع مبخوت إليه بما بقي في حوزته من مال، فضحك الأكتع مردّداً:

– لديّ منه الكثير فعملي يدخل عليّ أموالاً طائلة. تنقصني المحبة، محبة الناس...

وتمايل في وقفته قبل أن يختطف مبخوت إلى أحضانه هامساً:

– أعطني إياها إن كان باستطاعتك.

وكعاشقين ينهيان عشقهما بلحظة وداع قسرية مكثا يتبادلان النظر أحدهما واقف على الحد والآخر يوغل السير نحو إضاءة منازل تناثرت على أرض منبسطة. وكلما تباعدا ارتفعت تلويحتهما فابتلعها ليل كثيف وقف حارساً على وداعهما.

المال الذي استله عزان من ذلك المظروف المتسع كان معيناً لهما في هربهما وتنقلاتهما. صرف مبخوت منه الكثير للأدلاء، وعلى كراء الدواب من أجل التنقل بين ممرات المرتفعات الشاهقة، واستبدالها بالسيارات في الأماكن المنخفضة، وشراء غض الطرف من قبل بعض عسكر نقاط التفتيش، أو تأليف القلوب على حالتهما، أو للمسكن والمأكل والمشرب، ولهذا صرف مالاً كثيراً. وبسبب تدنّي قيمة العملة اليمنية حوّل المال الذي معهما إلى عصا سحرية تعزف النغمة التي يشتهيان سماعها.

ليل القرى حالم. ينام كل شيء متجاوراً، ومع هبوب النسائم يتكحل المستيقظ بنوم ثقيل.

شق مبخوت طريقه بين متعرّجات الخبوت برمالها الناعمة متجهاً صوب قرية الخوجرة التي تركت أضواءها تغازل الحدود من بعد، وتغري التائهين بالوصول إليها. دخل مبخوت إلى القرية وأوغل السير نحو أضوائها المتفرقة فنبحت به كلابها، فأبعدها عنه بعصا اقتطعها من فرع غليظ لشجرة أثل يابسة حين كانت خطواته تتخبّط في وادي خلب، ونباح كلابه تتواصى باللحاق به.

– أسأل عن المغلس.

كانت هذه وصية الأكتع كآخر ما يقدم الصديق لصديقه:

– بتْ ليلك عنده، بعدها تخيّر في ما تصنع.

– أعرف المغلس جيداً...

فكر في إيغال المسير صوب قريته إلا أن إجهاداً عظيماً ثبط عزيمته، فعكف خطواته صوب استراحة المغلس. الليل مسترخ مستسلماً لعبث شباب قللوا كثيراً من جبروت وطأته، يجولون بسياراتهم بين البيوت وعلى الأطراف رافعين صوت موسيقى صاخبة توقظ سبات الظلمة، وبعضهم اقتعد تحت ضوء باهر منهمكين بلعب الورق مهملين جهاز التلفاز يثرثر بما شاء.

– القات والفضائيات سلخت ليل القرى إلى نهار.

قالها المغلس وهو يرحّب به ويهيّئ له نزلاً مريحاً.

منذ انشقاق القرية إلى نصفين كل نصف يمسك بهوية مغايرة. هجر المغلس الزراعة واختار مهنة الضيافة بين الشقين، فتحريم القات في جهة جعل الغاوين يأتون من الأماكن القصية بحثاً عن مزاج لا تعكره الخشية.

أحال بيته إلى مطعم كبير يقدّم المأكولات الشعبية والمبيت ليلة أو مئة ليلة، ووضع جزءاً من استراحته لأقرب نقطة يمنية، زارعاً بها أنواع الفل والكاذي، ناثراً أرائك خشبية تُفرش عصراً لتتحول إلى جلسة تقويت يداوم عليها زبائن يقبلون من القرى الداخلية بدلاً من اجتياز الحدود من أجل تناول قاتهم هناك.

– أطلت غيبتك في اليمن هذه المرة؟

– وما أدراك؟

– كان هنا من يسأل عنك، وقيل لهم إنك في اليمن و لم يجدوا نزلاً غير نزلي فمكثوا أسبوعاً كاملاً ينتظرون عودتك.

– من هم؟

– جماعة يقولون إنهم قادمون من جدة.

– ألم يخبروك من هم؟

– لا.

وصل مبخوت إلى منزله ورمى بجسده كيفما اتفق، تقلب في مرقده كثيراً، ومنذ أن بلغ تهامة وهو يحلم بالارتماء على فراشه والنوم لاستعاده ترتيب مفاصله المفككة من الركض أو القفز بين الصخور أو الجلوس في صناديق السيارات وأحياناً التمايل على ظهر حمار مصاب بالفاقة الماحقة مؤملاً إيصال راكبه كآخر المهمات التي يؤدّيها قبل أن تزهق روحه.

أبواب النوم مغلقة. يقف بأهدابه المغمضة لعلها تحتفي به وتدخله إلى عالم افتقده، فخلال شهرين ألف سرقة النوم للحظات والاستيقاظ لكل طارئ متوجساً من الوقوع في أي خطأ ينهي حياته غريباً وأن لا

يكون ثمن ذلك الموت الوصول إلى أُنس أو رؤيتها.

جسده ألف النوم على خشونة الصخور، وبين أتربة الأودية والتفاف أشجارها وأعشابها، أو في أحواض السيارات أو على ظهر دابة. ظل مغمض العينين والأحداث التي مرت به تتقافز من مخيّلته في عشوائية حرمته من الدخول في نوم عميق.

في الاجتياز الأول للوادي اتجها جنوباً، ومع هروبهما تدفقا شمالاً لعل مجراه يقذفهما صوب البحر، جف الاطمئنان من صدريهما مع رؤية المسلحين في كل مكان يخرجون منه، فيعودان إلى الاختباء وطرق المسالك المهجورة. اللقاء بجنود الجيش اليمني يعرضهما لإطلاق النار بمجرد رؤية تحزّبهما بسلاحهما المسروق، فقررا التخلي عن الرشاشين بدفنهما، والسير أعزلين، فكثافة انتشار الجيش اليمني طمأنتهما إلى أنهما أصبحا على مسافة بعيدة عن مقاتلي الحوثيين. كانت الصعوبة في اختيار مخرج لا يثير الريبة لدى من يراهما من عسكر الجيش.

دفعا لأحد الرعاة ألف ريال من أجل أن يدلهما على طريق يوصل لأقرب مدينة تهامية ولا يمر برقعة فيها أفراد الجيش. كاد الراعي يفقد صوابه مع تلمّسه ورقتين زرقاووين من فئة الخمسمئة ريال. ترك أغنامه ومضى ملازماً لهما يومين متواصلين يجدّون فيه السير إلى أن بلغ بهما مدينة عبس... وكأن دليلهما أشار لغربتهما، فخاضا مساومات عديدة مع أنفار استوطنوا داخل السوق منهياً تفاوضهما بدفع المال من أجل غض الطرف.

– ما الذي حملك على قتل السرية؟

كان الوقت ملائماً لمبخوت لطرح سؤاله على الأكتع:

قبل تكليف السرية استرقت السمع صدفة لقائدهم متحدثاً إلى بعض رجاله ومفصحاً لهم أنه تلقى اتصالاً ينفي إمدادهم بأي رجل كان، وغلب القائد ظنّه أننا عيون يجب إطفاء بصرها وخاصة بعد تبسّطهم في شرح بعض مخططاتهم أمامنا، وأيقنت من نهايتنا حينما أوصى بنا قائلاً: «أما هذان البطلان فعاملوهما معاملة آل سا لم فهما بهم أشبه».

– ماذا كان يعني؟

– آل سا لم أسرة يمنية من أصول يهودية وقد قُتل بعضهم قبل سنتين أو ثلاث.

– وكيف عرفت؟

– قمت أنا وعزان بتهريب اثنين منهم إلى داخل الحدود وعرفنا بالقصة.

– ولماذا أُرسلنا من أجل تخريب مدفعية مع أنفار وتبعها: تسلل، وخطط وهبوط وصعود، لماذا كل هذا؟ كان باستطاعتهم قتلنا في أماكننا؟

– لا أعرف، ربما كان لهم مخطط لم نجعله يكتمل بقتلنا للسرية...

من الصباح الباكر غادر مبخوت قرية الخوجرة، وقد جهز له المغلس سيارة تقله إلى قريته التي وصلها بعد ثلاثة أرباع الساعة من انطلاقه.

إعياؤه الشديد لم يكن منتظراً تحمّل ثقل إضافي، وأعباء من أجل أداء واجب يمكن تأجيله. كان راغباً في لحظة نسيان طويلة، قابله بركات على باب بيته دامعاً:

– أمك حسينة ماتت.

الفصل الحادي عشر

– من ذا الذي قدم من مدينة جدة سائلاً عني؟

نخر هذا السؤال باله مراراً، سحب داكنة من الذكريات هطلت مطراً غزيراً جرف أعواد الأيام الماضيات دافعاً إياها إلى جرف النسيان.

يكره مدينة جدة فقد حمل منها وزراً لا يُمحى، استعرض الوجوه التي خالطها بمجتمعه:

– أيكون خليل المسلكي هو السائل؟

تحولت معرفة السائل عنه إلى هاجس يشاغله، فأجرى محادثة للمغلس:

– لم تخبرني من الذي سأل عني؟

رجل ضرير اسمه جابر وبصحبته زوجته وابن أخيه وعرفت أنهم سألوا عنك في قرى عديدة...

– جابر... جابر.

ردّد اسمه مراراً وسالت ذاكرته بمواقف العداء المتبادلة بينهما.

– هل عرف الحقيقة وجاء معتذراً.

الوجه النيء لا يبقى نيئاً ما دام يتقلب على جمرات النار، والحياة تقلبنا ننضج ونحترق وهي لا تزال مغرمة بتحويلنا إلى رماد، وفي تقليبنا نيمّن ونيسّر، فالقلب من التقلب، فما تكرهه اليوم تحبه غداً وما تحبه تكرهه أو تعافه... والعداء خصلة نربّيها بالقول أو الفعل ولو أننا كففنا عن إنمائها لأصابها الضمور واضمحلت.

– فلماذا لا ينقلب هذا القلب عن أنس؟

آمن بأن أي حال لا تتغير ما هو إلا قدر لا يمحى ولا يذوب.

– أين أنت يا أنس؟

عاد بذاكرته إلى أيام جدة محاولاً استذكار منشأ عداوته مع جابر، وكيف تنامت، فلم يجد بئر حادثة بعينها أسقطتهما في تلك العداوة الملتهبة، وإن كانت حادثة توزيع المجلات هي التي قادت إلى انطلاق شرارة العداء ومنها واصل جابر تعميق الشحناء في ما بينهما، فعل واحد نحدثه ولا نعرف أننا حفرنا به أخدوداً لجمع حطب يشعل بما يليه من أفعال ولا ينطفئ، فكل فعل يصل إلى من يكرهك يحوّله إلى جمرة، ثم يفرش جمراته ويتلهّى بتقليب سيرتك على تلك الجمرات وتكون مطامع حرق عدوك أعلى مما يحدثه في حياتك حتى وإن لم يفلح واقعياً في حرقك يستحضرك في مخيّلته ويسومك سوء العذاب.

وجابر هذا يحرق كل من يشم رائحته حتى إذا لم يجد ما يحرقه أحرق نفسه، هناك أرواح خلقت من أنفاس جهنم لا تطيب لها الحياة إلا بإضرام كل شيء بنار الحقد.

قفزت مؤنسة إلى مخيّلته موقناً أنها تستحضره يومياً وتقيم حريقها، فبعد أن وزعت خبر تهمته إلى كل القرى وحرمته متعة مشاهدة

الصبية وهم يتقافزون حوله متخيّرين لعبهم، انتقلت إلى إضرام سيرته بين مجالس النساء ودفعهن بوصية إبعاد أزواجهن عن رجل ساقط...

لم يعد أطفال القرية يقتربون منه وإن لاطفهم وصل ذووهم إلى بيته قارعين الباب معنّفين ومحذرين إياه من مغبة أفعاله القذرة...

هطلت عليه غلالة من حزن على أثر تلفته داخل بيت كبير ليس به سواه:

– يمكن للحياة أن تدفنك حيا فهي ليست حركة وأياماً عابرة بل شعور بها.

وجد خطواته تذرع حقول الحنطة البازغة بنموّها المتخاذل تقبل على مبادلة الريح بتمايل متقاعس ينبئ أن عذوقها ستتيبّس على رؤوس قصبها، فلم تعد عيون المزارعين ترقب الاخضرار أو تبحث في الأرض عن ماء الحياة، قامات المزارعين التي نصبت هنا منذ الأزل هربت صوب المطارات الموصلة للمدن الكبرى، وتقرفصت قاماتهم في وظائف أعلاها إيصال كوب شاي أو حمل ملف بين دهاليز الوزارات والتنقل به بين المكاتب.

انثنى داخل حقول علي امهادي خامشاً تربتها اليابسة وناثراً حبيباتها على عشب أزرق لافظاً اخضراره ومتجاوراً مع أشواك نبتت على عقوم المزارع التي حافظت على حدبتها الصلدة وكأنها قبر أطبق لحده جيداً على الماضي.

عبر فنية داود امعمر فوجدها قد جفت واستبدلت ماءها بغبار كثيف استحوذ على مجراها وأوصلها إلى سن اليأس، لوّحت له طاهرة اموسى من خلف «مشاويين» القصب:

– كأنك لا تعلم أن ميمون قد عاد من غربته الطويلة.
– ميمون عاد؟

أبدى في ردّه رنة استنكار حقيقي مقلباً ذكرياته البعيدة، في تلك الطفولة التي ربطت بينه وبين ميمون وعزان حين كانت حياة مليئة بالركض والحبور في المراعي وهم مغمورون بمياه البرك أو راكضون خلف الزماميح أو رابضون خلف الأشجار للإمساك بالأرانب أو راكضون خلف ذئب تجرأ على التسلل إلى قُن الدجاج.

مركبة الأيام تضيق بركابها فتنزلهم إلى المقابر أو في المحطات النائية، ومن يتغرب تمتص الغربة رحيق عمره حتى إذا نضب ألقت به إلى قارعة الطريق فيتلمس دروب العودة إلى رحم تحنو عليه، فالإنسان لا يستطيع العيش من غير رحم تحتويه، نخرج من بطون أمهاتنا ونستعيض عنها برحم الفضاء حتى إذا هرمنا كان القبر رحماً حانية. وكما يحتاج الإنسان إلى رحم تحتويه كذلك الحياة بحاجة إلى قبر دائماً.

شعر بثقل رأسه وهروب خيالاته صوب الماضي الذي أتعبه السير في متعرجاته، عبّ من هواء الحقول وأطياف الماضي تتقافز من حوله، أهمل كل الأطياف وأمسك بطيف أُنس: كل الغرباء عادوا وأنا لا أزال مغترباً في مكاني، أبحث عنك يا أُنس؟

قرّر في المساء عيادة ميمون فقد استوثق من طاهرة أن مرضاً خبيثاً تغلغل في أمعائه ومكث طويلاً يتعرّض للأشعة الكيميائية وقبل أن يتلاشى تحتها فضّل إبقاء شيء منه لكي تحتضنه تربة قريته.

– كبرنا سريعاً يا ميمون.

ردّد جملته منذ أن أبصره مستلقياً على فراشه متجرداً من ملابسه العلوية يغالب أنيناً ثقب صدره وتقوّست عظمتا الترقوة كاستعداد مبكر لتسهيل انسياب روح ركدت في مياة آسنة من اليأس.

– أوه يا ميمون، هناك من يكبرنا بمراحل إلا أن المرض يختار الاقل حظاً في الدنيا.

ظن أن جملته ستخلص صديقه من شرنقة القنوط، فإذا بها تستدر حسرته لما آلت إليه حاله بعد غربة دامت ثلاثين عاماً قضاها في رحال الجيش متنقلاً بين شرورة وتبوك وحفر الباطن.

– الجيش لا يريدك امرأة ناشزاً ولا يقبل أن تكون ناشزاً أصلاً يدهك جسدك كما يدهك اللباس الواحد.

الإنهاك بدا جلياً على ملامح ميمون وكلمات التهوين يستقبلها كما تستقبل الروائح النتنة.

أحس أن عدوى القنوط تتسرب إليه مع أنفاس ميمون المتلاحقة فودعه على أمل مسامرته في ليلة أخرى.

عاد من قرية البتول بعد أن اكترى دراجة نارية كان سائقها على ما يبدو في مراحل تعلم القيادة فكاد ينهي تدريبه بشهادة وفاة تختم لهما معاً حالما يصلان إلى ثلاجة الموتى بمستشفى صامطة، ارتج مقود الدراجة بين يدي السائق وهو يوصي مبخوتاً أن يحافظ على توازنه في الخلف، فسقطا على أرض الاسفلت مرتين والثالثة واجه سيارة قادمة من الخط الموازي تفاداهما سائقها باحترافية أوصلته إلى خارج الخط بترنحات عنيفة ولولا ثبات السيارة المنفلتة بين الرمال الناعمة الكثيفة المحيطة بالخط لسبقهما صاحبها في الحصول على شهادة الوفاة.

ترجل مبخوت من خلف سائق الدراجة النارية ونقدة مبلغاً مضاعفاً مقسماً عليه أن لا يحمل أحداً خلفه حتى يستوثق من مهارته في القيادة فقابله تبجّح قائد الدراجة النارية وإمطاره باللوم لعدم معرفته الركوب المتوازن خلف السائق.

أدار مفتاح بيته باحثاً عن أي معقم كي يغسل قشطاً امتد على طول ساقه اليمنى وجرحاً آخر افترش ساعده وندوباً خفيفة في صحن كتفه، مرر قطعة قماش مبللة بمطهر بارد على جروحه ضاحكاً من ردة فعل سائق الدراجة النارية ومتحاشياً استعادة وجه ميمون القانط.

دخل إلى غرفة نومه مغطى بهواجس لم يعد إلى تحقيقها من سبيل، مستعيداً تحذير الطبيب المعالج لما يجده من الآلام على ضرورة التنبّه والتحوّط من تفاقم مرضه مؤكداً على ضرورة إجراء فحوصات بالسرعة القصوى، فاستقبل توصياته متهكماً.

في آخر زيارة له لمستشفى أبي عريش قابل طبيبه المعالج برد مستفز:

– إذا جاء الموت فمرحباً به فليس هناك ما يدعو للتشبّث بهذه الحياة.

لم يستلطف الطبيب رده فانقلب عليه بنبرة ساخطة: إذاً لماذا جئت؟

بعد عودته من اليمن استشعر بوهن ينخر عظامه فلم يعد يقوى على أداء مهام لم تكن جالبة للإعياء في ما سبق، وها هو الطبيب يؤكد أن مرضه تحرك لمهاجمة الكبد طالباً منه الخضوع لكشوفات وتحاليل مكثفة.

يبدد خفافيش مخيلته بالسير بين القرى المتجاورة يقرع السلام هنا وينزل هناك، ويتسامر مع النافرين من ضيقهم إلى فضاء الوادي المنسكب برماله الفضية إلى حلق البحر، وإن مل من الاستقبال البارد أو تشبع من الوجوه الغائمة صعد جبل الدخان لاختبار ما بقي له من لياقة، يعرف ما يحدث في الجهة المقابلة ويتذكر تلك الأحداث القاسية التي مر بها داخل اليمن، في صعوده إلى جبل الدخان تتراى له أشباح تتخاطف القمة بهرولة أو بانتكاسة المتربص، أمضى أياماً في صعوده وهبوطه وعيناه تقبضان على تلك التحركات التي تبدو أنها لمواطنين يمارسون تنقلاتهم في مرتفعات وعرة تستوجب تنقلاتهم اتخاذ تلك الهيئة المنسكبة من الركض أو السير، وحين لمع في باله خاطر هجس في نفسه:

- هل وصلوا إلى هنا؟

تقافزت بباله خيالات عن وصول خبره إلى وزارة الداخلية ومشاركته الحوثيين في القتال، ملتحمة بخشية أن الأطياف المتقافزة على جنبات جبل الدخان ما هي إلا طلائع متقدمة للحوثيين، فاعتراه يقين بأن ثمة من يتربص به من أجل إثبات تآمره ضد بلاده.

تسارعت قدماه هابطتين ومخيّلته تهيل بالأحداث الافتراضية كأن تلحق صورته بالمطلوبين من قبل جهاز أمن الدولة أو أن المكلفين بمراقبته يلتفون حوله ويقللان من هبوطه المتسارع بوضع الأصفاد في يديه وقدميه، خفف من جريان خوفه الشديد مستملحاً رؤية صورته تنشر على الصفحات الأولى من الجرائد وعلى شاشات القنوات الفضائية وأسفل منها رقم يشير إلى أهميته فيصبح المطلوب رقماً بدلاً

من مبخوت، ذهب شوطاً بعيداً مع هذه الخيالات، وعند وصوله إلى مصبّها... حدث نفسه بمرارة:

– لن يلتاع عليك أحد حتى لو كنت أسامة بن لادن نفسه.

شعر بالخسة إن هو صمت عن إيصال معلومة تمترس الحوثيين على الشريط الحدودي بالتصاق محكم كقرادة جمل أجرب، وتأكد من بناء المتاريس والتحصن بالتخندق في مواقع صعبة الوصول إليها سيراً بأي آلة متحركة مسترجعاً أحداث هذا التسلل حين كان فرداً من أفراد المقاتلين الحوثيين.

لاح في باله حمود غيلان ذلك الرجل الذي يتفجر حباً لمنطقته، فأضمر النيّة لتوصيل كل ما يعرف لوزارة الداخلية من خلاله من غير أن يجد نفسه تحت أنوار كشافات محقق أحمق.

أطال السهر في زواج دُعي إليه في قرية المجنة وراقته قصة عشق جمعت بين الزوجين فتوّجا عشقهما بالزواج، العريس ابن أخت طاهرة اموسى التي وجهت له الدعوة وحرصت على حضوره مدّعية أن صلة قرابة تربط العروس بأمه عوش خالدية.

وقف العريس خالد محلوي جذلاً يستقبل المهنئين وابتسامته تتطاير كالعصافير الغادية في بكورها نشطة شاقة الفضاء بجناحيها تلوّنه بشقشقاتها.

طوال مراسم ليلة الدخلة ومبخوت يتطلع إلى جريان الفرح في محيّا العريس فجذبه إليه هامساً:

– مضت سنوات طويلة وأنا ابحث عمن أحب كي أحظى بمثل ابتسامتك هذه.

فغر خالد بفمه مستغرباً من قوله و لم يجد كلمة يرمّم بها وجه مبخوت المنتظر رداً، ووجد في استجابة نداء المحتفلين به منقذاً من حيرته، فقفز مشاركاً إياهم الرقص ومتمايلاً بينهم كعذق طافح بثماره.

انتهى العرس باختلاط الزغاريد والطلقات النارية وقرع الطبول وأهازيج النساء وتناثر الفل، وهمد كل شيء في انتظار البكارة القانية التي ستهبها العروس لعريسها، ومع إعلان انتصار العريس عاد أزيز الرصاص ولعلعة الزغاريد، فانسحب مبخوت عائداً يلوك سؤالاً استمر في نخر جمجمته طوال الطريق:

– أين أنت يا أُنس؟

غاص داخل عتمة قريته ووجه أُنس يرفرف في مخيّلته كبيرق نصب شارة للتائهين، أحس بوخز الحنين يتعالى، فاسترضى لوعته بدندنة أغنية «محتاج لها»، دسّ قامته من الباب الخلفي لبيته، وارتمى على فراشه محاولاً الهرب من جيوش الشوق التي هلت تنغزه بصور لم تُمح من ذاكرته، فنهض من مرقده متهادياً صوب سحارة أبيه العتيقة، وأخرج مسدس هواش المغطى بالشملة اليمانية ذات اللون الزيتي، قام بالفعل نفسه الذي يفعله كلما تطلع لذلك المسدس، فعل مكرّر كأيامه الباردة أحصى رصاصاته، وتلمس رووسها اللامعة المدببة، فسقطت من فمه جملة متحشرجة:

– ملت هذه الرصاصات من طول حبسها وكأنها تريد أن تفنِي وتفنَى.

خاطر خاطف عبره: كيف لو أنه اختار واحدة منها وصوب على

أمعائه منهياً كل شيء، اهتزّ لمرور ذلك الخاطر، وخشي الاستغراق والغرق فيه، فأعاد المسدس إلى موقعه، جاراً قدميه إلى خارج القرية يتفحص نجوم السماء هل ما زالت في مكانها.

ذرع الفضاء المحيط بالقرية متخففاً من حمولة نفسه الثقيلة ومرتباً أولوياته قاطعاً عهداً على نفسه أن لا يرى مسدّس موسى هواش مرة أخرى، وأن يأوي إلى أي امرأة يدفن في داخلها هواجسه قبل أن يصل إلى فقدان التوازن، وأن يبني مسجداً ترحّماً على أسرته التي تركته وحيداً، وأن يطلب العفو ممّن ناصبه العداء، وأن يقتطع لأولاد عمومته ما شاؤوا من أراضيه الباقية... بهذه القرارات أغمض عينيه حالما عاد إلى غرفته جازماً أن يكون غده موعداً لتنفيذ كل قراراته التي اتخذها.

غفا في نوم عجن بوجه حفصة وهي تشير إلى أُنس الباكية والواقفة على شفا قبر مفتوح اللحد شاكية إليها من أخيها: انظري، فمبخوت لا يريد دفني بجوارك...

أمضى ليلة عصيبة تجمّعت فيها الكوابيس كتجمّع الفرح ليلة العيد.

– ماذا صنعت يا حمود؟

– تقدمت ببلاغ إلى محافظة الحرث أبلغهم فيه عن وجود تلك التحصينات، فواجهني ضابط برتبة ملازم مسفّهاً بلاغي ومنتقداً ما تفوّهت به، وقبل أن أمضي ذكرني بأني في دولة لها أجهزتها الساهرة ولا تحتاج إلى مثل بلاغاتي.

لم يمض اليوم الخامس على عيادته لميمون حتى جاءه خبر وفاته، كانت وفاة مكتوباً لها أن تحمل لافتة مشاكل القرى الحدودية، حيث

بقيت الجنازة معلقة الدفن إلى حين السماح لابنه بدخول القرية، فقد قدم سامر من تبوك كي يلقي على أبيه نظرة الوداع إلا أن حرس الحدود أوقفوه طالبين منه جلب إذن من نفس قطاع الحرس في قرية العين الحارة، ومكث يومين متردّداً بين قيادة القطاع ومدينة الخوبة، كانت الجثة خلالها ملقاة في غرفة سيئة التهوية فتصاعدت رائحتها في اليوم الثالث حتى إن المشيّعين نفروا من حمل الجثة، تحسّر مبخوت حين لم يشاركه في تشييع جنازة صديقه سوى رجل وامرأتين ثقل عليهم الوصول إلى مقبرة القرية فحفروا في جوف الخبت قبراً متواضعاً وحثوا عليه التراب...

عاد مبخوت حاملاً وساوس الموت وكيف للمرء النافر من شجرة أن يدفن من غير أن يصيبه التعفن، فعاد إلى قراراته التي اتخذها وأقر فيها ادخار مبلغ مالي مجزٍ يُصرف على دفنه إن تعطل الوصول إلى المقبرة العامة.

تهادى إليه صوت بركات صائحاً به:

- يا مبخوت.

مع سماع النداء استشعر بثقل إضافي، فبركات طعن في السنّ ورتابة حركته وتكلسها أفضتا به إلى البقاء على أريكته منتظراً من يزوّده بلقمة أو يغسل له هنداماً، أو يؤانس وحدته، غدا رجلاً ضامراً يستغل ضموره من أجل استدرار تعاطف الجيران مع وضعه الأعزل، مذكراً نفسه وكل من يمر به بأنه لم يكن معتاداً على مر أيامه السابقة الانشغال بتحضير الأكل أو التنبّه لما يتطلبه البيت فقد كفته زوجته كل احتياجاته.

مرر صوته الواهن على مبخوت بعد ليلة تكلس فيها بالصمت

والتحديق في الفراغ، واستعادة أمجاده الغابرة على مسامع من يزوره خطأ حتى إذا أقفر بيته أعاد سيرة أمجاده إلى نفسه.

اتفق مبخوت مع سلمى بنت عبده محراب على اقتطاع جزء من وقتها للمرور على بركات وتفقد أحواله فغادرت المنزل بعد يومين مدّعيةً أن اهتمامها به وسوس لخرفه أنها متيّمة بجمع كومة عظامه البالية، و لم تصدّق مجيء مبخوت متشفعاً وخاطباً له:

– أو تظن يا عم مبخوت أن يتمي سيدفعني للقبول بهذه الجيفة؟

وانتشرت رغبة زواج بركات بين نساء القرية يتبادلنها ضاحكات، وأيّ منهن تريد التعكير أو الممازحة تدعو الأخرى إلى الاقتران به... فتضاحكت خديجة يحيى غامزة:

– لا فرق بينه وبين رجالنا فكلهم يرفعون أصابعهم وقت الحاجة.

تحوّل بركات إلى جزء من حياة مبخوت يزوره ويتفقده يومياً، جلس بجواره يدلك له قدميه بزيت السمسم ويمازحه:

– بسبب نيّتك لم أجد امرأة في القرية ترغب في مساعدتك.

سعل سعالاً متكلفاً مدّه بعض الشيء لافتعاله ضحكة حاول إخراجها من جفافها بلعق شفتيه، ورشف منقوع التمر الذي ألف شربه، ارتشف رشفتين متلذذاً:

– لو أقنعت سلمى بالزواج بي فسأجعلها تخدمك قبل أن تخدمني...

– أقول لك رفضت رفضاً باتاً...

– سألتك بالله يا مبخوت أن تحاول ثانية وثالثة.

وضرب بيده فخه المهترئ مقلباً لسانه:

– أوه سلمى مهرة جاءت في الوقت المتأخر، كل شيء بها مدلى بالرغبة وكل ثمارها تصرخ: من يقطفني؟

تضاحك مبخوت وهو مشغول بفتح تولة دهن العود وتمرير زيتها على صدر بركات وجوانب عنقه منهياً تدليكه بضحكة قصيرة:

–أما زلت راغباً في الزواج يا عم بركات؟

– العازب كالعاري يا ولدي، والنساء لباس، وسلمى ليست كألبسة هذه القرية الحائلة...

وخطف منه تولة دهن العود ومسّ فوهتها ممرراً دهنها على ذقنه ومخلخلاً شعيراته الكثيفة:

– وأنت إلى متى تسير عارياً؟

غمغم مبخوت مبدياً أسفاً على تتابع الأيام قبل وصوله إلى مبتغاه، فنهره بركات:

– البعيد له حياة أخرى يمتلئ بأناس آخرين فلا تظن أن الكأس تظل محتفظة بمائها القديم.

وقفت سلمى على مدخل باب الفناء الكبير وبيدها حبل تجرّ بقرة درّت أثداؤها، متظللة بيدها التي وضعتها على حاجبيها اتقاءً من أشعة شمس حارقة:

– يا عم مبخوت، علي بن إبراهيم يستجير بك من سلك كهربائي تدلى عليه من بيتك، ويخاف أن يحرق منزله أو يصعق أحد أبنائه.

تضاحك بركات هامزاً مبخوت:

– هي تتمحك وتريدني معاودة خطبتها، اسمع صوتها كل ما فيه يقول خذني...

أفرط في الترجّي على مبخوت أن يعاود الكرّة ويخطبها له عارضاً كل ما يملك مهراً لها وخالقاً منافذ ترغيب إلى جر قدمها:

– قل لها بقي له يومان في الدنيا وسترثين كل ما يملك...

– وابنتك آمنة...

– آمنة انشغلت بحياتها و لم تعد تسأل وليس لديها أوراق رسمية، ثم هذا لا يعنيك، سأكتب كل شيء لسلمى من الآن فقط تستجيب لطلبي.

– أنت في منزلة جدها وتريدها أن توافق...

نفر بغلظة طالباً منه الكف عن تيئيس مقاصده مقسماً أنه سيعاود طلبها وإن تأبّت الآن فسترضى غداً مؤكداً بيقين صارم:

– ستغدو زوجة لي بأي صورة كانت.

نهض مبخوت من جلسته مودعاً بركات ومضى إلى محل كهربائي افتتح دكانه قريباً وقد اكتسب صاحبه سمعة سيئة لعدم درايته بهذه المهنة واستمر وجوده لكونه الوحيد في القرية يقوم بمهام تركيب أطباق القنوات الفضائية وإصلاح الأعطال الكهربائية وإن ترك له الأمر ادّعى معرفته بكل ما لا يخطر ببال... اصطحبه من أجل معالجة السلك الساقط على بيت علي بن إبراهيم مشترطاً عليه إجادة العمل وإن لم يتقنه فلن يحصل على مقابل...

في طريقه صادف سلمى تسير بتلكؤ متحاشية أشعّة الشمس بقطعة كرتون كبيرة وهي ترقب بقرتها التي تعتلف من حشائش كثيفة نبتت بالقرب من سياج أرض مسوّرة يقال إنها لأحد محافظي المنطقة اختار موقعها بعناية لمعرفته أن مشروعاً خاصاً بالدولة سيعبر من خلالها.

– ما الذي أخرجك في هذا الجو الحارق يا سلمى؟

– الحياة حارقة يا عم مبخوت، طلبت مني زوجة علي بن إبراهيم غسل ملابس عائلتها...

– تغسلين الملابس ومعك بقرتك...

شهقت بالضحكة مبدلة قطعة الكرتون للتغطية من أشعة الشمس التي جاءت من خلف مبخوت:

– القرية صارت مرتعاً للصوص وخشيت على بقرتي إن تركتها وحيدة في مربطها أن أعود فلا أجدها، فجلبتها معي، وبين الحين والحين أخرج أتفقدها.

– سأوصل الكهربائي للبيت وأعود إليك...

– قد تجدني أو لا تجدني، كلفني عبد الله عيسى برعي دوابه في الوادي وعليّ التجهز قبل الذهاب إلى المرعى فقد أوشكت على الانتهاء من غسل ثياب أبناء علي بن إبراهيم...

لم يكن أمر السلك المدلى يتطلب سوى لفّ عريه بـ«شطرطون» إلا أن الكهربائي المصري أقام مشروعا يبدأ بسحب السلك من الكبينة المغذية للتيار وإعادة تسليك أربعة موصلات تفرّعت داخل البيت مؤكداً أن خطرها حتمي ما لم تُستبدل.

تركه مبخوت يفعل ما يشاء، واسترخى داخل غرفته مقلباً القنوات الفضائية من غير تركيز، ومع غياب الصورة خرج للعامل المصري صائحاً به ومتسائلاً عما حدث من انقطاع للبث الفضائي ليجد إجابة جاهزة تشير إلى ضرورة تغيير رأس الطبق والقسام معاً، فصرخ به:

- كان يعمل بجودة عالية قبل أن تأتي...

إصرار العامل المصري وتأكيده على جودة عمله أديا إلى فورة غضب اجتاحت مبخوت وقلما تحدث له:

- وما علاقة سلك الكهرباء بالطبق الفضائي؟

رغب في إنزال ذلك العامل وترك الأمر على ما هو عليه إلا أن غياب البث التلفزيوني سيستمر ويتطلب منه الانتقال إلى الخوبة كي يجلب مهندساً آخر، فاستسلم لعبث العامل وترك له البيت وخرج إلى السوق كي يتبضع وجبة غداء لهما معاً.

لم يجد سلمى في طريقه، فأكمل السير صوب السوق مستعرضاً النساء العازبات في القرية لو أنه أقدم على الزواج بأي منهن، فلم تسكن بخاطره واحدة بعينها، وقفت سلمى بباله كخيار مفضل وكلما أراد إبعادها عادت كما وصفها بركات فينفض مخيلته جيداً قبل حلول وجه بركات معيباً عليه دناءة نفسه بالوقوع في ما أحب.

أحس بناغز ينغز خاصرته فتباطأت حركته ولمح طيف أُنسٍ يتضاحك:

- كي لا تفكر في امرأة سواي، أنا أو الموت.

حان وقت المقيل، فخطا بقدميه صوب بيت جبريل بن حسن منضمّاً إلى المقوتين هناك، ساعيا إلى تبديد حالات تدفق ذاكرته بصور الماضي وأمنية الالتقاء بأُنس كي يوصل بين زمنين.

يداوم الليل والنهار متنقلين بين جبلي الدخان والدود بوجوم الصباحات العابسة في جريانها على عرصات القرية التي تدفع الأيام بعبثية شوارعها المتعرجة وتفلت البهائم إلى خارج بيوتها بحثاً

عن علف نسي الجفاف ابتلاعه، وتقافز القطط على الجدران التي فصلت المنازل عما كانت عليه سابقاً بحثاً عن غذاء يقيها التسكع، وتسابق الدجاج لنقر دود تولد من عفن المرمى الخارجي، ووقف طير أسفل جهاز تبريد ماداً منقاره لاصطياد قطرة ماء قبل أن تحط على الأرض... دارت الساعات ببطء متثاقل تجذب ظهيرة قائظة نحو جلسات المقيل المخبّأة تحت أسقف غرف تحنّط ساكنوها بالملل المعتاد الرتيب، مجترّين الحكايات والأخبار أو الترنّم على نغمات منبعثة من أجهزة التسجيل تصدح بغناء صنعاني يجذب ماضياً لم يعد له مكان، يحتسون القهوة وينفل كل منهم ملابسه ويمضي كي يدسّ جسده في لحافه عابثاً بأحلام مترعة انسكبت لحظة تقويت ألف تكرارها ولم يألف تحقيقها.

هذا المقيل لم يكن كسابق عهده فمع انتصاف زمن متّكئهم تعالت صيحات النساء وتراكض الصبية موزّعين خبر مقتل سلمى بعيار ناري صوّب عليها من أعلى الجبل...

تراكض الرجال تلبية للاستغاثة، وعادوا بحثاً عن أسلحتهم المخبأة مع سماع خبر تناقلته ألسن عديدة:

– الحوثيون يحتلون بلادنا.

الفصل الثاني عشر

- أيكون هواش الصعدي من فعلها؟

هكذا تبادر إلى ذهن مبخوت مع تلقي خبر مقتل سلمى بالقرب من الشريط الحدودي أسفل جبل الدخان.

مضى زمن طويل على حادثة موسى، فهل جريان الدم يطيل عمر الباحث عن الثأر؟ تذكر ما أسرّ به الرازحي من توظيف هواش لأناس من أجل مواصلة وتتبع ثأره كي يبرّ بقسمه حتى لو كان تحت الثرى.

مع مقتل سلمى بكى بركات كما لم يبكِ على زوجته حسينة.

وجدت جثة سلمى في حالة مزرية إذ تطايرت أحشاؤها على هيئة قطع لحمية مفتتة لا تعرف كبداً من أمعاء من مرارة أو كليتين مع تهشّم للعمود الفقري في أعلى العصعوص إذ ظهر أن الإصابة اخترقتها من الخلف باتساع حبّة المشمش فتتغلغلت الرصاصة مفجرة الأحشاء ومعمقة اتساع خروجها بدائرة يصل قطرها إلى 25 سم، وعثر على جزء من كليتها تحت أظلاف البقرة التي بقيت مستسلمة للحبل المدلى من عنقها والمنتهي بقبضة يد سلمى، وتناثرت مجموعة من الأغنام والخراف ترعى عشباً نما باستطالة عود القصب، وابتعد حمارها

المشدود عن موقع الحدث راقياً بقوائمه سفح الجبل المتعالي.

تحرّك بركات بين الجموع المحيطة بالجثة جامعاً أشلاءها في شاله ومنتحباً كالثكلى. حُملت الجثة إلى بيته فلم يكن لها قريب بالقرية، وادّعى أن خطبته لها بمثابة زواج لو سارت الأمور على طبيعتها، وبهذه الحجة الواهية أقنع رجالات القرية أو أرادوا الاقتناع تخففاً من واجب سيحمله أحدهم، وأبدوا تأييداً لخروج جنازتها من بيته.

كانت خشية بركات بادية على ملامح وجهه الذابلة من تدخل مبخوت وكشف رفضها له، لذلك بادله نظرات المحذر من إفشاء تمنعها وعدم قبولها به.

تجمع بعض نساء القرية من أجل تغسيل جثمان سلمى وتكفينه، وتناسل أغلبهن من أمام الجثة لعدم مقدرتهن على تحمّل رؤية كل الخراب الذي لحق بجوفها، وزاد استنكارهن في تجرؤ بركات على إعادة القطع اللحمية التي جمعها من موقع الحادث إلى داخل ذلك التجويف المهول محاولاً تسكين كل عضو في مكانه.

- أي رصاصة هذه التي انطلقت لتحدث بجسدها كل هذا الدمار؟!

كان من المقرر أن تدفن في ساعتها لولا أن الأمر تعقد بتدخل الشرطة وانطلق مبخوت مع نفر من رجالها لاستكمال إجراءات الدفن. كان الوضع داخل الشرطة مريباً إذ اتسعت الاتصالات إلى أن وصلت للعاصمة.

وأثناء وجوده سمع أقوالاً كثيرة لا تصل إليه مفصلة إلا أن تدفقها الغزير كوّن لديه رأياً بخطورة الوضع، ومع قدوم وظهور

رتب عسكرية كبيرة استشعر أن الأمر ليس جريمة قتل فحسب بل أعمق من ذلك بكثير، وكلما أراد الاستفسار تم تجاهله. انقلب المركز رأساً على عقب، واختلطت فيه مجاميع تأتي من أماكن متفرقة، وبعد ساعات استُدعي طبيب من مدينة صامطة وتحرك بمعية عدد كبير من رجال الشرطة، أخضعوا الجثة للكشف والتصوير وأخذ أقوال بعض من تبرّع بالإدلاء بشهادته.

هذه التعقيدات قابلها بركات بالسخط ومشاجرات عديدة نالت بعض الرتب العسكرية وأكسبتها توتراً حتى وصل تهديد بعضها حدّ اقتياده إلى سجن الحائر إن لم يكف عن إزعاجهم.

انتهى الكشف وتشريح الجثة قبل أن يصل بركات إلى النقطة الأخيرة من تنفيذ وعد حمله إلى سجن الحائر، ومع انتهاء الإجراءات الرسمية وقف بركات على رأس الجثة كجندي يؤدي القسم العسكري:

– سندفنها في مقبرة المغيرا كي يشبعها وادي خلب من مائه.

انطلقت مراسم الدفن في اليوم الرابع، يتقدّم المشيّعين بركات ومبخوت وسالم دنيني ونفر من رجال الشرطة وبقيت النساء يتبعن الجنازة بالصراخ المتوالي.

هاجت الذكريات في وجدان مبخوت، وهو يرى القبّار يحفر قبر سلمى بجوار قبر حفصة تماماً...

نشط بركات وطلب المساعدة لإنزاله إلى عمق القبر طالباً من القبّار توسيع اللحد وتناول جسدها المتمايل بين أيدي المشيّعين وقد عجز كفنها المبطن بثلاث طبقات عن ترشيح الدم الذي علق بأيدي

منزليها إلى القبر، وهو الأمر الذي حمّل المستشفى نعوتاً أقربها الإهمال وإبقاء الجثة في كفنها الأول الذي لفت به قبل أن تحمل إلى المستشفى، ومع توسيدها اللحد أجهش بركات بالبكاء مطالباً دفنه معها.

– أوكان يحبها بهذا العمق؟

طاف السؤال بمخيّلة مبخوت بينما انشغل المشيّعون بالتوسّل والرجاء في إقناع بركات بالخروج وأن يستعيض الله خيراً.

كتم صابر محلوي لعنات متيبسة بين شفتيه، وجذب اثنين من المشيّعين للمضي بعيداً عن تلك الحالة:

– الموت أراحها من هذا الخرف إن صدق.

وأثناء سيره تبادل مع مسايريه تهكماً مبطناً على ادعاءته ومغالاته في إظهار حزن مفتعل، ومنذ أن قتلت سلمى وسؤال يطوف بين ألسنة أهالي القرية:

– ألم يعرفوا من قتلها؟

كانت النساء في القرية يحكن خبراً عن عاشق استدرجها ليقتصّ منها بعد موافقتها على رمي شبابها في مزبلة بركات ونسيان قلب خفق بها، وأخريات يتقوّلن أنها تستتر بالرعي من أجل تمرير صفقات تجار السلاح بحملها على ظهور الحمير وإيصالها إلى الموزعين بالداخل، وقبل اكتمال خياطة حكاياتهن سرى في القرية تسلل الحوثيين إلى كثير من القرى وإعمال السلاح في أجساد أهاليها العزل، فهاجت مشاعر الرجال وتنادوا للوصول إلى أسلحتهم من أجل حماية أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

الفصل الثالث عشر

تقعّرت القرية مثل أنثى تعرف جيداً بوادر الطلق، فتوالدت أسلحة ورجالاً تقاطروا للاجتماع في بيت الشيخ عجيل بن محمد لمناقشة ما يمكن فعله.

وجوم الشيخ وتردّد كلماته أصابهم بالخيبة:

– ما الذي تقوله يا شيخ؟

– هذا الذي بلغني.

– نترك منازلنا لمن؟ لهؤلاء اللصوص.

– قلت لهم زوّدونا بالسلاح وتركونا معهم. فوالله لنعيدهم إلى صعدة في ليلة واحدة لكن القرار صدر وعلينا التنفيذ...

– أي قرار هذا... وأي تنفيذ تتحدّث عنه؟

– الرحيل وترك الساحة للجيش فهو أدرى وأعلم.

تصايح الجميع واشتبكت أصواتهم الغاضبة المتذمّرة:

– كيف نرحل؟! وهل نحن نسوة حتى إذا أطلق أحدهم رصاصة تراكضنا في البراري؟! والله لا نموت إلا على أرض أجدادنا.

جاء صوت الشيخ عجيل مفخماً وإن اعترته نبرة خجل حاول

مداراتها بالنحنحة الكثيرة:

– هذا قرار دولة و لم نعد كسابق عهد أجدادنا فنحن شبر من جسد دولة وهي التي تحمي كيانها.

– إن كنت موظفاً عند الدولة فاذهب إليها، أما نحن فسنموت على تراب أرضنا.

وتصايح نفر منهم:

– ومن الآن لا مشيخة لك علينا.

انسحب معظم المجتمعين فيما بقي نفر قليل يقلب احتمالات الرحيل في ذهنه بذهول...

اشتعلت القرية بالأقاويل وتبادل الأخبار المبثوثة على القنوات الفضائية، وتمركز بعض الرجال على مداخل القرية شاهرين أسلحتهم من ثقوب متاريس تحصنوا خلفها، وانشغل حمود بالتباحث من أجل توفير السلاح الكافي، مفكراً بعزان كي يمدّهم بما يحتاجون إليه، فتضاحك عليه بعض ممن طلب معونتهم المادية:

– وهل تظن نفسك في عهد الإمارات والمشايخ؟ هناك دولة هي التي تحمي أرضها...

ماتت كل حججه التي دار بها بين ظهرانيهم وفي كل جهة يجد الصد حاضراً، وفي كل مجلس يصل إليه يصرّح بجملته التي تخرج من فمه حاملة رذاذ غضبه وحنقه:

– «لو ماعندي شقفة سلاح حاكلهم بأسناني».

تزعّم حمود قرار المواجهة وانشغل بإقامة المتاريس وإذكاء روح الحماسة في الرجال، وحين ضاع صوته بينهم تهاوت حماسته بعد

أن رأى تناسل المؤمنين بفكرة البقاء يتفرقون منشغلين عنه بتدبّر كيفية الرحيل وترك ديارهم إلى حين كما أشار عليهم الشيخ عجيل وأشعل خشيتهم أن الدولة ستعتبر من لا ينقاد لأوامرها خائناً.

– صدر أمر الإجلاء...

ألقى الشيخ عجيل جملته في تجمّع حضره أغلب رجالات القرية، فنفر حمود من بين الجميع قائلاً:

– إجلاء، أنسيتم قرية قنبورة التي شُتّت أهلها قبل سنوات و لم يعودوا إليها أبداً، والآن يريدون إجلاء خمسمئة قرية، والله لو مت هنا ما تحركت شبراً من أرض أجدادي...

– لن تموت، سيحملونك غصباً عنك.

– لا أحد يذكر هذه الأرض إلا نباتها ونحن نباتها وغبارها وماؤها وفرحها... كيف أتركها؟

وانفعل إلى درجة أخافت الحضور:

– الآن عرفوا أنها بلادهم وقد نسونا خمسين عاماً، والله لن أغادرها ولو مت في مكاني...

وقف حمود بينهم منخور العزيمة، خائب الظن من رجال قريته المفرطين في عزتهم يشتكي هوان وذل الحال، مستغرباً كيف وصل الأمر بهم إلى التهاون والانقياد والاستسلام ورمي مجد قبائلهم والاستجابة إلى نداء النزوح:

– والله إنها مسبّة لن تُمحى.

قال جملته في نفر ممن بقي مسانداً فكرته وانعطف إلى بيته عازماً على البقاء مهما كلفه الأمر. وجد زوجته تحرّضه على توفير سيارة

نقل من أجل تحميل أغراضهم التي سيحملونها معهم:

- هل جننتِ؟ تتركين بيتك وأرض أجدادك للصوص؟

- وما جدوى أجدادي لو مت هنا؟

- هذا هو الشرف الذي نقسم به دائماً.

- تركته لك، ابق وحدك واستقبل الحوثيين وضيّفهم على دمك، أما أنا وأولادي فنازحون نازحون.

صاح حمود بجاره الأيمن مستنكراً:

- يا مبخوت حتى زوجتي تخرج على إرادتي.

- ....

- حتى أنت لا تسمع.

تحجّرت الكلمات في فم مبخوت وهو يسمع صوت حمود يصله ثاقباً الجدار الفاصل بين الدارين، ومنعه من الرد خجل ارتقى إلى الكلمات وجز عروق نمّوها وأبقاها متيبسة بين اللهاة ومقدمة الأسنان مثل لقمة استحى لائكها من لفظها أمام الحافين بمأدبة دسمة، فازدردها باستعصاء.

- أسمعك يا حمود، كلنا خرجنا عن إرادتنا غصباً...

جاس حمود داخل بيته ينقب عن تاريخ طمر الرجال وأبقى أعجاز نخل تثمر دوداً. ظل يصرخ بزوجته: غدونا كجذوة نار يلتقطها العابر ويشعل بها حرائقه الصغيرة لا لشيء إلا ليضع عليها دلته ويرتشف قهوته على رماد سير بطولات مات أصحابها منتصبين...

- كانوا كالأشجار يموتون وقوفاً، فمن ذا الذي يموت واقفاً إلا المقتول.

انفرطت فكرة البقاء، وانطلق الكثيرون بحثاً عن وسيلة نقل توصلهم إلى داخل المنطقة والابتعاد عن الشريط الحدودي، وانشغلت النساء بجمع الحاجيات التي سيحملنها معهن.

كان الحزن قارساً مستفحش النفوذ، يعصف بالأرواح كورق لم يعد منتمياً إلى شجرة عتيقة.

حام الليل بجناحيه مرفرفاً وجلاً يتلفت في مداخل القرية خشية من رصاصة تسقطه من عليائه فلا يضوي إلى عشه، وبخفة الحذر بسط أطرافه متحسّساً قلوباً كشفت عورتها وأعلنت سريرتها أنها لا ترغب في هبوطه.

ظلمة غامقة سالت من قمم الجبال المحتضنة للقرى النائمة أسفلها، وسرى سكونها متدفقاً كسيل تعطل مجراه فتفرّع متغلغلاً في الصدور ونازعاً سكينة ألفوها من سنوات، وعلى إيقاع التوجس نامت بعض القرى كآخر ليلة يودعون فيها مراقدهم.

أوى مبخوت إلى فراشه محتضناً وسادته وذكرياته، كم هي الرحلات التي غادر فيها قريته من غير أن يشعر بسهم الغربة يشقق شغاف قلبه. كم هي الليالي التي غفا فيها متهيّئاً للرحيل بنشوة الباحث، والمطمئن بالعودة إلى الوتد الذي يسبل له حباله فيمد غربته كريح بسطت أطرافها في أي موقع تصله، حتى إذا اشتاق انجذب وعاد إلى موقعه مشدوداً بموقع راسخ لا يتزحزح كهذه الجبال الباقية في مواجهة الزمن والغبار والأمطار والمرض والجوع والأنات والمدى المسافر عنها، والعشب المتيبّس على سفوحها، جبال تقبل أن يتغيّر كل شيء إلا انتصاب قممها. وفي انثيال أفكاره تساءل:

- ما بال هواجس الليلة تحيل الرحيل إلى ضياع وهوان وذل.
تقلب على جمرات السهد كلما طرأ بباله الرحيل.
- أي معنى يحمله الرحيل هذه المرة؟
يجثم على صدره حجر ثقيل وطنين بغيض يتسع رنينه كلما تخيّل فرقة المرتحل في سعة الكون والمكتوب له أن لا يعود.
- آه يا حمود، الموت هو القرار الأسهل لكن المرء لا يريد ترك آخر شهقاته ملكاً لخانقه.
الحسرة أن تموت بعد أن تطفح صورة قاتلك من حوض عينيك فلا تقدر أن تعود كي تغرقه في دمائك المسكوبة، والمأساة أن تمضي محتفظاً بصورة قاتلك وأن تدفن معك أيضاً، وكأن العذاب أن تتلحّد الثرى مع قاتلك الذي لا تستطيع فعل شيء له حتى البصق على وجهه.
نهض من رقدته يتفقد ما يمكن حمله معه في رحيله الذي لا يعرف إلى أين وكم سيطول وبمن سيلتقي.
- أسمعك يا حمود... هل أعددت راحلتك؟
هكذا هم الجبناء يعدون الراحلة وزوادة الهرب ولباساً يختبئون فيه ويسرعون الخطى متلفتين ممسكين بوجيب قلوبهم كي لا يفضح مسلك ممشاهم.
غاص الليل بين جبلي الدخان والرميح كماء تصبّب من عل وتدفق بغزارة يغشى تلك القرى المنكبة على نفسها، الليلة ليست ككل ليلة، فمرقده فُرش بجمرات الأسئلة فيهرب منها بالنهوض والدوران حول نفسه، ويعود إلى مرقده ينفضه، ويتمدّد كجثة تنتظر مشيّعيها، وحين يتخيّل هذه الصورة يقفز من منامه ذارعاً احتمالات ما يحدث.

جاوز الليل منتصفه بين نهوض واستلقاء، فقرر التخلص من أي صورة مقذعة، وأغمض عينيه ماسحاً عشرات الصور التي تحط بباله من غير استئذان، واندس في فجوة النوم متخندقاً من هجوم خيالات شرسة أهمها أنه وجد قافلة صغيرة تهبط من قمة جبل الدخان وتبرك بجمالها في سوق القرية حاملة معها: أباه وأمه وحفصة وأُنس، منيخين جمالهم بعد أن حملوا على ظهورها كل ما احتواه البيت حتى إذا حان السير فزت المطايا من بركتها ووجد نفسه الوحيد الذي يمتطي جملاً شارداً أوغل في البعد. بينما كل أفراد أسرته يلوّحون له كي يعود، حفصة هي التي ارتفع صوتها:

- لمن تترك عظامي يا مبخوت؟

ورأى نفسه يحمل لفافة كفن لوليدة ويضعه داخل الهودج وبه عجلة للحاق بأُنس التي تتدحرج من على جبل القهرة مخضبة بدمائها وصوت يناديه:

- ادفنها مع حفصة... ادفنها مع حفصة.

تدحرجت إلى أن وصلت أسفل الجبل. وحينما نهضت تتفقد جراحها انطلقت رصاصة مخترقة قحف جمجمتها تاركة دمها يشخب عالياً صوب السماء، ويتكوّر على هيئة نجمة تهوي فتشق المدى وتشتعل الأرض حريقاً.

تململ في رقدته، جامعاً تمزق حلمه المشتت على طلقات رصاص تصل إلى أذنه متقطعة وحيناً تفجر بمواصلة أزيزها مختلطة بصرخات واهية تصل من أطراف القرية وتتواصى بها الآذان التي تسمعها فتلهج بها الألسن وتوصلها إلى مكان آخر، فعمّ التنبيه بصياح مفجوع:

- دخل الحوثيون إلى القرية.

استفاق مبخوت من رقدته قافزاً إلى سحارة أبيه بحثاً عن سلاح يحتزم به فإذا به يلتقي بمسدس موسى هواش ملتفاً بشملته أميناً على رصاصاته المحشوّة منذ زمن بعيد. التقطه مع رشاش سوفياتي الصنع طالما فاخر أبوه بطلقاته القاتلة، وسارع إلى مدخل القرية من الجهة الشمالية لمواجهة المتسللين مع نفر قليل سعوا للانضمام إلى حرس الحدود، وكانت الخشية أن يقتنصهم جنود الحرس فليس هناك شارة في الملبس تفرّق بين المواطنين والحوثيين الذين تمركزوا في مواقع بعينها وتفرغوا لاقتناص من يظهر لهم.

كان هجوماً مباغتاً لم يمكّن رجال قرية الغاوية من الإفاقة من مخدّر الاتكالية الذي وخزهم به لسان الشيخ عجيل. حدث ارتجاج وخذلان استعاضت فيه النسوة بالصيحات والاستغاثة برجال حرس الحدود الأقل عدداً وعتاداً ليدور اشتباك متخاذل من قبلهم في انتظار المدد العسكري من جازان.

- اصمدوا ريثما يصل المدد.

جملة انطلقت في الظلام لأحد جنود حرس الحدود تحمّس وتثبّت الأنفار المجتمعين بعضهم حول بعض والمصوّبين أسلحتهم خلف أشباح تتراكض في الظلام. أوصى حمود بالتلمس وتعرف المتجاورين بعضهم من بعض خشية اندساس غريب بينهم. وجد مبخوت ظهره ملاصقاً لناصر العجيلي المرتجز لأبيات شعر تحيّي أمجاد الثارات المندثرة ومذكراً بمقتل القائد اليمني «حميضة» على يد أجداده حين أراد الإمام يحيى حميد الدين إخضاع أعناق الحرث فأوردوا قائد سريته الهلاك...

– من يسمعك في هذا الظلام يا عم ناصر...

– الأرض والشجر والحصى فالمكان له روح وسيعرف أننا نموت من أجله في كل زمان.

حدبة ظهره وتعثر خطواته أبقيا لساناً متوثباً في تحميس من حضر. كان هجوماً مباغتاً لم يتركز على جهة واحدة، فتوغل الحوثيون في داخل القرية ودوّت الأعيرة النارية من أماكن متفرقة تتبعها الصرخات لرؤية ظلال قامات المهاجمين الباحثة عن أي هدف تصوّب عليه. هذه النيّة قابلها صمت مطبق ودعوات معلقة برجاء طلوع الفجر قبل أن تزهق الأرواح.

تسلل النهار على قرية الغاوية مرتبكاً يهز شمساً ارتجت على الأهالي بانحدار الحوثيين من سفوح جبلي الدود والدخان في هجوم خاطف وعبثي. المتاريس التي أقامها حمود ومن آمن بفكرته لم تكتمل بعد، والمهاجمون اتبعوا أساليب العصابات القائمة على الترويع وتصويب من يعترض طريقهم والتفرق داخل القرية وخطف ما لا يعيق ثم الانكماش والفرار إلى الجبال المطلة على القرى.

رأت القرية فرجة الأمل تتسع مع سرعة تجاوب الإمدادات بتحليق الطائرات الحربية وإسقاط المظليين على عدة محاور لعزل وتقطيع مجاميع تكتل الحوثيين. انحدر المتسللون انحداراً مؤقتاً نحو تخندقاتهم بين فجوات الجبال المطلة على قرى الشريط الحدودي متوعدين بكرة مستفحلة...

– وجب إخلاء القرى قبل أن يُستخدم الأهالي كرهائن أو دروع بشرية.

كان حمود لا يزال متأرجحاً بين البقاء أو الموت على أرض أجداده وفكرة الانطلاق بأسرته إلى مكان آمن ترجّح بطولته المسنونة على فكيه. أنهت تأرجحَه الأخبارُ المتناقلة بأن الحوثيين استولوا على قرى المجدعة والمقبص والجابري وكانوا على وشك التهام قريته ليلة أمس:

- أما زلت متردّداً؟

ظل مطرقاً وزوجته تُخرط لوماً امتلأ به فمها، فشبّهها بالمخرز الذي ليس له من فائدة سوى تعميق الطعن، التفت إليها محذراً من إضافة أي جملة ووعدها أن لا تبيت ليلتها في قرية الغاوية.

استشعر قادة الجيش السعودي تباطؤ خروج الأهالي وصعوبة الحركة داخل القرى المأهولة بالسكان. وقبل أن يثبتوا آلياتهم الحربية عملوا على إطلاق نداءات متكررة وحاسمة من خلال مكبرات الصوت اتسعت لها آذان أهل القرى ووعت التحذير من مغبة البقاء:

- أُعلنت الحرب وستتحول المنطقة إلى ساحة معركة يجب الإخلاء خلال ساعتين.

الوقت الممنوح ضاق بما يجب فعله، وكصعق كهربائي نفضت البيوت سكانها دفعة واحدة، واندلحوا في الطرقات المؤدية إلى المدن الداخلية تاركين خلفهم أرواحهم وذكرياتهم وممتلكاتهم.

أفواج من الناس خرجت من قراها المتعددة قاصدين صامطة وصبيا وأبو عريش وأحد المسارحة. كل قرية اختارت المدينة الأقرب إليها، من غير أن يعرف أي منهم إلى أين يتجه فأمر الإجلاء لم يحدّد الجهة المقصودة.

دائرية قوس قرى الشريط الحدودي نشطت في ضخ النازحين بأعداد كبيرة، وتساقط معهم أناس من القرى اليمنية هرباً من جحيم النار التي ستتقد خلال وقت قصير، فانداح الناس كالأغنام السائبة الباحثة عن مرعى في مياه البحار. تعكرت الطرقات بالغبار ونفير السيارات، واختلاط أصوات البهائم، ونقع أناس راجلين محملين بما لا تطيق أبدانهم، ودافعين أمامهم أنعامهم: من بقر وغنم وجمال، وهناك من حمل بسطاً وأواني، ونشطت الدراجات النارية بنقل من تعثّر سيره بمبالغ مضاعفة، وضوضاء مدمدمة، وهواجس متشجرة، وأمانيّ مقصوصة. مجاميع مختلطة تسيح في الأرض كمياه تبحث عن مجرى لها.

ارتجّت الأرض بعبور آليات الجيش الثقيلة وناقلات الجنود المتقدّمة لمواقع التمركز، ليجد النازحون فرصة إظهار الفرح المشوب بالحزن على فقد مساكنهم ومرابع طفولتهم، وتبادلوا مع الجيش العابر لهم التلويحات وعلامات النصر وصيحات لا تعرف أيّ مشاعر يحملها أصحابها.

صور...

ألبوم صور ملتقطة من مخيّم النازحين بأحد المسارحة

على عجل أقيمت مخيّمات متناثرة خارج أحد المسارحة انصبّ فيها أهالي قرى الشريط الحدودي في خلطة غير متقنة.

تحوّل الخبت إلى حقل غرست به مئات الخيام، تدسّ بها الأجساد كما تدس العملات المعدنية في صرة ويربط عليها من غير خشية أن تختنق.

على بعد مئات الأمتار من سوق الأحد الأسبوعي حيث يتوافد «الموعدون» من قرى المنطقة، أقيم مخيّم النازحين مقابل اتجاه هبوب الرياح الموسمية المعروفة محلياً بأيام الغبرة أو السافي وهي الأيام التي يدفن فيها كل شيء ساكن. وكانت خشية بعض النازحين استمرار مكوثهم إلى حلول موسمها فيكون المخيّم قبرهم الجماعي. ومع تطاير أخبار اقتراب موعد «الغبرة» بين النازحين تضاحك عبده بن أحمد:

– رضّوا أنفسكم، جئنا إلى هنا للدفن، هي أيام وندفن جميعاً.

مدينة أحد المسارحة منحتهم ظهرها إشارة إلى نقمة ناشئة جراء احتلال منطقة واسعة من أرضها، وتساهلت في إبقاء أنوار المنازل ترسل أشعة تومض من خلال أشجار الأثل الهرمة مخلفة ظلالاً شاحبة هبطت في الفراغ الفاصل ما بين المدينة والمخيّم.

لغط التجمّع وضجيجه وعشوائيته ولدت مشاهد ينقصها التنسيق في ما بين ما يحدث وتزايُد القادمين بما يحملون من حاجيات خاصة.

في الليل تتكاسل النسمات فلا تعبر طريقها المعتاد، ولا تجد ما يحفزها على مواصلة جريانها فتركد في موقعها كمياه غسلت بها عشرات الملابس المتسخة.

ساحت الأبقار والحمير والأغنام بين الجموع، وتنافرت الدواجن مصوصوة كردة فعل للهش المتكرّر أو تخبّط الاقدام المتزاحمة، وظهرت بعض الحيوانات المفترسة حبيسة في أقفاص جلبها بعض النازحين من أجل عرض أنواعها التي تهدّدهم في قراهم، وكنوع من التأديب حملوها معهم كي تشعر هي الأخرى بأنها غادرت مواطنها، وإن كانت ثمة رغبة مضمرة في نوايا من حملها في بيعها بثمن يوازي شراستها.

ضاق المكان بالأعداد الغفيرة التي صبّت صباً في خبت قفر فتح شدقيه لالتهام كل ما يقذف به مثل معدة خاوية تمكنت أسنانها بعد زمن من طحن ما قدّم لها نيئاً.

اعتمل صدر المكان بسؤال عن كيفية ترويض كل هذه الفوضى وتنسيقها، هذا إذا وجد من يرغب في ذلك، أما الحال القائمة فتنبئ بغياب أيّ نية سابقة أو لاحقة في إحداث الترتيب لكل تلك الفوضى.

الأطفال والرجال والنساء والشيوخ، والحمير والأبقار والأغنام والسيارات والدراجات، وخيام وحاويات مياه وإعلاميون وجائلون وطفيليون ولصوص وباعة ومتطوّعون... كلهم اجتمعوا في هذا المكان لإقامة حياة، كل شخص منهم يريد استعادة الحياة التي كان يعيشها ونسخها في مخيّم الإيواء. خفقت الاحتياجات مرفرفة وقصر التنفيذ. الأسر الكبيرة وجدت نفسها مختنقة داخل الخيمة الواحدة، والموسر شحّت يده، والشحيح طمع فيمن يحلم، والقادم بلا هوية أدخل في عداد المجهولين.

خلطة حاذقة الطعم.

وجودهم في سوق الأحد حولهم إلى سوق يستهلك ما يروّجه البنغال والهنود والباكستانيون من مأكولات ومشروبات تحاول الارتقاء إلى نكهة مأكولاتهم التي أدمنوها في قراهم... فلا يستسيغونها. ومع طول المكوث دفعوا بزوجاتهم وبناتهم إلى الطهو في أماكن مكشوفة...

كانت ثياب أحلامهم معلقة على حبل تراخى كثيراً حتى تماست أطراف تلك الثياب بقاذورات الدواب السائبة.

فكر بركات أنه لن يعود إلى موطنه بتاتاً، ولن يرى شتلة القرنفل التي غرسها كذكرى على فقد سلمى، وتهاوى داخلياً استجابة لخاطرة أن عظامه لن تنعم بتراب مقبرة «المغيرا». تشتت كثيراً حينما بعدت العودة في مخيّلته، وألح على نفسه بتعذيبها بسؤال لم يجد له جواباً على كل من التقى به:

– هل حقاً كتب عليّ أن أكون نازحاً في آخر أيامي؟

تجرّع مرارة سؤاله نادباً نهايته المؤسفة وهو الذي لم يغادر قريته منذ أن وعى، وتطايرت هواجس مخيّلته كذباب المخيّم تحط بكثافة ولزوجة غارسة خراطيمها في الجلود وعلى الطعام ولا تنفر من هش ولا تلقي بالاً بالمبيدات الحشرية التي تستخدم مراراً من غير أن توقف تكاثرها وتزاحمها... هكذا كانت هواجسه أيضاً.

ذهب تفكيره إلى أن العمر الزائد يتسمّم وتغدو الأيام المضافة إلى حياتك تركيزاً للسمّية، لا تجدي معها أمصال الأمل أو الحلم أو الصبر. لاحت منه التفاتة إلى نفور عروقه الضامرة وتعطف جلده وتنبه إلى ضعف بصره وتهاوي قامته بانحناء ظهره وتمركز حدبة مقبقبة في أعلى ظهره:

– لم أكن هكذا قبل مجيء إلى هنا، فما الذي حدث؟

سقطت من رأسه فكرة: إن الإنسان يتهاوى سريعاً حين لا يقيم صلبه بالنسيان.

تعكر مزاجه وجاهد في خلق محاولات الانسجام مع الوضع القائم. اكتسب وجهه وجوماً طاغياً محاولاً تبديد ضيقه بالتنقل بين

خيام الإيواء والاطمئنان على من يعرفهم كوسيلة استئناس تخرجه من وساوسه المتكاثرة.

شعوره بالعجز جعل تنقلاته تتباطأ وهو يبذل جهداً للوصول إلى آخر الخيام، ومن رآه يوم دفن سلمى لا يصدق أن قدميه احتبستا بهذه السرعة وغدا يخط بهما طريقه بصعوبة.

– قلت لمبخوت لا تتركني وحيداً، لكن من يسمع لك في هذا الزمان؟

خبّأ جملته في مسامع سالم درين الذي التقى به خارج خيمته يبحث في حنفية فارغة عن قطرات ماء كي يستكمل وضوءه، وحين لم يجد تلك القطرات انشغل بتصبير فتاة انتحبت على فقدها لأسرتها مجتمعة شاكية عجزها عن معرفة إلى أي جهة مضوا.

وصلت خطوات بركات حين كانت الفتاة تتمخط وتمسح دموعها في تناشج.

– ألم ترَ مبخوت؟

– كما ترى – وأشار للفتاة المنتحبة بجواره – كل شخص له مفقود. تريّث فقد قيل إنهم سيعلقون أسماء اللاجئين في هذا المخيّم.

عبرت بينهما موجة ريح قلبت أطباقاً وقدوراً. ركز على جانب خيمة تشاغل أهلها بتناول وجبة غداء وصلت إليهم من شباب متطوّعين قدموا من مدينة نجران حاملين موادّ غذائية وفواكه وخضاراً وأدوات كهربائية وأغطية، وتناثروا بين الخيام من أجل إيصال معوناتهم بأنفسهم.

وفي مقدّمة المخيّم تعالت مكبرات الصوت معلنة أسماءً لم يستبِن

سامعوها دلالة سرد تلك الأسماء، حين كان سالم درين قد مدّ قدمه اليسرى منهياً أصباغ وضوئه بقارورة ماء عذبة تناولها من العبوات المعدة للتوزيع على اللاجئين مشيراً على بركات بالالتحاق بمقدّمة المخيّم لعله يجد مبخوتاً.

– بهذا السير المتواصل سوف تتصلب قدماي خلال يومين.

وتحرك ذاباً عن وجهه عبوساً طفح غضباً عنه فحاول تقليله بتخزين شمة تناولها من أحد المارة لعل مزاجه يعتدل قليلاً، وفي سيره المتباطئ خلع عصا مكنسة طويلة استندت إلى خيمة انتزعها من غير استئذان من أصحابها، وتوكأ عليها لاعناً الضجيج المحيط به وتلك الأجساد المتراكضة باتجاه صوت المكبر الذي يعلن من خلاله أسماء نزلاء المخيمات. ومع تسابق النازحين للوصول إلى الموقع كانوا يعبرونه من الأمام والخلف والجنب بعجلة غير مكترثين بمن عجز أو تخاذل عن السير فاشتعل غضبه واصماً إياهم بالعقوق لكون تلك المجاميع المتراكضة لم تحفل بمد يد العون له ونقله على دراجة نارية أو إركابه حماراً من تلك الحمير السائبة والمتخلخلة بين أروقة الخيام المنصوبة.

شكواه تلك أثمرت فحظي بلفتة تعاطف من المسؤول عن المخيّم الذي أجلسه على كرسيّ وضيّفه بمشروب غازي بالرغم من احتشاد مجموعة قدمت من قريتي الجابري وقائم الكعوب لم يعثروا على خيام تفي بأعدادهم، فيما واصل الممسك بمكبر الصوت دلق أسماء لا يعرف من فقدت أو من تنتظر.

– صدر الأمر السامي باستئجار شقق في أي مدينة قريبة وسوف

تتكفل الدولة بدفع الإيجار لمن لم يجد مخيّماً في إيواء النازحين.

هذه الجملة اعتبرها البعض بشارة سعد فتنافرت أعداد كبيرة للبحث عن سكن ملائم يقيهم من التمرّغ بالأتربة واستقبال أسراب الذباب والبعوض التي اتخذت من أجسادهم مدارج إجبارية في إقلاعها وهبوطها، وامتدت اختيارات استئجار المساكن من مدينة الشقيق شمالاً وحتى صامطة والموسم جنوباً...

تحت الإجبار أجلي مبخوت وحمود من القرية و لم يُقبل عرضهما للتطوّع بجوار الجيش، وبسبب محاولة حمود الهرب وعدم الاستجابة في ترك قريته وضع في القفص الخلفي من سيارة مقيّداً بالأصفاد بجوار مبخوت، فعبرت بهما قرية الخوبة قاطعة ثلاثين كيلومتراً باتجاه أحد المسارحة.

– لم يبق إلا حملنا إلى سجن جازان العام.

لم يلتفت الجنديان المكلفان بإيصالهما إلى مخيّم الايواء إلى ثورة غضب حمود، وأهملا كل قول يتفوّه به. ومع موازاة وادي دهوان احتاج حمود إلى سكب الرجاءات الحارة لإنزاله بعض الوقت من غير الإفصاح عما نوى، فأمعن الجنديان في إهمال صراخه، فاستعاض عنه بقرع الزجاج الخلفي للحد من سرعة السائق وإيقافه معلناً اضطراره إلى قضاء الحاجة على نفسه مدّعياً اعتلاله بمرض السكر وأنه لا يقدر على إمساك بوله. تردّد الرقيب في الاستجابة، ومع مواصلة القرع والصراخ أذعن لتلبية الصراخ أكثر من إذعانه لكل التوسلات التي سالت من فم حمود وسمح له بالنزول مخفوراً يقوده جندي بسلسلة طويلة مكنت حمود من الانزواء عن العين، فاختبأ خلف أشجار الأراك مفتعلاً خلع ملابسه، و لم يكن محصوراً بل كان راغباً في التمعن في لمعان بياض تربة الوادي وكثافتها وتعمّقت رغبته في التمرغ بين لجج الرمل، وكلما ابتعد في تمرغه جذبه الجندي بالسلسلة الممسك بطرفها:

– هل تتبوّل أم تحاول الهرب؟

أوقف تمرّغه وسحب كوفيته عن رأسه وملأها بذاك التراب اللامع قابضاً على فوهتها بيده المقيّدة، ومع ظهوره من خلف الأشجار استراب الرقيب مما بيده وانبرى يفتشه وحين وجد الرمل ضحك مثل غانية اكتشفت أن إغواء زبونها لم يعد عليها بالفائدة التي انتظرتها، أخذ يقلب الرمل بأصابعه، ويقهقه بفجاجة آمراً حمود بالعودة إلى موقعه داخل قفص السيارة:

– ستجد ما يكفيك من تراب في أحد المسارحة فلا تخف.

ومع انطلاق السيارة أخرج الرقيب يده وحثا التراب مبقياً الإمساك بالكوفية للحظات والتخلي عنها كي تتبع أثر الرمل المتطاير.

ألقت بهما سيارة الشرطة في وسط المخيم مع استكتابهما تعهداً بعدم إحداث إزعاج للسلطات وإلا فستكون نهايتهما سجن الحائر.

غدا سجن الحائر هو التهديد الحاضر على أفواه الجنود يصبّونه في أذن من رغب في البقاء في قريته:

– أريد سجن الحائر هذا.

قالها حمود محتداً وهو يعنّف العسكري الذي جذب يده جذباً عنيفاً كي يخلصها من القيد الموثقة به، ودفع بهما إلى خارج سيارة الشرطة التي انطلقت مثيرة غباراً متعالياً بفعل سرعة قائدها الذي رغب في إبعاد رفيقه عن المشاجرة مع حمود.

هبطا وسط ذلك التزاحم و لم يتبادلا إلا كلمات قليلة أنهاها حمود بالترحّم على قريته وعلى أي حلم بالعودة:

– سيتمركز الجيش في قرانا ولن يغادر ونحن لن نعود.

منذ الليلة الأولى طفح الضجر على ملامح النازحين. كانت الوجوه بحاجة إلى مهشة لذب العبوس المتراكم على عتبات محيّاهم، وآلة شفط تنزح الآهات المتوالدة من صدور ضاقت أقفاصها. جمل التهكم تخرج يابسة تبحث عمّن يطريها بضحكة أو إيصالها إلى أعماق أظلمت تماماً.

السيارات المحملة بالأغذية والبطاطين والوسائد تسمّرت في مكانها مفسحة لنفير أبواقها بالانفلات العشوائي محدثة ضوضاء صاخبة، لعلها بذلك تخترق مسامع المتزاحمين أمام سيرها وتفريقهم عن الطرق الموصدة بأجسادهم. قابل أصوات الأبواق المرتفعة صياح وصفير متتابع وتكدّس مستقصد، ما دفع رجل المرور إلى رفع صوته عبر مكبّر صوت سيارته:

– الرجاء من الإخوة النازحين إفساح الطريق للسيارات.

مسمّى النازحين لم يرق الأغلبية منهم، ومع توالي الأيام فاض الضيق من هذا اللقب وغدا البعض يستنكف عن إيراده في وسائل الإعلام وعلى ألسنة الصحافيين، وكأن رجل المرور ذكرهم بنبزتهم التي تحرق أعصابهم:

– كيف نسمّى نازحين داخل وطننا، حتى المسمّيات لا يعرفون اختيارها.

– ومن قال إن هذا وطنك، وطنك هو الذي أخليته للحوثيين وكان من المفترض أن نموت هناك بدلاً من هذا الذل.

قال حمود جملته وهو يكز على أسنانه غيظاً:

– انظروا تحوّلنا إلى فرجة، ولو أعطونا قطعة بسكويت فإن عشرات

الصور الصحافية والتلفزيونية تُلتقط من أجل كسرة البسكويت تلك ومعها تقارير صحافية تقول إنهم أمدّونا بالغذاء.

- ....

- لقد حملونا حملاً على ترك ديارنا فقرى الراحة والمزبرات وأم التراب وأم الشيح والعين الحارة والقفل لم يصل إليها الحوثيون ومع ذلك أجلوهم من قراهم... لا تعرف لماذا كل هذا؟

- وكأنك لا تعلم، فالحوثيون يتسللون تحت جنح الليل ويطلقون النار عشوائياً.

- هل تتغابي أنت أيضاً؟ إخراج كل هذه الأعداد لم يكن ضرورياً، فالغطاء الجوي والأجهزة الحرارية المتقدمة تمنع أي تقدّم للحوثيين... هم يريدون إخلاء قرانا لكي تكون منطقة للجيش...

- إخلاء عشرات القرى من أجل الجيش، من يفكر بهذه الطريقة المجنونة؟

رفع أحد القرويين رأسه مستنكفاً من الوضع القائم مقدّماً حديثه بجملة استرضائية خشية من مسامع رجال المخابرات المنتشرين كما أشيع:

- خروجنا كان استجابة لولاة أمرنا، فنحن دافعنا عن قرية القرقاعي قبل تدخل الدولة ولو سلحونا وتركونا لأفهمنا الحوثيين الدرس القديم الذي نسوه.

أحاديث متطايرة لم تكن تستقر في أذن أحد لأن الجميع يتحدثون في وقت واحد، وكل لسان يفرغ ما بداخل جوفه كيفما اتفق من أجل الإحساس بأن رئة الواحد منهم لا تزال قادرة على العبّ من الهواء وإطلاقه زفيراً حاراً.

في مصلى مكشوف نفَرَ من ازدحام الخيام، واستكان في حجر خيام المسؤولين عن الإيواء، كانت تقام الصلوات، وتكفلت مجموعة من الشباب بإقامة حلقات ذكر بعد انتهاء صلاتي العصر والمغرب. تعاونوا على جدولة قيامهم بين أيدي المصلين، وأعطيت الأفضلية لذوي الهيئة الحسنة، واللسان الفصيح المتمكن من التراكيب الأسلوبية ذات السجع المتلاحق لمن رغب في الارتجال، بينما توزّعت القراءات من أمهات الكتب على الأقل حظاً في الهندام والهيئة وإن بقي شرط سلامة مخارج الحروف قائماً. هي أيام واتسعت حلقاتهم ونمت أمنياتهم باستضافة كبار الدعاة، وسعوا لذلك بمهاتفة بعض الشخصيات القادرة على التوسّط لدى المعروفين من دعاة الفضائيات والمساجد الكبيرة في العاصمة من أجل تدعيم وجودهم بمحاضرات تجتذب الإعلام... حدثت هذه الرغبة بعد المناكفات التي شبّت على أثر ادعاء بعض الخطباء منهم أن الحرب القائمة على جبلي الدخان والدود ما هي إلا النار التي تخرج من اليمن وأنها سوف تدفع الناس إلى أرض المحشر وما خروجهم من ديارهم إلا البداية التي ستوصلهم إلى الشام.

هذه الخطبة لم ترق المعشي الذي نهض من جلسته وأمسك بالميكروفون مقاطعاً الخطيب:

– يا ولدي ما تقوله عن النار هو من العلامات الكبرى ليوم القيامة ونحن ما زلنا في خير، فلو ذكرت تراتبية الإشارات الكبرى لرأيت أننا ما زلنا بعيدين عن يوم القيامة فلا تهرف بما لا تعرف ولا ترعب

الناس أكثر من رعبهم الذي يعيشون فيه.

كان وقوف المعشي بتلك الصرامة وتسفيه رأي الشاب مدعاة إلى جلب غضب المجموعة، ما حمل أحدهم على فصل التيّار الكهربائي عن آلة الميكريفون، وتعاون اثنان منهم على جذب المعشي كي يتخلى عن موقعه مع تحقير رأيه وتذكيره بدنوّ أجله وهو غافل عن إشارات يوم القيامة.

– عد يا ابن الزنا...

خرجت جملة أبو ناب من فتحة فمه الميسرة لرمي قاذورات سبابه المتراكمة وهو يحث المتجمّعين بجوار خيامهم على مطاردة صبي حمل علامات التشرّد اختطف حافظة نقوده وأسلم قدميه للريح.

تسلّم ناصر أبو ناب مبلغ خمسين ألفاً كإعانة فسار بين خيام النازحين مزهواً وأراد إغاظة سالم درين الذي تعطلت معاملته وأجبر على مغادرة البنك من غير أن يحصل على شيء. وإمعاناً في الإغاظة أخرج أبو ناب الخمسين ألفاً، وكرّر إعادة عد الأوراق من فئتي الخمسمئة والمئة ريال على أن يفصل بينهما بوضع الفئة الأكبر في كمر حزامه ويبقي مبلغاً ضئيلاً في حقيبة نقوده اليدوية وقبل أن ينهي تقسيمته كان فمه يطلق الشتائم:

– عد يا ابن الزنا.

وعندما لم يتنبه أحد لما حدث له أعاد رفع صوته عالياً مستغيثاً فلم يحفل به أحد فتعالت صرخاته:

– هل جلبوا معنا لصوصاً لإفراغ جيوبنا أيضاً؟

لم يكن متوقعاً ردة فعل المعشي الذي هرع إليه مواسياً وملاطفاً وناصحاً إياه بتقديم بلاغ سرقة، وتضامناً معه استأجر سيارة وقفت بهما في قلب أحد المسارحة أمام مركز الشرطة وسجل بلاغاً باختطاف الخمسين ألفاً من غلام تعثّر لسان أبو ناب وهو يصف هيئته وأوصافه، وأقسم على أن لا يغادر المركز حتى تعاد إليه نقوده أو يعوَّض بدلاً ممّا فقده.

اشترك الضابط في مواساته وتصبيره واعداً إياه ببذل ما يستطيع من أجل استعادة الأموال المسروقة. الجشع وحده الذي حمله على الادعاء أن مبلغ الإعانة سُرق كاملاً، وافتضح أمره خلال ساعات مما أدى إلى إسقاط بلاغه، الأمر الذي حفزه – في ما بقي من أيام – على صرف الشتائم على كل النازحين.

عاد إلى المخيّم يستشيط غضباً مقسماً إن الصبي الذي اعتدى عليه أوعز إليه أحد خصومه العتاة وحدّدهم بالأسماء، سالم درين، وأحمد امقاسم، ومبخوت امعمر، وموسى بن عبده، و لم يكن أحد منهم يعلم بما أقدم عليه أبو ناب من تسجيل بلاغ ضده، ولكي لا يظهر عداوته في محنة يعيشها الجميع وكل منهم يستند إلى الآخر. حلف ضابط التحقيق أن لا يذكر لهم أنه هو من أوعز باشتراكهم في سلب نقوده.

عاد إلى المخيّم بنية إظهار توادّه وتراحمه مع خصومه وأول شخص لمحه منهم كان أحمد امقاسم حيث كان يتخبّط في إصلاح رواق خيمته فصاح به:

– أنت لا تجيد شيئاً في حياتك فلماذا ترهق نفسك في إصلاح ما لا يصلح؟

تجاهله تماماً، فتضاحك متودّداً واقترب منه يعاونه في شد حبال الروق وتثبيت أطرافه بأوتاد دقها جيداً. في معاونته تلك انحل حزامه وسقط على الأرض وقابل ساعة هبوب ريح استطاعت تخليص وتطيير فئات الخمسمئة ريال من جيوب حزامه غير المغلقة بإحكام، فتقافز الحاضرون في المكان لالتقاط ما تطاير وهو يصيح ويلعن أحمد امقاسم في كل كتاب ويطالب المتخاطفين بإعادة أمواله المتطايرة.

جلس خالد محلوي حائراً يهوّن على عروسه جزعها فقد مضى عليها خمسة أيام محتبسة فضلات بطنها. هنهنة بكائها بقرت أحشاء الليل النائم على فحيح أصوات نزلاء المخيّم. هنا لا تنام الأعين، ثمة عين مستيقظة دائماً تتربّص بأيّ حركة تحدث. خبّأ خالد عروسه في صدره محاولاً تثبيط هيجان دموعها وهي تشتكي انكشافها على الرجال المبحلقين في أي أنثى تخرج أو تدخل...

احتاج إلى وقت طويل كي يهدّئ روحها واتفق معها على إخراجها إلى مبرز خلوي، فاستجابت لهذا المقترح من غير أدنى استنكار ولفت جسدها داخل عباءتها وتبعت خطواته صوب سيارته الواقفة خارج المخيّم. دار بها في كل الاتجاهات، وفي كل مكان يجد نقطة تفتيش أو أضواءً منسكبة في فلاة الأمكنة تتربّص بأي عابر. أوقف سيارته بين الخطوط الموصلة للمدن والقرى، وطلب منها الانزواء خلف السيارة لقضاء حاجتها، وفي كل خط سائر لا تطاوعها أمعاؤها على قذف فضلاتها. دورانه ذاك أدّى إلى ملاحقته وإيقافه من قبل دورية التفتيش بقصد تفتيشه أو منعه من سلوك الطرق المؤدية إلى داخل الخبوت، فقرر العودة إلى خيمتهما بعد أن عرج إلى بقالة واشترى محارم من ذات الحجم الكبير موصياً عروسه بلبسها وقضاء حاجتها، فاستنكرت فعلته وأبدت تذمّراً وحججاً مقنعة:

– سيلاحقني كل ذباب المخيّم...

رغم غضبها بادلت زوجها الضحك على الصورة التي تنامت في مخيّلتهما من مقولتها وتعقيب زوجها عليها:

– سأطلب لك مكافأة ضخمة بشرط أن تقومي بدورك صباح مساء في إخراج الذباب إلى الحدود اليمنية.

انتهى ضحكهما وعادت أمعاؤها تعتصر، ومع تشقق أمعائها وافقت على الحل النهائي الذي أضحكهما. ومع دخولهما إلى المخيّم لمحا مبخوت يتلمّس حماراً مقيّداً بجوار خيمة المعشي، فسلم عليه خالد وأسر له بما تجد زوجته و لم يكن يتوقع أن مبخوت حمل له مفاجأة لم تكن بالحسبان:

– أنا استأجرت منزلاً في أحد المسارحة وليس لي به حاجة يفديك أنت وعروسك...

وبعجلة أعاد خالد عروسه إلى السيارة وانطلق بأقصى سرعة مثيراً غباراً كثيفاً عصف بالخيم التي تجاوره.

تجمّع نفر من النازحين حول لعبة ورق في محاولة قتل الوقت تاركين لألسنتهم حرية التنقل في أحاديث شتى من غير التركيز في لعبهم، فأقبل حسين شوعي ساخطاً على عدم إيداع مستحقاته في حسابه البنكي ومحرّضاً السامعين على مشاركته شكواه من خلال رفع تظلم إلى الديوان الملكي متّهماً أن هناك من يريد ابتلاع مخصّصات النازحين.

فهوّن من اندفاعه أخوه سلمان صائحاً: تمهّل... تمهل، ماذا تقول؟ الديوان الملكي، هل جننت؟

– ولماذا جننت؟

– ما لم يكن لديك أدلة فدعك من الهذر وتنبّه لأيامك المقبلة.

تدخل بينهما إسماعيل مبارك مشيراً إلى أن إمارة جازان تتابع تأخر الصرف مع وزارة المالية.

فقفز سلمان صائحاً: تأخر و لم يسرق، وهذا الأهبل يحمل اتهاماً جاهزاً ولو طلب منه إثباته لعجز عن الإتيان باسم موظف واحد ولن ينتهي به المقام إلا في السجون البعيدة، حينئذ سيتمنّى لو أنه سحق لسانه وقدّمه وجبة للكلاب السائبة على التفوّه بمثل ما يقول الآن.

وكان يغمز له باتجاه أحد الجلوس الذي تقوّلوا عليه في ما بينهم أنه رجل مخابرات، فتراجع حسين شوعي خطوتين للخلف وردّد بصوت يفيض عن حاجة السامعين:

– صدقت والله، أنا في أحيان تعتريني حالة نفسية أقول ما لا أؤمن به.

– وجذب أخاه من ياقة ثوبه:

– قل لهم ألم أكن نزيل المصحّة النفسية لعامين.

– ....

– لماذا أنت صامت؟ أخبرهم أني أحمل شهادة مجنون... بربك أخبرهم.

تجمّع نفر من النازحين على وجبة إفطار أقيمت بجوار خيمة حمود وهم يتباكون على ضحى أيامهم في قراهم وكيف كانوا يبكرون في الذهاب إلى حقولهم حارثين أو باذرين أو حاصدين أو دارسين، بينما هم الآن كالقواعد من النساء لا همّ لهم إلا القيل والقال، وانتقلوا إلى إيضاح مللهم من الطعام المقدّم إليهم متمنين العودة إلى قراهم كي يتذوّقوا أكلاتهم التي تطهى بعناية. قلّب عمر قرص عيش يقدم إليهم:

– لم نعد نذوق طعم العيش الحامض بخميرته ذات النكهة المنزلية، وهذا العيش يخبز بأيدي البنغال بعد أن تكون إصبع العامل منهم قد نخرت سقف خشمه...

ملاحظته لم تحظ بالتعليق فقد أقبل أحمد صميلي مستحثاً يقظة أسماعهم:

– هل سمعتم؟

أجابه ناصر دفين: ماذا؟

– يقال إن أمراً صدر ببناء عشرة آلاف وحدة سكنية للنازحين وهذا والله إشارة إلى أننا لن نعود إلى ديارنا.

تنهّد حمود كبركان لم تبرد حممه: أبقونا على حالنا وفي أحيان تحت خط الفقر لكي نتماثل مع القرى اليمنية وإلا فماذا يعني منع مواد البناء من الوصول إلينا ومنع تراخيص البناء أو الأنشطة التجارية، وكانت تحدّد للقروي كمية المواد والمؤون الغذائية، وإذا اكتشف حرس الحدود أن الكمية تفوق الحاجة منعوها فكيف يخصّص لنا

فلل سكنية بعدما لم نكن نستطيع الحصول على ترخيص من أجل فرن عيش أو صالون حلاقة.

خفف من حرقته ناصر دفين: فلل أحسن من العشش أو البيوت المتراكية بعضها فوق بعض.

فقز حمود مقسماً بالله العظيم ورافعاً صوته عالياً:

– والله لو بنوا مليون قصر لن يعوّضني عن عشة واحدة في أرض أجدادي ولن أقبل بأن أبقى بقية حياتي أحمل لقب نازح، وعندما يشار إليّ يقال فلان النازح، سأعود إلى أرضي وأموت هناك مرفوع الرأس.

عاد إلى داخل خيمته غاضباً يتجشّم عناء كتم لعناته التي كادت تخترق النظام كاملاً مبلغاً زوجته التجهّز من أجل العودة مستخفاً بحججها فيما سيجدون من عنت أو مقابلة الموت بشظية طائشة.

فردّ عليها حنقاً: على الأقل أدفن في أرض أجدادي.

قابلت فورة غضبه ببرود مبالغ فيه: وإن لم أوافقك.

أراد أن يكون رده حاسماً: يكون فراق بيني وبينك.

تمايلت ضاحكة ومستخفة بما قال: ليكن الآن قبل أن تتراجع عن موقفك.

صورة الذبح

تكبيرات عيد الأضحى تتعالى من زوايا المخيّم وأركانه، والنازحون يسيحون بين الخيام لتبادل التهنئة بالعيد، والشيخ عجيل يدور داخل خيمته كالملدوغ يخرج ويعود إليها وحمم من الكلمات يسكبها فلا يسمع بها أحد. استقرت به الحال أن يقف أمام خيمته تحت وهج الشمس التي أخذت في التصاعد ناثرة أشعة حامية قبل أن تصل إلى كبد السماء. عبره حمود مهنئاً بالعيد، فاستوقفه غاضباً:

– هل ترى يا حمود؟ بعد أن كان تحت يدي ألف رأس لا أجد اليوم خروفاً واحداً أذبحه أضحية، هذا الوضع يرضي من؟

وكمن لم يشبعه القول سحب أحد أولاده من شعره وصاح:

– هل يرضيهم أن أضحّي بأحد أولادي؟

وتله على الجبين شاهراً جنبيته المستقرة على خاصرته، فتدافع الناس جاذبين الجنبية ومسفّهين فعله، بينما نهض ابنه باكياً يبحث عمن يؤمنه من شفرة أبيه إن عاودته حالة الهياج تلك.

انقلب المخيم إلى مناحة. الكل يبكي وليس هناك ما يهدئ الخاطر سوى التناشج، انطلقت شرارة البكاء من عين أحد أبناء قرية الجابري، فمع اقتراب الغروب هبّت نسمات عليلة على المخيّم مهفهفة برقة ومقللة من اختناق المكان بالروائح الوخمة، استقبلها صدر شاب متشمّماً هواء بلاده فأغمض عينيه وأخذ يتشمّم نسيمها:

– أوه، هذه رائحة وادي لية...

التفت إلى مجاوره مؤكداً له:

– هي رائحة وادي لية وكأنه يرسل روحه كي تلحق بنا، فالأماكن تذبل لرحيل أصحابها.

دخل إلى خيمته حاملاً مسجلاً ورافعاً صوت أغنية شجيّة تماست مع تلك القلوب المفطورة والمنتظرة لأي رأس حاد يثقبها، واخترق الخيام بنشيج متقطع:

يا طير يا ضاوي إلى عشك
قلي متى أضوي أنا عشي

مليت شفنا هذه العيشة
وقلبي من الفرقة كما الريشة

القلب على الأحباب يتحرق
والعين من جور الجفا تبكي

والرأس عاده فيه تنغيشه
وقلبي من الفرقة كما الريشة

كان يسير صائحاً بكل من يعبر بهم:

– انظروا إلى السماء، كل الطيور تضوي ونحن هنا قابعون كالسجناء تماماً.

الغناء وصياحه هيّجا المشاعر، فاستجاب لتحريضه عجوز نهض من رقدته وتناول من حقيبته المقذوفة أسفل رأسه كفناً تعطف بانثناءات حادة وخرج من خيمته متوسّلاً بمن تناثر أمام المخيّم من النازحين:

– أريد لفظ أنفاسي في قريتي، أعيدوني إليها وليس مهماً أن تخترق عظامي رصاصة من الحوثيين أو قذيفة من السعوديين فأنا أتلقى هنا عشرات الرصاصات يومياً... أستحلفكم بالله أعيدوني إلى قريتي...

وهوى على الأرض يحثو على رأسه التراب، فسارع المحيطون به إلى التخفيف من حدة انهياره إلا أن شرارة البكاء مسّت أفئدة النساء فرفعن أصواتهن بالنحيب، وتداعى كل المخيّم لصدى نحيبهن، وتمدّدت موجة من البكاء الجماعي طالت كل القلوب حتى الصلدة منها.

حالة ارتباك أصابت رجال الدفاع المدني والهلال الأحمر، فمع بداية البكاء الجماعي هبّوا استعداداً للانطلاق و لم يكن هناك بلاغ عن حريق أو وفاة أو حادث مروري أو دهس. مكثوا داخل سياراتهم انتظاراً لأي توجيه.

واستغرب المشرفون على المخيّم من هذا البكاء الجماعي باحثين عن سبب انبعاثه، فلم يعثروا على شيء ذي بال، وكل من سألوه لا يعرف سبباً محدداً لذلك البكاء.

كان مبخوت ممن انكفأ على ذلك العجوز الحامل لكفنه مهوّناً عليه لوعته، ومطيّباً خاطره بتقبيل رأسه وجذبه وإقعاده كرسياً قدّم من خيمة مجاورة ماسحاً وجهه بالماء وطالباً من المجتمعين التفرّق من أجل إكسابه هواءً نقياً.

وقبل أن يسترد ذلك العجوز أنفاسه، قفز ابن خالة مؤنسة في اتجاه مبخوت واحتضنه إلا أن صهره لم يكن يريد ذلك بل يرغب في تعييره أمام الجميع، فدفع بصوته عالياً محاولاً إيصال صوته إلى أكبر عدد ممكن:

– يا غارة الله عليك يا مبخوت، طليقتك ما زالت ناشبة في قريتها ولا تسأل عنها... أهذا من الرجولة؟

جذبه جانباً كي يعرف ما حدث وأصغى إليه باهتمام:

– بعد موت أبوي مؤنسة لم يعد لها أحد، ومع النزوح رفضت الخروج، واختبأت في التنور، قائلة أموت هنا، فأنا ميتة ميتة.

– ألم يخرجها الجيش؟

– لا أظن؟ فقد حاولنا معها محاولات مريرة لكنها أصرت على البقاء في القرية... وعندما ترجّتها أمي قالت لها لن أخرج إلا إذا جاء مبخوت، وقبل رحيلنا بعثنا لك مرسولاً يبلغك بالخبر لكنك لم ترد.

عاد إلى خيمته التي حل بها بعد أن أخلى سكنه المستأجر تعاطفاً مع عروس خالد محلوي. كان تفكيره منصباً كيف له الوصول إلى

قرية المعرسة وحمل طليقته بعيداً عن القذائف المتبادلة. فتح حقيبته بعناية فوجد مسدس هواش مستقراً في مكانه. اختار ركناً قصياً من الخيمة وجلس يزيّت مفاصل المسدس ويسلك ماسورته مروراً بفوهته، وأعاد مخزن الرصاص إلى موضعه مستيقناً من صلاحيته، وحين همّ بالقيام برحلته تلجلجت رغبته في حنايا صدره:

– سأموت من أجل امرأة لم أحبّها قط... قاتل الله النخوة.

الفصل الرابع عشر

مضى شهر كامل على مبخوت وهو لم يحرز تقدماً في اختراق تلك النقاط الأمنية. كان يذهب مستكشفاً الطريق ويعود فيجد ابن خالة مؤنسة يعنّفه أمام الجميع:

– هل من الرجولة ترك طليقتك وحدها؟ افعل شيئاً من أجل أبيها الذي «اشتراك وأغلاك» وفضّلك على جميع من طلب يدها.

كتم غيظه بشتائم داخلية لذلك الرجل وإن بدا وجهه صقيلاً بابتسامة عرفان لأن نصيحته تقود إلى مكارم الأخلاق وإن أخفى نقمة متعالية وسباباً يبادله ويقيم عليه حجة السفالة لكونه غادر القرية من غير اصطحاب ابنة خالته.

يبدو أن موقف مبخوت المتساهل أغرى الرجل بمداومة اللوم، وأضاف إلى ثقل روحه إحضار أمه من أجل أن تروي لمبخوت كيف تركت ابنة أختها في حالة يرثى لها و لم تقبل بالزحزحة من مكانها إلا إن حضر هو لنقلها، وأخذت تلاطفه وتتمنّى منه مد رجليه لإحضار مؤنسة من القرية.

كان عليه قطع خمسين كيلومتراً متسللاً في اتجاه المعرسة. وعلى

امتداد الطريق انتشرت وحدات الجيش وثكناته المقامة على عدة خطوط متقدمة ومتأخرة تغطي المساحة بين مواقع المواجهة ومؤخرة المعسكرات، فأيقن من صعوبة اختراق نقاط التفتيش التي تجيز عبور القوات العسكرية فقط، وتنشط في ضبط من يحاول العودة إلى القرى القابعة بمفردها في مواجهة نهب الحوثيين.

انتقى حماراً معافى من الحمير المملوكة غير تلك التي تتجول ناهقة وسافحة ما في بطنها من كر بين جنبات المخيّم، وفي اختياره للحمار الذي سيعبر به اقتفى وصايا الأكتع حينما كان يتخيّر الحمير التي تقلهما بين مدن وقرى اليمن في هروبهما من الحوثيين، فالأكتع يرى أن الحمار تظهر أصالته من جلده الأملس القليل الشعر وكفله المرتوي المشدود وطريقة حسكه للعليق، ومثل هذا الحمار يخشى عليه أصحابه من العين فيعلقون على رقبته حرزاً اتقاء شر العين الحارة.

وفي بحث مبخوت بين حمير المخيّم عن تلك المواصفات وجد حماراً «موصوراً» بجوار خيمة المعشي، فلم يتردّد في فك عقدة رباطه ووضع الشد المجاور لعلفه، وامتطائه بعجلة لاكزاً خاصرته الضامرتين بعقبي قدميه فانطلق به خارج المخيم.

كان جسد مبخوت يهتز علواً وهبوطاً جراء تسارع ركض الحمار. انحنى ممسكاً بشعر رقبته ومتحكماً في توجيهه. كان محتاراً من أي جهة أو قرية يتسلل إلى عمق الخبوت التي يعرفها جيداً.

اخترق مدينة أحد المسارحة من الجهة الشمالية الشرقية مختاراً الهبوط على الخوبة سالكاً الاتجاه المؤدي إلى مدينة أبو حجر الأعلى ونزل بها كي يتزوّد منها بكميات من المياه والعصائر والمواد الغذائية

المحفوظة. وفي محاولته الأخيرة هذه لم يختر الطرق الرئيسة التي فشل في اختراقها سابقاً، فلجأ إلى الخبوت محدداً جهة اختراقه مع الحرص على السير ليلاً. تحسّس خاصرته واستشعر بعض الأمان مع تلاقي أنامله بقاعدة المسدّس المغروس بين حزامه الداخلي وجلده.

كان مكشوفاً بما فيه الكفاية، فكثافة وجود رجال الجيش ومعداتهم المتقدمة ترصد أيّ تحرك عابر. حمل نيّة المحاولة وإن اكتُشف تسلله فلن يخزه ضميره كما لو لم يحاول مراراً.

هذا الخاطر يعبره مع كل محاولة قام بها في الأيام الماضيات ومع كل مرة يعاد إلى داخل الحدود المسموح للمواطنين بالتحرك فيها، ومع كل عودة يجد خالة مؤنسة وابنها يلومانه على التفريط بشرف مطلقته، فتنشط حميته ويتضاعف لوم ضميره، ويعاود الكرة.

يقبع نهاراً بين أشجار الأودية ويتظلل ليلاً بأغصان كثيفة اقتطعها لهذا الغرض، يحمل كشافاً صغيراً ينير به طريقه كي لا يسقط من جرف أو يضل اتجاهه.

في نقاط تقدّمه يكتشف أنه ريشة يذبّها هواء ثقيل فتترنح في مستويين مهتزين لا تثبت معهما طمأنينة، فقد أيقن أن آلة ثقيلة يمكنها سحقه من غير تنبّه أو دراية. فقد استحال المكان إلى ضجيج يسمع فيه قصف المدفعية الثقيلة ومدافع الهاون تهز هامة جبل الدود وتفجر روافد وادي الموقد.

تسيل كحلة الليل على وهج القنابل الضوئية الكاشفة لمساحات واسعة من أرض المعركة، وغاب صرير الجنادب ذائباً خلف حمحمة وصولات مركبة المشاة البرادلي ووحدة الاستطلاع برانا المجلوبة من

قاعدة خميس مشيط كمعدات متقدمة من أجل تعزيز القدرة القتالية للجيش، بينما تفرغت طائرات الأباتشي للقصف الجوي لتكشف نيرانها عملقة جبل الدخان والجبال الواقعة شمالاً من محافظة الحرث.

وثمة اشتباكات مسلحة في نقاط مختلفة تنتهي بتقافز الجنود للقبض على المتسللين الحوثيين الهابطين من الجبال وأسرهم... رؤية مبخوت لتلك المناظر مكنته من اليقين أن الجيش السعودي خرج في نزهة.

وكلما أوغل في سيره زادت صعوبة الاختراق واحتاج إلى حيل مضاعفة كي يواصل تسلله. هاله منظر العبث الذي حل بالقرى التي عبرها، فيستشيط غضبه على هيئة أسئلة يطلقها ولا يسمعه أحد:

– كيف استطاع المتسللون الوصول إلى هذه القرى وسلبها بهذه الطريقة الفاجرة؟

قرى عديدة تحوّلت إلى غنائم مستباحة لمن يستطيع التسلل من مجهولي الهوية، فالمهمة مداهمة البيوت المخلاة والسطو على أي شيء تصل إليه اليد، وما لا تصل إليه يصلون إليه بكسر النوافذ والأبواب وخلع المغذيات الكهربائية والكوابل والقواطع واستلال أسلاك النحاس منها وحمل السرر والوسائد والفرش وبقية الأثاث وتحميلها على ظهور الدواب، والوصول إلى المحال التجارية بكسر أقفالها وحمل السلع الغذائية ثم الفرار إلى الأماكن الجبلية...

العبث الذي وجده داخل البيوت المخلاة يشير إلى أن بحثاً مضنياً بذل في التنقيب عن مصاغات ذهبية أو مجوهرات أو نقود. كل شيء نهب أو خرب أو دمّر ولم يبق من المنازل إلا جدرانها.

بيوت تقف خائفة من أي قدم تعبرها، قرى عديدة عبرها فوجد فيها العبث نفسه.

تراءى له شعار الحوثيين يرفرف على القرى العابر لها. كان يريد التأكد من وجود أو عدم وجود شعارات الحوثيين التي حملتها أجهزة جوالات بعض النازحين مدّعين أن الحوثيين استحلوا قراهم. أراد رؤية ذلك الشعار الذي يعرفه جيداً حين حمل رايته بنفسه ذات يوم: قطعة القماش البيضاء والمكتوب عليها: «الموت لأمريكا... الموت لإسرائيل»...

تذكر حمله لذاك الشعار في مهاجمتهم لمدفعية الجيش اليمني والفتوى التي توزعت على الحوثيين أن «كل من يقتل ضابطاً في الجيش اليمني فله الجنة ومن يقتل جندياً فله الشفاعة في دخولها». انتابته خفة السخرية وطيف القائد الحوثي يحفز أتباعه على المضيّ للموت من أجل الوصول إلى الجنة. كان سؤاله: هل ما زال القائد نفسه يوزع تلك الفتوى مع تغيير جنسية المقتول هذه المرة؟

الفوضى والعبث اللذان يراهما أثناء مروره بين القرى خلخلا داخله هيبة الجيش السعودي بسؤال جاس مخيّلته بحيرة:

- ماذا يفعل الجيش إذا كان كل شيء مستباحاً هنا؟

في بعض القرى كان يترجّل عن حماره، ويتسلل إلى داخل المنازل شاهراً مسدس موسى هواش الذي أبقى ذكراه طازجة في كل حين. أكثر من مرة وجد أنه الأقوى، فبمجرد استشعار المتسللين لخطواته يلوذون بالفرار فلا تطاوعه نفسه في إطلاق النار على الأقدام الهاربة. اقترب كثيراً من قرية الغاوية وحنّ إلى معرفة حالها وإن لم يخالطه

ريب في أنها غدت أرض حرب محروقة، فهي من قرى المقدّمة ومن أوائل ما تعرّض لغارات الحوثيين، ولولا الإكراه لما غادرها. كان تواقاً إلى معرفة إلى أيّ حدّ صمدت قريته، وهل بقيت جدرانها واقفة وحدها كبقية القرى الأخرى.

تغلبت رغبة العبور إلى قريته على ما عداها من رغبات، فانزوى مع حماره في تجويف أرضي قبع أسفل جبل الدخان من الجهة الغربية، منتظراً حلول الوقت الملائم كي يتمكن من التسلل خشية اقتناصه بواسطة الجهاز الحراري الذي يستخدمه الجيش السعودي، فاستقر رأيه أن يسير تابعاً الحمار تفصله عنه مسافة قصيرة، وكانت حيرته إيجاد الوسيلة في توجيه الحمار إلى القرية، فوصل به التفكير إلى اقتطاع فرع طويل من شجرة أثل لاستخدامه في التوجيه، بعد ربط «الشد» بحبل يساوي المسافة التي رأى أنها ملائمة لأن ترصد درجة حرارة الحمار قبل أن تصله. هذه الخطة عزم على تطبيقها لو أن الليل داهمه قبل الوصول... ومع أنه لم يكن موقناً من خطته إلا أنه حان الوقت لتجريب ما كان يسمعه من الحوثيين من وسائل يتبعونها في تسللهم إلى داخل الحدود.

اهتزت طمأنينته من إخفاق خطته فخفف من رفة ذلك الخاطر باستحضار خبرته في الوصول إلى داخل قريته من أقصر الطرق.

كل ذلك الاحتراز لم يكن في حاجة إليه حيث وصل إلى داخل قريته قبل حلول الظلام ومع سيره الحذر كانت تصله أصوات طلقات نارية من جهات مختلفة، ويلمح من بعد إضاءات القنابل المتساقطة على الجبال ويسمع صوت المدفعية وهي تهز أركان المكان وتجعل

السائر مخلوع القلب. أهمل تردداً اعتراه للحظات، وعزم على مواصلة السير، متخيّراً الدخول من خلال المزارع المحاذية للبيوت.

هاله ما رأى فقد أيقن أن القرية التي يقف عليها ليست هي القرية التي أجبر على مغادرتها منذ فترة وجيزة، فقد تحوّلت إلى أطلال، واقتربت من تجسيد جملة «على عروشها خاوية» فكل ما كان قائماً تقوّض، وكأن معرضاً للسرقة الجماعية أقيم لإظهار براعة اللصوص وحذاقة إخفاء الجمل في كمّ ثوب. اختفت كل محتويات القرية وسُحب كل شيء من مكانه، مستخدمين ظهور البغال والحمير وسيلة للنقل، ومن نزل من الجبال بلا راحلة بحثاً عن مغانم حوّل ظهره إلى مركب لنقل أي شيء يجده. قُلعت الأرضيات، وسُحبت الأسلاك، وكُسرت شبكات المياه، ونُزعت الكشافات الكهربائية، ونُهب الأثاث والملابس والبسط والفرش... لم يبق إلا ألوان الجدران، حتى هذه تفرغت الشمس لاستلاب نصاعتها، وجاءت القذائف على هدم البيوت أو ثقب الجدران أو حرق أشجارها وحقولها. جزء من جدر هربت بألوانها أما أغلبها فقد استقر على أسطحها هباب تراشقت مساحاته بعشوائية تتوازى مع القذيفة المرتطمة بهذا الجدار أو ذاك، وجاءت الريح متأخرةً فعرّت تربة أحواشها وردمت الشجيرات المزروعة في الأفنية وخارج المنازل بعد أن سبقه اللصوص في نزع أسيجتها أو شبابيكها، و لم يعد أيّ بيت يستتر بباب أو نافذة، وكأن الحرب جاءت خصيصاً من أجل تقليم تقشف تلك القرى.

تنهد مبخوت على ما آلت إليه قريته، وقبل مضيّه في حسرته تذكر أن القرى الحدودية كانت موضع نهب قبل انحدار الحوثيين من

الجبال ووقفت بمخيّلته خالته حسينة وهي تشتكي له من سرقة منازل القرية وكيف اقتص اللصوص من تتبّع بركات لهم، مختتمة حكايتها بتحذيره من ترك بيته مهملاً كي لا يتعرّض للسرقة من مجهولي الهوية... تشبعت عيناه من رؤية الدمار فبدرت منه جملة تهكمية:

– الحرب جعلت السرقة مشرعنة.

كان الليل قد تسلل إلى جوف القرية مع تسلل رغبته في رؤية منزله ليعرف إلى أي مدى عُبث به، ومن على عتبة الباب المنزوعة من موضعها أيقن أن داره شاركت عشرات المنازل العري والبؤس. كاد يثني رقبة حماره ويواصل تسلله باتجاه قرية المعرسة منيراً طريقه بضوء كشاف صغير لولا رؤيته شبحاً خاطفاً مرق نحو عمق داره.

اعترته حالة يقظة مفاجئة، جعلته يسارع إلى ربط الحمار في سارية تركت من غير بابها، وسارع إلى استلال مسدّس موسى هواش من حزامه، متخيّراً التسلل من جهة ظلمة غامقة، نزعت كل لمباتها وحافظت على ظلام دامس سكن ما بين الغرفتين المتجاورتين والمخصّصتين لاستقبال الضيوف، تجاور ممراً يؤدي إلى مدخل خلفي يتعمّق انسيابه إلى داخل الدار. كل الغرف غارقة في ظلمتها، أضاءها بكشافه الصغير، ومع تنقلاته ارتاع لما وصل إليه النهب من فحش، تنقل بين الغرف مجتمعة فلم يجد أثراً لأحد، وقبل استرخاء أعصابه وتفريغ ذاكرته من أوهام وجود شخص ما، سمع مواءً متواصلاً يأتي من جهة مخزن الطعام القديم. تربية القطط التي مارسها في مدينة جدة أكسبته خبرة أن المواء هو نداء لكائن يطلب العون، فاستعاد توجّسه، وسار خفيفاً حذراً اتجاه المخزن القديم، والتصق بمدخله منصتاً لأي

صوت يشارك مواء القطة المتقطع. أرهف السمع لـ«حشمشة» شيء يحتك بالأرض فأيقن من وجود شيء ما مخمّناً أن هذا الشيء له حجم يفوق جسد القطة من خلال حركته المثقلة، فلو كان تمحّك القطة بالأرض لما أصدر ذلك الرتم الأثقل من قطة. قبض على المسدس حذراً كيلا تكون نهايته كمقتل موسى هواش حين تخلى عن تركيزه. هذه الذكرى جعلته يرفع نسبة التركيز والحذر عالياً. ربض في مكانه، متحيّناً فرصة القيام بانقضاض مباغت، مواء القطة يتواصل، يقابلها حركة وسكون من ذلك الجسم، وبينهما يسقط صمت ثقيل. تردّد كثيراً قبل أن يقفز في مواجهة الباب المخلوع مضيئاً عتمة المخزن بكشافه، كانت قفزة غير موفقة بما أحدثته من رعب للقطة التي بادرت بالقفز المعاكس والمروق من بين قدميه خامشة ساقه بمخلبها، فاختل توازنه وأطلق عياراً نارياً دوّى داخل المخزن، جفل له جسد وصرخة أنثى هبّت من رقدتها. ركز مبخوت ضوء الكشاف على وجهها الشاحب وتناثر خصلات شعرها على سهوب وجنتيها وأبان اتساع حدقتها ورموشها الليلية واصطفاف أسنانها العاجزة عن الخروج من شفتين ممتلئتين (هكذا تصوّر مبخوت، هل هذا ما رآه فعلاً على تلك الإضاءة الشاحبة أم هو جلب الصورة المخبّأة في ثنايا ذاكرته)، ظل مركزاً كشافه على وجه تلك المرأة وهي تبحث عن ملامح القادم من خلف الإضاءة الشاحبة. تمايلت برأسها وهي تتحقّق من القادم وهمست:

– مبخوت.

ارتعدت مفاصله وقفز قلبه إلى سقف حنجرته، تسارعت نبضاته

واتسعت أحداقه متعمّداً تسليط الضوء على ذلك الوجه الكمثري لا يكاد يصدّق ما يرى. حين أعادت المرأة كلمة مبخوت، هوى على ركبتيه باكياً ومردداً:

– يا رب العالمين ما أرحمك.

– ....

– يا رب العالمين ما أرحمك.

وزحف من موقعه إلى حيث انتصبت قامتها يقبّل قدميها ويديها منتحباً، وهي مثنية عليه تتلمسه بأناملها محاولة كتم نشيجها:

– انهض.

فواصل لثم قدميها متداعياً في حالة هياج لم يعرف كيف يحد من تدفقه:

– بالله عليك، انهض.

– الآن أموت وأنا قرير العين...

– أهيّنة عليك لهذا الحد حتى تغمض عينيك وأنا هنا؟

فمرّغ وجهه أسفل قدميها مواصلاً بكاءه، فهوت عليه تُمسّد شعره، وتربّت كتفه ممسكة بيده تقبل أنامله:

– لم يعد لي في الكون إلا أنت.

– وأنا لم يكن لي في الكون إلا أنت.

تماسكت أياديهما واستندا إلى جدار المخزن القديم يتأوّه كل منهما حرقة السنوات الطويلة:

– بحثت عنك في كل مكان، لم يخطر ببالي أن أجدك هنا.

– ظننتك تخليت عني منذ ذلك الوعد الذي تركته و لم تكمله،

وبقيت كل هذه السنين أسأل نفسي ما الذي بدر مني حتى يتركني معلقة في هواه.

شعر بتهاويها وتخاذل جسدها وعدم مقدرتها على مواصلة الانتصاب. أدار الكشاف في أرجاء المخزن القديم كانت به لمبة سلمت من النهب ضغط على مفتاحها، فأضاءت:

– لي يومان لم آكل أو أشرب، فاعذرني، أشعر بالإعياء الشديد.

فز ناهضاً عجلاً صوب حماره، وأخذ ما في الخرج من مياه وعصائر وأغذية محفوظة، وعاد يركض إليها. اتسع له الكون وهو يسقيها ويلقمها بعض اللقيمات، لم يشأ تعكير هذه اللحظة بأي سؤال يخرجهما من حالتهما. ظل مواجهاً لها يتأمّل ملامحها، ويمسح على رأسها بحنو مفرط. مدّت يدها لتسوية شعرها الخارج من أسفل طرحتها:

– لم أعد تلك الفتاة التي أحببتها، لقد كبرت؟

– وكبر حبك أيضاً يا أنس.

شعر بتقافز نبضاته وتسارعها فهي المرة الأولى التي يذكر فيها اسمها وهي حاضرة، لمست جبهته:

– أين جرحك الذي كان هنا.

– بحضورك غارت كل الجراح.

اطمأن على استعادتها لحيويتها ومقدرتها على السير من أجل مغادرة هذا الدمار:

– علينا مغادرة هذا المكان، فهل تقدرين على السير؟

– بجوارك أقدر على كل شيء.

همّ بمغادرة المكان لولا أصوات طلقات نارية تحوم حول المكان يتفاوت صدى قربها، ففضّل التريّث ريثما تحل لحظة سكون تلك الطلقات...

* * *

أمسك بيدها يلثمها وهي في حالة حرج تعتذر عن عينيها اللتين خلتا من الكحل ومن شعرها الذي انبسط من غير إعادة تظفير ومن هيئتها الرثة التي عبرت بها الحدود منذ أربعة أيام سيراً على الأقدام.

– لم أنسك قط، أُميت شراسة أيامي بحبّك فلا أنت الحاضر ولا أنت الغائب.

– وأنت لم تغيبي من لحظاتي. كل نفس أتنفسه يدخلك إلى رئتي وكل زفير يخرجني للبحث عنك.

– عندما قلت لك ليس لي في الكون سواك كنت أقصدها تماماً، غدوت وحيدة، مات كل من هم في حياتي: الأم والأب والزوج والابن، فسعيت إليك فأنت الروح التي فُصمت مني فغدوت جسداً خاوياً يبحث عما يعيد إليه النبض والحياة، وما دمت أنت الروح فلن تستقيم حياتي إلا بك. هذا كان يقيني: أنك لن ترحل وتتركني.

كنت أنثرك في خيالي (حينما لم أستطع البحث أو السؤال عنك) أريد منك أن تجيبني عن سؤال واحد: لماذا لم تأت في موعدك؟

كنت راغبة فقط في معرفة السبب، اختفاؤك أحال حياتي إلى مرارة تجرّعتها في كل حين.

بعد غيابك بأسبوع حمل شيخ شمل بني حسين الجاهة متوسطاً

في خطبتي لموسى بن هواش، ووعدهما أبي بالرد بعد المشاورة.

كنت رافضة تماماً، وتجرأت وأخبرت أبي أنك تريدني زوجة، وأن بيننا موعداً سيصل فيه أبوك لخطبتي، وحين سألني عن ذاك الموعد قلت له بعد شهر، وكنت أظن أني منحته وقتاً بعيداً تحرّزاً واحتياطاً لأيّ ظرف يعبرك مع أني لم أكن لأصدق أن تغيب الشهر كاملاً من غير أن أراك، وبعد مضيّ الوقت، جاءني أبي مستفسراً:

– انتهت مهلتك.

فأصررت على رفضي، سكنت الريبة تجاويف تفكيره، و لم يدار فحيح شكوكه، فأخرج ظنونه القاسية:

– إصرارك هذا يخيفني، هل تساهلتِ في شرفك؟

جملته هذه شقتني نصفين، و لم تفلح دموعي في استدرار تعاطفه بل زادت من ظنونه، فأرسل أمّي تبحث في لساني عن أي اعتراف لأي خطأ اقترفته معك.

أصبحت في مرمى ظنونهما وحزنهما. لم يعودا كسابق عهدهما منبسطين متصالحين مع الحياة وأحداثها. كل مناجاتهما الليلية تدور حول كيف يمكنهما ستر فضيحتي، وحين مضى الشهر الثاني على غيابك لم أعد أحتمل يقين نظرات أبي من وقوعي في الخطأ. ظللت حائرة بين حبي لك وشرفي الذي سقط في ذهن أبويّ. كان مجيئك منفذاً لتحقيق حبنا واقعياً لكنه سيكون تأكيداً لتفريطي بشرفي وستجري على ألسنتهما آيات الامتنان وصفائح الشكر لأن نبلك بالاقتران بي محا وصمة عار كانت ستزلزلهما وستلازمهما بقية العمر... هكذا كانت الحال، فالاقتران بك جحيم يشوى على

جمراته شرف سمعتي مع تفخّم الاعتداد الذي حمله أبواي عبر الزمن، تفحمهما أمام القبيلة أو الخشية من معرفة الناس...

كان أبي ينتظر قدومك يومياً فلم يعد يذهب إلى مشفاه أو يتفقد مرضاه، يقتعد الدار وفي كل حين يسأل أمي:

- هل وصل؟

ومع كل نفي يزداد وجهه بؤساً وتهدّماً... لم يسبق له انتظار أحد كما انتظرك. كان في أوقات يلجأ إلى الصلاة بحثاً عن طمأنينة تذهب قلقه. ذات يوم أصابه الخجل الشديد حين ارتفعت دعواته بعد الصلاة وتسللت نبرتها المرتفعة إلى أذن إمام المسجد، كان منهمكاً بالدعاء وترديد:

- اللهم عجّل بظهوره واكشف غيبته...

فأخذ الإمام يردّد من خلفه مؤمناً وبتضرّع يغلب تضرّع أبي، و لم يشأ إمام المسجد أن يكون الدعاء مبهماً، فأفصح عن الغائب الذي يقصده:

- اللهم عجل بظهور والدي واكشف عنا غيبته...

يعود من مسجده، فيقابل أمي ويتبادلان عض أصابع الندم في تبسّطهما معك، وتساهلهما في اختلائك بي. حمّل أبي اللوم كاملاً لأمي، ولأول مرة يحتد معها وينعتها بعديمة الفائدة، فلا تجد إلا البكاء وسيلة للهرب مما يجيش في صدرها من ردود لو أخرجتها لحُرمت معها ما بقي من احترامه.

يفور في وجهينا كإبريق لا يمل من تصريف بخاره، وزاد في تعنيفي بالكلمات والنظرات. كنت أشمّ احتقاره... الأيام كانت تمضي

وأنت غائب، وأنا أقتعد بين حيرتين عاصفتين تتساقط لهبوبهما أوراق ثقتي بك. في هذا الاحتدام والانتظار تغلب يقين انتصاري لشرفي وشرف عائلتي على حبي لك.

لا تتصوّر كيف قفزا عالياً حين أخبرتهما بموافقتي على الزواج بموسى، وتراجعت فرحة أبي:

– لا تخزينا يا ابنتي، يمكننا انتظار مبخوت حتى لو جاء بعد مئة عام. الأهم أن لا يكون بطنك أداة فضيحة.

أحسست أن يقينه بضياع شرفه لم يعد يرقى إليه الشك، فقبلت رأسه متباكية:

– ولو جاء مبخوت فلن أقبل إلا بموسى كي تعرف أني طاهرة لم أفرّط في شرفك ولو غمضة عين.

اغرورقت عيناه بالدمع وقبلني على رأسي وفي عينيّ وقفز يرقص، وخطف يد أمي طالباً منها مشاركته رقصته. بات ينتظر الصباح بفارغ الصبر كي يبلغ الشيخ صالح الحسيني موافقته على طلب ابن هواش مشترطاً إقامة الزواج خلال أيام متذرّعاً بإحساسه بدنوّ أجله بينما كان يغطي على سرعة إتمام زواجي بموسى بقطع الطريق على أوهامه من عودتك. استجاب هواش لطلبه بتأخير طفيف مد فيه الأسبوع إلى شهر حيث وجد أنها مدة كافية من أجل دعوة المحبين والأصدقاء. والذي عرفته أنه أرسل لأبيك دعوة من أجل حضور العرس... كنت خائفة أن تأتي في مثل هذا اليوم، لا أدري لماذا خفت كثيراً من حضورك، فليلة مقتل حفصة كنا جميعاً أنا وأبي وموسى وأبوه وأنت وأبوك. صورة أن نجتمع مرة أخرى أخافتني بأن تكون

أنت المفقود كما فقدنا حفصة، فدعوت الله سراً وجهراً أن لا يصلك خبر زواجي وأن لا تصل.

انتقلت إلى الملاحيظ بعد إصراري على أن يبني بي زوجي في بيتنا، وأن تأخذ أمي شارة البكارة وتدور بها بين نساء القرية. دمعت عين أبي عندما استيقظت من رقدتي أطالب زوجي بالسفر إلى بلده قبل أن ينتصف النهار.

أراد أبواي ثنيي عمّا عزمت عليه إلا أن فمي كان محشوّاً بطلقات مدبّبة أخرجتها دفعة واحدة فتّتت قلبيهما:

– لم أعد إلا جسداً فقد أحرقتما بالشك روحي، والجسد يدفن في أي مكان، فدعوني أدفن نفسي بعيداً عنكما، فرائحة الميت لا يقبل بها إلا القبر والدود.

استشعر موسى غرابة أطوار أسرتي بسبب تلك التصرفات العجيبة والمتلاحقة من أبي ومنّي، وصارحني في ما بعد بذلك، مظهراً تناقض أبي في صمته عن قبول الخطبة لأسابيع، وعندما قبل جاء مندفعاً يريد إتمام الزوج في أيام، وقال عني موسى إني لا أبتعد عن أبي في غرابة ما فعلت. كنت أستمع له وأمنية متواصلة لأن يغلق فمه:

– وأنت لا تبتعدين عن أبيك كثيراً حيث أصررتِ على أن أدخل بك في بيتكم، وفي اليوم التالي أخرجتِنا منه في ظهيرة قائظة.

استشعاره غرابة أطواري أفادني في باقي أيامي، فمع أي تصرف أصدره بسبب ضيق صدري واشتياقي لك يردّه إلى تلك الأطوار جازماً بأنها أطوار وراثية.

مضت الأيام متشابهة فأنا مطيته يأتيني متى ما عنّ له، يقلب

جسداً بارداً يمتطيه محققاً نشوة عارمة، ويعيد سلاحه إلى موقعه كي يستخدمه في زمن مقبل.

كنت أقضي وقتي باستعادتك من خلال الأغاني، فقد حملت كل الأشرطة التي أهديتني إياها، آه، بمناسبة الهدايا: ألا ترى؟ انظر إلى عنقي؟

هذه قلادتك التي أهديتني لم تغادر جيدي منذ أن وضعتها بيدك... بهت لون ذهبها واخضرّت جوانب حافاتها، وكلما مضى الوقت أشبّه بهوت لمعانها بغيابك فلا أنت زلت ولا أنت تجددت، وحين أتفاءل أرى عدم أفول لون ذهبها دليل أصالة وأثر كلما تقادم بها الزمن زاد ثمنها، وهذا ما حدث فكلما تقادم زمن غيابك غدوت نفيساً في قلبي.

لم يكن بيني وبين موسى أي حديث فهو مشغول بإنماء تجارته، ونفسه تنازعه للوصول إلى أعلى المراتب السياسية بمحاولات نزع المشيخة من شيخ قبيلته. أحياناً يظهر ندمه لكونه اقترن بي متحسّراً تفويت فرصة مصاهرة كبار شيوخ حاشد أو خلان، ونضجت نيّته هذه مع اتساع تجارته ودخوله إلى سوق السلاح، ولولا موته المبكر لربما صاهر شيوخ تلك القبائل.

كنت حائرة في سبب اختياره لي دون بنات أعمامه أو بنات قبيلته:

– هل تحزر يا مبخوت لماذا اختارني؟

– ....

لن تصدق إذا قلت لك إن ختانك كان السبب وراء هذا الاختيار.

في بداية زواجنا أفصح لي أني وقعت في قلبه منذ تلك الطفولة،

وقال إنه رفض الانصياع لأمر أبيه بتقديم رأسه مقابل تلك المقتلة كي يكبر في عينيّ. كان يتحدث عن هيامه الأول بي وأنا أسترجع هيامي الأول بك.

هي نفس النقطة، لحظة انطلاق شرارة قلبين تجاذبا فيها فانطلقت شرارة قلب ثالث كي تكون شرارته سبباً في تفريق المتجاذبين مستقبلاً.

القدر يصك عملته الخاصة وعليك أن تتعامل بها وتصرفها من أجل أن تعيش.

ويبدو أن حدث ختانك هو العملة التي تسلّمناها جميعاً من أجل أن نتعامل بها في تبادل حاجاتنا ومنافعنا، ففي ذلك الحدث قتلت حفصة - بعدما أخبرتني بتعلق عينيك بي -، وتقاسمنا عشقنا، وحضر موسى القسمة فاقتسم...

كانت مهمة موسى تبديل تلك العملة بالتفريق بين قلبينا، فقد ظل يبحث عني كعملة ومع امتلاكه لجسدي اكتفى بذاك. أنتم معشر الرجال تتعاملون معنا كبزة خارجية إن بليت أو ضاقت استبدلتموها بغيرها، وكنت له الحالتين وقبل استبدالي بأيام قتل.

- لا أراك اندهشت حين قلت قتل، ألم تعرف؟

- نعم، قتل على يد أحد السعوديين؟

- حين سمعت جنسية غريمي في قتل زوجي ظننته أنت. لا تتصوّر مقدار فرحتي بذالك الخاطر. تراقص داخلي طرباً، وحدثتني نفسي بأنك لم تغمض عينيك عمّن سلب روحك قبل أن تقطف روحه. أحسست أني ثمينة، يقاتل حبيبي من أجل الظفر بي... أبقيت هذا الشعور في داخلي ولم أشأ معرفة القاتل كي لا أفسد نشوتي التي

أحيتك في داخلي وجعلتني أوقن أنك تبحث عني.

عمّي هواش قال إنه يعرف خصمه معرفته لظاهر يده، وكان باستطاعتي سؤاله عن ذاك إلا أني فضّلت إبقاء صورتك كمحب يسحق كل من سلبه محبوبته.

وتركز هذا الشعور في داخلي بأنه في الأيام الأولى لمقتل موسى كانت ترد أخبار قرى سعودية يجري التمشيط فيها عن قاتله وورد اسم قريتكم من ضمن أسماء تلك القرى. أصررت على عدم السؤال عن قاتله مبقية على صورتك كبطل زاد عشقي له.

بعد مقتل زوجي بأيام، جاء قرار عمي هوّاش بترحيلي أنا وابني إلى عمران. كنت راغبة في العودة إلى أهلي وأمانٍ حسانٌ تتراقص في فؤادي. حين يخطر بالبال إمكانية تجدّد اللقاء بك إلا أن شرط عودتي إلى قريتي اقترن بأخذ ابني مني، وداهمتني فكرة أنك هربت منّي ولم تشأ استكمال وعدك، وسرعان ما أمسح هذا الخاطر وأستبدله بعزوفك عن الاقتران بامرأة وطئها سواك، أو أنك لن تقبل بي بعد ما أحدثت من فراق، وخشيت كثيراً من كل هواجسي، ففضلت الارتحال مع ابني، وإبقاء ذكرى حبي لك قبل أن تتهشم كل ذكراك برفضك الاقتران بي بعد كل ما حدث.

لم يطل الأمر كثيراً، فقد مات أبي والتحقت أمي بي كي تعيش معي في عمران. كنت كشجرة كل فصولها خريف، وفي كل لحظة تسقط ورقة من أوراقها فتعرّي جذعها وساقها لكونها شجرة بلا أوراق.

صدقاً استشعرت أني أعيش في خريف دائم، فكل يوم تسقط

ورقة وتعرّي اخضراري، ولولا وجودك في داخلي لتيبّست مبكراً... وكان كل خوفي أن تسقط أنت أيضاً قبل أن أراك.

ابني كان قرة عيني وضعت فيه كل آمالي، وعشت من خلاله. سريعاً شب، وسريعاً رحل.

رحيله هزّني ودمّر كياني. كان فتى يحمل خصال الرجولة المبكرة. منذ أن كان ابن الخامسة جلب له جدّه مسدساً أفرغ مخزنه وأوصاني أن يبقى المسدس لعبة وحيدة له.

عقد هواش مهمة الاقتصاص لدم ابنه على حفيده، فقد أشعل غيرة ونخوة قبيلته مجتمعة حين أخذ ابني وهو لا يزال لحمة صغيرة ورفعه في عيونهم صائحاً:

– ماذا أقول لهذا الطفل لو كبر وسألني عن أبيه... انظروا إلى امرأة موسى.

وأشار صوبي حيث حملني معه وأبقاني في ساتر يطل على رجال قبيلته المجتمعين:

– ترمّلت زوجة موسى وهي لا تزال شابة. ماذا أقول لها إن سألت أين زوجي أو طالبت بدمه.

لم يعد لهواش من همّ سوى الأخذ بثأر ابنه. كان يأتي لرؤية حفيده إسماعيل –على فكرة هذا هو اسم ابني رحمة الله عليه– وتشمّمه والبكاء بجواره حتى إذا تعب حمل رشاشه وانطلق إلى حيث لا نعلم.

أمي ظلت معي صامتة لا تفعل شيئاً سوى مراقبة شرودي متحرجة من أي قول أو فعل، وأحجمت عن تقديم أيّ مشورة، أو التدخل في أي أمر. كانت ترى نفسها ضيفة ثقيلة أطالت المقام، تأكل بقدر

معلوم وتفتح فمها بردّ مقتضب. حاولت إخراجها من تجهّمها وإبطال تحسّسها ومشاركتها الحديث فأبشّ في وجهها وأمازحها فتذرف دمعها، أواسيها وأؤانسها فلا تستجيب. كانت تقضي معظم وقتها تناغي إسماعيل وتقبل يده. مرة واحدة أخرجت ما في داخلها قائلة:

- لو أنك سمّيته علياً.

أغبطها على حبها لأبي. لا أعرف كيف لامرأة أن تحب رجلاً لا تراه؟ حالها تلك جرّت كل الذكريات القديمة إلى مخيّلتي، فأبي لم يكن متفرّغاً لمجالستها، وأغلب أوقاته يقضيها في مشفاه، وإن عاد انشغل بتركيبات الأعشاب وقراءة كتب الطب القديمة وإن حدّثها اقتصر حديثه على أمر أو طلب.

فما الذي جعلها تضمر كل هذا الضمور على رحيل رجل ليس به إلا اسم وصوت.

أصبحت تنادي إسماعيل باسم عليّ فألمح ابتسامتها تشق وجهها وتنشط حركتها. عرفت بعد ذلك كيف أقودها إلى تحريك لسانها بما حبسته في داخلها. كنت أتعمّد ذكر قصة أو موقف جمعها مع أبي، فتصغي مستمتعة وكأنها لم تعش الحدث الذي أحدثها به. هذه الانتعاشة سرعان ما ذبلت ودخلت في حمّى ارتدادية، تغور وتفيض كماء بئر تجف وتمص أنداء الأرض كي تعود فوارة، حمّى متقلبة ضارية. أجلس على رأسها أبلله، وهي في عالم الهذيان تحاكي أبي بجمل وكلمات متقطعة أجمعها خلفها وأرتبها فأجد تناسقها:

- أعرف أني تأخرت عليك، والذي أخرني علي الصغير. كنت أريد أن أسمعه حكاياتك كي لا ينساك... اعذرني لا أحد ينساك...

أُنس تحبّك يا علي فلا تلم نفسك... ملامح علي الصغير لم تأخذ منك شيئاً، ذهب إلى أبيه.

حاولت إعطاءها الأدوية الخافضة للحرارة فلم تستجب، وإن أصررت تغلق فمها تماماً عن كل شيء. جعلت إسماعيل يناولها الحبوب لابتلاعها فتأخذها منه وتضعها في فمها ولا تبلعها، وقبل أن تلفظ أنفاسها كانت تهذي:

– أين علي فأنا لا أراه... أين علي؟

فصحت بإسماعيل، جاء على عجل:

– ما بال جدتي؟

أجلسته بجوارها وهي ما زالت تردّد:

– أين علي فأنا لا أراه... أين علي بن حسن؟

أسلمت روحها على اسم أبي كاملاً.

بقيت أنت وإسماعيل. يغيب إسماعيل وتحضر أنت. أسترجعك بالذكريات والأغاني.

كانت غيبة إسماعيل تطول حيناً وتقصر أحياناً. يرافق جده ويعود منتشياً يحكي لي كيف أمسك بالرشاش وركض بين قمم الجبال الحدودية وهو يطلق ذخيرته بالتصويب على أيّ طيف عابر.

ثمّ تطوّر التدريب على التصويب من بعد وعلى الأهداف المتحركة. هذا الإدمان على حمل السلاح جعله شغوفاً بالأسلحة وأنواعها. يقضي الأوقات الطويلة لفكها وتركيبها. لم يحفل جدّه بتعليمه المدرسي فلم ينتظم في المدارس كما انتظم في الركض على الشريط الحدودي وإطلاق النار.

وعندما مات جده واصل غيابه برفقه أحد أبناء عمومة هواش، ثم أمعن في هذا الغياب فلا أراه إلا لماماً وأحاديثه لا تنقطع عن الثأر...

- هل أبلغك جدك بشيء؟

صمت تماماً و لم يعد يذكر تلك الكلمة أمامي.

سعدت كثيراً حين صبغ سلوكه التديّن والالتزام بأداء نسكه وكلما أوغل في التديّن امتلأت روحي طمأنينة ورضى. كان يذهب إلى معسكرات وندوات في مدن وقرى مختلفة. بدأ برازح والقهرة فتهذّب لسانه وظهرت عليه أمارة النجابة، حتى إنه قدم ليؤمّ المصلين في حالة تغيّب الامام. فجأة انقلبت حاله و لم يعد على لسانه سوى الحديث عن أمريكا وإسرائيل وتطوّر أمره بالخروج مع السيد حسين الحوثي في جهاده بحجة رفع راية الإسلام، وبعد مقتل حسين انتقل إلى مرحلة متقدمة يقاتل مع عبد الملك الحوثي في أي مكان... هي أيام وجاءني نعيه مقترناً بجملة: إن الجيش اليمني حصد سريته كاملة من غير رأفة تذكر.

- نخلوا جسده الصغير بثماني طلقات.

كنت أنعاه وأقول لو أن قاتله اكتفى بعيار واحد بدلاً من كل تلك الطلقات، لكن ما سمعته من ويلات اجتاحت كثيراً من قتلى الحرب جعلني أرضى بما حدث لابني. على الأقل استطعت دفنه، بينما بعض القتلى لم يجدوا لهم جثثاً. كانت تأتي جثث مسحوقة مفرومة وكأنها أرطال لحم جلبت من متجر قصاب محترف، وإزاء هذا التكوّم للجثث كانت بعض الأسر تتقاسم أشلاء الموتى وتدفن قطعة لحم لأبنائها كي يبقى للميت أثر في الأرض يمكّن ذويه من زيارته والوقوف على قبره

والدعاء له، فحمداً لله أن ابني يرقد بجسده كاملاً في قبره.

آلت كل ثروة هواش وموسى إلى ابني إسماعيل، وهي ثروة كفيلة بإبقاء المرء منعماً لزمن طويل هذا إن لم يعمل على إنمائها، وبعد موت إسماعيل تقاسم أمواله الأقرب عصباً، واستبعدوني و لم يعطوني شيئاً. حتى الدار التي أسكنها أخبروني أنهم نووا بيعها من أجل استكمال توزيع الإرث، وأُخرجت من داري. شعرت بالغصة وحريق من المقت يشعل كياني، ولولا درسان حفظتهما عن أبي وأوصاني بذكرهما دائماً لأصابني الكمد وأنهى حياتي. حفظت عنه وصية أستلهمها في ساعة الإحساس بالظلم فأتلو قوله تعالى:(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ) وفي ساعة الكرب والغم تلاوة: (... فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

كنت أطبق هذين الدرسين دائماً فما جزعت بعدهما أبداً...

وقف ابن عم موسى هواش على الدار مخيّراً إياي: البقاء مع الاقتران به أو الرحيل من غير أي شيء، فاخترت الرحيل.

لم أكن أبحث عن مال. كنت متلهفة لأن أصل إليك، وعندما لم يعد هناك ما يعرقل خطوتي أو يثبتني في مكان، خرجت أبحث عنك.

وأنا في قرية المعرسة اليمنية سمعت عن قيام الحرب بين السعودية والحوثيين فأسرعت بالتسلل إلى داخل الحدود السعودية قبل أن تغلقها الحرب تماماً.

عند وصولي للمعرسة السعودية كانت قفراً إلا من أنفار معدودين كانوا يتجهّزون للرحيل و لم يقبلوا بحملي معهم لضيق اتساع

سيارتهم، فأوصيت أحدهم أن يبلغك عن مكاني. كانت وصيّة غبية لا أعرف لماذا رجوته إبلاغك مدّعية أني زوجتك...

- على فكرة هل تزوّجت؟

لم أكن أتصور أن أحداثاً هائلة سأعبرها في طريقي إلى قرية الغاوية. كان طريقها صعب الوصول في ظل انتشار الجيش وتبادل القصف بين الطرفين، والصعوبة أني كنت أتنقل سيراً على الأقدام وزادي قليل...

الحمد لله أني التقيت بك. لا أريد منك شيئاً. فقط أريد أن أعيش تحت جناحك. اعتبرني خادمة أو امرأة عرفتها ذات زمن تحسن إليها برعايتها... لا أريد منك شيئاً.

- ليس لديّ أحد يا مبخوت وأخشى أن أموت ولا أجد من يدفنني.

الفصل الخامس عشر

أنهت أُنس حكايتها مجهشة بالبكاء المتواصل، فأخذ يربت عليها، ويشاركها النشيج، وتتساءل بوجل:

– هل ستتخلى عني يا مبخوت، كما فعلت ذات يوم؟

كفكف أدمعه ولهج بعجلة:

– مستحيل أن أفعل ذلك. كنت أبحث عنك في كل مكان، وحين لا أجدك أخرجك من أوردتي كي أناجيك.

قفزت صورة ذلك الفتى إلى مخيّلته وهو مرميّ على الأرض يئن من طلق ناري عبر كتفه فأبقاه متحفزاً للوصول إلى سلاحه المقذوف بالقرب منه، متحسّراً على تباطؤ تنفيذ مهمته.

عض على شفتيه ونار تتأجج بين جوانحه وسؤال ينخر جمجمته:

– أكنت سافلاً إلى هذا الحد؟

تمعر وجهه حامداً للضوء الشحيح – الذي يتوشحه – إخفاء تساقط ملامحه، وللصمت إغلاق أبوابه على غصّات تكوّرت في تجاويف حنجرته، فرغب في مواصلة البكاء.

– أي حب هذا الذي يخالطه إيذاء؟

وجد أن أعماقه تتهاوى، وزفراته تخرج رائحة حريق اشتعل في جوفه فلم يعد يقوى على احتماله.

كانت عيناه تختلسان وجهها الشاحب وأمنيات عميقة أن توقف جريان حزنها من غير أن يحدّد رغبته تلك بالخشية عليها أم بالخجل منها.

كان يسافر إليها عبر الدم، وتسافر إليه عبر الشوق. طريقان متوازيان وهو يبحث عن مسار لخطواتهما في درب واحد.

– لعنك الله يا جهلان أكان لا بد من ارتكاب حماقتك على ذلك الجسد الصغير؟!

خرج صوته كطلق ناري:

– من هذا الذي تلعنه، وأيّ جسد؟

وقبل أن يجيبها تعالت طلقات رصاص من جهتين متقابلتين وصل صداها إلى مسامعهما، فتحفز مبخوت وقبضت على يده:

– لا عليك، في الليل يتبادلون الطلقات لكن لا أحد يصل إلى هنا.

وروت له كيف قضت ليلتين وسط هذا القصف وفي ظلمة المخزن كل ما بها يتساقط هلعاً، بعد أن رأت الموت يعبرها مراراً وهي تتسلل من أجل أن تصل إلى قرية الغاوية.

– لا بد أن نغادر الآن.

حاولت ثنيه ودعته للتريّث إلى مطلع الفجر حيث تختفي أصوات المدافع والنيران المتبادلة إلا أنه أقنعها بخبرته في التسلل ليلاً وسط أي نيران متبادلة، فأذعنت لرغبته، وامتطت الحمار بعد رفض مستمر مفضّلة السير على قدميها تتبع ركوبته. وصل صوته إلى مسامعها دافئاً:

– لقد قطعت جبالاً وأودية أبحث عنك فليس من المعقول حين أجدك أركب وأنت تسيرين على قدميك.

الظلام الكثيف يغري بالانزلاق إلى جوفه مستأمناً على رواحك من مغبّة فخاخ العيون المفتوحة. قاد الحمار محافظاً على تلك المسافة التي قدّرها قبل الدخول إلى القرية و لم ينفذها بل اتجه بسيره نحو الشمال الغربي بما يمتلكه من دراية عن منطقته:

– إذا سقطنا إلى داخل وادي لِيَة من جهته الشمالية فسنكون في المخيّم مع طلوع الفجر، هذا إن لم يعقنا عائق.

– بلغت الغاوية بعد ثلاثة أيام بالرغم من قصر المسافة، فكيف سنصل إلى أبعد من ذلك في ساعات؟

– كنت تتسللين في أرض المعركة، وسيرنا للأمام يبعدنا عن ساحتها ويمكننا من حركة أسرع وربما نجد سيّارة تقلنا.

كان يسير وخواطر شتى تتزاحم في رأسه، يفرغها سريعاً إذا تكلمت أو أظهرت خشية من توهّج مدفعية هنا أو طائرة تقصف هناك.

تلمّس المسدّس المغروس بين جلده وحزامه. أخيراً خرجت منه رصاصة وحيدة، كادت تقضي على أُنس، فلو حدث انخفاض بسيط أثناء إطلاق تلك الرصاصة لربما استقرت في قلبها. أحس بأن مسدّس موسى أدّى غرضه وعليه أن يقذف به قبل أن يفرّق بينه وبين أُنس، فلو أنها تعرف مسدّس زوجها فستستهويها حكاية انتقاله إلى يده وستجذبه إلى سرد بقية الحكايات.

امتدت يده إلى خاصرته ونزع المسدس وهزه بيده، فشعر بثقل

وزنه لأول مرة، وتركه يسقط وسط تلك الرمال المستنكرة لما يقذف فيها من قذائف وقنابل ورصاص.

مع تخليه عن المسدس استشعر براحة فائقة وإن كان لا يزال حائراً بين إخبار أُنس أو التعتيم على كل ما مضى.

عادت مؤنسة إلى باله.

اختلط عليه أمر وجود مؤنسة. هل هي في قريتها أم نزحت، فأقوال أُنس أنها هي من أوصت رجلاً يبلغه عن وجودها بينما أقوال خالة مؤنسة وابنها تؤكد إصرارها على انتظاره كي يخرجها.

لم يتردّد في اتخاذ القرار فقد أصر على تأمين أُنس وأضمر العودة لجلب مؤنسة بعد ذلك.

بعد مسيرة أخرجتهما من حدود القرية، استغربت بعده عن ركوبتها، وطالبته بأن لا يقود الحمار بل يسير بمحاذاتها كي تطمئن فاستجاب لطلبها متخلياً عن حذره تاركاً للحمار توجيه رحلتهما شمالاً.

- لم تخبرني أيّ شيء عنك، كيف فعلت بك السنون؟
- قضيت الأيام من بعدك باحثاً عنك.
- هل لديك أبناء؟
- رزقت ببنت وحيدة تركتها في جدة...

توقف صوته على طلقات نارية متوالية تعبر إضاءتها بهما، فأسرع بإنزالها وطلب منها الاستواء بالأرض، وأخذ برقبة الحمار لتبريكه، فضحت وجودهما إضاءة غامرة انصبّت على موقعهما وحفّت بهما مجموعة صغيرة مكوّنة من أربعة جنود. سمع أحدهم يردّد:

- متسللون... متسللون.

وفرة الإضاءة المنبثقة من مصابيح كاشفة نصبت على الحافات العلوية من سيارة لاند كروزر كشفت المكان وملأت محاجرهما بنور ساطع. مال مبخوت برقبته واطمأن برؤية بزات المحاصرين لهما. انكفأ على أُنس ينتشلها من رقدتها، وهو يوصيها: إن سألوك عن اسمك فقولي مؤنسة وإنك زوجتي.. لا تبدلي هذا الكلام أبداً.

كرّر اسم مؤنسة مراراً على مسامعها محرصاً عليها: هذا اسمك وأنت زوجتي.

مع انكفائه لانتشال أُنس وصلته تحذيرات من مكبّر صوت: لا تظهر أي مقاومة وأبق يديك فوق رأسك. أحاط بهما أربعة جنود تقافزوا من أماكن متفرقة، واقتادوهما إلى حافلة ربضت أسفل تل رملي جمع بها بعض المتسللين ووقف عليها حراس شاهرين بنادقهم.

دفعه أحد الأربعة بكعب بندقيته:

- ادخل إلى الحافلة أنت وأهلك.

ثبت مبخوت في مكانه بينما همّ أحد الجنود بتطويق ذراعه، فصاح به:

- أنا مواطن والحمد لله أن أنجانا الله. كدت أنا وزوجي أن نهلك ونحن في حالة تسلل من أربعة أيام.

- وما الذي حملك على التسلل إلى هنا...

- وإلى أين أتسلل؟

- تعود إلى بلدك.

- هذه بلدي...

– سر أنت وأهلك إلى داخل الحافلة وسوف نتحقق من الأمر.

أُركبا مؤخرة الحافلة وهمّ الجندي بتقييده وزوجته بقيد بلاستيكي، فرفض مبخوت الانصياع، فجرى بينه وبين اثنين من الجنود حديث اكتسى باللين لإخراج مبخوت هويته الرسمية واضعاً إياها أمام بصر أحدهما، فأخضعها الجندي لفحص ومقارنة بين الصورة وهيئته، ووافق على صحة أقواله إلى أن يتم التأكد من صحة البطاقة رسمياً:

– ما الذي أبقاكما هنا؟

– كنا لا نريد أن نترك ديارنا وقلنا هي أيام وتمضي وتعود الحال على ما هي عليه، لكن الأمر طال فقررنا الالتحاق بأهلينا الذين سبقونا في النزوح.

– سنرى صدق قولك من عدمه حالاً...

بقي مع أُنس في مؤخرة الحافلة رافضاً القيد فاستجاب رئيس الرقباء لتمنّعه وأوصى الحراس بأن يكون تحت النظر، واستدار الجندي لإحصاء العدد حاملاً مصباحاً أبان نفراً تناثروا على المقاعد بأشرطة لاصقة ثبتت أقدامهم وأيديهم، وحين تمنع أحدهم عن مضاعفة القيد صرخ به الجندي:

– سرقتم كل شيء فماذا تريدون؟

نفر الرجل المقيّد بصراخ مواز:

– جيشكم من سرق فلا تتّهمونا.

صفعه على مؤخرة رقبته وأغلظ قيده، وواصل تفقد البقية بالمصباح. أحدهم ظل واقفاً وقد ثبتت يده بعمود انتصف الحافلة مبدياً

سكينة مبالغاً بها والتصق بكبينتها من الجنب الأيمن مسنداً رأسه إلى ساعده المعلق، وقد مكّن الضوء الذي دخل الحافلة من خلال المصباح من إظهار تلك الأجساد المهلهلة الرابضة في مواقعها باستسلام طاغ. التقت عينا الشخص الواقف بعيني مبخوت وتفتحت الأسارير في ما بينهما، ومع خروج الجندي بمصباحه غرقت الحافلة في الظلام وبقي هيكلها الخارجي منتصباً كشارة فلين وضعت وسط صحراء أو كلغم يجب معالجته قبل أن ينفجر.

تخافت المحجوزون متبادلين خشيتهم من المصير الذي ينتظرهم. غمغمة أحدهم تجاوزت محدثه:

– هم يقفون في الكمين تماماً فلا تخشَ شيئاً.

أوصى مبخوت أُنس أن تظل في مكانها، وسار بين المقاعد متلمساً الحافات للوصول إلى وسط الحافلة. ندت صرخة من أحد المحتجزين متوجعاً من هرس لحق بأصابع قدمه فسمع اعتذاراً ليناً لا يفي بالغرض. تلته لعنات تلعن السائر بينهم وتطالبه بالبقاء في مكانه، وكلما استشعر مبخوت انتصاف سيره همس:

– جهلان... جهلان...

جاءه صوت خافت:

– اقصر صوتك...

تلمّس جسده الواقف واحتضنه مع العمود المقيّد به:

– ما الخبر؟

جاء صوت جهلان خافتاً حذراً:

– حكاية طويلة ليس وقتها الآن. المهم لا تقل إنك تعرفني فأنا

من المتسللين وقد ألقي القبض عليّ بهذه التهمة وأفضّلها على أن تجز رقبتي في أحد الميادين...

– ولماذا تجز؟

– اخفض صوتك، أنسيت ما أخبرتك به عن ذلك الجزار اللعين. ابتعد عني الآن واكتم خبري تماماً...

عاد مبخوت إلى مكانه بعد أن أعاد هرس أقدام من عبرهم سابقاً وتلقى الشتائم نفسها. اقتعد بجوار أُنس وصورة إسماعيل تغلي في مخيّلته كماء بلغ درجة الغليان وفاض. هزّ أُنس من كتفها:

– انظري لهذا الأكتع المعلق في سارية الحافلة.

– لا أراه...

عاد الجندي بمصباحه يتفقد المحتجزين، وجذب مبخوت إلى خارج الحافلة فتبعته أُنس وجلة ترتعد خوفاً، كان يقف أمام بوابة الحافلة ثلاثة جنود بينهم ضابط برتبة رائد. اهتز أمامه أحد الجنود بجملة محرّضة:

– هذا هو الذي رفض القيد.

كانت بيد الضابط الأوراق الرسمية الخاصة بمبخوت، وأخذ يتفرّس ملامحه بشيء من التدقيق ولكي يعزز يقينه:

– أكنت في جدة يا مبخوت؟

– نعم...

– أين كنت تسكن؟

– في السبيل.

– أو لم تعرفني؟

دقق النظر في هيئته وتجرأ وحمل مصباح الجندي غامراً بالضوء وجه الرائد:

- لا، لم أعرفك.

تضاحك الضابط متودّداً:

- كبرت يا عم مبخوت، لهذا لم تعرفني.

عاد مبخوت التحديق متأملاً وجه سائله، وذهنه يركض في تلك الملامح من غير هدى، فأسعف الضابط حيرته:

- أنا ياسر... ابن خليل المسلكي.

- ياسر.

- نعم ياسر.

- حتى أنت كبرت يا ياسر فلم أعرفك.

وغاص كل منهما في حضن الآخر لم يكملا احتضانهما فقد دوّى صوت أعيرة نارية انطلقت فجأة، فصاح أحد الجنود برفاقه:

- كمين... خذوا حذركم.

تناثر الجند محتمين بالحافلة، فأصدر ياسر أمراً بالتراجع للخلف وعدم الاحتماء بالحافلة بل الاختباء بالتخندقات الخلفية. ارتد الجند إلى الخلف مطفئين الإنارات وأصواتهم تتواصى بالابتعاد عن الحافلة من أجل صد الهجوم المباغت.

نشطت أصوات الأعيرة النارية وطلب أحد الجنود بواسطة جهاز الإمداد المشورة من القاعدة فجاءه الرد بالتخندق ومبادلة وإشغال المهاجمين بالرد على طلقاتهم مع التأكيد على سرعة إرسال تغطية جوية ومدد لن يتأخر.

دقائق وإذا بطائرتين مروحيتين تحلقان مسلطتين الأضواء أسفل منهما مطلقتين أعيرة رشاشاتهما وحاصدتين المهاجمين، ومن سلم منهم أسلم قدميه للريح في منظر مضحك. تبعت هروبهم الإضاءات الكاشفة. كان هروباً يثبت أن المهاجمين لم يتلقوا في حياتهم تدريباً حربياً. كانت انطلاقتهم باتجاه جبل الدخان مع ضآلة أمل الوصول إلى سفحه لتحليق المروحيتين فوق رؤوسهم.

مع هدوء عاصفة إطلاق النار أخذ الجنود يتفقد بعضهم بعضاً، وبجوار حافلة المحتجزين ارتمت ثلاث جثث وجريح خرجت أناته مكتومة ورأسه مسند إلى فخذ أُنس وهي تنتحب بحرقة.

كان الليل قد سال مداده كاملاً فشهبت ظلمته وأفصحت عن اختيار الموقع الخطأ للحافلة المتمركزة، وظهرت قامات مجندلة، وامرأة منتحبة وجسد اخترقت صدره رصاصة ورمال ناعمة تتراقص على حبيباتها أعشاب طرية، وعلى امتداد الخبت بانت آثار انسحاب كائنات ليلية زاحفة. انثنى ياسر على مبخوت متفحصاً إصابته:

– لا تجزعي يا خالة سيكون بخير.

وأمر جنديان بحمله وتحركت الكتيبة إلى الخلف للوصول إلى المركز. مع وصولهم كان المسعفون منتشرين لاستقبال الحالات وإجراء الإسعافات الأولية. عاد الهدوء بعض الشيء إلى أُنس حين أحسّت بأنفاس مبخوت تتردّد بين أضلعه، وقد وقف على رأسه طبيب انهمك في إجراء عمليات إسعافية سريعة.

وقفت بقربهما الحافلة التي تقل المحتجزين وقد قتل بها اثنان جراء الهجوم المباغت، وفي تقاطر المحتجزين خرج الأكتع عن الصف

صوب مبخوت المسجّى على ناقلة الإسعاف ينوش جسده دامعاً:

– اثبت فقد اجتزت أصعب من هذا.

جذبه الجندي فاستحلفه أن يبقيه للحظات ريثما يطمئن على الجسد المسجى في حالة غياب ظاهر، فنهره بغلظة ودفع به للأمام فاستجاب لدفعاته ثانياً رقبته للخلف يرسل نظراته الأخيرة على جسد مبخوت وهو يتمنى لو يستطيع أن يحتضنه للحظات.

أشار الطبيب المسعف إلى ضرورة نقل مبخوت إلى مستشفى عام يستطيع التعامل مع الرصاصة التي اخترقت حاجز القفص الصدري واقتربت من القلب.

الرائد ياسر تبنّى الاهتمام بحالة مبخوت، وأجرى اتصالات عديدة بقيادته العليا واستطاع استخلاص أمر نقل طبي عاجل.

استقرّت المروحية على أرضية إسفلتية جاورت المركز. دُسّ مبخوت في جوفها مع ممرضين انشغلتا بتركيب الأجهزة في موقع محدّد من جسده، وصعد ياسر ممسكاً بيد أُنس وهو يتلطف بها:

– لا تجزعي يا خالة سيكون بخير.

وناولها محفظة مبخوت مفنداً لها محتوياتها: بطاقة الأحوال، كرت العائلة، كرت الصراف الآلي، ومبلغ مالي تجاوز عشرة آلاف ريال كان الرائد ياسر قد تدبّره من حسابه الخاص عوناً لمبخوت.

وقبل أن تحلق الطائرة اقترب ياسر من أُنس وناولها ورقة بها أرقام هواتف له ولأبيه موصياً إياها:

– حالما تصلين إلى المستشفى اطلبي خليل المسلكي فأنت تعرفين مقدار وعمق صداقتهما.

وانثنى يقبّل جبهه مبخوت، وغادر الكبينة، فنشطت مروحية الطائرة وأخذت تحلق رويداً رويداً ناثرة أتربة وهواءً ساخناً شاركت سخونته دموع أُنس التي انهملت غزيرة.

لا أحمل في موازيني إلا حب مبخوت.

تائهة فيه، هجير السنوات التي عبرتها منقبة عن وجوده تترك لي في كل محطة نعتاً يزيد من قتامة سيرتي.

سيرة علقت على بوابة الشتائم تتمسّح بها كل الألسن المعوجة.

قلة يتذكرون ملامح الرجل الذي يسكن داخلي، وعلمهم ليس به حقيقة فهم يظنون أنه فتق طفولتي ومضى، ويشيرون إلى وجوده في داخلي كرجل كريه دعسني ومضى... قرَّ في ذاكرتهم أنه رجل موبوء بمطاردة الصبايا الصغيرات وقطف زهراتهن قبل التفتح...

وقبل رحيله بأيام وجدوا في فناء منزله سبع حدبات ترابية قادهم ظنهم أنها قبور ضحاياه اللاتي يستدرجهن من خارج الحيّ.

تلك الشائعات أجهضت على أيدي أعيان الحارة وبمرافقة العمدة وبعض رجالات الشرطة الذين نبشوا تلك الحدبات، وأوغلوا الحفر فلم يجدوا سوى أتربة متراكمة حوت أخشاباً وقطعاً حديدية عرف في ما بعد أن صاحب البيت نوى بناء غرفتين إضافيتين وقام بحفر أساسهما إلا أنه تراجع عن إتمام مشروعه فتناثرت أدوات البناء وتكوّم عليها التراب مخلفاً حدبات متناثرة في موضع البناء.

ومع مضيّ الأيام انحلت عقدة لسان طاهرة بعد أن ألقي القبض على «أبو العينين» بتهمة ترويع المارة وسرقتهم، فروت طاهرة كيف أنها وزميلتها عبير مساوى خطفهما «أبو العينين» من أحد منحنيات الحيّ وجرّدهما من أقراطهما وأساورهما الذهبية وأقسم على قطع

لسان أيّ منهما إن أخبرتا أحداً، وقد أراد إرعابهما فجذب لسان طاهرة من داخل فمها ومرر شفرته على مقدمة اللسان مقسماً أن يجتزه من فمهما إن هي أخرجته حاكية ما حدث لها ولصديقتها.

حظ مبخوت العاثر أنه وجدهما سائرتين باكيتين خارج حيّنا، فلاذتا به حالما رأتاه وكلما سألهما عما أصابهما لا تردان على أسئلته، وعجز عن أن يفهم منهما ما الذي حصل. كان منظرهما مزرياً ومخيفاً، واستحسن أن تعيد زوجته ترتيب هيئتهما قبل أن تعودا إلى بيتهما، وصادف في طريقة جبرانة ورجا منها تبليغ أهليهما أنهما ستعودان إلى البيت حالما تتسلمان هديتهما من زوجته، وكان يضمر أن تصلح زوجته هندامهما قبل عودتهما إلى بيتهما ومع تغيّر الجو وهطل المطر غزيراً خرج لإغاثة الملهوفين ممن علقوا أو تضرروا من تلك الأمطار.

ومع انجلاء المطر وهدأة النفس، قادهما إلى أسرتيهما في حالتهما المزرية الرثة تلك لأن مؤنسة امتنعت عن فعل أي شيء لهما.

اسمها مؤنسة وليس بها أُنس، فلم تحفظ رحمها تلك الوليدة التي سفحها بطنها قبل الأوان.

هي المرة الأولى التي أرى فيها مبخوت باكياً. كانت جدتي لا تزال حية، استعان بها مبخوت لتوليد تلك القربة المثقوبة التي تسمّى مؤنسة، فقد ظهر طلقها قبل موعده بشهر أو أكثر، ومع توجّعها وصرخاتها اقترحت جدتي نقلها إلى المستشفى إلا أن مبخوت رفض ذلك خشية من كشف عورة زوجته على رجل وكان حاسماً في هذا الأمر:

- تموت وتحيا هنا.

ربما سمعت جملته فتعاونت هي ورحمها على إخراج قطعته التي وضعها في بطنها قبل استوائها.

يومين أو ثلاثة خفق قلب تلك الطفلة وفاضت روحها.

رأيت قامته المنصوبة تخترق الشوارع واضعاً فلذة كبده في لفافة الكفن وموسداً إياها ذراعيه تاركاً أدمعه تهلّ من غير صوت أو نشيج، وتبعه خليل المسلكي وجميل عبده وأنا.

نهرني جميل عبده بالعودة فظلت عيناي تتبعان خطواته الواثقة وأدمع غزيرة تهل ولا أجد ما يقلل انهمارها إلا الاستزادة من البكاء.

- الزمن أداة إثبات.

جريان السنين كشف عما كان عالقاً بمبخوت إلا أن أحداً لم يكترث بانجلاء الحقائق، فالناس لا يقدرون على تنظيف ذاكرتهم مما احتوت عليه.

بقي مبخوت في ذاكرتهم كما هو وبقيت كما أنا. كنت أذهب إلى طاهرة وأستعيد حكايتها مراراً وفي أماكن مختلفة من بيوت الحيّ متحمّلة تعفف من أصل إليه أو عدم رغبته في مكوثي أو التقليل من شأن حكاية طاهرة التي مضت عليها سنوات طويلة.

خلال تلك السنوات كنت قد صدعت بحبّي لمبخوت وانطلقت باحثة عنه، و لم يعد سجن جابر سوى سجن مفتوح أمكث فيه بطيب خاطر.

أوصتني هناء بتوسيع دائرة علاقاتي:

- نحن نعيش في عالم ذكوري يسيل لعابه على العباءة، فاحرصي

على استمرار جريان هذا اللعاب واكسبي ما تشائين...

كنت أرفض تماماً تسليم جسدي لأي كان، فما زال هاجس أن أصل إلى مبخوت وأنا أحمل له عذريتي كهدية تبرهن شغفي به ركناً أساساً من أدوات إثبات حبي له، ووصيّة هناء تستدعي أن أرتمي ليلياً في فراش أحدهم...

السير وسط هذه الفحولة المستعرة يفتّت أيّ جسد مهما ارتوى ويحيله إلى وسادة خاوية من غير لبد، ويحرق الروح؛ بل يفحمها فلا تعود قابلة للاشتعال حتى لو أضرمت بآهات ألف عاشق.

هذا الدور يتطلب انحرافاً لفظياً، فكل مفردات الحب تغدو على اللسان، وتخرجها كما تخرج بصاقك:

– لبى قلبي، حبيبي، فديتك، حياتي، يا ننوسة، يا عيوني، يا كل الناس...

مياه من الكلمات التي تأسّنت وتبعوضت ناقلةً حمّى جراثيم المشاعر المزيّفة التي تغوي سامعها وتدعوه إلى توسيع مساحات جشعه ببلوغ هضبة الجسد. امتهان مفردات الحب ابتذال للروح، وهاوية تجذب قائلها إلى جرف سحيق من المتواليات السلوكية المفضية إلى اكتساب نعوت مشينة حتى وإن نأيت عنها التصقت بك كأثر جرح عميق.

صعقت حين سمعت وصفاً يصلني من أحد زملائي في العمل، حاول التقرّب إليّ فصددته، فاستشاط غضباً:

– أنت عاهرة ثمنك حفنة من المال لإمتاع طالبيك. فكم تريدين؟ الرجال لا يقبلون الصدود من امرأة تظهر الرغبة وتحجم مستعفة.

هم يريدون الوصول إلى آخر السطر من غير علامات ترقيم تفصلهم عن رغبتهم أو تستوقف اندلاق حبرهم.

هذا الزميل استرق السمع لمكالمات عديدة أجريتها من مكتبي نشرت فيها الكلمات العارية، فاستملح جسدي وأراد زدراده من غير شربة ماء يطري بها لقمته أو يسلك مجرى حنجرته، وحين وجدني ناشفة ناشبة في حلقة أخرجني بالشتائم.

موقف الإهمال الذي سلكته معه جعله يغلي بأبخرته باحثاً عن وسيلة تقلل من غضبته فلجأ إلى مواقع النت لنشر الليالي الحمراء التي يقضيها مدير المستشفى مع موظفته اللعوب، مرمزاً لاسمي بالحروف الأولى ومختاراً أوصافاً لا تنطبق إلا عليّ...

مرات كثيرة نجوت من الدهك أو النفوذ من حالات اغتصاب قهري بسبب ميوعة الحركة والقول والمواعيد المؤجلة.

اثنان لم أجد منفذاً للتخلص من وعودي معهما: الدكتور منصور المجرد المشرف على رسالتي، والدكتور هشام ظاهر مدير المستشفى. خنقني إلحاحهما وماتت كل وسائل التريّث المخدرة ولم يعودا يطيقان هروبي بحثاً عن الوقت المناسب لأهب لهما المتعة المنتظرة. اقتربا كثيراً - بإلحاحهما - من قطف جسدي أو تجريدي من كل المكتسبات التي وهباني إياها.

استعنت بهناء لفك الخناق المضروب عليّ منهما.

لم يكن أيّ منهما قد جالسنيَ وجهاً لوجه. كنت أتبختر أمامهما متسربلة لا يظهر مني إلا أصابع فضية البشرة تلولبت عند رسغ لدن مرتوٍ وأظافر نحتت وتغطت بطلاء عنابي تمنّى كل منهما لعقها (كما

أخبراني عن هذه الرغبة لاحقاً وبصيغة مختلفة)، وجسد تراقص بتفلت داخل عباءة مطرزة تطريزاً يشي بأن صاحبتها باذخة الأناقة. كنت حلوى مغطاة الكل يرغب في إزالة تغليفها وتذوقها وإدارتها بين لعابه ولهاته بتذوّق متمهل طلباً لنشوة مضاعفة. الغطاء في بلادي يكسب المرأة رونقاً خاصاً أو شبكة صيد تجمع بها أحجاماً مختلفة من كل أنواع الأسماك، المغري والساقط منها. الغطاء يجعل المرأة سراً غامضاً تتسارع الألباب لفك غموضه، فالرجل يتلبس دور الصيّاد ولا يعلم أن الصيد متبادل، لأنه مشحون بمشاعر الفاعل ولا يتبادر إلى ذهنه مطلقاً موقع المفعول به، وبهذا الشحن يغدو مفتوناً بتتبع فريسته. عقلية الرجل تتعطل عند شيئه، فهو ينجذب لأردأ الأسماك. هو قادر على خوض أي مغامرة تنهي ركضه بصب حمولة ماء ظهره في أي مكان كان، ومع تموسق صوت أنثى توقظ كل غرائزه متحفزاً للركض. يركض في أي اتجاه مثل ضوء يبحث عن ظلمة لينيرها، ومع المرأة يريد الإمساك بأي خيط منها: وجهها، جسدها، صوتها، حركتها، عباءتها، أي شيء كان، وأغلبهم تبدأ مغامراتهم من خلال الصوت. يعشق الواحد منهم صوتاً ويتعلق به ويتخيّل من تقف خلفه، وكثير من رجال بلدي عاشقون لأصوات النساء القادمة من مكالمات هاتفية، يسفك الشخص منهم هيامه المبتذل عبر مكالمات ممتدة لأيام وشهور حتى إذا حانت فرصة سرقة اللحظة العابرة أو الموعودة يكون صوت عشيقته أجمل من وجودها بكثير.

هناء ميسر تسقط الخيال وتثبت أن الصوت خيط مضلل يوصل الممسك به إلى انقطاع. حضور شخصها يثبت أن الواقع أجمل من

المتخيّل وحضورها شاذ عن قاعدة: أن المتخيّل أجمل من الواقع، فصوتها عبر الهاتف لا يدل بتاتاً على فتنتها.

كان حضورها طاغي الفتنة أنسى الدكتورين كل شيء إلا كسب ودّها لعل التودّد يوصلهما إلى التمرّغ بين ترائبها.

روت لي انسكاب لعابهما وحالة الهياج التي سكنتهما حيث راغت بجسدها عنهما مع وعد أن تهبهما ما يشاءان حالما ينهيان طلباتها، وأكملت – أنا – معرفة تلك الرغبات من خلال المكالمات المحمومة التي فاض ماؤها عما احتمل. كنت بحاجة لتمديد الوقت وقد استطاعت هناء إغواءهما بما فيه الكفاية مع مبالغتها في إظهار صعوبة أن تلتقي بهما مرة أخرى وإطلاق الوعود باستغلال أي ظرف للالتقاء بهما. فتنتها جعلت تأجيل الموعد مقبولاً لو أن التأخير يأتي بمثلها حتى لو في الخيال.

بعد التقائها بهما غدوت أتلقى عشرات المهاتفات وكل منهما يسفح شوقه بابتذال مقزز.

قامت هناء بالمهمة محققة مكاسب لم أكن لأحصل عليها لو كنت أنا من قام بالدور. استطاعت إقناع الدكتور منصور المجرد بأن إيواءه بين مفاتنها ثمنه استكمال رسالة الماجستير وحصولي عليها بامتياز مع مرتبة الشرف، وساومت هشام ظاهر على أن تهبه ما يشاء مقابل ترقيتي إلى درجة وظيفية لا يصل إليها موظف في فترة وجيزة حتى لو قفز لقطف نجمة من السماء.

أعرف مقدار جمال هناء وإغوائها لكن لم أكن أتوقع أن حضورها طاغٍ عليهما لدرجة الاستجابة الفورية في تنفيذ طلباتها، فقد حدّد

الدكتور منصور المجرد موعداً للمناقشة من غير استكمال الرسالة من قبلي فقد اقتعد مكتبه وأكمل فصول الرسالة مفترضاً بيانات أفرغها من رأسه، وأصدر هشام ظاهر قراراً بتعييني على المرتبة العاشرة استناداً إلى شهادة الماجستير (التي سوف تأتي) ولا أعرف من أين استخرج وثائق رسمية تؤكد أن لي شهادات خبرة في مجالات عمل سابقة...

برّ كل منهما بوعده منتظراً وصول جسدي تتويجاً لما أنجزاه من إتمام ما تعهدا به.

ولم يطق هشام صبراً على المماطلة فعرض عليّ الزواج المسيار، هذا الزواج الذي أوجد من أجل إفراغ المتعة المحللة.

صدم حين سمعني أقول له:

– المسيار هو المقابل للزنا، فقد أراد المحللون له ممارسة الزنا الحلال.

أحسست بتلعثم لسانه مسلماً على ما أقول من غير إظهار حجة تبقيه صلباً لبعض الوقت، ومنحي حرية اختيار الكيفية التي ترضيني وتوصله إلى بغيته.

حافظت على النقاب داخل المستشفى مع استعارة رسمة عيني هناء كي لا ينفضح أمري مع الدكتور هشام ظاهر، وكنت أعلم أن فتنة عينيّ تسبق عيني هناء. ومن الاحتياطات التي قمت بها الحرص الكامل على عدم الالتقاء بأيّ منهما لكي لا يصعد أي شك. نقطة الارتباك التي أخشى أن أسأل عنها الصوت إلا أن هذا لم يحدث.

رسمة العينين التي دأبت هناء عليها تزيد من اتساع عينيّ وتعمّق

حورهما. لم يكن مستحباً الظهور داخل المستشفى بهذه الرسمة إلا أن التجاوزات التي أقوم بها لم تمكن المعترضين من فعل شيء سوى الشكوى، وقد هاتفني الدكتور هشام ظاهر متودداً:

– ألا يكفي حرقك لقلبي حتى تشنّي – بفتنتك – حروباً على الناس؟

واكتفى بهذه الجملة من غير أمر بتغيير رسمة عينيّ أو التخلي عن أناقة ملبوساتي التي يصمها البعض بالفاضحة رغم تسربلي داخل العباءة.

هيئتي تلك اجتذبت المتربّصين والراغبين في مزاولة هواية الصيد مع علمهم بأن صنّاراتهم لن تصطاد إلا الماء.

تلك الهيئة سهّلت لي أموراً كثيرة وأوقعتني في فخاخ عديدة. الكل راغب في الامتطاء وكأن المرأة دابة سائبة من يجدها في طريقه لن يكلفه الأمر إلا قفزة واحدة لامتطاء ظهرها ودلدلة رجليه. هذه هي الحال المقيتة التي تصادفنا نحن النسوة.

– لا أخاف إلا من عدل الله ولا أرجو إلا رحمته.

كرهت نفسي، أحسست بتلوّثها، وتطحلب أعماقي... تنتابني حالات من التفكر في عذاب الآخرة، والاقتصاص لأبي وأمي وجابر وياسين وعشرات الرجال ممن أغويتهم، فالعدل يقتضي الاقتصاص لكل من آذيته، ولا أجد ملاذاً من كل هذه العذابات إلا بالفرار إلى رحمة الله أعلل بها النفس.

هذا الفرار الدائم أمعنت في شق طريقه متمنية أن لا أصل إلى توبة أو قناعة قبل الوصول إلى مبخوت، وكل غواية أقدم عليها أضمّدها

بترديد «إن الله غفور رحيم»... أهجس في كل حين:

– أين أنت يا مبخوت كي تقلل من حمولتي؟

في أحيان كثيرة أشعر بأن احتفاظي ببكارتي هو الهدية الوحيدة التي سأثبت بها لمبخوت مقدار حبي له...

فذاك التيس الأعمى جد في المفاخذة من أول ليلة، و لم يعد يعرف من المنافحة إلا ما أهبه له من دقائق معدودات يحمحم بها كعجل يذبح بشفرة مثلومة، ولا أعرف كيف ظن أنه وصل إلى عمق بئري وينتظر أن أهبه مولوداً من حفرة لم تحفر أصلاً.

الفصل السادس عشر

في غرفة ضمّت مريضين استقر سرير مبخوت في الجهة اليسرى، بعد مغادرته غرفة العناية المركزة وقد بقيت أجهزة مراقبة وظائف الأعضاء معلقة بجسده موصولة بغرفة الملاحظة من أجل التدخل السريع إن استدعى الأمر وهي غرفة بديلة للعناية المركزة يلجأ إليها عند تكدّس مرضى الحالات الخطرة (هذا ما فهمه خليل المسلكي).

قضى يومين متواصلين داخل غرفة العناية المركزة الرئيسة. كادت أُنس خلالها أن تجن فكلما خطت صوبها أُبعدت وأعيدت إلى الممرات الطويلة التي ذرعتها عشرات المرات تفرك حيرتها بالتمحّك بسؤال من تتوسّم به خيراً، و لم تكن تعرف ما الذي يمكن فعله سوى الدعاء أن لا يحرمها الله آخر الخيوط التي تبقيها موصولة بهذه الحياة. جزعها يتنامى في كل لحظة، وظلت طمأنينتها مهترئة؛ فهي لم تحظ بأي إشارة تطفئ جزعها، فقضت وقتها تغزل هاجساً وتنقض آخر إلى ما بعد إخراجه من العناية.

ومع استقراره أمام عينيها ظل لسانها يسأل عن حاله، وكل من دخل أو خرج ذرف لغة لا تفهمها وتفسّرها بملامح الوجوه أو

حركات الجسد الصادرة منهم. بقيت ممسكة بيد مبخوت المحرّرة من الأجهزة تقبّلها أو تمسّها بلطف وهي تحدثه وتستجير به أن لا يتركها بمفردها في هذه الدنيا.

في زيارة طبيبه المعالج وقف يتفحّص قراءات أجهزة المراقبة مقطباً حاجبيه:

– هل أنت زوجته؟

تكوّمت في عباءتها وهزت رأسها اهتزازاً لا يبين التأمين على السؤال أو نفيه.

– انتظرت أن يأتي أحد أقاربه ليسأل عن حالته.

خرجت من فمها الكلمات مقطعة ومتحجرة:

– نحن غريبان...

– يا أمي، الأفضل أن يكون معه رجل، فالمريض في حالة حرجة للغاية وأنا لا أريد إخافتك لكن الدعاء له بالسلامة واجب.

لم يحاول استبيان ما قالته، وخرج تحفّ به ممرضتان فلبينيتان، وهما تفصحان عن متابعتهما لحالة المريض بلغة إنجليزية متداعية حادة المخارج. تهاوت أنس على جسده المسجّى تذرف أدمعها وتناجيه بكلمات هامسة عجزت عن استكمالها فهلت دموعها وحيرتها في ما يجب أن تصنع...

تذكرت الأرقام التي زوّدها بها ياسر خليل فالتقطت بيشتها لتجد الورقة معقوداً عليها بعقدتين متساهلتين. فكت العقدتين بمقدمة أسنانها، وتناولت منهما ورقة تعطفت في انثناءات حادة. فردتها بين يديها، ومدت خطوتها لخارج الغرفة تبحث عمن يجري لها اتصالاً

على الرقم المنبسط في أعلى الورقة وتناثر أرقام أخرى أسفل منه.

ممر المستشفى صقيل ولامع، تفوح منه رائحة الديتول النافذة وكبينة الممرضات تعج بإضبارات المرضى وانكباب الأطباء على تفحّصها قبل زيارة الراقدين على أسرّتهم. انتظرت تفرّق ذلك الجمع، ووقفت على ممرضات انشغلن بتقليب الملفات المؤشر عليها من قبل الأطباء لمعرفة الواجب فعله، ومدّت لهن ورقتها، فلم تكترث بها أيّ منهن. تلقت تحقيرهن من خلال ما تفيض به عيونهن المشقورة، فنثرت كلمات كثيرة ويدها ممدودة إليهن بورقة خطت عليها أرقام مختلفة. سكبت إحداهن عليها جملاً قصيرة بوجه غاضب، وأشاحت لها بالابتعاد عن المكان. عندها شعرت بغصة تقف في حنجرتها استعانت على تمريرها بالاستغفار، ومدّت خطواتها إلى ممر مقابل جالت في منتصفه امرأة منقبة عيناها تظهران مقدار فتنتها، تثرثر وتتضاحك بغنج:

– أدخل إلى العناية المركزة... ولو استدعى الأمر فستجده في التخصصي... اطمئن... ما هي حلاوتي... يا لب قلبك... يسلمووو... خلاص أنتظرك.

أنهت مكالمة واستقبلت أخرى في نفس اللحظة مبقية على تموّج صوتها بنعومة فاضحة تقطع جملها بضحكات غارقة في ثقتها باستزادة السامع لتدفقها:

– لا لا، أنا مع أخت زوجي... ستخرج قريباً... حالما تخرج نحدّد الموعد... وي... لا لا يا عمري.

ظلت تجاورها منتظرة فراغها من مكالماتها المتتابعة وعيناها

تركضان في الممرات المقابلة الممتلئة بالمرضين والمرضات بحثاً عن بديل لهذه المرأة التي أطالت حديثها و لم يقف استقبالها للمكالمات المتتابعة، فتركتها، متحاشية الحديث مع الرجال وباحثة عن امرأة أخرى. مدّت بورقتها إلى امرأة وقفت أمام كبينة ممرّضي قسم العظام:

– هل يمكنك الاتصال على هذا الرقم وإبلاغ صاحبه أن مبخوت ينام في المستشفى...

تعاطفت المرأة مع انكسارها، وتناولت منها الورقة:

– أياً منها تريدين؟

– أيّ رقم يردّ صاحبه.

أجرت لها الاتصال على أول رقم، فجاء صوت من الطرف الآخر، فناولتها الجوال، ارتبكت كثيراً وهي تسمع صوتاً جهورياً يلح «ألو من... ألو... من...» أسعفها لسانها في آخر لحظة:

– أنت خليل؟

– نعم، من أنت؟

– أنا (وتردّدت كثيراً) زوجة مبخوت، وهو يرقد في المستشفى في حالة صعبة، أرجوك أن تأتي فليس لنا أحد هنا...

جاء الصوت متلهفاً بسفك أسئلة كثيرة، انتهت المكالمة بطمأنتها وتأكيده المجيء خلال ساعة.

عادت أدراجها صوب الغرفة فاستوقفتها نفس العينين الفاتنتين لتلك المرأة صاحبة المكالمات المتعددة مستفسرة:

– هل أستطيع خدمتك ياخالة؟

– أردت أن تجري لي اتصالاً من هاتفك.

– أبشري، هاتي الرقم.

أشارت لامرأة في منتصف الممر تجلس على كرسي في حالة انتظار:

– تلك المرأة قامت بالواجب.

– اعذريني كنت مشغولة بمكالمة...

قالت جملتها وهي تتفحص هيئتها جيداً مستعيدة لهجتها التهامية:

– أنت من منطقة جازان؟

– نعم.

– سلامات... خير.

– أصيب زوجي بطلق ناري فنُقل إلى هنا.

– لا لا... سلامات... «قدامه العافية» إذا احتجتِ لأي شيء اتصلي بي فأنا أعمل هنا، توصيلتي 4242، قولي أريد فتون.

استشعرت أنها لم تستوعب الرقم، فتناولت ورقة من كبينة الممرضات وسجلت عليها الرقم:

– أي شيء تحتاجيه لا تترددي...

وعبرتها مبقية عطرها يجوس في المكان مختالاً.

عادت أُنس تقتعد مكانها، وعيناها معلقتان في وجه مبخوت ترقب تردّد أنفاسه البطيئة. فزّت من كرسيّها المقابل لسريره مستبشرة لسماعها أنينه، إذ داهمها يقين بأن الأنين للكائن الحيّ وليس للميت. أمسكت يده تقبلها:

– قل ما الذي يؤلمك؟

شخص إليها بعينين مترقرقتين، مجاهداً في أخذ كمية كافية من الهواء تظهر حالة متقدمة من الإنهاك. وسّدته ذراعها وهي تحاول إصلاح وضعه:

– دع رئتيك تستقبلان الهواء بعيداً عن هذه الأنابيب. أخرج هواء رئتيك، قل شيئاً، أرجوك لا تتركني.

تلمس أصابع يديها الممسكتين به ونظر إليها مشفقاً:

– أول ما تأخذ من الدنيا شهقة هواء وأول ما تتركه من الدنيا زفير هواء، هذا هو العدل، إعادة ما أخذت.

– وهل العدل أن تمضي بعد أن وجدتك؟

طفحت عيناه بمائهما، وقبض على يدها مغمضاً جفنيه ليقلل من تدافع أدمعه، فانكفأت تقبّل أنامله وجبهته:

– أرجوك لا ترحل.

جاء الصباح ومبخوت لا يزال على حاله يتطلع إليها عاجزاً عن إخراج كلمات الاعتذار. يتنفس مجهداً عبر أنبوب الأكسيجين الممتد والمنتهي بفتحتين ألصقتا بأنفه، بينما كانت الأجهزة المنصوبة على سريره تثبت مواصلتها لعملها بإصدار طنين منخفض، يشير إلى أن الجسد الموصول بها في حالة حرجة. دهم الممرضة ورؤيتها لأُنس وهي تسنده ولد صيحات متعاقبة تنهاها عن مواصلة فعلها مبقية على آثار تجهّمها حين تغيّر إرسال إشارات أجهزة مراقبة وظائف الأعضاء، فأسرعت إلى جذب أُنس وهي تلقي كلمات غاضبة ظهرت قسوتها من خلال الملامح المعكرة والصوت المرتفع، واستبدّ بها الحنق ملوّحة بتهديد أظهرت إشاراته أنها ستلقي بأُنس إلى خارج الغرفة.

استدارت مسرعة منادية زميلة لها، اشتركتا معاً في إعادة مبخوت إلى وضعه السابق و لم تكترثا بإعادة هدوء أُنس إلى وضعه السابق. خرجتا وهما ترسلان الكلمات الغاضبة بلغة عربية محطمة فهمت منها أُنس التحذير الزائد من تحريك المريض لأي جهة كانت.

قبل مجيء خليل بدقائق احتل مريض الجهة اليمنى من الغرفة قادماً من العناية المركزة الرئيسة بعد إجراء عملية قلب مفتوح ناجحة أجراها له الطبيب المعالج لمبخوت.

فتوافد ذووه للتهنئة، وغصت الغرفة بالرجال والنساء ما أشعر أُنس بالمحاصرة وأبقاها حبيسة مكانها، و لم تستطع إجابة صوت ارتفع منادياً:

– يا مبخوت... يا مبخوت.

وتلاشى الصوت وسط أصوات المهنئين المتزاحمين على مدخل الغرفة ووسطها، مخلفين ضوضاء انتشرت في فضاء الغرفة كغبار حجب الرؤية. لمحت أُنس تكاثرهم من خلال الستارة المحيطة بالجهة القابعة بها مترقبة أي إشارة تصدر من مبخوت لتلبيتها أو لطمأنتها على حالته.

سبقت الممرضة خطوات رجل وقف خلف الستارة مستأذناً في الدخول لإلقاء نظرة على مبخوت، رافعاً صوته بتحية ومنحنياً لتقبيل جبهة مبخوت، مطلقاً جملاً انحصرت في أمنيات الشفاء العاجل فيما كانت أُنس تتكوّم داخل عباءة مهترئة، وحين لم تجد غطاء وجهها بجوارها وضعت على وجهها ملاءة وسادتها بعد أن انتزعتها على عجل.

- سعيد برؤيتك...

بصعوبة بالغة خرجت الجملة من حنجرة مبخوت وقد ترشحت أنفاسه على خرطوم الأكسيجين المثبت على فمه وأنفه وهو يقبض على أنامل خليل بتودّد:

- ستكون حالك أفضل، هكذا سمعت من طبيبك...

وتنحّى معطياً أُنس ظهره داعياً للمريض بالشفاء العاجل، ومرحباً وعارضاً عليها الانتقال إلى بيت ابنته ومبدياً استعداده لمرافقة مبخوت ومع اعتذارها بحجة أنها لا تقدر على الغياب عن مريضها لأي سبب من الأسباب وجد نفسه يختلق أقوالاً متفائلة - على لسان الطبيب المعالج - عن حالة مبخوت ونثرها على مسامعها. أقواله مكنت مبخوت من توليد ابتسامة واسعة استبشرت لها أُنس بمشاعر مختلطة من الارتباك والشعور بالأمان لوجود شخص ينير لها غربتها ويضمّد جزعها:

- الله يبشرك بالخير، فمنذ أن جئنا وأنا لا أعرف عن حالته شيئاً سوى أن الرصاصة لم يتم إخراجها بسبب تماسها مع القلب...

هذه المعلومة عطلت الكلمات المتسارعة من فم خليل وجعلته يتريّث عما كان عليه من تفاؤل مفرط، منتقلاً إلى أسلوب آخر أظهر فيه التريّث بدلاً من الاندفاع:

- لا عليك، اطمئني سوف أواصل استفساري عما يجب فعله حتى لو اقتضى الأمر نقله إلى مستشفى آخر.

كانت المعلومات التي تلقاها مباشرة من الطبيب المعالج تشير إلى الحالة الحرجة التي وصل إليها صديقه، وخطورة انتقاله من مكانه

لأي جهة أخرى خشية تحرك الرصاصة من موقعها واختراق غشاء القلب، إضافة إلى أن الفحوصات أظهرت مرضاً تفشى بجسد المريض، وأنهى وصيته بالإكثار من الدعاء وانتظار معجزة.

- إذاً لماذا أُخرج من العناية المركزة إن كانت حالته لا تزال في خطر؟

- هذا قرار إدارة المستشفى. يمكنك الاستفسار عن هذا الأمر في مكتب الخدمات...

وقف يستشيط غضباً في مكتب العلاقات العامة للمرضى لأن أحد موظفيها مرّر له معلومة أن المريض نُقل من العناية المركزة لإحلال مريض آخر توسطت له إحدى موظفات المستشفى، وأوصاه بعدم السكوت عن هذا التلاعب وحرّضه على إيصال شكواه لوزير الصحة مظهراً استعداداً متقدّماً لتزويده بكل الإثباتات مع اشتراط أن لا يشير إليه من قريب أو بعيد.

أرجع خليل الشكوى إلى حين يطمئن على صديقه، متلمساً شخصاً يمكن من خلاله إعادة مبخوت إلى العناية المركزة والاهتمام بحالته بصورة أفضل، فأجرى مهاتفة بابنه ياسر يطلب منه الاستعانة بمن يعرف من أجل التوسّط لعودة عمّه مبخوت إلى العناية الفائقة، فوعده بمعاودة الاتصال حالما يصل إلى معرفة شخص بعينه كي يحدثه، ولم يغلق جواله إلا بعد أن أكد عليه:

- الوقت عجل في مروره والخطر يهدّد بمداهمته. ردّ عليّ سريعاً وأنا من هنا سأبحث بدوري.

كان يسير داخل ممرات المستشفى متفحّصاً وجوه الموظفين

والأطباء والممرضات لعله يلمح وجهاً يعرفه كي يطلب منه تلك الخدمة الملحة، تنقل إلى مواقع مختلفة من المستشفى، واستعصى عليه دخول كثير من مكاتب الموظفين. كان يتفرّس ملامح موظفي استقبال المرضى، والتقارير، والمواعيد، والحرس الخاص، فيجد وجوهاً ذابلة لا تقدر على إنارة نفسها...

عن بعد لمح ياسين يقود عمّه باتجاه البوابة الخارجية ورغب في أن يلحق به كي يطمئن على صحة أخت جابر فقد سمع أنها أجرت عملية جراحية إلا أن انشراح صدر أحد الموظفين لاستقبال استفساره حال دون اللحاق بهما.

لم يزوّده ابنه ياسر بشخص يلجأ إليه، وظل يومين يحوم بين المعارف والأصدقاء لعل أحدهم يوصله بمن يستطيع التأثير على إدارة المستشفى وإعادة مبخوت إلى العناية الفائقة. حام كطائر ضال يقف هنا ويحلق هناك وخشيته تتعاظم من سقوط كل محاولاته قبل أن يمد يد العون لصديقه.

هذه الخشية نقلها إلى أُنس في زيارته التالية، فأخبرته أن امرأة تعمل بالمستشفى أظهرت استعداداً لمساعدتها في أيّ أمر تطلبه إلا أن خليل قلّل من شأن تلك المرأة قائلاً:

– هذه المرأة ستعينك في زيادة الوجبات أو منحك وسائد إضافية. نحن بحاجة إلى شخصية كبيرة تعيده إلى العناية المركزة أو تنقله إلى المستشفى التخصّصي بالرياض.

أمضى ستة أيام طارقاً باب كل من توسّم فيه العون من أجل قضاء حاجته، وفي كل مرة يعود خائباً من غير الوصول إلى نتيجة مرضية،

وقد تحوّل هاجسه إلى صداع أتعب به ابنه ياسر وأهل بيته.

عادت زوجته من ضحوية قضتها مع جاراتها في بيت خيرية مبارك ناقلة له خبر خروج أخت جابر من المستشفى وما حظيت به من عناية فائقة بسبب وجود زوجة أخيها في المستشفى وأشارت إليه بأن يجرّب الاستعانة بفتون:

– أنت تعرفين مدى كرهي لسلوك هذه المرأة فلا تذكريها مرة أخرى.

أحست أنها ارتكبت خطأ فادحاً حين أشارت له بالاستعانة بفتون فهي تمثل الوحل الذي لا يطيق زوجها عبوره، وكثيراً ما عاد إلى المنزل يتشقق غضباً من رؤيتها سائرة أو قادمة من دراسة أو عمل أو فرح.

– عمى زوجها جعل خطواتها عمياء.

هكذا كان يبدّد غضبه ويردفه بالاستغفار والدعاء أن يستر الله أعراض المسلمين.

كم كره الاستعانة بزوجة جابر التي يصفها بالمرأة الخسئة إلا أن حاجته تعبر من خلالها، فقد سمع عن مقدرتها على هز المستشفى متى ما أرادت تنفيذ أمر يخصّها، وآخرون وصفوها بالكرت الرابح الذي يعبر به إلى أي جهة يشاء حتى لو أراد طائرة الإخلاء الطبي أو علاجه خارج البلد، أذعن لعبور وحلها لأجل خاطر صديقه.

لم يتوقع خليل أن بمقدور فتون فعل كل ذلك، وتعزز يقينه حين سأل عنها في المستشفى، وكل واحد ممن سأله يخبره أن معرفتها تفتح له باب السعد.

لم يشأ أن يقصدها مباشرة واحتار في مفاتحة جابر خشية من إحياء حكايات تناثرت منذ زمن عن عشقها لمبخوت واتهامه بفض بكارتها وهي لا تزال طفلة.

حزم أمره على الاستعانة بفتون مباشرة من غير المرور على زوجها كي لا يثير حفيظته إن كان على دراية.

وطاف بباله سؤال: كيف لو أنها امتنعت عن مساعدة مبخوت؟

هذا السؤال تشجرت منه أغصان أسئلة حائرة:

- هل ما زالت تذكر ما فعله بها في طفولتها؟

- وهل صدقٌ ما تتناقله النساء بأن زواجها بجابر جاء نتيجة لفقد بكارتها على يد مبخوت؟

وهل ما أشيع عن بحثها عنه هو بحث من أجل الانتقام؟

أسئلة عديدة مشوشة وقفت في بال خليل، وكاد يفاتح زوجته بها لولا شعوره بأنه سيهتك اعتداده بنفسه وسيقلل من هيبته أمامها، فأمسك عن الحديث وقرر مفاتحة فتون وليكن ما يكون.

فوق سرير طبي كان مبخوت يسابق خطوات صديقه خليل صوب الغياب. استسلم للفقد؛ كل يوم يفقد شيئاً من صلابته وقوة احتماله حتى نظرته المترقرقة بدموعها تخلى عنها، مفضّلاً إطباق جفنيه كي لا يرى قلق وحيرة أُنس الحائمة حول نفسه والجاذبة لبقائه في موقع يحاول أن لا ينزلق منه إلى هاوية المجهول. في البدء ظن أنه هو من يغمض جفنيه حتى إذا أراد مسح ما يجول حوله بضوء عينيه عجز وظل جفناه مطبقين كواجهة قبر قديم.

مضى الليل ثقيلاً يحمل صمت القبور الموحشة، ليس به من

متحرك سوى أصوات تلك الأجهزة، أو طرق نعال الممرضات المنبهات لهدأة الليل، وتعالي أنين مريض - يشارك مبخُوت نفس الغرفة - يئز كإزميل نشط لثقب جدار الليل... تتنقل أنس حول سريره باحثة عن عينيه وخاطرها يحصي عدد من غيّبهم الفقد:

- كل من أسكنتهم داخلي يهجرون سكناهم ويتركون قلبي خاوياً ينده عليهم فلا يجيبون...

أخذتها الحسرة بعيداً وهي تتابع صور من رحل عنها، أبوها وأمها وحفصة وإسماعيل، وتجاهد لإيقاف استكمال تصور رحيل مبخوت عنها بالتعوّذ وتلاوة الآيات والأذكار هرباً من خيالات الفقد المتسارعة، مرات عديدة سألت نفسها:

- ما الذي يمكن فعله؟

وتعود إلى راهنها لا تحمل أي وسيلة تبقيه كهواء تستنشقه ولا تعرف سوى أنه موجود في كل مكان. انتظرت انفراج جفنيه منذ ثلاث ليال كانت آخر جملة قالها لها:

- أول ما تأخذ من الدنيا شهقة هواء وأول ما تتركه من الدنيا زفير هواء. هذا هو العدل؛ إعادة ما أخذت.

انثت عليه في رقدته تتحسّس أنفاسه تاركة تتابع صور الفقد تحرث مخيّلتها، ومبقية على أمل إخفاق ظنونها. تكرّرت انثناءتها لعل أنفاسه تلفح وجهها فتفيق من تهدمها. خذلتها الأجهزة المشبوك بها من استبيان إلى أي حد وصل وفاؤه بتسليم زفراته لتحقيق العدالة.

تماس يدها بجلده لذع مكامن الوجع وأشعل سيرة الفقد، كان جسده يتلظى بحمى تعرفها جيداً، وسهرت ليالي على رأس أمها

تحاول إطفاءها بقطع الثلج. كانت الحمّى شرهة تنهب تماسك الثلج وروح أمها، ومع ذوبان الثلج ذابت روح أمها وفاضت من صحن صدرها.

مررت يدها على جسده فوجدت آفة الحمى تنهش كل بدنه. ندمت أنها لم تأخذ من أبيها أي خبرة علاجية، تحسّرت وهي تلمح مبخوت يذوي كوردة قطفت مبكراً وليس أمامها سوى الجلوس والانتظار، فمنذ يومين لم يزره طبيبه المعالج، وفي آخر مرة أمر بإعطائه أدوية لتخفيف آلامه. عرفت هذا حينما توسّلت إلى ممرضة مصرية استدعاء طبيبه من أجل رؤيته بسبب غيبوبته الملازمة له من يومين، فقابلتها بلهجة مستفزة:

- طبيبه أمر بإعطائه أدوية تخفف ألمه فقط ولا يملك شيئاً غير هذا.

أرعبتها جملة الممرضة ففيها إشارة إلى أن طبيبه المعالج رفع يده عنه، وثبت هذا الرعب ما يحمله خليل في عيادته المتكررة من وعود بإعادته إلى العناية المركزة ولا يحدث شيء إلا إشارة لخبر لا تعلمه.

فتشت محتويات كيس استقر بجوار سرير مبخوت بحثاً عن الرقم الذي تركته لها تلك المرأة التي طلبت منها الاتصال بها عند حاجتها للمساعدة. تعاونت معها إحدى الممرضات في إجراء اتصال على الرقم الداخلي (4242) من خلال تلفون كبينة الممرضات فاتحتها ممرضة بأن صاحبة الرقم المطلوب شخصية نافذة وأخبرتها باسمها إن فكرت بالذهاب إلى مكتبها، إذا تعذر الوصول إليها عبر الهاتف. رضيت أُنس بتنفيذ تلك النصيحة إن لم يفلح اتصالها الأخير. غرست سماعة الهاتف في أذنها فبقي صدى ممتداً بتقطع متساوٍ من غير أن

تجد رداً من الطرف الآخر، وضعت السماعة في مكانها وعادت إلى جوار سريره تهمس له:

- افتح عينيك... أرجوك افتحهما، لا ترعبني.

سعت بين سريره وكبينة المرضى لإجراء مهاتفة بتلك التوصيلة لعلها تجد سنداً من تلك المرأة ذات العينين البراقتين. تلصق السماعة بأذنها متقبّلة رنين جرس في مكان ما ومؤملة أن يستبدل رنينه باستجابة. فعلها المتكرر لم يجد أي إجابة.

ترقبها لتلك الاستجابة قابله انتظار آخر كان يمارسه خليل أمام بوابة مكتب فتون بعد أن زودته سكرتيرتها بخبر غيابها في اجتماع يعقد في صالة اجتماعات الإدارة ومعلنة له أن ذلك الاجتماع لن ينتهي قبل الساعة الواحدة ظهراً. مكوثه الطويل وتجاوز الساعة الواحدة ولد حالة ضجر كانت تصل زفراتها إلى مسامع السكرتيرة المنكبة على مراجعة ملفات عديدة رصّت بعضها فوق بعض غير آبهة بتأففه أو بعينيه اللتين ترقبانها بنفاد صبر وتأفف واضحين:

- الآن الواحدة والنصف...

هلت بباله جمل غيظ رغب في دلقها على مسامع السكرتيرة مفادها:

- إن النساء ليس لهن إلا الفراش وما عدا ذلك فهو تبجّح على الخليقة.

تردّد كثيراً في قول ما فكر به مرجحاً أن جملته الطائفة بمخيّلته هي أشبه باستدارة مفتاح الصنبور التي تمنع تدفق الماء...

فاكتفى بالتنبيه على أن الوقت المضروب لعودة فتون تجاوز وقته،

وبعد أن نهض مراراً، وعاد إلى كرسيه مراراً، وتأفف عشرات المرات، لم يجد جواباً حيال جملته، فنهض مظهراً رغبة جادة في إيذاء تجاهل تلك السكرتيرة له وكان راغباً في دلق كلمات حارقة، وقبل أن يفعل ذلك بلحظات دخلت فتون إلى مكتبها عبر مكتب سكرتيرتها عجلة من غير أن تنظر يميناً أو شمالاً فخفف توتره، وأراد اللحاق بها، فاستوقفته السكرتيرة برجاء حار طالبة منه التريّث ريثما يُسمح له بالدخول...

عاد إلى كرسيه بحرقة مضاعفة يلعن جميع النساء في مخيلته ويعيب على الزمان تقلباته التي جعلت من امرأة مثل فتون تخضعه لانتظار مقدمها، ليس هذا فحسب بل تمتلك مقدرة لا يمتلكها آلاف الرجال...

فرك يديه وطقطق أصابعه، ورفع شاله، وانشغل بإحصاء الكراسي والسجاجيد والملفات القابعة على مكتب السكرتيرة والصور المعلقة على الحيطان والمصابيح الكهربائية ومفاتيحها، ولم يعد أمامه إلا الانفجار غيظاً وغضباً...

هوّنت السكرتيرة نفاد صبره بوعد الدخول على فتون لكونها أشعرتها بوجوده، تململ في وقفته وهو يلمح السكرتيرة تتجه إلى خارج مكتبها بعكس وعدها له فصوّب خطواته إلى داخل مكتب فتون عجلاً.

كان رنين أحد التلفونات المستقرة على مكتب فتون يرن بإصرار متواصل، ومع رفعها لسماعته احتاجت إلى بعض الوقت لمعرفة المتحدثة التي سكبت تحيتها عبر سماعة الهاتف ترجوها التشفع

لزوجها كي يعاد إلى العناية المركزة أو فعل أي شيء لإيقاف تدهور حالته. بصعوبة تذكرت موقفها مع امرأة جنوبية أظهرت استعدادها لمساعدتها...

وقف خليل على رأسها متفحصاً هيئتها مسبلاً يديه بتراخٍ ومنتظراً بفارغ الصبر انتهاءها من مكالمتها:

– للأسف العناية ليس بها سرير شاغر البتة.

– ....

– أعدك أن أحاول، عاودي الاتصال غداً ويكون خيراً إن شاء الله.

قبل أن ترفع رأسها صوب ذلك الصنم الواقف على هامتها كان قد طفر من مكانه:

– ربما لا تعرفينني... أنا جاركم أبو ياسر خليل المسلكي.

فرّت من كرسيها مرحبة بجمل لم يتوقع بتاتاً أن تقال له في يوم من الأيام فهاجمه الحياء كقطعة سكر رشت بماء تجاوز درجة الغليان بتبخر كثيف...

ذوى في مكانه ماسحاً عرق خجله وهي ما زالت تسهب ترحيباً به وتدعوه بإلحاح أن يجلس مع استدعاء مديرة مكتبها وتأنيبها تأنيباً مفرطاً في تركه ينتظرها كل هذا الوقت:

– لماذا لم تستدعيني بواسطة رقمي الداخلي.

– لم أكن أعلم...

قاطعتها معنفة:

– لا تتركي أحداً ينتظرني كل هذا الوقت بعد الآن.

والتفتت إلى خليل:

– هل ترغب في تناول مشروب بارد أم ساخن؟
موقفها منه لجم الكلمات واستبدّت به حالة تأنيب لما اختزن لها من نعوت:
– لي طلب عندك.
– لك ما تشاء يا أبا ياسر...
– صديقي بل أخي كان في العناية المركزة وأُخرج منها وهو في حالة خطرة، وجئت لتساعدينا...
– ما هي قصة العناية المركزة هذه، الكل يطالب بها؟
قالت جملتها ضاحكة وأطلقت وعداً جازماً بإعادة صديقه إليها حتى لو أخرجت كل من بالعناية المركزة:
أخبرني عن اسمه ورقم ملفه ولن تغادر مكانك إلا وهو تحت الإشراف الطبي الكامل ...
وتناولت ورقة لتسجيل المعلومات، فداهمه الارتباك والحيرة خشية من أن ذكر اسمه يعيد إليها ذكريات تلك الطفولة فتمتنع عن مساعدته. كان سؤالها يلح عن اسمه ورقم ملفه:
– أنت تعرفينه تماماً.
– من يكون؟
وحين خرج اسم مبخوت من بين شفتيه صعقت بصرخة عميقة:
– مبخوت هنا؟
صرختها تلك جعلته يقسم إنها ستقطعه بأسنانها، فلحق بها وهي تثب وثباً للوصول إلى غرفة مبخوت.

18

كلما غاب أبي فزّت جدتي من موقعها متوجّسة من شر قد أصابه، مشرعة قلقها ودعاءها (دائماً) أن لا يريها الله فيه مكروهاً. كانت أمي تخفف من جزعها وتصمها بالباحثة عن مصيبة لتصريف الدموع الرخيصة المحجوزة بين جفنيها، فتقابلها بجملتها:

– أيّ حب يفقد ميزة الاستشعار لا يعوّل عليه.

كان ردّ أبي عليها مزيجاً من الاستهجان والسخرية:

– استشعار... استشعار، ايه هل غدوت صرصوراً؟

فأطلقت أمي ضحكتها المستهجنة لا تأييداً لأبي بل إغاظة لجدتي التي لملمت جملتها وكأنها تحدثني:

– الحب أن تظل مربوطاً بمن تحب حتى وإن غاب، فكلاكما متصل بوليفه وإن شعرت بما يهيج خوفك فحبيبك في حالة قلقة ومتى لم تشعر فقد تعطل ما بينكما من اتصال...

وتناولت مشطاً خشبياً جرى بين خصلات شعرها المحمر بفعل الحناء:

– أجزم بأن أمك لم تحب أباك مطلقاً.

في كل مرة تتوجّس فيها جدتي من شيء أصاب أبي يخبرها حين يعود بأن إحساسها كان صادقاً ويؤكد لها أنه مر بحالة جزع، فتجد جدتي في تأكيده دليلاً على استشعارها بما يمر به ابنها.

كانت تحس بما يلمّ به حتى لو توزّعت أطرافه في الاتجاهات الأربعة. هذه الجدة كلما خطرت بالبال وجدت أني أحبها كثيراً، هي

الوحيدة التي تربطني بأهلي، وبعد رحيلها لم يعد لأيّ منهم جذر مغروس في تربة قلبي. اجتثثت عروق منابتهم وبذرت في مواقعها مبخوت، ففسقت بذوره وغدا هو كل الناس، وما لهفتي عليه إلا لهفة الفاقد لكل أهله.

مبخوت هنا يا جدة، و لم أستشعر بزفرات رئتيه، فهل حبّي له لا يعوّل عليه؟

هذا أول طارئ تبادر إلى ذهني حينما علمت بخبر مبخوت، فقد حزمت حقائبي استعداداً للسفر إلى جازان بعد أن أجريت اتصالات عديدة كي أكون ضمن مجموعة انتدبت لمعاينة مستشفيي جازان وأبو عريش واختبار كفاءتهما في استقبال الأعداد المتزايدة من جرحى ومصابي حرب التطهير كما سُمّيت، وقد سعيت لأن أكون ضمن اللجنة كي أعاود البحث عن مبخوت لعله عاد من اليمن بعد هذه النيران المستعرة.

كنت قد تحرّرت من الاقتران بياسين في ذهابي وإيابي، واستشعرت بحرية الحركة، فعملي حرّرني كثيراً من سطوة قيود جابر والمجتمع أيضاً.

كان بيني وبين الرحيل إلى جازان إنهاء مقابلتي مع خليل المسلكي الذي وقف على مكتبي من ساعات منتظراً منّي التوسّط في إعادة صديقه إلى العناية المركزة، وأنا التي سعيت لإخراج أي مريض يخضع للعناية الفائقة مقابل مكالمة تلقيتها من الدكتور منصور المجرد مقابل إدخال خالته إلى العناية بالرغم من كونها لا تحتاج إلى أن تكون تحت الرعاية الكاملة ويكفي متابعة حالتها بتثبيت جهاز على مدار الأربع

والعشرين ساعة لمراقبة نبضات القلب المختلة لديها والتي تعاني منها منذ وقت مبكر وحالتها لا تمثل خطراً داهماً...

هاتفت المشرف على العناية مبدية رغبتي في نقل خالة الدكتور المجرد إلى العناية فأبدى غلظة حيال طلبي، فأجريت مكالمة بهشام ظاهر مدير المستشفى الذي طلب إمهاله خمس دقائق ريثما يرد عليّ، وبعدها أعدت المهاتفة بالمشرف على العناية فأخبرني أن ثمة قروياً قادماً من جازان يرقد مع رصاصة تجاور قلبه ويمكن التضحية به ليومين أو ثلاثة ريثما تتم العناية بالسيدة التي أرغب في إدخالها إلى هناك...

ارتضيت بمقترحه مع توصيتي بنقل ذلك القروي إلى غرف الملاحظة كي يتخفف المشرف من وخز ضميره ريثما تتعافى مريضتي.

يا لهذه الأقدار حينما تجدل مصائرنا بفعل نرتكبه. أي حدث هذا ساقني لأن أتسبّب بإبعاد مبخوت عن الحياة، وأنا التي أحيا به.

كان أحبّاؤه يبحثون له عن منفذ يهربون به من الغياب، وأنا التي بحثت عنه كل عمري فتحت له منفذاً للابتعاد.

في اللحظة التي وقف خليل المسلكي عليّ في مكتبي طالباً مساعدتي في نقل صديقه إلى قسم العناية، كان هاتف تحويلتي يرن بإلحاح متواصل، ولانتظاري إعلان حجوزات رحلتي القادمة إلى جازان التي كلف بإنجازها مدير العلاقات العامة بالمستشفى ظننت أن إلحاح توصيلتي في رنينها قادم من مكتبه، فرفعت السماعة لأجد على الطرف الآخر صوتاً متهاوياً:

– أنت فتون؟

استقبلت السؤال باستهجان لأن المتصلة تذكر اسمي خالياً من مفردات التبجيل والتفخيم، ما أحدث في داخلي حالة رفض لأي طلب يصدر من صاحبة الصوت التي عاودت الاستفسار عن شخصيتي بنفس الطريقة وبضيق طفح مع زفرات حارة أجبتها:

– نعم أنا فتون، من تكونين؟

– أنا المرأة التي أعطيتني رقمك وطلبتِ مني الاتصال بك لو احتجت لأي شيء؟

– اتصلي بي في وقت لاحق.

هكذا أجبتها، وبصلف القادرين زفرت في مسامعها:

– وقتي لا يسعفني الآن لأن أستمع إلى طلبك، اتصلي في وقت لاحق.

وأنهيت مكالمتها بوضع سماعة الهاتف في موضعها وهي لا تزال تعلق رجاءها بأن الوقت ليس كافياً لأن تنتظر أو تعاود اتصالها المتكرر كما أخبرتني، فأضفت إلى صلفي صلفاً آخر مظهرة أهميتي وأني لست في مكان يسمح باستقبال التوسّلات. أظن أن سحنتها تهاوت أكثر مما رأيتها سابقاً... أظن ذلك... فقد تزاحمت الحشرجات في صوتها وهي تنتظر أن أرق.

انتهاء المكالمة بتلك الصورة أبقى وخزات داخلية غمرتني بعدم الرضى، فأنا التي عرضت عليها المساعدة، كما أن خيالات القرويات التهاميات اللاتي استقبلنني في كل قرية وصلتها فارت من مخيّلتي تعيب استقبالي لإحداهن حين احتاجت إليّ، ونهض مبخوت من أعماقي هامساً:

- الحب أن تحب كل أثر لحبيبك...

لومي الداخلي انبسط معنفاً تصرفي يغذيه خاطر لم يجف من ذكرى النساء التهاميات وقبلها، يكفي تلك المرأة أنها قادمة من جهة كان وتنفس فيها مبخوت. هكذا لمت نفسي، وقررت أن أصل إلى غرفتها وأرى ما الذي تحتاج إليه وأقدم لها اعتذاري، كما قرّرت أن يعاد ذلك القروي إلى العناية.

كنت عازمة على تنفيذ القرارين كي يقف جريان اللوم الذي اجتاحني. انتظرت انتهاء محادثتي مع خليل المسلكي وتلفظه طالباً المساعدة. أضفت طلبه كواجب عليّ تنفيذه محدثة نفسي بأن ثلاثة واجبات عليّ إنهاؤها قبل مغادرتي إلى جازان وتناولت ورقة لتسجيل معلومات عن المريض الذي يتشفع له جارنا خليل المسلكي. استثارني قبل أن ينطق:

- أنت تعرفينه تماماً.

- من يكون؟

- مبخوت.

قفزت صارخة:

- مبخوت هنا؟!

وجدت نفسي أركض إلى قسم التنويم لمعرفة أين يرقد مع تمنع خليل عن ذكر رقم غرفته. كنت ملتاعة لا أعرف ما الذي أفعله سوى الركض في ممرات المستشفى وأنفاس خليل المتقطعة تتبعني:

- يا بنت الناس توقفي وانسي ما مضى...

19

لحقت به. كان صدره لا يتسع لرأسين باكيين...

سبقت لهاث خليل المسلكي وهو يصيح بي:

– ارحمي عجزه.

بين ممرات المستشفى أتقافز مثقلة باللوم ومحلقة بشوقي ولهفتي. هرولتي تلك اجتذبت انتباه الموظفين. لاحقتني العيون الفارغة تبحث عن امتلاء تتلهّى به وأبدى بعضها استعداداً لمساعدتي إن رغبت في ذلك.

هرولتي أسقطت جبروت مشيتي المتغنجة وتابعتني الأصوات متسائلة عمّا ألّم بي. لم أكن في مثل حالتي تلك من قبل. وجيب القلب يتعالى وكل السنوات الغابرة تهل أوراق أيامها وذكرياتها. كل شيء فيّ يتساقط لهفة للقياه.

لأول مرة أكتشف أن ممرات المستشفى طويلة وملتوية ومضللة. وصلت إلى قسم العناية المركزة لاهثة أزفر نفساً تقطع. كان عليّ استرجاع أنفاسي المتلاحقة، إلا أن دفقات الشوق بلغت شواطئها وفاضت على جنبات الروح. تحرّكت إلى كبينة الممرضات سائلة عن الغرفة التي يرقد بها وجدت إشارة الممرضة تشير إلى الغرفة المقابلة لتوقفي مباشرة.

مبخوت.

اسم له تفرّده كما تفرّد بحياتي. لم أحتج إلى اسم أبيه في سؤالي، وعلى عجل دفعت باباً موارباً وألقيت ببصري في غرفة تجاور فيها

سريران أحداهما شاغر غادر صاحبه الحياة للتو (كما علمت لاحقاً)، والآخر يستعد للحاق به. سرير محاط بطبيب وممرضة وتلك القروية لم تستقر على حال، فهي تتنقل على حافات جنبات السرير وقد أسلمت عينيها لدمع فصيح.

كان الطبيب مشغولاً بجس نبضات مريضه، وقراءة ما تبثّه الأجهزة الطبية المثبتة في الجسد المسجّى أمامه مع مقارنتها بالملف الطبي الذي تناوله من الممرضة.

فوجئ الطبيب بانقضاضي وتراشق استفساراتي عن مريضه فقابل تدفق أسئلتي بسؤال ثقب روحي:

– هل هو من أقاربك أستاذة فتون؟

– هو كل دنيتي يا دكتور.

إجابتي تلك قابلتها المرأة القروية باتساع حدقتي عينيها فتمكنت من إزاحة خطي دمع جريا من غير انتظام بطرحتها الخفيفة التي تظهر ملاحتها واتساع عينيها السوداوين الباحثتين عن أمان، تقف جزعة تلملم نفسها في عباءة حائلة وترمق وقوفي على رأس مبخوت باستغراب:

– هو كل دنيتك؟ كيف؟ لقد تعبت وأنا أتصل بك.

– لم أكن أعلم يا خالة عمّن تتحدثين؟

جذبت أنس طرحتها الفاقدة لموقعها بسبب سحبها الدائم لها واستخدامها كمنديل تزيح به ما يخرج من أنفها وعينيها. صوتها الخفيض تسلل منه سؤال واهن:

– أتعرفينه؟

لم تجد جواباً عن سؤالها فقد تابعت تنقل فتون واتصالاتها وهي تحرّض الطبيب على بذل أقصى جهد، فأظهر اهتماماً مضاعفاً مستدعياً ممرضة أخرى، سبقها مجيء خليل المسلكي يمسك على لهاثه بصعوبة:

– ارحمي عجزه.

ربما صدرت هذه الجملة من فم خليل، فلم أكن أعي في وقفتي تلك إلا تأمّل وجه مبخوت. كنت محظوظة أن ملامحه هربت من شراك السنين وحافظت على بقائها كما عرفتها. أنابيب الأكسيجين جعلت شفتيه أكبر مما هما عليه، وطارت خصلات شيب في مقدّمة رأسه حيث لم تجرؤ على مواصلة طيرانها في غزارة وكثافة شعره. كنت أشتهي انفراج عينيه المغمضتين فتربّصت بهما لعل جفنيه يتخليان عن ستر اتساعهما:

– لو فتح عينيه، فهل سيعرفني؟

طالب الطبيب إحدى الممرضتين بنقله إلى قسم الأشعة لإجراء فحوصات بالرنين المغناطيسي، وعمل أشعة ذرية. فزّ صوت خليل من مكانه متوجساً:

– سوف تتحرّك الرصاصة من موقعها يا دكتور.

حدجه الطبيب بنظرة فوقية وانسحب إلى خارج الغرفة واستجابت الممرضتان لأمره. إحداهما تحدثت بكلمات مكسّرة عن عودتها لاحقاً من أجل نقل المريض إلى قسم الأشعة، وتراجع خليل المسلكي إلى خارج الغرفة، فخطوت نحو سريره. أزحت نقابي، ونثرت شعري وانكفأت على سريره متشمّمة ومقبلة رأسه وظللت

أهمس في أذنه بكل ما حملته من شوق إليه. فعلي هذا قابلته تلك القروية بالنظر ويبدو أن كلماتها تحجّرت بين فكّيها فلم تجد شيئاً تقوله سوى متابعة ما أفعله صامتة.

أحسست بيده تقبض على يدي ومن بين أنفاسه الثقيلة جاد بجملة ردّدها بوهن:

– قلت لك: أول ما تأخذه من الدنيا شهقة هواء وأول ما تتركه من الدنيا زفير هواء. هذا هو العدل، إعادة ما أخذت.

– العدل أن تأخذني معك.

لا أعرف أيّنا نطق بهذا الرد.

فزت تلك القروية من مكانها فرحة:

– هذه أول مرة ينطق، الحمد لله فاق من غيبوبته.

جملته تلك لم يصدق فيها، فقد أخذ روحي منذ الطفولة و لم يعدها بتاتاً، وها هو راغب في الخروج من غير أن يعيدني إلى ذاتي.

تمنيت أن يبقى قابضاً على يدي وأن يقول ما يشاء إلا أن تلك القروية سحبتني إليها فرحة وتقدّمت إليه:

– من أيام لم تنبس شفتاه بكلمة.

انكفأت تقبّل يديه وترجوه أن يُسمعها صوته. لم تقوّم عود جسدها إلا مع قدوم ممرضتين سحبتا سريره ودفعتاه إلى خارج الغرفة.

ثمة صياح خارج الغرفة يبدو أن خليل افتعله، وواصل صراخه مع خروج الممرضتين اللتين نقلتا مبخوت بعناية فائقة.

بقيت أنا وتلك القروية متواجهتين يشاركنا الدمع وانسكاب النظرات في ما بيننا كمياه جرت من عل وركدت في تلك المسافة

الفاصلة. اجتاحتني صورة مؤنسة بأنفتها وانكسار حاجبيها كإشارة حتمية لحالة الغضب المخزنة في داخلها من غير أن تخفف حدتها.

في ذلك اليوم الذي طرد فيه مبخوت كنت أكثر كرهاً لها وأقل احتمالاً على صد نظراتها النارية، وهذه القروية تحمل عينين باردتين منكسرتين تترقرقان بدمع لم تفلح طرحتها غير المثبتة في تجفيف موقعه. تسحب نظراتها كلما عمّقت بها النظر. كنت في البدء مسحوبة أمامها فإذا بمقاومتها تنهار وتلوذ بالصمت والبكاء.

– هل تزوّجها بعد مؤنسة؟

وهبته كل عمري، ولم يهبني يوماً واحداً، وقد وهب حياته لامرأتين لم تمنحاه ما منحته من حب. هكذا أجزم. هربت في خواطري كثيراً وأفقت على صوتها:

– يا ابنتي لو تنهضي وتطمنينا على الغالي.

فعلاً ما الذي يقيني هنا، كان الأجدر بي أن أرافقه إلى قسم الأشعة. تناولت عباءتي وقبل أن أصلح هندامي، فتح الباب وظهرت الممرضتان تدفعان سريره ومن خلفهما ثلاثة أطباء طلبوا الدخول والتحدث معنا.

اختلطت ملامح الأطباء بالارتباك حيال أيّهم يبدأ حديثه. كان تقدّمي إلى طبيبه المعالج وهزي لقامته المنتصبة عمّا يجري من تجمعهم داخل غرفة مبخوت:

– ما الذي يحدث؟

– نريد أحداً من أقاربه لنحدّثه عن حالة المريض.

– هو كل أهلي، ما الذي تودّون قوله؟

–الدعاء له بحسن الختام.

عمري كله وأنا ادعو الله أن يوصلني إليه، فهل أدعوه الآن أن يعجّل برحيله؟ لا لا لا لا لن أدعو.

* * *

كم مضى من الوقت ونحن نقف على رأسه.

سنة، سنتان.

أسبوع، أسبوعان.

ساعة، ساعتان.

ثانية، ثانيتان.

كم كان زمن كل هذه اللوعة؟

* * *

لم أعد للبيت، مكثت في غرفة مبخوت بعد تفريغها إلا منّي ومن تلك القروية، وتشاركنا في مكوثنا وبكائنا وصمتنا وحيرتنا.

ها هو مبخوت ممدّد أمام ناظريّ كجذع شجرة عود أصيل احترق وفاحت رائحته منتشرة في المكان، تشمّها ولا تمسك بها.

تهدّم مبخوت كبناية عالية فخّخت و لم يُعلن وقت نسفها. هوى دفعة واحدة مثيراً غباراً من الضجيج أثارته تلك القروية الذاوية في لحظة فراق.

كان نحيبها إعلاناً عن اقتراب وداع تيقنت منه عبر تسلل الكلمات من فتحات الأسنان المنفرجة لطبيبه المعالج الذي أظهر

امتلاكه لياقة المتدرب على مثل هذه الأوضاع.

– هي أيام وينتهي.

هززت الطبيب مستحلفة إياه أن لا يقف مكتوف اليدين، وشاركني خليل المسلكي هزّه بالرجاءات أن يجري عملية لإيقاف تقدّم الرصاصة ومنعها من ملامسة شغاف القلب.

– كنا نتابع الرصاصة إلا أن الموت حفر له حفرة أخرى في جسده فقد كان مريضاً بالكبد وقد تشمّع تماماً. لم يعد به مساحة لحياة.

إعلاناً لرحيله، جاد بآخر أنفاسه وأنا أقف من خلف الطبيب الذي وقف يحفز قلباً على أن يعود إلى الحياة، ولو أني قادرة على أن أمنحه حياتي لما تردّدت أو أني أمتلك مقدرة للإمساك بروحه قبل أن يزفرها لفعلت.

لكنه فعلها كتاريخه معي دائماً. مغادر دائماً. وقد غادر و لم يمنحني نظرة واحدة، لم يمسك جديلتي، و لم يعرف أني احتفظت له ببكارتي هديةً له وحده، و لم يسمع عذاباتي. جثّته المسجاة مكنتني من الارتماء على صدره... لم يبعدني أحد بل زاحمتني تلك القروية على اقتسام صدر ضاق بوجهينا وبالأجهزة الطبية المثبتة على صدر غدا كالأرض البور لا يعرف من السنابل إلا ذكريات غابرة أبقتها جذورها المتيبسة. اشتهيت تقبيله. قبلت جبينه ورأسه ويده وصدره وقدمه. كل جزء منه لثمته وأنا غارقة في أدمعي.

لم أكره تلك القروية كما كرهت مؤنسة. تبادر إلى ذهني أنها زوجته فبكاؤها الصامت أكثر انسكاباً من جزعي عليه. طال مكوثنا على صدره و لم أشأ أن أغادر مكاني. كنت أتشمّم رائحته التي ذوت

مع رحيل روحه. نهضت تلك القروية رافعة جسدي عن جثته برفق:

– ادعي له بالرحمة يا بنية.

خليل المسلكي وقف بيننا يكفكف أدمعه ولا يعرف على أيّ منا يخفف المصاب.

رفعت جسدي واحتوتني بين أحضانها وهي تلملم خصلات شعري المنسكبة على جبيني وتهدئ نشيجي المتلاحق بقبلات فرقتها على رأسي وخدّيّ محاولة إمساك أدمعها، وأجلستني في ركن من الغرفة وتحرّكت صوب الجسد المسجّى. قبّلته على رأسه وسحبت الغطاء على وجهه وأقبلت نحوي تضمّني إليها مرة أخرى. كان سؤالها هو البالون الذي ملأ بالهواء الساخن وارتفع رويداً رويداً:

– هل أنت ابنة مؤنسة؟

البريد الإلكتروني للمؤلف

abdookhal2@yahoo.com

بينما يتنفّس البعض الحياةَ دون مذاق، هناك من يكتوي بجحيم الحب، فيرهن العمر لشقاء طويل، ويهمّش الأحداث المهمّة في محيطه، ويحتفل بالذاكرة القصيّة والمرّة، هكذا طيلة سنوات يقطعها بالانكسار والخذلان، وأمله أن يُطفئ شيئاً من سعير الفقد.

إن رواية لوعة الغاوية وهي تصرخ: «من لا يعشقْ يعشْ ميتاً...»، يتنازع حكايتها صوتان يكابدان العشق وكلٌّ ينتظر خلاصاً من دمار وشيك. وكأن هذه اللوعة، في الصوتين، تكشف لنا عن شخوص مُحطّمة أحدها يسافر بحثاً عن العاشقة ولو بالدم، فيما هي تنتظره